جامعة الخرطوم

كلية الدراسات العليا

قسم اللغة العربية

الموازنة بين شعر الخوارج وشعر الشيعة في القرن الأول الهجري

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في الأدب والنقد

إشراف

الدكتور

الحبر يوسف نور الدايم

إعداد الطالب

محمد نافع بن حسن العلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

« وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »

سورة الأنعام الآية « ١٥٣ »

الاهـــــــداء

*) الى من ظل يتطلع الى ثمرة غرسه ، حتى من وراء صفائح الزنزانة · والدي الجليل ·

*) الى من هدتها الأحزان ، وتقاسمت فؤادها الآلام، وتوزعت دموعها المساجيـــــن والمشردين،من فلذات كبدها · والدتي الحنـون ·

*) الى من تحملت نيران الغيرة ، وأنانية الضرة · التى قيدتنى بسطور أسفارهـــا ، وكادت أن تعزلنى عنها وعن أبنائها · فحرمتها قسطا كبيرا من سعادتهـــــا ، زوجتي الغالية ·

شكـــــر وعـــرفـــــــان

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآلـــــه وسلم : " من لا يشكر الناس ، لا يشكر الله " .[1]

فاني لأسجل لأستاذي الفاضل العلامة الدكتور الحبر يوسف نور الدائم شكرا صادقا ، بما أسدى وأرشد وسدد ، وما أعان وعاني وعضد . فجزاه المولى سبحانه خير ما يجزي به عالما مخلصا ، جزاء لا يزال أثره ناميا ، وخيره باقيا .

فان شكرك عندى لا انقضـاء لـــــــه
ما دام بالجزع من لبنان جلمـــــود

والشكر موصول لكل من أسدى الى معروفا فى سبيل انجاز هذه الدراسة ..

---

1) صحيح . تخريج أحاديث مشكاة المصابيح . للشيخ محمد ناصر الدين الألباني . تحت رقم / ٣٠٢٥.
٢) لأبي دهبل الجمحي . الموشح ، ص /٢٤٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لا حول ولا قوة إلا به ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد بن عبدالله ،الذى أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وجاهد فى الله حق الجهاد ، وعلى آله وصحبه ،الذين قاموا معه،وعزروه،ونصروه ، وأخلصوا دينهم لله ، وعلى من اهتدى بهديهم ، وسار على سبيلهم الى يوم الدين ٠
سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم ٠ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين ٠ نعوذ بك من خطل الجنان ، وخطأ اللسان ، ونسألك السداد فى الأمر ، والعزيمة فى الرشد ، والتوفيق لما يرضيك عنا ٠

تصدير

وددت أن أخرج على العرف الذى درج عليه بعض الباحثين فى مثل هذه المقدمات التى تقف معترضة على مدخل الكتاب ، وكأنها قاطع طريق ، تلقف مشاعر الدارسين ، وتضعها فى اطار معدّ ، لتظللها أحكام الكاتب وتوجهاته ، وكم كان ولا يزال لكثير من الباحثين أحكام مرتجلة ومتحيزة ، فرضت نفسها على مثقفينا ردحا من الزمن ، ثم احتطبها ـ ليلاً ـ لفيف من الدارسين الذين لاهم لهم سوى ارضاء أساتذتهم ، ولو على حساب الحقائق الثابتة ٠ ولذا رغبت أن أضع بحثي أمام الدارسين ، وذهنهم خلو من أية مؤثرات خارجية ، أو حتى كلمة استئذان من أحد ٠ يخوضون غماره ، ويجيلون النظر والفكر فيه ، كى يخلصوا الى نتائج منصفة ،وانطباعات هى أقرب للحق من تلك الانطباعات التى تعكس على صفحتها أثر الكلمات، التي يتخذها بعض الباحثين موظف استقبال ، ودليل سياحة على بوابة دراستهم ٠ وبخاصة فى صدر الموضوعات التى تتشعب فيها الأهواء، وتتضارب فيها الآراء ٠ وقد يكون موضوعنا واحدا منها ٠ بل يمكن أن يكون مثالا صارخا على التحيز الذى وقع فيه كثير من المؤرخين والباحثين ، وهم يتحدثون عن تاريخ هاتين الفرقتين وأشعارهما ٠ فمن مطنب فى الثناء ، وآخر

عائب يروم اسقاط النتاج . وفى الحالتين جافوا سبيل الانصاف فى كثير مما ذهبوا اليه من أحكام . والدراسة التى أقدمها أزعم أنها محاولة انصاف ، وكلمة حق أدمتها الأصفاد طويلا . أطلقتها من قيود الأهواء ، بعد أن ظاهرتها بالأدلة التاريخية الموثقة ، التى كادت أن تطمر بركام المفتريات من الأخبار ، وأضحت الحقيقة ملتاعة بينها ، وعضدتها بالشواهد الشعرية التى انتهت الي . وان كنت قد أعرضت عن كل شعر وخبر تفوح منه رائحة الوضع أو الانتحال ، وما كنت فى اختيارى ركابا طريقة الانتقاء العشوائي ، أو الميل النفس ، وانما اخترت منها ما صدق شاهده،وتجرد من الكذب راويه ، ولم يصطدم مع الحقائق الثابتة . وبخاصة أن الموازنة - كما هو معلوم - لائطة بالنقد التطبيقى الذى يعالج النصوص معالجة مباشرة ويثبت الحقائق ، ويترك بعدها الحكم للنقاد .

وقد اخترت هذا القرن الأول الهجرى ، ومنه اخترت شعر الفرقتين - الخوارج والشيعة - لأنهما يمثلان لونا من ألوان الشعر المذهبى ، ويعبران تعبيرا صادقا ، عن البيئة التى ولدا فيها ، والمهاد الفكرى الذى فيه ترعرعا ، والشخصيات التى عبرت عن تصورات كل مذهب منهما . ولأن كثيرا من ومضات التجديد فى الشعر العربى برقت فى اشعارهما ، وكانت ارهاصا لكثير من الاتجاهات الجديدة ،التى استوت على سوقهما فى القرون اللاحقة ، ونسبها أغلب الدارسين الى غيرهم تحيزا. ولا أبرأ نفسى من دوافع أخرى ، قد تكون استجابة لأحداث بدأت على الساحة العربية،وقد تتزاحم فى قادمات الأيام .. وحسبى أنه موضوع تفتقر الى مثله مكتبتنا الأدبية والنقدية ، وحتى التاريخية .

ولقد سرت فى هذه الدراسة وفق الخطة التالية ، التى يتعانق فيها التاريخ - الذى يمثل الوعاء الفكرى ، والمحضن الأساسى لهذه المذاهب،نشأة،ومعتقدا ، وفنا - والشعر الذى هو - فى الأغلب - وليد تلك الأرحام . وكانت فى ثلاثة فصول :

الفصل الأول :- وتحدثت فيه عن الأسباب التى ساعدت على ظهور الفرق الاسلامية بعامة ، والخوارج والشيعة بخاصة . وكانت أسبابا داخلية تتمثل بالتحولات الجديدة

في المجتمع الاسلامي •وبالعصبيات القبلية،والاقليمية ،التي أطلت برأسها ، وبالصراع الذي يدور على الخلافة من وراء جدر أحيانا ، وظاهرا تارة أخرى • وخارجية وفدت مع العناصر الجديدة التي دخلت الاسلام• أو أظهر ذلك بعضها ، من الموتورين والحاقدين

الفصل الثاني: وخصصته بالحديث عن الخوارج "الحرورية" نشأتهم وظهورهم كجماعة، عقب التحكيم في الخلاف الدائر بين علي ومعاوية رضي الله عنهما • وذكرت من الأحداث التاريخية التي تمت لهم بصلة كبيرة • ثم بينت فرقهم ، وسبب نشأتهم ، لأنتقل للحديث عن آرائهم واجتهاداتهم ، وبخاصة في الإمامة ومرتكب الكبيرة• واخترت ثلاثة من شعرائهم " قطري بن الفجاءة ، وعمران بن حطان ، والطرماح بن حكيم " وما تعرضت الا لما يتصل بمسيرة شعرهم ويفسره ، من حياتهم • والخط الذي انتهجه كل منهم •

ثم توقفت طويلا عند الحديث عن شعر الخوارج،وخصائصه الفنية • فذكرت المهاد الفكري له • والأغراض التي تناولها شعراؤهم • وكيف تحولت على أيديهم الى أغراض تخدم مذهبهم ، وما خصائص كل غرض ، وما نصيب التقليدية والمذهبية ؟ وما الدوافع للقول فيه ؟ لأخلص الى الدراسة الفنية، التي كانت في اتجاهين ، اتجاه الشكل - بناء القصيدة - واتجاه المضمون " لفظا ومعنى وبلاغة وأوزانا " •

الفصل الثالث : وسرت فيه وفق الخطة التي انتهجتها في دراسة الخوارج • فافتتحته بالحديث عن نشأة هذه الفرقة ، ورددت الآراء التي تجعلهم معاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم • وبينت تاريخ ميلادهم الحقيقي ، وفرقت بين المعتدلين والغلاة منهم ، وكيف سارا بخط مواز تاريخيا • لأوضح آراءهم في الإمامة حيث النص والوصية والعصمة • وفي الرجعة والتقية والمهدي والبداء ، واجتهاداتهم في هذه القضايا الهامة •

ثم حبست طويلا الحديث عند ثلاثة من شعرائهم • وحاولت أن يكون كل واحد عينة من فرقة من فرقهم ، فأبو الأسود يمثل المحبة الايمانية لعلي وآل بيته ، وكثير يمثل الكيسانية ، والكميت يمثل الروافض ، وليس الزيدية كما ذهب بعض الباحثين • وتوقفت على جوانب من حياة كل شاعر ، وفنه ،وما اشتهر به في ميدان الفكر والشعر والسلوك •

وانتقلت بعدها الى شعر الشيعة ، وأطلت الحديث عن موضوعاته ،وحظها من التقليد ونصيبها من التجديد •• ومدى صدق قائلها ، والتزامه بمذهبه ، وموقفه من خصوم أمته ، لأنتهي الى الحديث عن بناء القصيدة عند الشيعة شكلا ومضمونا •

وما القديم والجديد في المعاني والألفاظ والصور والأوزان ، وما الذى يمكن أن نسجله في صفحة الابداع •

ثم أعلنت عن نهاية الرحلة بكلمة قصيرة أوجزت فيها مضمون البحث ونتائجه ••

فان وفقت في ما قصدت اليه ، ونال رضى أساتذتي ، فالفضل لله تعالى أولا، ثم لأستاذي الدكتور الحبر يوسف نور الدائم • وإن كانت الأخرى فمن نفسي • وحسبي انني ما أدخرت جهدا في سبيل الاناخة الى الأولى.وكما قال الكميت •

ما بالي اذا أنخن اليهم   نقب الخف واعتراق السنام

نسأله سبحانه أن يكون العمل خالصا لوجهه •

تمهيـــد

أجدني مضطرا أن استهل حديثي بالاشارة الى نقطتين ، أعتقد وجاهتهمـــا ، وجداوهما في الوصول بيد القارئ الى بداية سليمة وموضوعية . وبخاصة بعـــد أن تشابكت الأقوال على ألسنة الباحثين . وشوهت الحزبيات السياسية القديمة ، والعصبيات المذهبية الآثمة ، جمال تاريخنا - منذ بدء تدوينه الى الآن - بما عبثت به من حقائق وما دفنته من مزايا وسجايا وخصائص ، وما ابتكرته من أكاذيب ، وما صرفته عن وجهة من المعاذير ، .. ان المموهين والمشوهين مدوني الأخبار ، المتقربين الى الحكام في كل عصر ، بذم خصومهم والسابقين لهم ، قد حقنوا قلوب الناس جميعا بالكراهية والبغضاء لرجالات ذلك الجيل .(١)

وتابعهم من الباحثين المحدثين من آثر الطريق النكد . وسلك مسلك الكسل البليد ، عزوفا عن القراءة والتحقيق ، وزهدا في العسر والتكاؤد ، ونقد ذلك الركام من الروايـــات والأقاصيص الساذجة التي جعلوها تأريخا . وسيرة رجال ، وان كانت تخالف منطـــق التاريخ ومسيرته .

١- النقطة الأولـى : التدليس العلمي الذي مارسه الكثيرون ، وهم يتابعون الأحـــداث التاريخية . وذلك بالاغتراف من ركام المرويات التاريخية والأدبية ، دون النظـــر المدقق المنصف .

نقد نقلوا عمن اتهم في دينه ، وطعن في أخباره ، فنقلوا مرويات ابن مزاحـــم ، وهو رافضي جلد ،(٢) متروك الرواية من الغلاة ، ومرويات أبي مخنف - لـــوط

---

١) مع الوعيل الأول . ص : ١٦٨. محب الدين الخطيب .

٢) ميزان الاعتدال . ج٤ / ٢٥٣ . وهو نصر بن مزاحم .

ابن يحيى - وهو اخبارى تالف ، لا يوثق به ، وقال عنه ابن عدي ، شيعي محترق، صاحب اخبارهم"[1] ومرويات سيف بن عمر الضبى ، وهو متهم بالزندقة[2] . ومرويات الواقدي - محمد بن عمر بن واقد الأسلمي - الذى قال عنه الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : " كذاب يقلب الأحاديث " . وقال عنه ابن معين : "ليس بثقة" ، ومتروك عند البخارى[3] . ونقلوا عن ابن أبى الحديد - شارح نهج البلاغة - وهو من غلاة الرافضة ، ويقول عنه الشيخ الألوسي : " وعندى أن ابن أبى الحديد فى بعض عباراته - وكان يتلون تلون الحرباء - كان من هذه الفرقة - الشيعة الغالية - التى كانت تقول بألوهية علي ، وكم له فى قصائده السبع الشهيرة من هذيان ، كقوله يمدح الأمير كرم الله وجهه :

ألا انما الاسلام لولا حسامه   كعفطة عنز أو قلامة ظافر

وقوله :

يجلّ عن الأعراض والأين والمتى   ويكبر عن تشبيهه بالعناصر[4]

ورووا عن جابر الجعفى الكوفى ، وهو "شيعى كذاب ، يقول بالرجعة ويسب الصحابة[5] .

---

١) ميزان الاعتدال : ج٣ /٦٦٢ . للامام الذهبى .
٢) المصدر السابق . ج٢/ ٢٥٥ .
٣) تهذيب التهذيب : ج٩ /٣٦٤ . لابن حجر العسقلانى .
٤) مختصر التحفة الأثنى عشرية . شاه عبدالعزيز ولي الله أحمد عبدالرحيم الدهلوى ، اختصره السيد محمود شكرى الألوسى ، تحقيق :محب الدين الخطيب . ص٩٠ . وأصرح من ذلك فى شركه ووثنيته ، قوله يخاطب عليا كرم الله وجهه :

تقيلت أخلاق الربوبية التى   عذرت بها من شك أنك مربوب

٥) ميزان الاعتدال : ج١ /٣٨٠ و ج٣ / ٢٦٨ .

ومثله عمرو بن شمر الجعفى ، وغيرهم من هذه السلسلة الصدئة ٠

وبما أن المحدثين يتشددون في موازينهم ، والتى تسقط القسم الأعظم من تلك الروايات التاريخية ، فلا بأس أن نعامل الروايات التاريخية بميزان الرواية عن الضعفاء في الحديث ، ولا نلبس على القراء عن قصد أو غير قصد ، باسناد الخبر للامام الطبرى رحمه الله تعالى ، لأن الطبرى - كما هو معلوم - ساق روايات متعددة ومتباينة ، دون أن يبين حال الراوى[1] ، أو يرجح بين الروايات ، وهذا من باب الأمانة العلمية ، التى استغلت استغلالا تضليليا من الباحثين ٠

النقطة الثانية :

الظلم والبهتان الذى لحق رجال الرعيل الأول على يد الأخباريين من أهل الأهواء ، فقد كانوا نفحة من نفحات التربية القرآنية ، حتى شهد لهم النبى صلى الله عليه وسلم بالخيرية فى أحاديث كثيرة ٠ " خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ٠٠ "[2]٠ ومع ذلك أدرجوا فى مجموعات الكيد والخيانة والكذب والخديعة ٠ وهذه النقطة جدّ خطيرة ، نفذ منها الكيد لتحطيم الاسلام ٠ فالنبي الذى عجز عن تربية أجيال معاصرة له ، على هذه العقيدة ستكون دعوته أعجز عن تحقيق صنع الانسان كما تريد ، وصاحبها مرتحل عنها ، " وإن مما تقتضيه طبيعة الرسالات السماوية ، ودراسة تاريخ حملتها ، هو أن تحقق معجزة صنع الانسان ، كما أن كانت ولادته من جديد ، فالذين سعدوا بتربية الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبته ، انما تتحلى حياتهم

---

١) " فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجها من الصحة ، ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا ، وانما من بعض ناقليه الينا ، وأنا انما أدينا ذلك على نحو ما أدي الينا " الطبرى ج١ / ٧ - ٨ ٠

٢) ورد فى الصحيحين ٠ عن عمران بن حصين وغيره ، "خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ٠٠ " ٠

بالصلة الوثيقة بالله ، وبالاخلاص والعبودية والتواضع والايثار ، وهضم النفس ، وذوق العبادة ، والانصراف عن حطام الدنيا ، والاهتمام بالآخرة ، ومحاسبة النفس محاسبة دقيقة أمينة ، والاستقامة على الدين ، وهى الذروة الايمانية والخلقية التى لا سبيل لها ، ولا مطمع فيها للذين يتلقون التربية على أيدي الحكماء والفلاسفة .
وان بروز نماذج عملية ، تشق الطريق للاسلام ، وتلوامى بفضلة وتأثيره أمم وأقطار فى أحضان الاسلام ، يجب أن يتحقق كل ذلك فى حياة الرسول ، وعلى اثر وفاته ، حيث ان الدين الذى لا يستطيع أن يقدم أمام العالم عددا وجيها من نماذج عملية بناءة ، ومجتمعا مثاليا فى أيام الداعي ، وحامل الرسالة ، لا يعتبر ناجحا ، كما أن الشجرة التى لم تؤت ثمارها اليانعة الحلوة ، ولم تتفتح أزهارها العطرة الجميلة ، أيام شبابها ، وفى موسم ربيعها (وهو عهد النبوة) لا تعتبر شجرة مثمرة سليمة - والذى ندين الله به اعتقادا أن كل فرد من أفراد الجيل الذى أعده الرسول الكريم كان نموذجا رائعا للتربية النبوية ، ومفخرة وشرفا للنوع الانسانى ، لا توجد صورة فى المصور الانسانى العالمي الواسع ، بل فى الكون كله ، أجمل وأروع وأشرف من هذه النماذج الانسانية ، والأنماط البشرية ، باستثناء الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين ، ولولا شهادات تاريخية متواترة عن هؤلاء الرجال ، لما عدّ ذلك الا خيالا شعريا ، وقصة أسطورية .[1]

ولا يمنع هذا أن تميل بالانسان رغبة ، وتدفعه رهبة ، ولكن أن يتنكر لايمانه ، ويدير ظهره لدينه ، فهذا محض افتراء . فقوة الايمان فى نفوسهم لا تزال هادرة ، تسمو بهم الى آفاق لا يحسب فيها للأشخاص حساب ، آفاق لا تعرف الغل ولا الضغينة ، ولكنها مشارق للاخاء ، والمحبة ، والاخلاص .

---

١) صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الامامية . ص/١٢ وما بعدها ، للشيخ أبو الحسن الندوى .

الفصـــــل الأول

الأسباب التي ساعدت على ظهور الفـرق

وهذا الطرز من الرجال لا يعرف الا البناء • ولا عهد له بامتطاء متن الفتن وصرعاها ، للوصول على أشلائهم الى عروش الدنيا وزخارفها ، ولم يغل نفوسهم الغرور والطمع •

ولقد صدق عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، في وصف ذلك الرعيل ، حيث قال : " ان الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد ، بعد قلب محمد صلى الله عليه وسلم • فوجد قلب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقاتلون عن دينه " •(١)

فالله الله في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ، ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه •(٢)

---

١) شرح العقيدة الطحاوية ،ص٣١محمد ناصر الدين الألباني ، وأخرجه الطيالسي،وأحمد،وغيرهما بسند صحيح ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وقال شيخ الاسلام ابن تيمية في خطبة كتابه " منهاج السنة النبوية " : " وذلك أن أول هذه الأمة هم الذين قاموا بالدين تصديقا وعلما وعملا وتبليغا ، فالطعن فيهم طعن في الدين ، موجب للاعراض عما بعث الله به النبيين •

٢) فضائل الصحابة للامام أحمد بن حنبل • ج١ /ص٥٠ • واسناده صحيح •

توطئـــة :

ان المتتبع لكثير من آثار المؤرخين ، والذين شغلوا ساحة الحديث عن الفـــرق الاسلامية ، يجد تبريرات وتعليلات مبتورة مشوهة ، لأنها وليدة نظرة جزئيـــــة ، انطلقت من زاوية معينة ، تمثل ركن الهوى والعاطفة ، وآخرون منهم حاولوا التعرف على رواحل الفتنة ، فوجدوا حولها بعض الرجال ، الذين بذلوا فى سبيل العقيـــــدة الكثير • ومن عرف عنهم غير الاستقامة والتقى • فلوى عنقه ، ومدّ يده بمأساة الأمة ، ليلطخها على مشجب العدو الخارجي ، كما يفعل المسلمون اليوم •

والذى تظاهرت الأدلة على نصرته من بين تلك الآراء ،هو تعدد تلك العوامـــل ، بل وتشابهها فى أكثر الأحيان • فمن عوامل داخلية ،تبدت فى التحولات البدعيـــة ، التى ظهرت فى المجتمع الاسلامى ، ونمت فى ظلالها العصبيات والأهواء ، الـــى عوامل خارجية ، من كائدين وموتورين ارتعشت قلوبهم مما بلغته هذه الأمة طـــــولا وعرضا فى عمر زمني يسير ، وقد ركلت فى طريقها ، وهى تزيح حجب الظـــــلام والطغيان ، تلك السجف الواهنة الكاذبة ، والعروش النخرة •

ولقد أصاب المرحوم الدكتور محمد اقبال فى تحديد تلك العوامل : "فليس مـــن الصواب أن نرجع كل ظاهرة في بيئة ما الى عوامل خارجية عنها ، فنهمل بذلـــــك العوامل الداخلية ، فانه لا فكرة من الأفكار ذات قيمة يكون لها سلطان على نفـــوس الناس الا اذا كانت تمت اليهم بصلة ، فاذا جاء عامل خارجي أيقظها ، ولكنــــه لا يخلقها "[1] •

ولذا فالموضوعية تلزمنا أن نقدم الحديث عن الأسباب الداخلية لأنها رحم الفرقـــة والمذاهب الوافدة •

---

(1) نقلا عن كتاب دراسات فى الفرق والعقائد الاسلامية • ص/٨ - ٩ • د / عرفان عبد الحميد •

الأسباب الداخليـــــــة

١- التحولات الجديدة في الأمة المسلمة :-

" ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ".[(1)]

ان الدعوة الاسلامية المنطلقة من المدينة المنورة ، قد حققت وفي مرحلة يســيرة قفزة عملاقة في شتى الميادين . " فقد نقلت الحياة العربية من البساطة والمحدودية ، والانغلاق النسبي على الذات ، والتركيب الاجتماعي البدوي ، الى حياة حضريـــة تتميز بالتعقيد في البنية السياسية والاجتماعية والدينية ، ومن حياة قبلية تتحكـم فيها وبها روابط الدم والقرابة ، الى حياة أساسها العقيدة الدينية ، التي تبشر ، وتدعو الى الأخوة الانسانية ،التي لا تمايز فيها الداقع من لون أو جنس أو نســب ، ومن حياة سياسية تقوم على المشيخة الى نظام مدنى ، ودولة مترامية الأطراف ، وجيش فاتح ، وقادة ، وحصون ،وثغور ,وأمراء ، وحكام ، وسياسات مدنية وشرعية تنتظم أمـــور الدين وقضايا الحياة ومشكلاتها .

ومن ديانة وثنية متفسخة هرمة ، أو مسيحية أو يهودية ملفقة ، عجزت عـن تلبية حاجات الانسان الروحية والعقلية ، الى عقيدة تتسم بالعالمية والشمول ، وتدعو الى المشاركة والانتشار فى الحياة ، فى أوسع أطرها وحدودها ، ليكون الدين كلـــه لله .

"[(2)] والمعروف عند علماء الاجتماع ، أن النقلة الحضارية المفاجئة والسريعـة غالبا ما ينتج عنها ، ويترتب عليها صور التأزم والقلق والتوتر ، تعم جوانب الحياة كلها . وقد تصل الى حالات من الفوضى السياسية ، والصراع الداخلى والفتن والحروب والمصارع . شاهد على ذلك شهادة ثلاثة من الخلفاء الراشدين غيلة ، إما علـــى

---

١) سورة الأنفال . الآية : ٥٣.

٢) دراسات فى الفرق والعقائد الاسلامية . ص/ ٩ - ١٠.

يد حاقد أو ثائر أو متمرد • وحروب أهلية عصفت بالحياة الاسلامية ، مثل الفتنة الكبرى ، وصفين والجمل والنهروان وكربلاء • وفى حمأة هذه المصارع والحروب والفتن ، صار الناس يلتمسون وسيلة للنجاة تتجاوز بالأمة محنتها ، وتنقذها من نكبتها ، من قلقها ، وتشتت أمرها ، وتنتهى بها الى حالة من الاستقرار المادى والوحدة النفسية " •

تلك التحولات التى أحدثت بعضها حركة الفتح الاسلامى ، لأقطار متباعدة أرضا ، متباينة لغة ،وعقائد ،وطبائع • وشارك فى تلك الجيوش الفاتحة ألوان مختلطة من الناس • مشارب وجذورا ومذاهب •• فالصحب الكرام رضوان الله عنهم ، كانوا نواة القوة الاسلامية وطلائعها • والتى صيغت على عين الرسول صلى الله عليه وسلم، وتمثلت المفاهيم الربانية، وجاهدت لتحقيقها فى حياتها • ولتبقى على الجادة، مسترشدة بالصوى التى نصبها الكتاب الكريم،والسنة المطهرة • ولكن الدنيا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخشى فتنتها ، ويشفق على أصحابه وأمته منها ، فقد أهلكت السابقين ، وما يراها الا معترضة سبيل أمته،لتحول بينهم وبين غاياتهم العظام،التى تحقق من خلال ألفتها وتماسكها وايثارها ••

فقد روى عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : " اذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم ، أي قوم أنتم ؟ " قال عبدالرحمن بن عوف : "نقول : كما أمرنا الله " • فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أو غير ذلك ، تتنافسون ، ثم تتحاسدون ، ثم تتدابرون ، ثم تتباغضون ، أو نحو ذلك ، ثم تنطلقون الى مساكين[١] المهاجرين ، فتجعلوا بعضهم على رقاب بعض[٢] " •

---

١) - وفى رواية "مساكن" ولعلها الأولى •

٢) - صحيح سنن الترمذى • ج٢/ ص٣٦٦• للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى •

وعن عمرو بن عوف ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين، فأبشروا ، وأملوا ما يسركم، فو الله ما الفقر أخشى عليكم،ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا،كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم "[1].

ان حركة الفتح الاسلامي أسالت على جيوب المسلمين غنائم،وثروات كبيرة ، فمرجت العهود ، واتخذت القصور ، والجواري ، وحاول نفر من الرعيل الأول، أن ينساحوا في الأرض مع الجيوش الفاتحة طلبا لاحدى الحسنيين ، ولكن الفاروق رضى الله عنه ، استشرف النتائج النكدة لهذه النقلة ، لانسياح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاد المفتوحة ، وتوسعهم في القطاع والضياع . فكان اذا استأذنه أحد من المهاجرين في الخروج يقول له : " لقد كان لك من غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك ، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك "[2].

فالثراء الواسع أبعد مجموعة من الناس ، من ذوي الشأن والرأى والسابقة عن مواقع التأثير في الحياة العامة ، وشغلهم باصلاح أموالهم ، وزاد توسع بعضهم من الدنيا والمباحات . ولا تنس أن هذا الرعيل يمثل القدوة الثانية بعد الرسول صلى الله عليه وسلم للأمة المسلمة .

ولم يعط الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، هذا الأمر عناية وأهمية ، فترك لهم حرية التنقل في الولايات والأمصار الاسلامية ، فاضطربوا في

---

١) صحيح الجامع الصغير ، وإرواء الغليل رقم/١٢٦ . كلاهما للشيخ محمد ناصر الدين الألباني .

٢) الطبرى . ج٤/٣٩٧ . ويقول الامام الحسن البصرى رحمه الله تعالى : " كان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان الا باذن وأجل . الطبرى ج٤/ ٣٩٦.

البلاد ، وانقطع الناس اليهم ، وقد فتحت عليهم الدنيا . "وكان ذلك أول وهن دخل الاسلام ، وأول فتنة كانت في العامة ، ليس الا ذلك" [١].

ولا يفهم من هذا أن عثمان رضى الله عنه ، لم يدرك خطورة الانتشار ، ولكن الظروف التي احاطت به قاهرة ، ومعطيات الزمن متألبة . فكم حذر الرغبة من الميل الى الدنيا ، والاستزادة من نعيمها ، وتسللت عبر أردانهم ، وتطلعت اليها عيونهم ، وانساحوا في البلاد يتقلبون في أعطاف النعيم ، وقد أشار الى هذا ابن خلدون : " حتى اذا اجتمعت عصبية العرب على الدين ، بما أكرمهم الله من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، زحفوا الى أمم دنياهم فزخرت بحار الرفه لديهم" [٢] فانشغلوا واسترخوا واطمأنوا .

والابتلاء بالخير قد يكون أشد وطأة من الابتلاء بالشر . فكثيرون هم الذين يصمدون للابتلاء بالضراء ، ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للسّراء وتصبر على الثراء ، وما يغريان به من متاع ، وما يثيرانه من شهوات واطماع . وقد تضعف القلوب التي صبرت على الكفاح والجراح ، أمام الدعة والمراح . ثم يصابون بالحرص والاسترخاء الذي يقعد الهمم ، ويذلل الأرواح ، واذا ترفعت كوكبة من ذلك الرعيل الكريم ، فلا تبرىء من عاقس ونافس .

هذا التحول أجرى أهواء الأمة في سبل مختلفة بعد اجتماع ، وترفع عن حطام الدنيا الى تنافسها ، الذي يورث الحسد والغل . وأحسب أن الجاحظ قد أصاب فيما ذهب اليه ، بعد أن رصد تلك الظواهر في عهدين ، وبين الجديد في حياة الأمة المسلمة . " كانوا على التوحيد الصحيح ، والاخلاص المخلص مع الألفة ، واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولا بدعة فاحشة ، ولا نزع يد من طاعة ، ولا حسد ولا غل ولا تأول" [٣]

---

١) الطبرى ج٤/ ص٣٩٦ وما بعدها .

٢) مقدمة ابن خلدون . ص٢٠٤ .

٣) رسائل الجاحظ : ج٢ /٧٠ .

ولعل نظرة الخليفة الثالث رضى الله عنه كانت أدق ، وهو الذى عاش حركة التطور في المجتمع الاسلامى ، وما يفعل فى أيام الهرج ، حيث لا تسمع نصيحة ، ولا يلتفت الى صيحة مشفق ، فقد ضاعت صرخاته بين جلبة الغوغاء وزورهم ، التى لوت بأعنتهم الى متاهة الاختلاف ، "انكم انما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع، فلا تفتنكم الدنيا عن أمركم ، فان أمر هذه الأمة صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم ، تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ، فان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : "الكفر فى العجمة ، فاذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا "[(١)].

وهكذا غلبت الحياة وزهرتها ومتاعها على النفوس ، وصرعت الرغبة القاهرة صيحات الناصحين " فقد تغلبت فى الحياة الاسلامية اثارات الاغراء على عناصر المقاومة والتماسك ، واندفع المسلمون فى هذه المدن يعمرونها ويسكنونها ويفتنون فى تزيينها "[(٢)].

ولا أشك أن الدنيا ومتاعها ، دفعت كثيرا من رعاع الناس لتلتحق بالجيوش الفاتحة ، من غير أن تفهم طبيعة هذا الدين ، فظنوا أن قضية هذا الدين قضية زعامة ورئاسة ومغالبة . فقد فرضت قريش سيادتها ،مغالبة الدول والحضارات، فملكت ما تحت أيديها.وما حركة الردة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، الا بذرة هذه التطلعات .

ولئن وفق الصديق رضى الله عنه فى قمعها ،واعادتها الى حظيرة الاسلام، فلم يتمكن من التخلص من موروثات هذه الفاجعة وجراحاتها ، رغم خطورتها على كيان الدولة الاسلامية ، ورغم موقفه الصارم من هؤلاء ، وبعد عودتهم . فلم يستعن بهم في حروب الاسلام ، لأن الثقة متعلقة بصاحب العقيدة ، فاذا تزعزعت العقيدة فى نفس صاحبها اهتزت ثقة الناس به ((لا يشهد الأيام مرتد)) .

---

١) الطبرى : ج٤/٢٤٥.

٢) المجتمعات الاسلامية . ص : ٢٥٠. د. شكرى فيصل .

حتى اذا قوي أمر المسلمين ، وامتدت قوتهم ، وغابت فى ضباب رقيق من الأيام ذكريات الارتداد عنهم ، والانقضاض عليهم ، اتجه بالمرتدين وجهة جديدة ، فلم يشأ الخليفة الثانى أن تظل هذه القوى معطلة، تفنى فى قلقها ، وتذوب فى أساها ، ولم يشأ أن يحرم المجتمع ثمرة هذا العقاب ، وما تركه فى نفوس المرتدين من اندفاع، ورغبة فى التكفير . فأذن لهم أن يشاركوا فى الحروب ، ورضي لهم أن يكونوا فى الجند ، ولكن تحت رقابة ومتابعة . ومع ذلك لم يطمعهم فى كثير ، ولم يسند إليهم قيادة فى الجيوش الاسلامية ، لأن الماضى سيلقى بظلاله على المستقبل، ان لم تقبضه شمس مشرقة .

فها هو ابن الخطاب رضى الله عنه يستعرض القوات قبل تسريحها الى أرض المعارك ، وجبهات القتال ، يتفرس الوجوه ، ويستقرىء ما وراء الأعين ، وكم أصابت فراسة الفاروق ، وتحقق ظنه فى الرجال ، فقد أورد الطبرى " أن عمر لما استعرض الجيوش للجهاد سنة ١٤هـ ، مرت أمامه قبائل السّكون اليمنية مع أول كندة ، يتقدمهم حصين بن نمير السكونى ، ومعاوية بن حديج ، أحد الصحابة الذين فتحوا مصر ، ثم كان من ولاتها ، فاعترضهم عمر ، فاذا فيهم فتية دلم سباط.[1] فأعرض عنهم ، ثم أعرض ، ثم أعرض ، حتى قيل له : مالك ولهؤلاء ؟ فقال : انى عنهم لمتردد ، وما مرّ بى قوم من العرب أكره اليّ منهم . فكان منهم سودان ابن حمران ، وخالد بن ملجم ، وكلاهما من البغاة على عثمان ، وكان الغافقى - بن حرب العكى - المصرى أمير القوم ".[2]

---

١) دلم : سود سباط : طوال .
٢) الطبرى : ج٤/٣٤١ وص/ ٣٩٣ .

وفي عهد الخليفة الثالث ، حيث الحلم وصلاح حال بعض هؤلاء ، ومرور الزمن كل ذلك ساعد المرتدين على نسيان المجتمع الاسلامي لفعلتهم والذى غطى على كل هذا قسوة الفتن التى جاءت فى زمنه ، فقد أزال الحجر عنهم ، وانخرطوا فى صفوف المجتمع ، وأذن باستعمال المرتدين استصلاحا لهم وقد أصاب عثمان رضى الله عنه لما تمثل :

وكنت وعمرا كالمسمن كلبه فخدشه أنيابه وأظافره (١)

والذى نريد أن نصل اليه من استعراض تلك الحركة البشرية ، أن رحى الفتنة ، دار معها أهلها من البطرين والغوغاء وأصحاب القلوب المريضة من الرعاع . والذين سبقت ردتهم عن الاسلام ، فاقتحموا الدار على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقتلوه ، وأشهدوا المصحف الذى خطت دماء عثمان الزكية أسطرا الى جانب الآية الكريمة "فسيكفيكهم الله ..." وهؤلاء هم الذين نفذوا الجريمة * الشنعاء التى فتحت باب الفتن على المسلمين .

هؤلاء هم أصحاب النفوس الطلعة التى لم تفارقها الجاهلية ، قد نفسوا على الصحابة ما أحرزوه من غنائم وأموال فى المعارك العظيمة ، التى أغنمتهم كنوز كسرى وقيصر ، فتطلعت عيونهم الى النعيم انكمشت ، قلوبهم ، تحرقها نيران الحسد والحقد .

ان هذا التحول لا يستهان به ، فقد برزت على الساحة طبقة من الأعراب والمرتدين المقموعين المبعدين عن المشاركة فى أمور المجتمع ، الى جانب جيل

---

١) الطبرى . ج٤/٢٥.

* لرأي الشاعر : قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثله مخذولا
فتفرقت من بعد ذاك عصاهم شققا وأصبح سيفهم مسلولا

وروى القصيدة كلها صاحب جمهرة أشعار العرب . الكامل للمبرد . ج/٣/٢٩.

جديد من الناس ، أخذ دوره فى قيادة المجتمع ، وهو جيل غير جيل الصحابة ، جيل لا يرضى بالواقع القائم، بل هو ثائر عليه، لأنه لا يحقق مطامعه ، والشعوبية الحمقاء مطية كل سوء .

والعنصر البشري الذى عانى هذه النقلة الواسعة ، بعد أن اضطرب أول الأمر فى تقبلها ، والانقياد لها ، استطاع أن يتلاءم معها ، وأن يتفاعل مع المظاهر الجديدة ، وتستميله الدنيا ، لينافس عليها ، لقد تكاملت النعم .

ولو التفتنا الى الطرف الآخر من الساحة ، سنجد عنصرا بشريا جديدا اقتحم الفاتحون المسلمون عليه أرضه ، ولا عهد له باللسان العربي ، ولا بالدين الجديد ، الذى يحمله الفاتحون ، واستقر قسم منهم معه وعلى أرضه، وقسم عاد الى بلاده، مصطحبا معه بعض فتياتهم وفتيانهم . هذه العناصر الوافدة على المجتمع الاسلامى ، هل ستبقى معزولة ؟ هل ستتأثر بالمجتمع الجديد ، والدين الجديد ؟ هل ستبقي أثرا فى حياة هؤلاء الفاتحين ؟ واذا كان كذلك ، ما نوع تلك الآثار ؟ .
كان بودي أن أتمهل الحديث عنها ، لأنها تمت بأواصر كثيرة الى العوامل الخارجية ، وسنكتفى هنا بالحديث عن ما يمت لحديثنا بصلة .

ان الجحافل الفاتحة التى ثلت عروش حضارتين كبيرتين ، واستولت على إرثها ، وما أنجزتاه من مظاهر حضارية ، وغنائم، وكنوز . أثرت بيت المال، الذى يتدفق العطاء منه على المسلمين ، وبيئة حضرية جديدة، تنعم بألوان الترف فى ظلال الثراء والخصب ، وما أفاء الله تعالى على المسلمين من السبي ، الذى ترك اختلاطهم بالمسلمين آثارا واضحة . حيث نقلوا معهم عادات، وتقاليد . وعقائد ، سيكون لها دورها الكبير فى تعميق مجرى المذاهب الجديدة ، ان لم يكن دورها عظيما فى ظهورها ، فقد شكلت هذه المجموعة سبل الاتصال وقنواته بين المسلمين وأبناء الحضارات المثلولة ، وقد عظم هذا التمازج بالتزاوج والمصاهرة . وسيكبر أبناء السبايا .

ورغم التوصيات المتلاحقة والمتنبئة بالمخاطر ، من الفاروق رضى الله عنه ، من هذا اللون على المجتمع ، الا أن استكمال الترف ألح على كثير من المسلمين باصطناع هؤلاء ، والتزوج من تلك العروق الحمراء - كما كانوا يسمونها - (فقد كان عمر رضى الله عنه ، لا يأذن لسبي قد احتلم فى دخول المدينة).[1]

والواضح أن السبي لم يبد لنا فى فتوح الشام ، وانما طالعنا فى فتوح العراق ، وفى فتوح مصر كذلك ، فقد أصبحت الأمة : " أمام سيل من الجماعات الأعجمية ، تتدفق على المراكز العربية فى الشام والحجاز ، وتنتشر فى المدن والأمصار ، وتقتحم على العرب بيوتهم ، ومنازلهم ، وحرمهم . فتكون اماء مرة ، وعبيدا مرة ، وتكون جواري حينا ، وخدما أحيانا . وما أكثر ما كانت الجوارى والاماء موضع التسرى والانجاب ، وما أكثر ماكنّ أمهات لعديد من البنين والبنات . وما أكثر ما كان من هؤلاء البنين أصحاب الأسماء اللامعة فى الحياة السياسية والدينية "[2]

ولقد شاركت هذه العناصر فى تكوين قناعات معينة فى المجتمع الاسلامى ، ساعدت على قيام هذه الفرق المتناحرة ، مشربة آراء نحلها ، التى كانت عليه قبل الاسلام ، وقد ساعدت عن قصد أو غير قصد فى ضعضعة بنيان الدولة الاسلامية . وسنرى أثرهم فى تشيع الفرس لآل البيت ، وبعض الموالي للخوارج . وما أدخلوه من مفاهيم وافدة على تلك المذاهب والفرق ، والفرقة شر كلها .

ولقد تنبه الى هذا الأمر بعض الباحثين ، يقول : "فون كريمر " لقد جاء هذا العنصر الجديد بخميرة مؤثرة جدا ، كانت سببا فى ايجاد البدع وتكوين الفرق وبث الشك) .[3]

---

١) الطبقات الكبرى : ج٣ / ٣٤٥ .
٢) المجتمعات الاسلامية ص/٢٥٤ .
٣) تاريخ الثقافة . ج١٦٩/٣ ، نقلا عن كتاب " مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى " .
د. نبيه حجاب

بل لقد أصبح لهؤلاء القوم شأن عظيم فى المجتمع الاسلامى ، وكانت لهم مشاركات بعيدة الأثر فى الأحداث والفتن القبلية فى عصر بنى أمية ، الى جانب الرقيق فى البيوت ، والذى يفعل فعله .

وبداية كيد هؤلاء ، تلك الطعنة النذلة من المجوسي,أبى لؤلؤة التى وجهها الى ظهر الفاروق رضى الله عنه ، واستمع الى تلك الكلمات العاتبة ، التى انثالت من فم الفاروق الشهيد ،ولكن بعد فوات الآوان ؛ قال : عمر رضى الله عنه : يا ابن عباس ، انظر من قتلنى ، فجال ساعة ، ثم جاء فقال : غلام المغيرة ، قال : الصنع ؟ قال : نعم ، قال : قاتله الله لقد أمرت به معروفا ، الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الاسلام ، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقا "(١)

وبعدها وقفوا الى جانب كل دعوة تريد الثورة على الخلافة الأموية ، الى جانب الخوارج مرة ، والى جانب الشيعة أخرى ، ووراء المختار الثقفى ، وفتنة عبدالرحمن بن الأشعث ، حتى تمكنوا فى الدولة العباسية .
وسنرى آثارهم الفكرية فى النحل والمذاهب .

وبذا أصبح المجتمع فى نهاية العهد الراشدي ، كما وصفه الحسن بن على رضى الله عنه . " مؤمن متهم ، وعلج اغتم ، وأعرابى لا فقه له . ومنافق كذاب ، ودنياوى مترف ، نعق بهم ناعق فاتبعوه . فراش نار ، وذبان طمع . والذى نفس الحسن بيده ، ما أصبح فى هذه القرية مؤمن إلا وقد أصبح حزينا . وليس لمؤمن راحة دون لقاء الله " .(٢)

---

١) فتح البارى . شرح صحيح البخارى، ج٧/٦٠ لابن حجر العسقلانى .
٢) البيان والتبيين . ج٣/١٢٢. للجاحظ .

أما قراءة الأعاجم القرآن الكريم ، فقد تركت تفسيرات واجتهادات فى تأويل الآيات القرآنية ، وذلك دون النظر الى سبب نزولها ، والظروف التى نزلت فيها ولا أشك أن كثيرا من مفاهيم التشيع التى انتشرت فيما بعد ، ان هى الا ظلال الخليفة الفكرية لهؤلاء القوم ، وألقوها على الآيات القرآنية ، أو التمسوا لها أدلة من كتاب الله عز وجل.فالرجعة يستدلون عليها بقوله تعالى " ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد ..."[(١)] • والوصية وتناسخ الأرواح وغيرها من مصطلحات القوم ، متبعين ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، كما يحلو لهم ولمكرهم ، وهذه طبيعة القوم وفطرتهم •

" والذين فى قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سواء الفطرة ، يتركون الأصول الواضحة الدقيقة ، التى تقوم عليها العقيدة،والشريعة،والمنهاج العملي للحياة ، ويجرون وراء المتشابه الذى يعّول فى تصديقه على الايمان بصدق مصدره • كما يعول فيه على استقامة الفطرة ، التى تدرك بالالهام المباشر صدق هذا الكتاب .. .. يجرون وراء المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالا لايقاع الفتنة ، بالتأويلات المزلزلة للعقيدة ، والاختلافات التى تنشأ عن بلبلة الفكر"[(٢)]

وبعض هؤلاء نقلوا معهم الغلو فى الدين ، والتمسك بالبيت الحاكم،لأنه مقدس فى نظرهم ، وفق نظرية " الحق الالهى ".وهذا الغلو تجسد فى محبة آل البيت فيما بعد • حتى وصل الأمر بهم الى أن رفعوا الأئمة الى درجة النبوة ، بل والى مقام الألوهية .. كما غلا البداة من الأعراب ، ومن وراءهم من الموالى فى فهمهم لآيات الكتاب الكريم ، وبخاصة لآيات الوعيد • " ان الله لا يغفر أن يشرك به ..."[(٣)] وكم هى الآيات التى طبقوها،أو أجروا أحكامها على المسلمين ، وهى تخص الكفرة

١) سورة القصص : الآية : ٨٥ •
٢) فى ظلال القرآن : ج٣٧/١ • لسيد قطب •
٣) سورة النساء الآية : ١١٦•

والمشركين وأوقعهم هذا الغلو في سبل الانحراف ، فقد اختلطت الطرق والموازين في نظرهم ". لأن صورة القبض على الكتاب بقوة،وجد ، وصرامة ، الصورة التى يحب الله أن يؤخذ بها كتابه ، وما فيه ، من غير تعنت ولا تنطع ولا تزمت ، فالجد والصرامة والقوة شيء ، والتعنت والتنطع والتزمت شيء آخر • ان الجد والقوة والصرامة ، لا تنافى اليسر ، ولكنها تنافى التميع ، ولا تنافى سعة الأفق ، ولكنها تنافى الاستهتار ، ولا تنافى مراعاة الواقع ، ولكنها تنافى أن يكون الواقع هو الحكم فى شريعة الله ، فهو الذي يجب أن يظل محكوما بشريعة الله "(١) •

وقد أورد الامام الشاطبى رحمه الله تعالى ، توضيحا لهذه القضية التى فتحت على المسلمين أبواب التمزق والافتراق • " خرج أبو عبيد فى فضائل القرآن، وسعيد بن منصور فى تفسيره ، عن إبراهيم التيمى ، قال : "خلا عمر رضى الله عنه ذات يوم ، فجعل يحدث نفسه ، كيف تختلف هذه الأمة ، ونبيها واحد ، وقبلتها واحدة - زاد سعيد-وكتابها واحد - قال : فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين ، انما أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيما أنزل ، وانه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ، ولا يدرون فيما نزل ، فيكون لكل قوم فيه رأى • فاذا كان لكل قوم فيه رأي اختلفوا ، فاذا اختلفوا اقتتلوا ، فزجره عمر ، وانتهره علي ، فانصرف ابن عباس ، ونظر عمر فيما قاله ، فعرفه ، فأرسل اليه ، وقال : أعد عليّ ما قلته ، فأعاد عليه ، فعرف عمر قوله فأعجبه "(٢)

لأنه اذا عرف المرء فيما نزلت الآية ، أو السورة ، عرف مخرجها وتأويلها ، وما ومن قصد بها ، فلم يتعد ذلك فيها • واذا جهل فيما أنزلت، احتمل النظر فيها أوجها ، فذهب كل انسان مذهبا ، لا يذهب اليه الآخر ، وليس عندهم من الرسوخ فى العلم ، ما يهديهم الى الصواب ، أو يقف بهم دون اقتحام حمى

---

١) فى ظلال القرآن : ج٣/ ١٣٨٨ • سيد قطب •
٢) الاعتصام • ج١٨٣/٢ • للشاطبى •

المشكلات ، فلم يكن بد من الأخذ بمبادى الرأى ، أو التأويل بالتخرص الذى لا يغني من الحق شيئا ، اذ لا دليل من الشريعة ، فضلوا ، وأضلوا •[١]

وكذا كانت تلك التأويلات جسرا عبر عليه أصحاب الأهواء والفرق الى سبلهم ، فتفرقت عن سبيل الاسلام • وقد روى ابن عباس رضى الله عنهما ، وذكرت الخوارج وما يلقون فى القرآن - فقال يؤمنون بمحكمه ، ويهلكون عند متشابهه ، وقرأ ابن عباس[٢] " هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات •••"[٣]

فهذه التحولات بمجموعها ، هى السبيل التى مشت بها الأمة القهقرى ، وتلك هى التغيرات التى أحدثها المسلمون ، فمضت السنة الربانية •

---

١) الاعتصام : ج٢/١٣٨ للشاطبى
٢) سورة آل عمران • الآية : ٠٧
٣) المصدر السابق ، ج٢/١٧٩•

٢- العصبيات القبلية والأقليميــة :-

لقد وجدت العصبيات نفسها ، منذ مجيء الاسلام ، أمام خصم قوى شديــد المراس ، وهو هذه العقيدة الجديدة ، التى تدعو العرب كافة - بل المسلميــن - الى التآخى والتآزر ، ونبذ أسباب العداوة بينهم " (١) .

واستطاعت هذه العقيدة أن تعلو صوت الانتماء القبلى ، وتضم تحت لوائهــا قبائل متعددة ومتباينة ، وان لم يكن من اليسير أن يقتلع الدين الجديد من نفــوس العرب - وبين عشية وضحاها - جذور العصبية التى رسخت فيها على مرّ القــرون ، مع أنه أمات دواعي هذه العصبية ، من اهدار دماء الجاهلية ، والغاء حق الثــأر الفردى ، وجعله من حقوق الحاكم . وأبطل التفاوت فى الديات ، بل أناط نصرة غير الحق ، والوقوف بجانبه ، بالردة الجاهلية ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قاتل تحت راية عمية، (٢) يدعو الى عصبية أو يغضب لعصبية ، فقتلته جاهليه " . (٣) فالعصبية فى التصور الاسلامى ، لم تعــد مجموعة بشرية طائشة ، ترمي بشررها على الآخرين .

لقد صهرت دعوة الاسلام ما كان يحس الناس به من فروق،وأهدرت ما كانــوا يعتمدون عليه من عصبيات ، وألفت بينهم تأليفا ، تقوم فيه العقيدة مقام الــدم، والمساواة مقام التفاخر ، والتقوى مكان النسب ، ووحدة الكلمة والاتفاق مكــان التشتت والافتراق . ولـذا بـات الشعور بالعصبيات هزيلا فى صدر الاسلام ، وكـاد يضيع صداها فى ساحات الروح الجماعية التى تبدو مضيئة نيرة ، وكانت الجماعــة الاسلامية مدعوة أن تمضي فى هذا الائتلاف ، وأن تستمر فى معاناة هذه الفتــرات الرائعة ، التى مثلت أسمى صور توحيدها، والتى توهجت فيها أقوى مشاعر ألفتهــا ، والتى ارتفعت فيها الى أقدس ما كانت تريده لها دعوتها وفكرها . (٤)

---

١) العصبية القبلية . ص/١٧٥ . د/ احسان النص .

٢) من العماء والضلالة ، كالقتال فى العصبية والأهواء ، وهو الأمر الذى لا يستبيــن وجهه .

٣) صحيح سنن ابن ماجة . ج٢/٣٥١ . للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى .

٤) المجتمعات الاسلامية . ص/٩٧ . د/ شكرى فيصل .

ودخلت أفواج من العرب وغيرهم في الاسلام ، ولكن بعد تمكنه ، فلم تتح لهؤلاء فرص لتذوق حلاوة الايمان ، والتلذذ بنعمة الأخوة تحت رواق الاسلام ، "ومن الغلو أن نقول ان تعاليم الاسلام قد بلغت الى كل نفس ، وأثرت في كل قلب ، حتى يكون تغير العقلية العربية تاما من كل وجه ، فان ذلك ان صدق على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، ... لن يصدق على من أسلم من بعده - الفتح - ولا على الأعراب المتمردين بطبيعتهم على كل قيد من دين أو قانون أو سلطان"(١)

فلم تستقر قلادة الاسلام في أعناقهم ، فسرعان ما نشزت كثير من القبائل ، ونفضت يدها من هذا العقد ، الذي لم تدرك أبعاده ، وارتدت على أعقابها ، تبحث عن زعامة لقبيلتها ، ولكن يد القدر الحانية ، أعدت لهذا الموقف أبابكر الصديق فقد كان أصلب من الجبال الراسيات ، التي لا تدافع ، فيرتد السيل الهائج الى مجراه ، ويمكث في الأرض ما ينفع ، وأما الزبد فيذهب جفاء . وما هي الا انطرابة جاهلية ، كما بين حقيقتها الدكتور / عماد الدين خليل . "ولقد عبرت قطاعات كبيرة من العرب الذين لم يتغلغل الايمان في قلوبهم ، عن نزعاتها القبلية ، في اطار النفاق في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي اطار الانشقاق عن الاسلام في اعقاب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم هم هؤلاء لا يعودون"(٢) .

ولما كثرت الغنائم ، وكثر عدد المسلمين ، فتش عمر رضي الله عنه ، عن طريقة يحصي بها المستفيدين من العطاء ، فوضع ديوان العطاء الذي اعتمد الأصول القبلية ، وذلك باعتماد أسماء الأشخاص ، ضمن القبيلة والعشيرة . وهذا ساعد - عن غير قصد - على اثبات الناس في قبائلهم . وهو تثبيت عفوي . وكذلك كان

---

١) تاريخ الأدب العربي . الزيات - ص/٨٣ .

٢) حول القيادة والسلطة . ص/٣٣ . د/ عماد الدين خليل .

الأمر فى احصاء الموالى فمولى القوم منهم ، فاذا أسلم انسان،وانتمى الى قبيلة عربية ، كان له مالها ، وعليه ما عليها ، فأدرج اسمه مع أبناء القبيلة ، وهذا التصنيف ليس ملزما لهؤلاء ، بل قال لهم عمر رضى الله عنه ، " اذا أراد قوم من الأعاجم أن يكونوا لأنفسهم عصبية مستقلة ، فليفعلوا ذلك ، ولتكن حصتهم كما لو كانوا من موالى القبيلة العربية ... ولا ريب أن الأعاجم فضلوا حين توزيع العطاء ، أن ينتسبوا الى القبائل العربية ، من أن يشكلوا زمرا خاصة بهم ، وذلك امتياز كبير ما كانوا يحلمون به ".[١]

هذا ولا يمكن أن ننكر أن العواطف والعصبيات أطلت برأسها ، بعد أن أخمدها الاسلام حينا من الدهر ، وشرعت تخالط السياسة العليا للأمة ، وكانت كلما اشتدت المعارضة لعثمان رضي الله عنه ، حميت هذه العصبية ، وكان أن دم الخليفة دمه ثمنا لهذه الاختلاف .

فقد عاد من سبق ارتدادهم عن الاسلام ، بدوافع كثيرة ، ليست أقلها الدوافع العصبية ، ليعبروا عن نزعاتهم فى اطار الاسلام نفسه ، متخذين الثورة ضد عثمان سبيلا لتدمير السلطة المركزية ، وتفتيت الوحدة التى صنعها الرواد الأوائل بدمائهم وعرقهم ... ان كثيرا من عرب الأمصار أسهموا فى هذا الحدث ، وبمجرد القاء نظرة على قوائم زعمائهم ،يتبين لنا حجم الدور الذى لعبه زعماء القبائل فى الفتنة ، وأكثرهم ممن لم يكن له دور يذكر أيام محنة الحركة الاسلامية وعذاباتها "[٢] ولو أردنا نعرف تركيبه الجيوش الفاتحة ، التى انطلقت تحت راية واحدة ، وجدناها قبائل متعددة ، " واذا كانت كثرة الجيش تنتهى الى قبيلة واحدة ، فان ذلك

---

١) فتوح البلدان . ص/٤٦٣ . للبلاذرى والدولة الأموية ص/٢٤ . للدكتوريوسف العش .
٢) حول القيادة والسلطة.ص/٣٣. وانظر سير اعلام النبلاء ج٤. للذهبى . " منهم مالك بن الحارث " الأشتر " ألب على عثمان وقاتله ، ورحم ابن الخطاب ، فقد قال لما رآه " ان للمسلمين من هذا يوما عصيبا " ص/٣٤ ، وكان فى صفين .

يؤدى بما فطر عليه الناس ، الى انحياز أفراد هذه القبيلة بعضهم الى بعض ، وعن هذا الانحياز كان منبع أخطار كبرى بعد ذلك فى الحياة الاسلامية.[١] وان كانت حركة الفتح هيأت ساحات جديدة لتمازج القبائل واختلاطها ، وتحطيم الحواجز الجاهلية التى كانت تحوطها .

وامتدت مسيرة الفتح ، وشطت بالجيوش عن مركز الخلافة ، فأحب ابن الخطاب رضى الله عنه ، "أن يتخذ المسلمون دار هجرة وقيروانا".[٢] وكتب الى سعد ابـن أبى وقاص ، رضى الله عنه بهذا ، فاختط معسكرات ثابتة . وكانت البصرة والكوفة . وأخذت تتحول هذه المعسكرات مع الأيام الى مدن ، لها كل ما للمدن من خصائص ، وأخذت هذه المدن تلعب دورها الخطير فى الحياة الاسلامية .

لقد نزلتها القبائل العربية ، بتقاليدها الموروثة ، ودينها الجديد ، لتعيش مع بعضها ، جنبا الى جنب ، وبين ظهرانيهم عناصر أجنبية ، على حظ غير قليل من الحضارة والمدنية . وكانت هذه التحركات المهاجرة ، مرتبطة بحركة الفتح ، ونداء الجهاد ، وانتداب الخليفة ، فكيف كان توزع هذه الهجرات فى الأمصار ؟ . " لقد توزعت البصرة القبائل خططا خصا كبيرة ، خطة لتميم ، وخطة لعبد القيس ، وخطة لأهل العالية ، وخطة لبكر ، وخطة للأزد ، وكانت اليمن تلوذ بخطة الأزد ؛ بينما لاذت عشائر من أسد والنمر بن قاسط ببكر . ولاذ أهل هجر بخطة عبد القيس ، ولاذت والرباب بخطة تميم ... ونزلها مع العرب كثير من الرقيق الفارسى الذى جلبوه من الحروب ".[٣]

---

١) المجتمعات الاسلامية . ص/٣٥ ، د/ شكرى فيصل

٢) فتوح البلدان . البلاذرى . ص/٢٧٥. والقيروان ، الجماعة من الخيل المعسكر .

٣) العصر الاسلامى : ص/١٥٧ - ١٥٨. د/ شوقى ضيف .

ولم تكن الكوفة بأبعد من هذا التقسيم القبلي ، فقد قسمت قسمين : القسم الشرقي والقسم الغربي ، وبعد الاقتراع ، نزلت اليمن في القسم الشرقي ، ونالت نزار القسم الغربي ، ثم اختط كل فريق جزءا من أرضه حسب القبائل ، وحشدت وفـق أنسابها .

وقد كان لهذه التوزيعات القبلية في تخطيط الأمصار أثر في الأحداث السياسية والفتن ، والتي تمخضت عن فرق ومذاهب جديدة ، ولم ينتبه لأخطارها البعيدة . لأن التقسيمات هذه جاءت نتيجة الدوافع الملحة والجامحة ، وذلك للتمكن من سرعة استنفار القبائل للفتح ، وسهولة توزيع الغنائم .

وان كنت لا أرى ما يراه كثير من الباحثين ، من أن العصبية قد عادت جذعة ، وأصبح المجتمع الاسلامي " مجموعات من عصبيات متناحرة ، تقوم على خلافات القبائل وانقسامها . وأن هذه القبائل كانت وكأنما كل واحدة منها أمة مستقلة لوحدهـا " ولا يمكن أن ينكر أثر هذه الروابط التي احتوتها العقيدة الاسلامية .. وسخرتها في جذوة الغيرة والتنافس في الاقدام براية الاسلام الى روابي جديدة ... فكانت هذه العصبية كما أراد منها الامام علي كرم الله وجهه - الى حد ما - "فان كان لابد من العصبية ، فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ، ومحامد الفعال"[١] كما لا ينكر أثر هذه العصبيات في تحريك الأحداث والفتن التي شهدتها تلك الأيام .

ولقد ساعدت هذه المدن الناشئة في تكوين عصبيات جديدة ، بعد أن تقلص ظل العصبيات القبلية ، وضمر أو ذبل لصالح الاحساس بالمدينة . "فقد تحولت هذه العصبية القبلية الى عصبية للمدينة ، التي سكنوها " .[٢] وطغت هذه النزعة ، نزعة

---

١) شرح نهج البلاغة : ج٣/٢٣٩ . والكلام من وصية لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ابن أبي الحديد .

٢) العصبية القبلية . ص/٥٥ . د/ احسان النص .

الاحساس بالعصبية للمدينة على القبلية ، ولا غرابة أن تطالعك مصطلحات جديدة ، وأنت تتبع أحداث تلك السنوات . "وسار أهل الكوفة ، وأمدهم عمر بأهل الكوفة ، واستنفر أهل البصرة ..."(١)

وكان أول خلاف بين أهل الكوفة ، وأهل البصرة ، في عهد الخليفة الثاني ، رضي الله عنه ، وفي السنة الثانية والعشرين للهجرة ، حول الفتح ، ومن أجل الخراج ، فسأل والي البصرة عمر أن يزيدهم بعض الفتوح،لكثرة أهل البصرة ، وعجز خراجها ، فسوى بين أهل الكوفة وأهل البصرة " .(٢) وكأني بهذه العصبيات لم تلفظ أنفاسها ، بل توارت خلف المعطيات الجديدة ، والأحاسيس الوافدة ، ولذا لابد من المرابطة لها ، " اذا رأيتم الناس بينهم النائرة ، وقد تداعوا الى العشائر والقبائل ، فاقصدوا لهامهم ووجوههم بالسيف ، حتى يفزعوا الى كتاب الله،وسنة نبيه ، فأما تلك الحمية ، من خطرات الشياطين ، لا أبالكم " .(٣)

أما نتائج تلك الفتوحات في ميدان العصبية ، أعادت تذر بقرنها ؟ وتفرق بين الأحبة ؟ أم لا تزال ناعسة تحت دثار الأخوة الاسلامية ؟ ! أم عادت بألوان ووجود جديدة .

كنا في بداية الدعوة أمام عصبية القبيلة ، ونحن الآن أمام عصبية أخرى وقفت بجانبها ، " فقد كان ظفر جيوش المسلمين وتمكنها من غلبة الروم ، ايقاظا للقرابة القديمة التي تصل بين عرب الضاحية ، وعرب الجزيرة ، وقد أحست القبائل ، سواء منها النازلة في العراق أو في الشام ، حاجتها الى أن تعتد بهذه القرابة "ومكنت لها وحدة اللغة من هذا الاعتداد ، وبدأت تتفتح هذه القرابات الذابلة " .(٤)

---

١) انظر تاريخ الطبري . ج٤ / أحداث السنة الثانية والعشرين للهجرة .
٢) المصدر السابق . ج٤/١٦١.
٣) شرح نهج البلاغة . ج١/٣٥٢ . من كلام علي رضى الله عنه .
٤) المجتمعات الاسلامية . ص/٦٦-٦٧. د/ شكرى فيصل .

أما الكوفة وما تحمله من كبرياء المنتصر الفاتح ، فقد تمثلت فيها نزعتان مختلفتان في تركيبتها السكانية • نزعة أعرابية فى السياسة ، تكاد تحمل صفات البدوي فى شجاعته وصراحته وجرأته ، ونزعة عاطفية كسروية ، ورثتها من التراث الفارسي • كما ورثت المنافسة القديمة لعرب الشام ، الذين كانوا يقاتلون الى جانب بيزنطة ، بينما كان العراق فى جيش الدولة الساسانية ، ولا عجب أن تظهر هذه التسميات في الشعر ، ولكن بأسماء أمصار جديدة ، "أهل البصرة ، أهل الكوفة ، أهل الشام ، أهل الحجاز " • ويغلب على كل مدينة طابع ، أو اتجاه ، أو تحيز لفرقة ، أو مذهب •

اسمع شاعر معاوية رضى الله عنه ، كعب بن جعيل • (١) والذى شهد صفين معه ، ماذا يقول ـ وقد ذُكرت هذه الأبيات فى نهاية رسالة معاوية لعلى :

أرى الشام تكره ملك العراق	وأهل العراق لهم كارهينا
وكلا لصاحبه ، مبغضا	يرى كل ما كان من ذاك دينا
اذا ما رمونا رميناهم	ودناهم مثل ما يقرضونا
فقالوا : علي امام لنا	فقلنا : رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لنا	فقلنا : ألا لا نرى أن نديناـ
ومن دون ذلك خرط القتاد	وضرب وطعن ، يقر العيونا (٢)

ولم تكن إجابة النجاشي ، شاعر علي ، رضي الله عنه ، من غير هذا المنهل . فقال له علي : ان ابن جعيل شاعر الشام ، وأنت شاعر العراق ، فأجب الرجل ، فقال يجيبه :

دعن يا معاوى ما لن يكونا	فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علي بأهل العراق	وأهل الحجاز ، فما تصنعونا
فان يكره القوم ملك العراق	فقدما رضينا الذى يكرهونا (٣)

---

١) التغلبى ، مخضرم وشاعر قبيلته ، كان لا ينزل بقوم الا أكرموه ، وضربوا له قبة ، أدركه الأخطل فى صباه ، وهاجاه ، شهد صفين مع معاوية ، قال المرزبانى : وهو شاعر معاوية بن أبى سفيان وأهل الشام ، يمدحهم ويرد عنه • الاعلام ج٥/٢٢٦• معجم الشعراء ، خزانة الأدب ، وسمط اللآلى•

٢) الكامل : ج١/٣٢٧• للمبرد •

٣) الأخبار الطوال • ص/١٧٠ للدينورى ، والكامل : ج١/٣٣١ • للمبرد •

والذى أدركته من خلال الأحداث التاريخية ، والمرويات الأدبية ، أن هذه النزعات قد وجدت صدى لها فى صدور الذين لم تصبغ حياتهم صبغا كاملا بالاسلام ، وقد انتهت الى صورة حزبية مهذبة ، تقوم على نظريات سياسية محددة ، فأتباع بني أمية فى الشام - مرعى العصبيات - ومعظمهم من اليمنية ، يقرون النظام الجديد. وأتباع ابن الزبير فى الحجاز مستمسكون بالنظام الأصيل ، والعراق يرى أن الخلافة شئ مقدس ، لا يكتسب اكتسابا ، ولكنه يورث توريثا ، وسلالة النبى صلى الله عليه وسلم هم وحدهم أحق فى الخلافة ، وهل هذه إلا دعوة الشيعة ؟
والعرب الذين كانوا يعيشون حياة البداوة وصراحتها ومحبتها للحرية ، ولا يركنون الا للعدل ، ومن ورائهم الموالي الذين يبحثون عن المساواة ، كانوا لا يرون الخلافة حقا لأحد معين ، بل هى من حق من يقوم بحقها ، فكانوا الخوارج وعصبتهم .

وبعثت هذه الخلافات الإحن والأحقاد من مرقدها ، وما موقعة مرج راهط ، حيث كشرت العصبية عن أنيابها ، وراحت تضّرس اليمنية بأنياب القيسيين ، وغيرها من ألوان الصراع بين القبائل للوصول الى السيطرة ، الا وثبة هذه العصبية فى الشام .

أما فى الأمصار الأخرى ، فقد كانت الى جانب القبائل العربية ، عناصر أخرى ترقب الأحداث ، بعد أن أصبحت جزءا من هذا المجتمع ، يشاركون فى الفتوح والبناء ، كما أنهم شاركوا فى الأحداث والفتن ، وبعد أن عقدوا مع بعض القبائل عقود الولاء .[1] مما ساعدهم على اظهار ثقلهم فى المجتمع الاسلامى . وان لم يحظوا بالانصاف الذى ينشدونه ، من بعض الولاة الذين تعصبوا للعرب " ونظروا الى الموالى نظر السيد للمسود ، مما أثار روح القومية فى هؤلاء القوم ، فثاروا على الحكم الأموى ، وانضموا الى الخارجين على بنى أمية ، وأخذوا يتحينون الفرص لإزالة دولتهم .. فانضموا الى المختار ، ثم الى الخوارج ، كما اشتركوا فى فتنة

---

(١) كان موالي كل قبيلة ينتسبون اليها ، ويحاربون معها ، ويستخدمون فى شؤونها ، فجر الاسلام . ص/٩٠ . أحمد أمين .

ابن الأشعث وفي فتنة يزيد بن المهلب ..."[1]

ومن جملة تلك الامتيازات ، التى قصر دونها حق الموالى ، "الامتياز المالى بين العرب أنفسهم ، وبين العرب والأعاجم أحيانا ، وما يستر وراءه من مثل خلقية أو عقائد فكرية ، وما يفسر لنا كل الثورات التى كانت منذ تنازل الحسن، حتى استقر الأمر لعبد الملك ..."[2].

ومن جملة تلك الامتيازات التى قصر دونها حق الموالى ، " الامتياز المالى بين العرب أنفسهم ، وبين العرب والأعاجم أحيانا ، وما يستر وراءه من مثل خلقية أو عقائد فكرية ، وما يفسر لنا كل الثورات التى كانت منذ تنازل الحسن حتى استقرار الأمر لعبدالملك ..."

وبذا تكون الأقاليم ، ومن فيها من الموالي(*)، قد تحيزت نتيجة عوامل متعددة الى انتماءات جديدة ، من فرق ومذاهب ، فلا عجب اذا وقفت الكوفة فى خندق التشيع، يظاهرها الموالي من الفرس، الذين كانوا يجدون فيه مناصرة لأصهارهم من ذرية علي ، وكانت البصرة مناصرة لعائشة وطلحة الزبير أولا ، ثم كثر فيها الخوارج ، بعد أن انحازوا عن الكوفة ومن فيها ، وهناك الشام التى تقف موقف الخصومة للعراق وأهله المؤيدين للثائر عليهم .

---

١) تاريخ الاسلام السياسى . ج١/٥٢٩ . د/ حسن ابراهيم حسن

٢) المجتمعات الاسلامية . ص/٥٢ . د/ شكرى فيصل .

*) وقد أثبت الشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله تعالى فى حاشية مختصر منهاج السنة أبياتا لحافظ ابراهيم من قصيدته العمرية ، يتحدث فيها عن أثر الموالي فى الفتن التى أضعفت الدولة الاسلامية :

والله ما غالها قدما وكاد لها ، واجتث دوحتها الا مواليها
لو أنها فى صميم العرب قد بقيت ، لما نعاها على الأيام ناعيها
يا ليتهم سمعوا ما قاله عمر : والروح قد بلغت منه تراقيها
لا تكثروا من مواليكم فان لهم ، مطامعا بسمات الضعف تخفيها

ص/٢٩٨.

*) ولكن أين سنة الاستبدال .

ولا أشك أن هذه المذاهب والفرق ، التي تعاضدت عوامل عدة ، في ابرازها الى الساحة ، ومنها العصبيات القبلية والاقليمية ، قد ذبلت فيما بعد على رياح نزواتها ، وأصبحت كل نحلة خليطا من قبائل شتى، يؤلف بينها مذهب مذهب ديني واحد ، مما ساعد تلك المذاهب على تصديع وحدة كثير من القبائل .

الصراع على الخلافة :-

قامت الجماعة المسلمة الأولى على ركيزتين : على الايمان بالله تعالى ذلك الايمان المنبثق من معرفة الله سبحانه ، وتمثل صفاته في الضمائر ، وتقواه ومراقبته ، واليقظة والحساسية الى حد غير معهود ،إلا في الندرة من الأحوال ، وعلى الحب الفياض الرائق ، والود العذب الجميل ، والتكافل الجاد العميق .

وما كان الاسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة ، وما يمكن أن يجمع القلوب الا أخوة في الله ، تصغر الى جانبها الأحقاد التاريخية ، والثارات القبلية ، والأطماع الشخصية ، والرايات العنصرية ، ويتجمع الصف تحت لواء الكبير المتعال.."(١) يقوده ويحدوه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والتحق الرسول صلى الله عليه بالرفيق الأعلى ، وقد أكمل الله الدين ، وأتم النعمة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وتقلدت الأمة المسلمة مسؤولية الاسلام وأتباعه ، وكانت الصدمة عنيفة ، والأمر لله من قبل ومن بعد ، فتناول الراية أبوبكر رضي الله عنه ، بعد أن بايعه المسلمون بالخلافة ، ويحسن بنا أن نتمهل قليلا ، ونحن نغذ السير لنرصد الأحداث التي تسارعت ، وانتهت بقتل خليفة المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه .

ان ملامح الخلاف المزعومة ، التي يشار اليها على أنها كامنة في رحم الساعات الأولى من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، سرعان ما تلاشت تحت تأثير الرد العفوي ،الذي قام به الأنصار ، وذلك عندما تبيّن لهم الأمر ، ووجه الحق فيه ، وبصرهم به أبوبكر رضي الله عنه ، فقد انقادوا له بلا تعصب ولا تعنت

---

(١) انظر في ظلال القرآن . م٢ / ٤٤٣ وما بعدها .

ولا أحقاد ، ولا ضغائن ، ولم يكن ما فى نفوسهم صادرا عن عصبية ، أو مآرب قبلية لتحقيق منافع دنيوية ، بل اجتهاد وتنافس بين المتسابقين فى ميدان النصرة والبذل ، وقد بين هذا الامام أبو الحسن الأشعرى رحمه الله تعالى،عندما قال : " وأول ما حدث من الاختلاف[1] بين المسلمين ، بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم ، اختلافهم فى الامامة ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قبضه عز وجل ، ونقله الى جنته ، ودار كرامته ، اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأرادوا عقد الامامة لسعد ابن عبادة ، وبلغ ذلك أبابكر وعمر رضوان الله عليهما . فقصدا نحو مجتمع الأنصار فى رجال من المهاجرين ، فأعلمهم أن الامامة لا تكون الا فى قريش، واحتج عليهم بقول النبى على الله عليه وسلم " الامامة فى قريش " فأذعنوا لذلك منقادين ورجعوا الى الحق طائعين"[2] .

فأية تجربة من نوعها فى اختيار خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث الحوار المفتوح ، والدليل المرصود ، والحجة القائمة البينة . ومضى الموكب الكريم يتابع المسيرة ، بعد أن قمع المرتدين ، وعقد ألوية الفاتحين ليناول الراية - وعن دراية وموضوعية - لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، فسدّ منافذ الفتن ، ويقمع النفاق وأهله ، وينجحر الباطل وأعوانه . وفتح الله عز وجل على المسلمين فى عهده بلادا شاسعة ، وأنار قلوبا مظلمة ، وقد استحالت غربا على يديه . ليستريح بعدها ، ويتعب من جاء بعده. فقد تركها فى أزهى

---

١) الخلاف لا يكون خطرا الا اذا كان فى اصول الدين ، ولم يكن اختلاف بينهم فى ذلك ، بل كان اختلاف من يختلف فى فروع الدين .. فلم يقع خلاف يوجب التفسيق والتبرى .

التبصير فى الدين . ص/٢٠ للاسفرايينى .

٢) مقالات الاسلاميين . ص/٢٠ لأبى الحسن الأشعرى .

عصورها ، راية الحق شامخة ، وثمرات الجهاد دانية القطوف،وأعين النفاق حسيرة ·

وجاء عثمان رضى الله عنه بعد بيعة المسلمين له ، وسار سيرة سلفيه على منهاج النبوة ، " وانتظم الأمر، واستمرت الدعوة فى زمانه،وكثرت الفتوح ، وامتلأ بيت المال ، وعاشر الخلق بأحسن خلق،وعاملهم بأبسط يد "[١] ولكن أصبح للمنافقين جلبة ، وللمبطرين صولة ، وللكائدين أوكار · فخرجت الفتن من جحورها، يحملها الغيظ على الاسلام ودولته ورجالاته ، لزلزلة القلوب ، واثارة الثائرة عند تقلب الأمور ، وانتهت الحكاية بمقتل الخليفة المظلوم رضى الله عنه ·

وفى كتب الأدب والتاريخ من الأكاذيب والروايات والقصص النواسية ، ما يصيب القارىء بالدوار، كل ذلك لتشويه صورة ذى النورين ، ولاعطاء ابن سبأ وأعوانه من المنافقين مبررات لقتله · " فقد أنكر عليه فى آخر أيامه أفعالا ، كانوا فيما نقموا عليه من ذلك مخطئين ، وعن سنة المحجة خارجين ، فصار ما أنكروه عليه اختلافا الى اليوم "[٢] ·

وبذلك يكون مقتل الخليفة الثالث الباب الواسع الذى تدافعت الفتن والخلافات فيه على الأمة الاسلامية ، فقد روى الحافظ ابن عساكر عن حذيفة قوله : " أول الفتن قتل عثمان "[٣]· وبعدها كان الاختلاف والتمزق والفتن ·

وأكرم الله سبحانه وتعالى عثمان بن عفان بالشهادة على أيدى أوباش الناس ، وغوغاء القوم ، الذين عاثوا بالمدينة المنورة فسادا ، لقد كانت دماء عثمان واهدارها ظلما ، جذوة مضطرمة ، تصلي المسلمين بنيران الفتن والانقسامات " فقد اختلفوا بعد قتله فى قاتليه،وخاذليه ، اختلافا باقيا الى يومنا "[٤] ·

---

١) الملل والنحل · ج١/٢٦ · للشهرستانى ·
٢) مقالات الاسلاميين ص/٣ · لأبى الحسن الأشعرى ·
٣) البداية والنهاية · ج٧/١٩٢· لابن كثير ·
٤) الفرق بين الفرق · ص/١٤ · للبغدادى ·

وكأن عثمان رضى الله عنه يعلم أن الأمة مستقبلة أمرا مشتتا ، فكان عثمان يقول لمحاصريه : "فانكم ان قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ، ثم لم يرفعه الله عز وجل عنكم أبدا الى يوم القيامة "(١) .

"يا قوم : لا تقتلونى ، فانكم ان قتلتمونى كنتم هكذا ، وشبك بين أصابعه ، يا قوم ان الله رضى لكم السمع والطاعة ، وحذركم من المعصية والفرقة ، فاقبلوا نصيحة الله واحذروا عقابه ، فانكم ان فعلتم الذى أنتم فاعلون ، لا تقوم الصلاة جميعا ، ويسلط عليكم عدوكم "(٢)

وان الشعراء أدركوا أخطار تطاول الغوغاء على خليفة المسلمين وأبعاده وقد بلغوا دمه . انه سيجر على المسلمين سخط الله تعالى ونقمه ، ويلبسهم شيعا ، ويذيق بعضهم بأس بعض ، فقد قالت ليلى الأخيلية ، وهى تبكي عثمان بن عفان رضى الله عنه :

أبعد عثمان ترجو الخير أمته   وكان آمن من يمشى على ساق(٣)
خليفة الله أعطاهم وخولهم   ما كان من ذهب جم وأوراق

وكذلك أيمن بن خريم بن فاتك الأسدى:(٤)

فأي سنة جور سنّ أولهم   وباب جور على سلطانهم فتحوا

ولما قضي الأمر ، ووقعت الواقعة ، وبالصورة المفجعة ، التى تحدثت عنها الأخبار. اتجهت الأمة صوب سبيل المسيرة الدامية الباكية ، فقد خلف قتل عثمان رضي الله عنه بلاء عظيما ، وكربا شديدا ، وفتنا كقطع الليل المظلم ، ظل فيها الحليم حيرانا .

---

١) الفتوح : ج٢/٤١٧ . لابن أعثم .
٢) الامامة والسياسة . ج١/٤٢ - ٤٣. لابن قتيبة .
٣) الكامل . ج٣/٢٦ للمبرد
٤) المصدر السابق . ج٣/٣٠.

قال الحتات بن يزيد المجاشعي ، عم الفرزدق:[١]

لعمر أبيك فلا تجزعــن ... لقد ذهب الخير الا قليـلا
لقد سفه الناس في دينهـم ... وخلى ابن عفان شرا طويـلا

فلقد تمخضت الأمة عن شر ، بعد أن حملت من تلك المكائد والدسائس ، " اللهـم العن قتلة عثمان ، وغزاة عثمان ، وشنأة عثمان ، اللهم انا كنا نعاتبه ويعاتبنـا ، متى* كان من قبله يعاتبنا ونعاتبه ، فاتخذوا ذلك سلما الى الفتنة .. اللهم لا تمتهم الا بالسيوف "[٢] وهذا دعاء حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، صاحب سـر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين .

وأهل الشورى يتهربون من الموقف ، وزاد الحاح المسلمين ، والغوغاء منهـم - على علي رضى الله عنه لقبول المهمة الصعبة ، وكي لا تتسع دائرة الفتنة ، وهـو يردهم ، لأنه لا يريدها ، "دعوني والتمسوا غيري ، فاننا مستقبلون أمرا لـه وجوه ، وله ألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول " .[٣]

وفي النهاية ترجح عنده أن يقبل الخلافة ، وتمت بيعة المسلمين لـه بهـا وحاول أن يرد للخلافة هيبتها ، ولكن حالت الأهواء والظروف دون تحقيق ما يريـد ، وما تركته معاني من هذه الفتن " فالظروف التي تحيط به قاهرة ، قتلة عثمـان في جانبه ، القلوب لم تسلْ بعد مأساة عثمان ، الغوغاء المتمودون يخشـى بأسهم ، بعد ما فعلوا بالمدينة ما فعلوا ، الصحابة الكرام رضى الله عنه يلظون بمطالبة علي بتنفيذ القصاص بالقتلة ....ولم ينازعه أحد من الصحابة الخلافـة - كما صورهم أهل الأهواء من المؤرخين والرواة - وبيّن هذا الأمر الحافظ ابن حجـر العسقلاني رحمه الله تعالى ، فقد نقل عن كتاب أخبار البصرة ، لعمر بن شبـة ،

---

١) تاريخ الطبـرى : ج٤/٢٤٦.
٢) المصدر السابق : ج٤/٣٠٧. * لعلها "كما "
٣) الكامل لابن الأثير . ج٣/١٩٣.

قول المهلب : " ان احدا لم ينقل أن عائشة رضى الله عنها ومن معها نازعــوا عليا الخلافة ، ولا دعوا الى أحد منهم ليولوه الخلافة "[١].
وانما كانوا ينكرون على ابن أبى طالب سكوته عن قتلة عثمان،والالحاح عليه ، للتمكين من قتلهم .

وباءت كل محاولات الامام علي رضى الله عنه بالفشل ، وهو يحاول أن يــرد ذلك النفر من الصحابة الى وجهة نظره ، وبذل وسعه فى اقامة الحجة علــى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وعلى طلحة والزبير رضى الله عنهما .*

فقد كان يرى - علي رضى الله عنه - أنه لابد من خضوع الناس للخليفة ، ليقيم بينهم شرع الله تعالى ، ويساعدونه على ذلك ، ويقيم الحدود على الظالمين ، ومضت الأقدار الغلابة بالقوم ، ليلتقى المسلمون بسيوفهم ، وكانت معركة الجمــل .

وجاء معاوية بن أبى سفيان من الشام ، طالبا بدم عثمان كذلك ، والتقــت سيوف المسلمين ثانية فى "صفين" وانتهت بالتحكيم،ولكن الأهواء متشعبة ، وآلــة الشيطان حادة ، فرفض قوم التحكيم ، وخرجوا على الامام ، وفريق عـاد الى الشام مع معاوية ، وفريق بقي مع علي بن أبى طالب رضى الله عنه ، هذه المواقف المتباينة، التى اجتهد أصحابها للوقوف مع الحق،كما يرون ، أصبحت فيما بعد فرقــا ومذاهب منفصلة ، منهم " الخوارج والشيعة " .

وجاءت طعنة المرادي الغادرة ، ليكون أشقى الناس ، فمضى الخليفة الرابع الى ربه راضيا مرضيا ، مخلفا للمسلمين كذلك غير فتن وحروب ، وطلب اليــه أن يعهد الى أحد أولاده لمكانتهم فى المسلمين ،فقال: "لا آمركم ولا أنـهاكم

---

١) فتح البارى : ج١٣ /٤١ - ٤٢ . لابن حجر العسقلانى .
* مع اختلاف بين الرواة .

أنتم أبصر ، بل أترككم كما ترككم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلعل الله يجمعكم بعدي على خيركم،كما جمعكم بعد نبيكم على خيركم" .[(١)]

ونفض الحسن بن علي رضى الله عنه يده من الخلافة،وتنازل عنها لمعاوية وهذا من أعلام النبوة ، " فقد أصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"[(٢)]

وبدأ عهد جديد ، حيث برزت الى الوجود "الدولة الأموية" ولئن كان المسلمون قد خسروا في خضم تلك الأحداث قيادتهم الراشدة،الا أنهم عادوا ثانية الى وحدتهم،وازدادوا حنكة ووعيا ، وتعلموا من التجارب والأحداث ، ما جعلهم أكثر استعدادا للتضحية والبذل،من أجل حماية المنجزات،التي منحهم اياها عصر الراشدين العظيم ، ومن أجل أن يظل مجرى الحياة الصاخب العميق ، محكوما بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .[(٣)]

ولكن أبقت هذه الأحداث أثرها في النفوس ، ولكل وجهة هو موليها ، وأحب أن أبين قضية كثر لغط الباحثين حولها ، وزلت الأقدام والنوايا عندها .

ان معاوية رضى الله عنه ما كان يعتقد أنه خير الصحابة ، بل الذى يعلنه ويصرح به ، ما ذكره ثابت مولى سفيان ، قال : "سمعت معاوية ، وهو يقول : " انى لست بخيركم ، وان فيكم من هو خير منى ، ابن عمر وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وغيرهما ، ولكنى عسيت أن أكون أنكاكم في عدوكم ، وأنعمكم لكم ولاية ، وأحسنكم خلقا " .[(٤)]

---

١) مسند الامام أحمد . ج١/١٣٠ ، ١٥٦ . فأين اغتصاب أبي بكر للخلافة ؟!

٢) فتح الباري . ج١٣/٦١ . والحديث مروى عن أبى بكرة ، ان ابنى هذا لسيد ولعل الله أن يصلح ...." .

٣) حول القيادة والسلطة . ص/٤٢ . د/ عماد الدين خليل .

٤) سير أعلام النبلاء . ج٣/١٥٠ ، وتاريخ ابن عساكر ج١٦ / ٣٦٣.

وخلف معاوية خلق كثير يحبونه ، ويتغالون فيه ، ويفضلونه ، اما قد ملكهم بالكرم والحلم والعطاء ، واما قد ولدوا في الشام على حبه ، وتربى أولادهم على ذلك ، فيهم جماعة يسيرة من الصحابة ، وعدد كثير من التابعين والفضلاء ، وحاربوا أهل العراق ... كما قد نشأ جيش علي رضى الله عنه ورعيته - الا الخوارج منهم - على حبه والقيام معه ، وبغض من بغى عليه ، والتبرى منهم . وغلا خلق منهم بالتشيع ، فبالله كيف يكون حال من نشأ في اقليم لا يكاد يشاهد فيه الا غاليا في الحب ، مفرطا في البغض" .(١)

هذه الخلافات ، والظروف التي تحيط بها ، أفرزت خلافات وأحزابا وفرقا ، حتى أصبحت الخلافة فيما بعد نقطة التدابر بين المسلمين ، ومفرق الطريق، فالشيعة لا يقرون الا بخلافة علي وعترته ، وكل من نصبه المسلمون خليفة ، ظالم ومغتصب وآثم - ان لم يكن مرتدا . والخوارج على الطرف الآخر ، من هذه القناعات الباردة ، وما المعارك والدماء التي أريقت في كربلاء ودولاب ومرج راهط ودير الجماجم ، وغيرها فيما بعد ، الا في سبيل الوصول الى الخلافة ، بعد اجتهادات متباينة ، ترى الحق ، لا تراها الأطراف الأخرى ، لذا سفّهت وأسقطت . ورحم الله الشهرستاني ، فقد بيّن هذا في أجلى صورة ، فقد رأى أن التنافس على الخلافة ، ساحة تشتجر فيها سيوف المسلمين ، فقال : "وأعظم خلاف بين الأمة ، خلاف الامامة ، اذ ما سلّ سيف في الاسلام على قاعدة دينية ، مثل ما سلّ على الامامة في كل زمان"(٢)

وهكذا بدأت الخلافات السياسية ، ثم اكتملت دينية . (على كره مني لتلك التقسيمات). فالأسباب التي ذكرت ، أمضت سنة الله تعالى - مجتمعة "ولن تجد لسنة تبديلا"(٣) ،

---

١) سير أعلام النبلاء . ج٣/١٢٨ .
٢) الملل والنحل . ج١/٢٤ للشهرستاني .
٣) سورة الأحزاب . الآية /٦٢.

ولن تجد لسنة الله تحويلا - فى المجتمع الاسلامى •

ولا يعنى هذا أن السنن الكونية - الربانية - تمضى فى المجتمعات ، خبط عشواء ، بل تتحقق من خلال أفعال البشر وتصرفاتهم واختياراتهم ، وكأنى بها تعكس نتائج الترابط بين العناصر المختلفة ،التى تؤدى الى هذه التحركات التاريخية • " وهذا ينفى تقديمها كحتمية تاريخية قاهرة ، يتحول الناس ازاءها الى عبيد مسلوبى الارادة والعقل الحر ، والاختيار المسبق " (١) •

والذى اعتقده ، أن عملية التغيير الداخلى ، بداية الطريق لامضاء هذا السنن " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (٢) • هذا التغيير الذى يمتد الى المساحات الاخلاقية ، وسائر المكونات النفسية الأساسية ، وكل العلاقات الداخلية مع الذات والآخرين ، والتى تمكن الانسان - فردا وجماعة ، من مواجهة حركة التاريخ" (٣) • فالتغيير يتم وفق السنن الربانية ، التى لا تتخلف فى حركة التاريخ والدول والحضارة الا بارادة الله تعالى ، والأمة المسلمة قطاع من هذه الحضارات ، وجماعة من الناس ، الذين تحكمهم هذه السنن الماضية ، والتى تحركها تفاعلات وتحولات ، كلها لتلتقي مع سنن الله الغلابة • ويمكن أن تفهم هذه المعادلة ، على ضوء الحديث النبوى الصحيح الذى يبين قدرة الله على تصريف أمور الكون ،وما فيه كما يشاء ، ولكن نظمها فى سلك النواميس الكونية ،التى تحكم الحياة كلها ، تلك النواميس التى فطر الكون عليها • ولو شاء لفعل سبحانه وتعالى •

فقد ثبت عن النبى صلى اله عليه وسلم أنه قال: " سألت ربى ثلاثا ،فأعطانى اثنتين ، ومنعنى واحدة ، سألته ، أن لا يهلك أمتى بسنة عامة ، فأعطانيها ، وسألته

---

١) التفسير الاسلامى للتاريخ • ص/٢٥٦ • د/ عماد الدين خليل •
٢) سورة الرعد الآية • ١١•
٣) التفسير الاسلامى للتاريخ • ص/٢٦١•

أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم شديدا فمنعنيها " .

فالرسول صلى الله عليه وسلم ، يريد أن يضع يد أمته على تلك السنن ، حتى لا تسلط عليها ، فالخلاف والفرقة ، وما يجرانه من مصائب وبلايا على الأمة ، تحبو وفق سنة ربانية ، ان توفرت أسبابها .

وقد فهم شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، من الحديث السابق والحديث اللاحق ، ما يفيد هذا .

فقد ورد في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال لما نزل قوله تعالى : " قل هو القادر أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم " قال : النبي صلى الله عليه وسلم : أعوذ بوجهك ، " أو من تحت أرجلكم " قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أعوذ بوجهك " . " أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض "[١] قال: هذا أهون وأيسر " .

فهذا أمر لابد منه للأمة عموما ، والصحابة رضى الله عنهم كانوا أقل فتنا من سائر من بعدهم ، فانه كلما تأخر العصر عن النبوة كثر التفرق والخلاف ، ولهذا لم يحدث في خلافة عثمان بدعة ظاهرة ، فلما قتل وتفرق الناس ، حدثت بدعتان متقابلتان : بدعة الخوارج المكفرين لعلي ، وبدعة الرافضة المدعين لامامته وعصمته أو نبوته[٢] ، أو الاهيته"[٣] .

---

١) الأنعام . الآية : ٦٥.

٢) على اختلاف الرافضة فى ذلك بحسب فرقتهم . وما ذهبت اليه كل فرقة منهم .

٣) المنتقى من منهاج السنة . ص٣٨٦ - ٣٨٧. للامام الذهبي .

والذي نريد أن ننتهي اليه "أن هذه التفاعلات في المجتمع الاسلامي العربي كانت تأخذ طريقها ، ولابد أن تأخذ طريقها في ذلك المجتمع ، وأن هذه التفاعلات سنة من سنن الله " ولن تجد لسنة الله تبديلا "[1] وهي تفاعلات تحدث في كل أمة "[2]

---

١) سورة الأحزاب . الآية : ٦٢ .

٢) الدولة الأموية . ص/٩ . د/ يوسف العش .

ب/ الأسباب الخارجيـــة :-

سبق ان ألمحنا الى شدة التشابك بين العوامل الداخلية والخارجية ، التـــي دفعت الى ساحة المجتمع الاسلامى ألوانا من المذاهب،والأحزاب،والفرق ، وقد تبدى هذا الأمر ، ونحن نتحدث عن أثر الفتوح فى كيان الأمة المسلمة .

وان كنا ثنينا عنان الحديث الى شطر من تلك الآثار ، وما قصدت بذلـــك التنكر والتقليل من شأن العوامل الخارجية الموصولة بالأفواج الجديدة الوافدة الـــى ساحة هذا الدين ، وما تحمله من ديانات ملفقة ، وثقافات متباينة ، بعـــــد أن خذلتهم سيوفهم فى معاركهم مع المسلمين ، فأخفوا الكبر المهيض فى صدورهـــم ، وراء أقنعة متعددة ، تلك الأفواج التى تهاوت عروشها أو عروش أسيادها ، أمـــام الدين الجديد ، وركبه الفاتح الزاحف ، عروش حضارتين عظيمتين ، حضارة فـــارس وحضارة الروم ، وما يحيط بهما من امارات تعيش تحت رواقها .

ولا يمكن أن ينكر منصف التفوق الحضارى ، والازدهار الثقافى ، الذى تمتعت به رعايا هاتين الحضارتين ، فلكل منهما ثقافتها وعقائدها ، بغض النظر عـــن سلامة تلك العقائد أو فسادها - وأنماط تفكيرها وحياتها ، ونظرتها الى الانســـان كفرد أو كحاكم ، والذى يجمع تلك العقائد والثقافات - على تفاوت فى النســـب - النصرانية واليهودية والمجوسية ، وغيرها من ركام الضلال والانحراف .

ولما أظلت راية الاسلام بلادهم ومجتمعاتهم ، دخل كثيرون من أهل تلـــك الديانـــات القديمة فى الاسلام ، فكان منهم النصرانى واليهودى والمجوسي وغيرهم ، وكل هؤلاء فى رؤوسهم أفكارهم الدينية الباقية من دياناتهم القديمة ، ولا يمكن أن ينـزع الرجل من ذهنه خلفيته الفكرية التى عاش عليها ، بل وهرم عليها ، فكانوا يفكرون فى الحقائق الاسلامية على ضوء معتقداتهم السابقة .. ويجب أن نقرر أنـــه كـــان

بجوار هؤلاء ـ الذين دخلوا في الاسلام مخلصين ، ولكن ما زالت في رؤوسهم بقايا دياناتهم القديمة ـ آخرون دخلوا في الاسلام ظاهرا وأبطنوا غيره ، وما كان دخولهم الا ليفسدوا على المسلمين أمور دينهم ، ويبثوا فيه الأفكار المنحرفة ، ولذا وجد من نشر بين المسلمين أهواء مردية ، كما كان يفعل الزنادقة ، وغيرهم من المنحرفين "[1] .

وأيا كانت تلك الدوافع لهؤلاء الذين أظهروا اسلامهم حقيقة ، أو نفاقا وكيدا ، فقد اختلط المسلمون بهذه التركيبة البشرية ، وعاشوا معا على صعيد واحد ، وتحت راية واحدة ، ولكن الخلفية الفكرية جزء من شخصية المرء ، بل جزء من حياته التي يعيشها ، ويعيش لها وبها ، فالاختلاط لن يكون بالاجساد فقط ، بل سيكون بالثقافات والعقائد والتصورات ، تمازجا وتأثرا وتأثيرا .

والذي أميل اليه ، وأزعم قوة حجته ، ورجاحة بينته ، أن هذا اللقاء والتمازج الفكري سيكون لصالح العقيدة الصافية الصحيحة الواضحة ، ولتلائمها مع الفطرة البشرية السوية ، ولامتلاكها الموضوعية ، ولذا كان اللقاء لصالح العقيدة الاسلامية ، لتلك الأسباب ، ولهيمنة أتباعها ، وقوة حجتها ، والمهزوم تبع للمنتصر .

والفتق الذي انتاب كيان الأمة الاسلامية ، وتسربت منه مجموعات بشرية ، تحمل قناعات مضطربة ، متسولة على العقائد والأفكار المزيفة ، قد كان من عمل هؤلاء الذين أظهروا الاسلام نفاقا وكيدا ، وما حققته تلك المجموعات من هدم داخلي ، ومكر واحتيال ، عجزت عن تحقيقه القوى الكابية على حدود الدولة الاسلامية . وكم هي عديدة ومتنوعة تلك المكائد ، وما حديث يهود المدينة المنورة ومكائدهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ودعوته ، عنا ببعيدة .

---

١) تاريخ المذاهب الاسلامية . ص/١٤ ، للشيخ محمد أبو زهرة .

"ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم .."[1] "يا أيها الذين آمنـــــوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب ، يردوكم بعد ايمانكم كافرين ، وكيـــف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله ، وفيكم رسوله ؟ ! ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم .."[2] وكثيرة هى الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية التى تبين حقيقة هؤلاء القوم ، وما اعتادوه من كيد وخيانة ، ومحاربة لله ولرسوله وللمؤمنين . فقد حاربوا المسلمين ، بل العقيدة الاسلامية ، بالدس والتشكيك ، ونشر الشبهــات ، وتدبير المناورات ، كانوا يعمدون أولا الى عقيدتها الايمانية ، التى منها انبثـــق كيانها ، ومنها قام وجودها ، فيعملون فيها معاول الهدم والتوهين ، ذلك أنهم كانوا يدركون - كما يدركون اليوم تماما - أن هذه الأمة لا تؤتى الا من هذا المدخل ولا تهن الا اذا وهنت العقيدة فى نفوس أتباعها ، ولا تهزم الا اذا هزمت روحهـــا ، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئا ، وهى ممسكة بعروة الايمان ، مرتكنة الى ركنـــه "ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ..."[3] فهذه هى الغاية الثابتة الدفينة .[4]

فاليهود والنصارى لا يحرصون على شيء حرصهم على اضلال هذه الأمة ، وافساد عقيدتها ، التى رفعت للعرب ولأتباعها راية ، وأورثتهم ديار الكفر والضلال .. فلما عجزوا عن محاربة الأمة المسلمة ظاهرين ، توجهوا الى الدس والكيد والمكر ، وجدوا المنافقين والمتهورين المتظاهرين بالاسلام ، أو ممن ينتسبون للاسلام زورا ونفاقـــا لتنخر فى جسد الأمة من داخلها .

ولن نتوقف عند مكائدهم التى سببت لهم الاجلاء عن المدينة المنورة أولا ، ثم عن جزيرة العرب ، وانما نجتاز تلك المرحلة التى لم يكن لهؤلاء أثر فى المجتمـــع

---

١) سورة البقرة . الآيـة : ١٢٠ .
٢) سورة آل عمران . الآية : ١٠٠ .
٣) سورة آل عمران الآية : ٦٩ .
٤) انظر فى ظلال القرآن . م١ . ص/٣٥٤ .

المدنى ، لنصل الى ما نبغي ، من متابعة لهؤلاء الذين ركبوا سبيل التهديم والتمزيق ، يدفعهم حقدهم الدفين على الاسلام والمسلمين ، علها تفلح فى زعزعة كيان الدولة المسلمة ، وأثمرت غراس المكر بالفرقة والاختلاف ، والمذاهب السياسية الدينية ، بعد أن رويت من دماء أشلاء المسلمين فى ساحات الفتن ، ولقد عد الشيخ محمد أبو زهرة ، هذا الكيد من أعظم الأسباب التى أدت الى فرقة المسلمين ، أو قل فى ظهور تلك الفرق والأحزاب ، فقال : "ومن الأسباب - وهو أعظمها - وجود طوائف من الناقمين على الاسلام ، الذين يكيدون لأهله ، ويعيشون فى ظله ، وكان أولئك يلبسون لباس الغيرة على الاسلام ، وقد دخلوا فى الاسلام ظاهرا ، وأضمروا الكفر باطنا ... وكان الطاغوت الأكبر لهؤلاء عبدالله بن سبأ " .[1] وكان هذا المخذول يهوديا من أهل صنعاء ، ابن أمة سوداء ، تظاهر بالاسلام فى زمن عثمان رضى الله عنه ، وتنقل فى الأمصار الاسلامية ، بدءا من الحجاز ، ثم البصرة ، فالكوفة ، فالشام ، ووجد ضالته فى مصر ، لتأليب المسلمين على الخليفة الثالث ، خليفتهم عثمان رضى الله عنه ، ولاضلالهم فى متاهات الأباطيل والتصورات النكدة ، المستقاة من اليهودية المزيفة ، أو النصرانية المحرفة ، وفى كلتيهما الشر والضياع .

ومهما حاول بعض المؤرخين - المجارين لأعداء الاسلام ، التوهين من شأن ابن سبأ ، أو انكاره ، متذرعين بالأعمال العظيمة الواسعة ، التى لا يمكن أن يضعها رجل ، ونظروا اليه نظرة الدارس لأسطورة من أساطير اليونان ، فقد تظاهرت الأدلة على اثبات دور ابن سبأ الكبير فى أحداث الفتنة ، وما تبعها من تمزقات وشروخ فى جسد الأمة المسلمة ، مع أنهم نسوا " أن ابن السوداء[2] ، يمثل ظاهرة

---

١) تاريخ المذاهب الاسلامية . ص/٢٩ ، للشيخ محمد أبو زهرة .
٢) لقب عبدالله بن سبأ ، وذلك لسواد أمه .

خطيرة فى تاريخنا.. مع ذلك الحشد الكبير من اليهود الذين انتموا للاسلام ظاهريا ، وتسموا بأسماء اسلامية ، وظلوا يعملون - من وراء ذلك - على تخريب المجتمع الاسلامى من الداخل ، ورفدوا اسناد كل عناصر هدمه وتفكيكه ... وجائز اذن : أن يكون هناك عشرات ، بل مئات أمثال ابن سبأ ، لعبوا دورهم فى الفتنة ، دون أن يكشفوا عن حقيقتهم كما حدث بالنسبة لابن سبأ " .(١)

أضف الى هذا وأمثاله ، جموع الرعاع التى تتبع كل ناعق ، وتنساق فى جيش الفتن ، وهى تحسب أنها تحسن صنعا ، ونصرا للاسلام .

فقد نجحت جيوش الفتنة - يقودها ابن سبأ - فى تحقيق مآربها ، وهى تتوارى خلف عباءة المحبة الكاذبة لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولآل بيت رسوله صلى الله عليه وسلم . فقد كرست وعمقت مجرى الفتنة والافتراق فى مسيرة الأمة الاسلامية ، وأحدثت منعطفات قاتلة فى تاريخها .

لقد أراد ابن سبأ ، أن يتكىء على شئ ، وهو ينفخ فى رماد الفتنة ، فأعلن تأييده لعلى وحقه فى الخلافة ، وطرح لأول مرة فى تاريخ المسلمين ، نظرية الوصاية المقدسة ، ذات الأصل اليهودى ، قال : كان فيما مضى ألف نبى ، ولكل نبى وصى ، وأن عليا وصى محمد ، وقال : " محمد خاتم الأنبياء ، وعلى خاتم الأوصياء " . وقال : " ان عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، وهناك علي وصي الله ، فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، تستميلوا الناس "(٢) وبعد فترة من الزمن انبثقت فرقة مذهبية ، نسبت اليه فسميت " السبئية " . ولا يمكن أن تبرز هذه الفرقة المؤكدة تاريخيا من العدم " .(٣)

---

١) حول القيادة والسلطة . ص/٣٦ . د/ عماد الدين خليل .

٢/ انظر مقالات الاسلاميين للاشعرى والطبرى ، ج٢ . ص/٣٤٠ .
" ان ابن السوداء كان يحيك المؤامرات ، ويعبىء النفوس على الولاة ، ويبين لهم سبل الفتنة العمياء ليسلكوه " .

٣/ حول القيادة والسلطة . ص/٣٦ . د/ عماد الدين خليل .

هذه المؤامرة التى أدارها ابن سبأ ، والفتن التى أضرم نارها ، انتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ودفعت بالمسلمين الى أتون المعارك و لفتن، فتشتجر سيوفهم ورماحهم فى الجمل وصفين ٠٠ وهل استوت بعض هذه الفرق - ان كان فيها استواء - وقامت على أقدامها ، الا بعد هاتين المعركتين • واكتفى بعرض موقف من مواقفه ، فى سوق التحريش بين المسلمين ، انتزعته من أيام الجمل، وذلك بالعمل على افساد ما بين الأخوة ٠٠ وتعطيل مراكب الصلح والاتفاق ٠ والطرفان من الصحب الكرام ، يعرفان فساد طوية هؤلاء القوم ، ولكن يُملَكون ، ولا يَملِكون ، وثارت معهم العبدان ، وثابت اليهم الأعراب " ٠[1] ولما انقشعت سحب الاختلاف وتلاقى الأخوة على الصلح ، على يد القعقاع بن عمرو ، علمت السبئية أن المستقبل - فى الصلح - ليس لفرقة المسلمين ، وانما لكشف مكائدهم ، التى تقدم دماءهم عربون صلح بين الفئتين المتحاربتين من المسلمين ، بعد أن اتفقوا على العمل ، للقود من قتله عثمان رضى الله عنه ، وما تعداهم ، فانظر الى مكرهم ، فقالوا - السبئية - : "ان القوم ، ان اصطلحوا فانما يصطلحون على دمائنا " ٠[2] وكانت نصيحة الطاغوت الأكبر ، أن يلحقوا عليا بعثمان ، فلما تخاذلوا ، بل خذلهم الله تعالى ، وجههم الى طريقة يفسدون بها ما بين الطائفتين من المسلمين ، فقال : "يا قوم : ان عزكم فى خلطة الناس ، فصانعوهم ، واذا التقى الناس غدا ، فأنشبوا القتال - وكانوا بين الطرفين - ولاتفرغوهم للنظر ؛ فاذا من أنتم معه ، لا يجد بدا من أن يمتنع ، ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ، ومن رأى رأيهم ، عما تكرهون ، فأبصروا الرأى ، وتفرقوا عليه ، والناس لا يشعرون " ٠[4]

---

١) تاريخ الطبرى : ج٤/٠٤٣٧

٢) البداية والنهاية : ج٧/٢٦٠ ٠ لابن كثير ٠

٣) المصدر السابق : ج٧/٠٢٦٠

وبذا وجد المسلمون أنفسهم وجها لوجه ، أمام التآمر والكيد اليهودى والمجوسى . والحقد الصليبى ، يزرعون الفتن والانقسامات والشحناء بين رعايا الدين الجديد .

وهذا الدور الذى قام به من نذروا أنفسهم للتخريب الداخلى ، فى صفوف الجماعة المسلمة ، والتهديم الباطنى فى جسدها ، هو اللون الأول ، وهناك لون آخر - وهو غير مباشر - تسلل مع الذين انضموا الى حظيرة الاسلام ، ونقلوا معهم ما بقى فى أذهانهم من مفاهيم وعقائد ، والموالى خير من يمثل هؤلاء ، فقد كانوا أكثر التصاقا وتمازجا مع المسلمين فى بيوتهم أو فى ساحات القتال .

الى جانب الدور الثانى ، الذى لعبه ابن سبأ ، فى افساد عقيدة المسلمين ، فأدخل الى أذهانهم ، مفاهيم عرفتها اليهودية والنصرانية بعد تحريفها ، كالقول بالوصية - وهذا ليس بعيدا عن اليهودية ، فقد "كان فى اليهودية يقال : "يوشع بن نون وصى موسى عليهما السلام" فقال فى على رضى الله عنه بأنه وصى محمد . وكذلك مفهوم الرجعة " . فأتى - ابن السوداء - مصر ، فاعتمر فيهم ، فقال لهم فيما يقول يعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع - ويكذب بأن محمدا يرجع ، وقد قال الله عز وجل : "ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد" .[1] فمحمد أحق بالرجعة من عيسى ، قال : فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها ، ثم قال لهم بعد ذلك : انه كان ألف نبى ، ولكل نبى وصى ، وكان على وصى محمد".[2] مع أن القول بالرجعة ، ليس غريبا على المسلمين ، ولكن ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانما لأخيه عيسى عليه السلام ، الذى رفع الى السماء وسيعود ليملأ الأرض عدلا ، بعدما ملئت جورا .

---

١) سورة القصص . الآيــة : ٨٥.

٢) البداية والنهاية . ج٧ / ٢٦٠ . انظر : الطبرى : ج٤ /٤٣٧.

ولا يسعنا أن نغفل الروافد الأخرى للضلال والافساد والتآمر ، التى سالت من مستنقعات الديانات الفارسية ، من مجوسية ومانوية وزرداشتية ، وغير هما ، فما كان دورهم بأقل من اليهود والنصارى ، ولكن ليس على ذلك المستوى من التخطيط والتنفيذ .
"لقد كان هؤلاء ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات الهية اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، وخصهم بالسيادة ، وأيدهم بروح من عنده ، فهم ظل الله فى أرضه ، أقامهم على مصالح عباده ، وليس للناس قبلهم حقوق ، وللملوك على الناس السمع والطاعة ، وهو معنى يشبه ما عرف بأوربا بنظرية الحق الالهى".[1] وهذا ما نادت به الشيعة وكرسته كعقيدة جديدة فى أذهان أتباعها ، وكان أولئك هم الأئمة الأطهار من آل البيت رضوان الله عليهم .

ولكن ما أثر هذه الأفكار والعقائد كلها ، فى ما ذهب اليه الخوارج ؟ او لم يكن من أثر الا أن وقفت فى خندق المواجهة لهذه الضلالات ، أو أوقفتها فيه ، لكان أثرا كبيرا ، وان كانت غير بريئة من التأثير ، ولو كان محدودا .

فالفرس وما يحملونه ويمثلونه من تلك الديانات ، وما ترتفع به صدورهم من الكبر والازدراء للأمة الفاتحة من العرب ، عملوا على الثأر لتلك العروش المثلولة ، ولعقائدهم الكاسدة ، فراموا كيد الاسلام كذلك ، بنشر الانحراف والتشكيك فى صف الأمة المسلمة ، وقد أشار المقريزى فى خططه ، الى هذا الأمر فقال : "واعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الاسلام ، أن الفرس كانت من سعة الملك ، وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة الخطر فى أنفسها ، بحيث انهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد ، وكان يعدون سائر الناس عبيدا لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم الى أيدى العرب ، وكان العرب عند

---

١) فجر الاسلام . ص/١١١ . أحمد أمين .

الفرس أقل الأمم خطرا ، تعاظمهم الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الاسلام ، بالمحاربة فى أوقات شتى ... فرأوا أن كيده على الحيلة أنجح ، فأظهر قوم منهم الاسلام ، واستمالوا أهل التشيع باظهار المحبة لأهل البيت ، واستبشاع ظلم على ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى ، حتى أخرجوهم عن طريق الهدى "[1] .

كل هؤلاء ، ومن وراءهم من دعاة الفساد والضلال ، من المنافقين والرعاع ، ساعدوا على خلخلة الصف المسلم ، وانتشار البدع بين المسلمين ، وعندها مضت السنة الربانية : "أغرينا بينهم العداوة والبغضاء ... أو يلبسكم شيعا ، ويذيق بعضكم بأس بعض ، وقد أصاب الأستاذ أحمد أمين فى قوله وهو يتحدث عن تلك الجمعيات . " انه - ابن سبأ - وضع تعاليم لهدم الاسلام ، وألف جمعية سرية لبث تعاليمه ، واتخذ الاسلام ستارا يستر به نياته "[2] .

وأود أن لا أطيل الحديث هنا ، وانما ندخره لساعة الحديث عن نشأة كل فرقة .. كما أننى أختم حديثى بالقول : " ان كل فرقة تمت الى التشيع لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه - زورا - باسم أو بمفاهيم عقدية ، هى من نبع السبئية ، وأصولها ، ومنه انشعبت أصناف الغلاة من طوائف الرافضة ، بعد أن طعنوا على علي من وراء وراء ، وذلك فى نهاية موقعة الجمل .

وقد يعجب القارئ من هؤلاء القوم ، وسلوكهم ومكائدهم ، ويستعجل لهم العذاب والخزى فى الدنيا قبل الآخرة ، فيلحّ فى صدره سؤال ، ما مصير هؤلاء وما الذى فعله بهم ابن أبى طالب رضى الله عنه ؟

ان حجم الدور الخطير ، الذى لعبه ذلك الخبيث ، ومن معه من أتباعه متخذا آل البيت النبوى ، سلما لدك حصن الأمة ، المتمثل فى عقيدتها ، دفع أمير

---

١) خطط المقريزى . ج١/ ٣٦٢.

٢) فجر الاسلام . ص/٢٦٩.

المؤمنين على كرم الله وجهه ، الى أن يقذف بهم فى النار ، نكالا لهم ، وقال فى ذلك :

لما علمت الأمر أمرا منكرا   أوقدت نارى ، ودعوت قنبرا [(١)]

كيف لا ، وقد جعلوه ربا من دون الله ؟!

وابن عباس رضى الله عنه ، خالف عليا فى احراق هؤلاء ، كما ورد فى فتح البارى وهو نفسه الذى نهى عليا عن قتل ابن سبأ ، حينما بلغه عنه غلوه فيه ، وأشار عليه بنفيه الى المدائن ، حتى لا تختلف عليه أصحابه ، لاسيما وهو عازم على العودة الى قتال أهل الشام ، وهو محتاج الى مداراتهم ، وقال المحققون من أهل السنة : " ان ابن السوداء كان على هوى دين اليهود ، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته فى على وأولاده " [(٢)] .

وأظن أن ما ذهب اليه الدكتور عرفان عبدالحميد فى قوله : " والذى تميل اليه ، ويقرره واقع الأحداث ، هو أن أثر هذه الثقافات الأجنبية جاء تاليا ولاحقا ، وانحصر فى تطوير الاتجاهات والمذاهب واثرائها .." [(٣)] يحتاج الى الضبط والاحتراز له ، لأن الواقع التاريخى يخالف ما ذهب اليه ، فى كثير من الأحيان ، وانما هى عملية متكاملة .. ولادة وتربية وافسادا .

---

١) فتح البارى . ج١٢/٢٧٠ . مع اختلاف يسير فى الشطر الأول . " انى اذا رأيت الأمر   أمرا منكرا " وقنبر هذا مولى لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه .
٢) الفرق بين الفرق . ص/٢٢٥ . للبغدادى .
٣) دراسات فى الفرق والعقائد الاسلامية . ص/١٧ .

الفصل الثاني

الخوارج

نشأتهم : آراؤهم : شعرهم

نشأة الخــــوارج:-

لقد اختلف الباحثون فى سبب تسمية هذه المجموعة من الناس ، التى شكلت فيما بعد حزبا سياسيا ، ثم فرقة مذهبية بـ " الخوارج " ، ومفردها خارجي • فمن كتب من المسلمين فى الفرق الاسلامية ، تناول هذه التسمية من مفاهيم السياسة الشرعية ، وهو الخروج على الامام ، أو على جماعة المسلمين وامامهم ، وبذا يقول الشهرستاني : " كل من خرج على الامام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه ، يسمى "خارجيا " سواء كان الخروج فى أيام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أو كان بعدهم على التابعين باحسان ، والأئمة فى كل زمان " .(١)

فجاءت هذه التسمية ، من خروجهم على الخليفة الرابع ، علي بن أبى طالب رضى الله عنه ، وان كان أبناء هذه الطائفة يلتمسون تخريجا مشرفا لهم بهذا الاسم ، فيزعمون أنه من الخروج فى سبيل الله تعالى ، وهو الخروج الذى عنته الآية القرآنية الكريمة " ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما " •(٢) ولذا فقد تردد فى أشعارهم على سبيل الفخر والاعجاب • ومن هؤلاء الذين أنزلوه هذه المنزلة ، شاعرهم سميرة ابن الجعد :(٣)

فمن مبلغ الحجاج أن سميرة   قلى كل دين غير دين الخوارج

وكذلك الأصم الضبي:(٤)

النافرين على منهاج أولهم   من الخوارج قبل الشك والريب

---

١) الملل والنحل : ج١/١١٤•
٢) سورة النساء : الآية /١٠١ •
٣) شعر الخوارج • ص١٢٢ • واسمه فى فتوح ابن أعثم " سبرة بن الجعد " • وعلى هذا تجيء لفظة "سميرة" فى البيت الأول بمعنى " من يسمر عنده" وقد يكون تصغيرا لسمرة ، وهى ضرب من الشجر ، والعرب تسمى بالشجر ، وحسبك طلحة •
٤) شعر الخوارج • ص/١٢٥ • واسمه قيس بن عبدالله •

وقد عرفوا بأسماء أخرى غير " الخوارج " ، وأغلبها واكب أحداثا ، في أماكن مختلفة ، فاشتقت منها تلك الأسماء ، فسموا الحرورية " نسبة الى البلدة التي اعتزلوا اليها ، بعد مفارقتهم جيش على كرم الله وجهه . وقد أورد المبرد في كامله قولة على رضى الله عنه لهم " أنتم حرورية لاجتماعكم في حروراء "[1] . وعرفوا بـ" المحكمة "[2] لما رفضوا التحكيم ورفعوا شعارهم " لا حكم الا لله " .

وأحب الأسماء اليهم " الشراة " وهي جمع شار ،أي الذين يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله .[3] وهو ترداد للأية القرآنية الكريمة " ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله .."[4] ولذا أكثروا من ترديده على ألسنتهم . لما لهذه اللفظة من وقع في القلب ، وظلال في النفس ، توحي بالصفقة الرابحة مع الله .. جهاد من جانبهم ووعد من الله - للمؤمنين المخلصين - بالجنة ، فاسمع الى تلك اللفظة ووقعها في أبيات معاذ بن الجوين :[5]

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ　　شرى نفسه لله أن يترحلا

وهذا زعيم الخوارج المخلوع معدان بن مالك الايادي ، يحدد ملامح الشراة في شعره ، ويبعد القعدة عن تلك المجموعة .. فالشاري لا يقعد عن الجهاد :[6]

سلام على من بايع الله شاريا　　وليس على الحزب المقيم سلام

وأما أهل الحديث ، - وهم أقوم سبيلا - يفضلون الالتزام بالمصطلحات التي وردت في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . فلما انطبقت عليهم أوصاف القوم الذين نعتهم

---

١) الكامل ج٣/١٨١ . وحروراء قرية بظاهر الكوفة . انظر معجم البلدان .
٢) تاريخ الطبري . ج٥/٥٥ . وان لحقت بقوم كنت أوحدهم : في جور سيرتهم فالحكم لله
عمرو بن ذكينة الربعي - معجم الشعراء ص/٣ .
٣) دائرة المعارف الاسلامية . ج٨/٤٧١ .
٤) سورة البقرة الآية : ٢٠٧ .
٥) تاريخ الطبري . ج٦/١٠٧ . شعر الخوارج ، ص/٤٥ ، د/ احسان عباس .
٦) شعر الخوارج . ص/٣١ . د/ احسان عباس .

لصحابته ، " وأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ..".[1] سموهم " المارقة " ، وهو أقبح الأسماء ، وأشدها اغاظة لهم .

فكل التسميات السابقة ، أطلقت على تلك المجموعة التى خرجت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وانشقت عنه ، وفارقت جماعة المسلمين ، عقب قبوله التحكيم فى معركة صفين ، واعتزلت معسكره .

واذا كان الباحثون قد اختلفوا فى سبب تسمية هذه المجموعة بـ " الخوارج " فمن الأولى أن يتبسطوا ، وهم يتلمسون نشأتهم ، وبخاصة بعد أن أداروا ظهورهم لما ورد من أحاديث صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وركنوا الى الأساطير الصادرة عن أهل الأهواء والمجروحين ، وان كان ورد عن الامام مالك رضى الله عنه ، أنه قال : "ولم يكن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر وعمر شىء من أهل الأهواء ، يعنى بدع الخوارج والروافض و القدرية ".[2] فلا يعنى هذا ، أن حادثة التحكيم قد تمخضت عن هذه الفرقة ، دون أن تمضى فترة حمل كافية ، تجمعت فيها أمشاج هذه المخلوق ، اذ لا يمكن أن تظهر مجموعة بهذا العدد ، " دفعة واحدة ، بل لابد أن فكرة الحزب التى تكونت حولها مبادؤه الأولى ، كانت منتشرة فى فئة من المسلمين ، أو أنها تتفق مع أغراض أو أفكار أخرى ، تشغل بال المسلمين ، قبل التحكيم " .[3]

---

١) فتح البارى : ٦٩٣٠. ج١٢/٢٨٣. وتمام الحديث .. عن سويد بن غفلة ، قال: على رضى الله عنه ، اذا حدثتكم عن رسول الله (ص) حديثا ، فو الله لأن أخرّ من السماء ، أحب الى من أن أكذب عليه ، واذا حدثتكم فيما بينى وبينكم فان الحرب خدعة ، وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " سيخرج قوم فى آخر الزمان أحداث الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البرية ، لا يجاوز ايمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فان فى قتلهم أجرا ، لمن قتلهم يوم القيامة " .

٢) فتح البارى . ج١٣ /٢٥٣. لابن حجر العسقلانى .

٣) أدب الخوارج فى العصر الأموى . ص/٢ . د/ نايف معروف .

فما هي تلك الأفكار التي كانت تشغل البال في ذاك الزمن ؟٠

ان الردة وما خلفته وراءها في عالم المسلمين ، والفتوحات التي ندبت المسلمين للنزوح الى بلاد بعيدة ، وما نتج عنه من قلق في حياتهم ، واستثمار لأموالهم ، وتنافس فيما بينهم ، على تلك الثروات الهائلة المتباينة التوزيع والامتلاك ، بحكم السابقة في الجهاد والاسلام لبعضهم ، اذ اهدتهم من الدنيا ومتاعها ، ما قصر الآخرون عن ادراكه ، بعد أن تأخر اسلامهم ، فدب داء الحسد والبغضاء الى قلوب بعضهم[1] ٠

روى الامام البخاري في صحيحه ، أن أبا برزة ، قال : ان هؤلاء - يعني الخوارج - والله ان يقاتلون على دنيا "[2] ٠ وقد يكون هؤلاء صنفا منهم ، ولا ينسحب هذا الحكم على الأغلبية ٠

الى جانب تلك الروح المتمردة على كل سلطة ، التي تؤمن،وتمثل الروح الفردية ، والنزعة المتشددة ، تلك النزعة التي حاول الاسلام اذابتها ، وتوجيهها الى طاعة الله ورسوله وأولي الأمر منهم ٠٠ ولا أدل على ذلك من موقف حرقوص بن زهير ، ذي الخويصرة التميمي ،[3] مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في غزوة حنين - على الأرجح - فقد روي أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد غزوة حنين ، وهو

---

١) العواصم من القواصم ٠ ص/٥٨٠ "فحسدوا أهل السابقة من كثرة ما أصابوا من مغانم شرعية ، جزاء جهادهم وفتوحهم ٠

٢) فتح الباري ٠ ج١٣ /٠٦٩ لابن حجر العسقلاني ٠

٣) ذكره الطبري في الصحابة ، وكان مع علي في حروبه ، ثم صار مع الخوارج فقتل معهم ، وهو ذو الثدية ، وذهب ابن الجوزي ، الى أنه أول خارج خرج في الاسلام ، وآفته أنه أعجب برأيه ٠٠٠ وهو أحد المدبرين للفتنة ضد عثمان ، قاد ثوار البصرة يومها ، ثم قاد المنشقين على علي ، قتل في النهروان ٠ وردت قصته في صحيح مسلم ٠ والكامل،للمبرد ٠

يقسم الغنائم ، وكان قد آثر نفرا من الناس ، تألفا لقلوبهم ، فقال ذو الخويصرة - أعدل يا رسول الله ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ويحك ومن يعدل اذا لم أعدل . ؟ ثم قال صلى الله عليه وسلم : انه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا ، لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " .(٢)

فرغم قراءتهم الطويلة لكتاب الله ، دون فهمها على ضوء الأحاديث النبوية ، انزلقوا فى سبل الغواية ، وأخطأوا السبيل ، "لأن الجهل بمقاصد الشريعة ، والتخرص على معانيها بالظن من غير تثبت ، أو الأخذ فيها بالنظر الأول ، ولا يكون ذلك من راسخ فى العلم . ألا ترى الخوارج كيف خرجوا من الدين ، كما يخرج السهم من الصيد المرمي ؟ لأن رسول الله وصفهم ، بأنهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يعنى - والله أعلم - أنهم لا يتفقهون به ، حتى يصل الى قلوبهم ، لأن الفهم راجع الى القلب ، فاذا لم يصل الى القلب ، لم يحصل فيه فهم على حال ، وانما يقف عند محل الأصوات والحروف " .(٢) فقد هلك هؤلاء القوم ، عند متشابه القرآن .

ولا تبرىء ما اعتلج فى نفوس القوم ، أو بعضهم من روح قبلية متوارثة . "وهنالك من يرى أن الخوارج نبتوا من فرقة السبئة الغلاة ، ذلك أن زعماء الخوارج الأول[*] ، أو بعضا منهم على الأقل ، كانوا يعارضون ولاية عثمان نفسه ، واشتركوا جميعا فى المسؤولية فى قتل عثمان ، بل فاخروا بهذا الاشتراك ، ولذلك كانوا

---

١) وردت فى صحيح الامام البخارى ، وصحيح الامام مسلم ، أحاديث كثيرة ، وقد صنفها الامام البخارى تحت "باب اعطاء المؤلفة ، ومن يخاف على ايمانه" و "التحريض على قتال الخوارج" . ج٧/١٦١ - ١٧٤ .

٢) الاعتصام . ج٢/١٨٢ . للشاطبى .

*) وقد عدهم الدكتور شوقى ضيف بذرة الحزب الخارجى . التطور والتجديد . ص/٨٧ .

يتخوفون من انقطاع الحرب ، وعقد الصلح ، مخافة أن يعاقبوا على اشتراكهم في مقتل عثمان ، فكانوا سببا في العمل من أجل الدعوة الى الحرب واستمرارها "[1] .

ومن نظر الى أن الخوارج مجموعة قائمة بعد التحكيم ، وأغضى عن الماضي وما يحمله من ارهاصات ، لظهور مثل هذه الدعوات ، " ذهب الى تفسير سوء الأحوال العامة ، على أساس الردة والأنحراف عن المبدأ الاسلامي في صفائه ونقائه ووضوحه وبساطته ، ومن ثم رأى هؤلاء أن تجاوز المشكلات العامة ، وحالات القلق والحيرة والاضطراب ، لا يكون الا بعودة صادقة ، وصارمة الى الالتزام بالمثل العليا الاسلامية ، وهو ما أجتمعت عليه كلمة من صاروا يعرفون ويشكلون " حزب الخوارج ، بفصائله ومدارسه ... معتقدين أن الجماعة الموحدة الملتزمة ، بالمبدأ من غير مواربة أو مخاتلة ، هي وسيلة النجاة ، والطريق السوي للخلاص "[2] .

والذي أميل اليه ، أن الأسباب السابقة مجتمعة ، كانت المحضن والشريان الذي يغذي هذه الأمشاج .. ويدفعها الى حيز التكوين - وتأتي الأحداث فيما بعد لتكسو العظام لحما ، وتجعله كيانا مكتملا ، فلا رعى الله من كان وراءه ، وأعان على ظهوره .

ظهـــور الخـــوارج :-

بعد أن انتهى علي رضي الله عنه ، من معركة الجمل ، التقى مع جند الشام في صفين سنة (٣٧ هـ) . ولما برق نجم الغلبة في سماء جند الامام ، طلب أهل الشام التحكيم ، ورفعوا المصاحف على أسنة الرماح ، وناشدوهم الله والاسلام ، أن يكفوا عن القتال ، فقد استحر القتل في المسلمين ، ولكن المكيدة لم تنطل على أمير المؤمنين

---

١) دراسات في العقائد والفرق الاسلامية . ص/ ٩٤ . د/ عرفان عبدالمجيد .

٢) المصدر السابق . ص/١٣ .

رضى الله عنه ، وأراد أن يمضي القتال لينكشف الموقف .. الا أن بعض أصحابه اختلفوا عليه ، وألزموه بقبول التحكيم ، رغم توجسه منه [١] . فقد أورد ابن كثير ذلك التحذير على لسان علي رضى الله عنه : "ويحكم والله ما رفعوها ، انهم يقرأونها ، ولا يعملون بما فيها ، وما رفعوها الا خديعة ، ودهاء ، ومكيدة ، فقالوا له : ما يسعنا أن ندعى الى كتاب الله ، فنأبى أن نقبله ، فقال لهم : انى لم أقاتلهم الا ليدينوا بحكم الكتاب ، فانهم قد عصوا الله فيما أمرهم به ، وتركوا عهده ، ونبذوا كتابه ، فقال له مسعر بن فدكي التميمي ، وزيد بن حصين الطائي ، ثم السبئى ، في عصابة معهما من القراء ، الذين صاروا بعد ذلك خوارج : يا علي ، أجب الى كتاب الله اذا دعيت اليه ، وإلا دفعناك برمتك الى القوم ، أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان ، انه غلبنا أن يعمل بكتاب الله ، فقتلناه .." [٢] والله لتفعلنها ، أو لنفعلنها بك ، قال : فاحفظوا نهيي إياكم ، واحفظوا مقالتكم لي . أما أنا فان تطيعوني فقاتلوا ، وان تعصوني ، فاصنعوا ما بدا لكم . قالوا : فابعث الى الأشتر فليأتك ، ويكف عن القتال ، فبعث اليه ليكف عن القتال" [٣] .

وفجأة نجد هؤلاء القوم في طرف آخر - رمتني بدائها وانسلت - هاهم يرفضون التحكيم . [٤] ويعتبرون قبوله ، والدعوة اليه كفر ، تجب التوبة منه . فكان ردّ على

---

١) وما عرفت الأسباب التي دفعت سهير القلماوي الى قولها : "فهل نستطيع أن نتخذ من هذا تفسيراً لتلك الروايات غير المعقولة التي تقول : ان الخوارج طلبوا التحكيم ، ثم رفضوه ، وحاربوا عليا من أجله ، والخوارج قوم مبدأ وثبات على الحق" . ص/٢١ .

٢) وفي هذا اشارة صريحة ، بل اعتراف باشتراكهم في قتل عثمان ، فهل كان هؤلاء نواة هذا الحزب ؟ هذا ما ذهب اليه شوقي ضيف ، في كتابه التطور والتجديد . ص/٩٤ .

٣) وقعة صفين . ص/٥٦٠ - ٥٦١ ، وما بعدها . وتاريخ الطبرى : ج٥/٤٩ . والملل والنحل : للشهرستاني . ج١/١١٤ . والبداية والنهاية . لابن كثير . ج٧/ ٢٧٣ .

٤) أرجح أن يكون هؤلاء السبئية .

رضي الله عنه على القوم " ما هو بذنب ، ولكنه عجز من الرأى " .[1]

وتنادى القوم ، واجتمعوا على الشعار الذى أطلقه عروة بن أدية ، أخو أبي بلال ، مرداس بن جرير من بنى ربيعة ، وقد ترددت هذه الجملة على ألسنة القراء ، وصرخوا " لا حكم الا لله "[2] وكان الشعار الذى يشغبون به على علي رضى الله عنه ومن معه ، فسموا " المحكمة " وتفرق الناس الى بلادهم من " صفين " ، وخرج معاوية الى دمشق بأصحابه ، ورجع علي الى الكوفة ، وخلفه خصومات وأهواء ، وعلى مشارف الكوفة ، اعتزلت طائفة من جيش علي ، تقدر باثنى عشر ألفا ، - وهم الخوارج - وأبوا أن يساكنوه وأنصاره ، فنزلوا في مكان يقال له " حروراء " متذرعين بأشياء ارتكبها ، وأنكروها عليه ، فبعث اليهم ابن عباس رضى الله عنهما .[3] فناظرهم مفندا حججهم ومزاعمهم ، فرجع أكثرهم ، وقاتل علي رضى الله عنه بقيتهم ، وكان زعيمهم يومئذ عبدالله بن الكواء ، وشبث بن ربعى ، أمير القتال ، والأول أمير الصلاة .

لقد كان هؤلاء القوم بالأمس من فرسان جيش علي ، فما بالهم يخرجون عليه ، ويشتدون فى قتاله ؟ !

ان هذا السؤال هو الذى شغل أمير المؤمنين ، ابن أبى طالب رضى الله عنه ، فطرحه عليهم . " ما أخرجكم علينا ؟ قالوا : حكومتكم يوم صفين ، فقال : أنشدكم الله ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم*، فرددتم رأيى ؟ ولما أبيتم الا ذلك ، اشترطت

---

١) تاريخ الطبرى . ج٥/٥٥ والبداية والنهاية . ج٧/٢٧٩.
٢) مقالات الاسلاميين . للأشعرى . ص/٨٦ . والملل والنحل . ج١/١١٥. والتبصير فى الدين ص/٤٦.
٣) انظر الطبرى. ج٥/٦٤- ٦٦. والكامل . لابن الأثير .ج٣/٣٢٦- ٣٢٨.
*) وفى هذا رد على افتراءات نصر بن مزاحم ، وابن أبى الحديد . أن عليا رضى الله عنه قبل التحكيم لخوفه على ولديه ، الحسن والحسين رضى الله عنهم ، ولفشل أصحابه فى الحرب " انما فعلت ما فعلت ، لما بدا لي فيكم من الخور والفشل عن الحرب " . شرح نهج البلاغة . ج١ /١٣٩.

على الحكمين ، أن يحكما بما فى القرآن ، فاذا حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما فى القرآن ، وان أبيا فنحن من حكمهما براء ، فقالوا له : فخبّرنا ، أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء ؟ فقال : انا لم نحكم الرجال ، وانما حكمنا القرآن ، وهذا القرآن ، انما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق انما يتكلم الرجال "(١)

ورغم غلو هؤلاء القوم ، لم يمنع أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه ، أن يتبع اللين والنصح معهم ، طمعا فى عودتهم عن غيهم ، أو عما زين لهم ، فقال لهم : " أما وان لكم عندى ثلاثا ما صحبتمونا ، لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا نمنعكم الفيء ،ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا "(٢).

وحاول زعماؤهم أن يرجعوا أمير المؤمنين عن التحكيم ، والعودة الى تحكيم السيوف بخصومهم من أهل الشام ، بعد التوبة من الخطيئة ، ولكن العهود والمواثيق لا يتجاوزها المؤمنون ، ويرون الوفاء بها واجبا ، فضاق الخوارج بهذا الموقف .. وزاد الطين بلة فشل " الحكمين فى حكمهما ، وخيبة الآملين فى أن التحكيم يحقن الدماء ، ويعيد المسلمين الى الوئام .

ولما يئست هذه الفرقة من رجوع على رضى الله عنه ، الى رأيهم اجتمعوا فى منزل أحدهم ، وبايعوا " عبدالله بن وهب الراسبى " أميرا عليهم ، وذلك فى شوال سنة " ٣٧ هـ " . ونزلوا النهروان ، وكتبوا الى أصحابهم أن يوافوهم فيها ، ويتجمعوا هناك .(٣)

---

١) تاريخ الاسلام السياسى . ج٣ /٣٧٧.
٢) تاريخ الطبرى . ج٥/٧٣. والكامل فى التاريخ لابن الأثير . ج٣/٣٤٤.
٣) الطبرى . ج٥/٧٢ وما بعدها .

وجاء عليا رضى الله عنه ، ما شغله عنهم ، اذ بدأ يتجهز للقاء أهل الشام ، وردهم الى صف الجماعة ، الا أن اجتماع الخوارج لم يكن على خير ، اذ تعرضوا بالقتل والايذاء للمسلمين ، والافساد فى الأرض ، حتى ذبحوا "عبدالله بن خباب بن الأرت" رضى الله عنهما ، وبقروا بطن أم ولده .. وقتلوا بعض النسوة والأطفال .(1) فبعث اليهم أمير المؤمنين ، "الحارث بن مرة العبدى ، ليأتيه بخبرهم ، فقتلوه كذلك . عندئذ توجه اليهم ، وطلب منهم تسليم قتلة عبدالله بن خباب ، للقصاص منهم ، "فقالوا: كلنا قتلناه ، ولئن ظفرنا بك قتلناك" .(2) فحاورهم علي ثانية ، وأسقط حججهم ، واجتهاداتهم الباردة ، وأخرجت - هذه المحاورة - عددا من صفوفهم ، ودارت المعركة على الباقين . وكانت ساعات شديدة ، فلم يفلت منهم الا النذر اليسير ، "أقل من عشرة" .(3)

.. لقد خلفت معركة "النهروان" فى نفوس الخوارج جراحات عميقة نازفة ، أمدتهم بغليان يضطرم فى صدورهم ، ليمتد ثورات متلاحقة ، ينالون من أعدائهم ، انها "كربلاء" الشيعة كما قال نيكلسون .(4) فقد دفعتهم هذه المعركة الى التشرد فى الأمصار الاسلامية ، ولكن للعودة الى جولات صارمة شديدة ، بدأت باغتيال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، اذ أردته طعنة المرادى عبدالرحمن ابن ملجم ، بتحريض عرسه قطام ، التى أرادت أن تثأر لوالدها وأخيها اللذين هلكا فى النهروان .

لقد كانت الخوارج الطائفة الثانية ، التى ذكرها علي رضى الله عنه فى قوله "سيهلك فيّ صنفان : محب مفرط يذهب به الحب الى غير الحق (وهم الشيعة).

---

1) تاريخ الطبرى . ج٥/٨١ . وانظر . الكامل - لابن الأثير . ج٣/٣٤١.
2) تاريخ الطبرى . ج٥/٨١ ؛ والفرق بين الفرق . ص٦١ . والملل والنحل. ج١/١١٧. والتبصير فى الدين . ص/٤٩.
3) الفرق بين الفرق . ص/٥٨. للبغدادى .
4) انظر دراسات فى الفرق والعقائد الاسلامية. ص/٩٨. والخوارج فى العصر الأموى لنايف معروف . ص/٩٥.

ومبغض ، يذهب به البغض الى غير الحق "[1] .

وتابع الخوارج مسيرتهم الدامية المرعبة ، بعد استشهاد على رضى الله عنه ، ولا أرى ضرورة متابعة تاريخهم ومواقعهم ومصارعهم ، فكتب التاريخ زاخرة بأحداث هذه الطائفة .. وننتظر ورودها ، من خلال الحديث عن رجالاتهم وأشعارهم .

" ولكن ظلوا شوكة فى جنب الدولة الأموية ، يهددونها ويحاربونها حربا تكاد تكون متواصلة ، فى شدة وشجاعة نادرة "[2] ، وبقيت أسماء حروبهم مستنقعات من الدماء والأشلاء . انها آسك ودولاب وغيرها .

---

1) شرح نهج البلاغة . لابن أبى الحديد ج٨/١١٢ .
2) فجر الاسلام . ص/٢٥٧ .

فـــرق الخـــــوارج :-

يحسن بنا ، قبل أن نتحدث عن آرائهم ومبادئهم ، أن نلمّ بفرقهم . "مـــع أن الخوارج فى أول أمرهم ، كانت صبغتهم سياسية محضة*، ثم نراهم فى عهـــــد عبدالملك بن مروان ، قد مزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث لاهوتيه ، والخوارج لم يكونوا وحدة ، ولم يكونوا كتلة واحدة ، وانما كان واضحا فيهم الطبيعة العربيـــة البدوية ، فسرعان ما يختلفون ، وينضمون تحت ألوية مختلفة يضرب بعضهـا بعضـا "[١]

فرغم اتفاقهم على كثير من القناعات ، الا أن ضحالتهم الفكرية ، وجرأتهم على فهم الكتاب ، وحمل الآيات على ما نفوسهم من أهواء ، والقسوة التى تعرضوا لهـــا فى حروبهم مع خصومهم ، أسباب ترعى وتغذى الانقسام فى صفوفهم ، وتفتت جمعهـم ، أضف الى ذلك الأساس الواهن ، والتصور الدخن الغامض ، الذى بنوا عليه أمرهـــم ، وشقوا فجاجهم . فلذا لا تعجب "من كثرة اختلافهم على بعضهم ، واجتهاداتهـــم المتناقضة" .[٢] وقد استغل خصومهم ذلك منهم ، فأمدوا نزعة الخلاف ، بقضايـــا تحتاج الى اعمال ذهن ، وابداء رأى ، ضمن أصول الدين الاسلامى ، فسرعان ما يدفعهم الخلاف بالرأى الى ساحة الفرقة والمجالدة ، لشدة تعصبهم ، وحدتهم فى جدلهـم ، ونظرتهم المتطرفة الى خصومهم .

وظهرت فرقتهم فى الأيام الأولى من تجمعهم .. فالامام الطبرى رحمه اللـــه تعالى ، يذكر بداية الفرقة فى صفوفهم ، ويجعلها تلك الساعات التى علموا فيهـا رأى ابن الزبير رضى الله عنهما ، فى الخلفاء الراشدين ، وأبيه ومن معه يوم الجمل ،

---

*) وهل السياسة المعنية هنا الا جزء من الاسلام .

١) فجر الاسلام . ص/٢٥٩.

٢) مقالات الاسلاميين . ص/١٢٤.

وهو - قطعا - مخالف لما هم عليه من الغلو والشغب ، فيقول: "وفى هذه السنة - سنة ٦٤هـ - فارق عبدالله بن الزبير الخوارج ، الذين قدموا عليه مكة ، فقاتلوا معه حصين بن نمير السكونى ، فصاروا الى البصرة ثم افترقت كلمتهم فصاروا أحزابا"(١).

ولن نتتبع فرقهم - على كثرتها - التى وردت أخبارها وآراؤها فى كتب الفرق والمذاهب ، وانما سنقصر حديثنا عن الفرق التى تمت لبحثنا بوشائج القرابة والرحم ، وبشكل مقتضب ، لا يحرمنا معرفة رأى كل فرقة منهم فى القضايا الهامة.

١- الأزارقـــــة :-

ونسبتهم هذه ، الى أبى راشد ، نافع بن الأزرق ، من بنى حنيفة*. وكان فقيها مقدما فى الفقه الخارجى ، وعلى قدر عظيم من الاقدام والشجاعة ، "ولم تكن للخوارج قط فرقة أكثر عددا ، ولا أشد منهم شوكة"(٢). أقاموا فى البطائح ، قرب البصرة ، وكانوا أكثر الفرق تطرفا فى مذهبهم . وقد عجل فرقتهم ونهايتهم ، فقد قالوا : بكفر مخالفيهم من المسلمين ، وغلو فى الحكم عليهم ، فاعتبروا ديارهم دار كفر(٣). كما كفروا مرتكب الكبير) وخلدوه فى النار ، ويكفرون عليا والحكمين

---

١) الطبرى . ج٥/ ٥٦٣. والكامل - لابن الأثير - ج٣ / ٨٧٦ - ٢٧٨.

*) هو أبو راشد نافع بن قيس بن نهار ، أحد بنى الدول ابن حنيفة ، كان أول خروجه بالبصرة فى عهد الزبير . وفى سنة ٦٥هـ اشتدت شوكته ، وكثرت جموعه فبعث اليه عبدالله بن الحارث ، مسلم بن عبس بن كريز بن ربيعة على رأس جيش كثيف ، فاشتد بينهم القتال ، حتى قتل مسلم أمير الجيش ، وقتل نافع أمير الخوارج فى سنة ٦٦ هـ . خطط المقريزى . ج٢/٣٥٤ وما بعدها .
وأورد الدكتور / احسان عباس : أنه أقام فنسب اليهم . شعر الخوارج ص/٦٨.

٢) الفرق بين الفرق . ص/٦٢ . للبغدادى.

٣) مقالات الاسلاميين . ص/٨٧ . لأبى الحسن الأشعرى .

(عمرو بن العاص ، وأبا موسى الأشعرى) ، وأجازوا قتل الأطفال والنساء في دار مخالفيهم ، وكفروا القعد عن القتال مع قدرتهم عليه [١] وأنكروا الرجم للزاني المحصن [٢] ، ولم يبيحوا التقية . لأن من أقام بدار الكفر فهو منهم ، ولا يسعه الا الخروج الى معسكرهم [٣] .

وقد سعى ابن الأزرق وجماعته فى الأرض فسادا ، وأهلك الحرث والنسل ، فروعوا الآمنين من المسلمين ، ودخل معهم عمال ابن الزبير فى مواقع لم يتمكنوا من الخوارج ، ولعل أشهرها معركة ،(دولاب) التى كانت فيها نهاية ابن الأزرق .

وبايعت الأزارقة بعده "عبيد الله بن ماحوز ، وظل زعيما لهم ، الى أن قتل فى وقعة "سلبرى" فى شوال من سنة ٦٦هـ . وكان القتل أيضا من نصيب خليفته "الزبير بن الماحوز [٤] .

والتفوا بعد ذلك حول زعيمهم " قطرى بن الفجاءة الى عام "٧٧هـ" ، وفيه قتل قطرى ، وكان للمهلب بن أبى صفرة اليد الطولى فى تخضيد شوكتهم .

وبذلك انتهت صفحة مفعمة بالدماء ـ دماء المسلمين ـ والقتل والنهب [٥] ، وكانت طائفة الأزارقة أشد طوائف الخوارج قسوة على مخالفيهم ، وبغضا لهم ، وأشدهم على أنفسهم كذلك ، وكانوا أبعد فرق الخوارج من أهل السنة " [٦] .

---

١) الفصل فى الملل والنحل . ج٥/٥٢. لابن حزم الأندلسى .
٢) الملل والنحل . ج١/١٢٤. للشهرستانى .
٣) مقالات الاسلاميين . ص/٨٧. والفرق بين الفرق . ص/٦٤.
٤) دائرة المعارف الاسلامية . ج٢/٣٢.
٥) الطبرى . ج٥ /٣٠٩.
٦) الفصل فى الملل والأهواء والنحل . لابن حزم . ج٢/٢٦٦.

٢- النجـــدات :- (١)

وهم أتباع "نجدة بن عامر الحنفى" ، وكان من الأزارقة ، ثم اعتزلهم ، بعد موقف ابن الأزرق المتطرف ، من استباحة قتل أطفال مخالفيهم ، وحكمه على القعدة بالشرك .

وتوجه نجدة الى اليمامة بعد أن أعلن خلافه مع ابن الأزرق ، وتبرية منه ، وبويع له بالامامة ، وأصبح أميرا على طائفة من الخوارج " النجدات " .

وكان نفوذه واسعا فى شواطئ الخليج والبحرين ، وخالف نجدة الأزارقة فى مسائل عدة :

فهو لا يكفر القعد ، ولا يستحل الغدر بالامانة ، وقتل الأطفال ، وأجاز التقية ، والقعود ، ولكن الجهاد أفضل لمن أمكنه ذلك ..

وبهذه الآراء الجديدة المخالفة للأزارقة ، دخلت "النجدات ساحة الخوارج ، ولكن طبيعتهم المتمردة ، قادتهم الى الاختلاف ، فقد اختلف نجدة مع أتباعه بزعامة أبى فديك ، فقتلوه.ونوجز أهم دعائم مذهب هذه الفرقة :

تحريم دماء المسلمين وأموالهم الا فى حرب ، مع جواز التقية ، فعلا وقولا ، واباحة التخلف عن القتال للقادر عليه ، وان كان الجهاد أفضل ، ويرون العذر للمجتهد المخطئ الذى أحل حراما ، أو حرم حلالا ، وأسقطوا الحد عن شارب الخمر ، والاصرار على الذنب كفر ، ولو كان صغيرا ، ويرون أنه لا حاجة الى امام قط ، بل على الناس أن يتناصفوا فيما بينهم . (٢) وان لم يتقاضوا بالمعروف

---

١) انظر شرح نهج البلاغة . لابن أبى الحديد . ج٤/١٣٦.
والفرق بين الفرق . ص/٨٩ . والكامل فى الأدب . ج٣ /٢٨٤. وما بعدها . للمبرد
٢) مقالات الاسلاميين . ص/٩١. الملل والنحل . ج١/١١٦ ، ١٢٣.

وجب نصب الامام ، مع أن الخوارج باستثناء النجدات تقول بوجوب نصب الامـــام[1] .
وتنتهى هذه الفرقة أيضا فى صحراء الاختلاف ، وعلى يد جيش عبدالملك بن مروان ،
الذى قاده " عمر بن عبدالله بن معمر ، قائد الحجاج ، سنة " ٧٣ هـ " .

٣ـ الصفــريـــة :ـ

أتباع زياد بن الأصفر .[2] على الأرجح ، واليه ينتسبون ، وليست نسبتهم هذه الى "عبدالله بن صفار "التميمى" ولا الى "المهلب بن أبى صفرة "، وليست الى الصفرة التى علت وجوههم ، بعد أن أنهكتهم العبادة ، كما ذهب المبرد ، لأن هذه الصفة تكاد تشمل الخوارج عامة ، ولا تخص طائفة منهم .

والصفرية أقل من الأزارقة غلوا وتشددا وشذوذا ، فهم لا يكفرون القعد مع قدرتهم على الجهاد ، ما داموا موافقين لهم فى الدين والاعتقاد ، ولم يكفروا مرتكب الكبيرة من السرقة والزنا والقذف . (كل ماله حد) . أما تارك الصلاة والفارّ من الزحف فهو كافر مخلد فى النار" .[3] وأجازوا التقية قولا لا عملا ، ولم يكفروا أطفال المشركين ، ولم يبيحوا قتلهم ، ولم يسقطوا عقوبة الرجم ، كما فعل الأزارقة .

والصفرية يقولون ، بموالاة " عبدالله بن وهب الراسبى" وحرقوص بن زهير وأتباعهما ، من المحكمة الأولى ، ويقولون : بامامة أبى بلال مرداس الخارجـــى ، وعمران بن حطان ، شاعر الخوارج وناسكهم وامامهم فيما بعد . والذى رثى أبا بلال:[4]

أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه   ما الناس بعدك يا مرداس بالناس

---

١) تاريخ ابن خلدون . ج٣٣٩/١ . ومقدمة ابن خلدون . ص/١٩٢ .
٢) انظر مقالات الاسلاميين . ص/١٠١ .
٢) الفرق بين الفرق . ص/٧٠ . والملل والنحل : ج١٣٧/١ .
٣) الفرق بين الفرق . ص٩١ . والملل والنحل ج١٣٧/١ .
٤) الفرق بين الفرق . ص/٧١ .

وقامت الصفرية بعدة ثورات ، فى المغرب العربى ، سنة " ٧١ "هـ فى عهد هشام ابن عبدالملك ، ولكنها أخمدت فيما بعد ٠

الإباضيـــة :-

أرجح أن تكون نسبتهم الى "عبدالله بن اباض "(١) الذى اختلف مؤرخو الفرق فى هويته ٠ فالشهرستانى يرى ، أنه هو الذى خرج أيام مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين ٠(٢) بينما تقرر اباضية اليوم ، ويؤكدون ما ذهب اليه الطبرى ٠٠ "ان ابن اباض ، كان مع نافع بن الأزرق وانشق عنه "(٣) بسبب الاجتهادات التى طرحها ٠٠ من تكفير القعدة ، والقول بشرك مخالفيهم ، واستباحة دمائهم وأموالهم ودماء أطفالهم ، وسبى نسائهم ٠

وتردّ الاباضية مذهبها الى "جابر بن زيد "(٤) الذى كان من أكابر التابعين ، وهذا زعم لا دليل عليه ٠

والاباضية أقرب الفرق الخارجية ، الى أهل السنة* ، وقد يكون هذا سببا فى بقاء مذهبهم الى أيامنا هذه ، فى عمان وأفريقيا وزنجبار ،ومن آرائهم التى يعلنونها

---

١) عبدالله بن اباض بن تميم اللات بن ثعلبة ٠

٢) الملل والنحل ٠ ج١/١٣٤٠

٣) تاريخ الطبرى ٠ ج٥/٥٦٦ - ٥٦٧٠

٤) جابر بن زيد الأزدرى ، أبو الشعثاء ،ولد عام واحد وعشرين ، وقبل سنة اثنتين وعشرين ، وقبل سنة ثمانى عشرة ، فى خلافة ابن الخطاب رضى الله عنه ، وتوفى عام ثلاث وتسعين ، فى جمعة واحدة مع أنس بن مالك ٠ التاريخ الصغير / للبخارى ج١/٢٠٩ ، ولكن ابن حجر يورد عن داود بن أبى هند عن عزرة ، قولة : دخلت على جابر بن زيد ، فقلت : ان هؤلاء القوم ينتحلونك - الاباضية - فقال : أبرأ الى الله من ذلك ٠ ابن سعد ج٧/١٨١٠ وتهذيب التهذيب - لابن حجر ج٢/٣٨٠

* "وأقرب فرق الخوارج الى أهل السنة - أصحاب عبدالله بن أباض ٠ وأبعدهم الأزارقة٠ خبيئة الأكوان ٠ ص/١٥٠ الشيخ صديق حسن خان ٠

آراء الخوارج ، واجتهاداتهم :-

عرفنا فيما سبق أن أول شعار رفعه الخوارج " لا حكم الا الله " ، فكان الراية التى تجمعت حولها تلك الطائفة ، وبعثت فى نفوسهم الحماسة ، وحركت هواجس التضحية ، والاقدام والتمرد والرفض ، الرفض لكل ما يحول بينهم وبين تحقيق قناعتهم ٠

وأعتقد أنه لم يكن فى ذهنهم - فى البداية على الأقل - برنامج لحركتهم ولا منهج لمذهبهم ، بل يزين لهم أنهم على الصراط المستقيم ، والمسلمون ناكبون عنه ٠ وهذا التطرف دفعهم الى ساحات المعارك ، ليكون حداؤهم الملتهب " الرواح ، الرواح الى الجنة " ٠ ولكن على أشلاء الجرحى والقتلى ٠

فمن خلال ممارساتهم العملية ، وتعلقهم السطحى - بكتاب الله تعالى - برزت تلك المنعطفات الخطيرة فى تصوراتهم ، والتى أدت الى انحرافهم وشططهم ٠ وهنا نتوقف ، لنشير الى الآراء الفجة التى تبناها كثير من الباحثين.وكان المستشرقون أربابها ، فقد ذهبوا الى تقسيم القضايا العقدية تقسيمات سقيمة ، تذكرك باله الكنيسة ، وقيصر الحكم ٠ " دع ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر " ٠ وهذه لم يعهدها الاسلام ٠٠ وبذا فصلوا بين العبودية لله فى الشعائر والمناسك ، والدينونة له سبحانه ، فى الاحتكام الى شريعته ٠

فشعار الخوارج ، لا يبعد عن آية قرآنية ، وردت فى سورة يوسف عليه السلام " ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون " ٠[1]

---

١) سورة يوسف ٠ الآية : ٤٠٠

فالحكم هنا لا يكون الا لله ، فهو مقصور عليه سبحانه ، بحكم ألوهيته ، فمن ادعى الحق فيها ، فقد نازع الله سبحانه وتعالى ، أولى خصائص الوهيته ، سواء ادعى هذا الحق فرد ، أو طبقه ، أو حزب ، أو هيئة ، أو أمة ، أو الناس جميعا ٠٠ وليس من الضروري أن يقول : ما علمت لكم من اله غيري "٠[1] أو يقول : " أنا ربكم الأعلى "٠[2] كما قالها فرعون جهرة ٠ ولكنه يدعي هذا الحق ، وينازع الله فيه ، بمجرد أن ينحى شريعة الله عن الحاكمية ٠

والأمة في النظام الاسلامي ، هي التي تختار الحاكم ، فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله ، ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية ، التي تعطى القانون شرعيته ، انما مصدر الحاكمية هو الله ، وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين ، يخلطون بين مزاولة السلطة ، وبين مصدر السلطة ٠

٠٠٠ ولم يكن معنى العبودية - في الاصطلاح الاسلامي ، في أول الأمر أداء الشعائر فقط ، انما المقصود به الدينونة لله وحده ، والخضوع له وحده ، واتباع أمره وحده ، سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية ، أو تعلق بتوجيه أخلاقي ، أو تعلق بشريعة قانونية ، فالدينونة لله وحده ، في هذا كله هي مدلول العبادة ٠٠ والعبادة - الدينونة - لا تقوم اذا كان الحكم لغيره "٠[3]

ولذا يصبح الحديث عن آراء الخوارج ، وانطلاقتهم محددا ، ولم يعد دقيقا ما ذهب اليه الأستاذ أحمد أمين - وغيره من الباحثين - فيما قاله : ان تعاليم الخوارج الأولى ، كانت سياسية محضة في بادىء الأمر ، وتنحصر في رأيهم في التحكيم والخلافة ، لكنهم سرعان ما مزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث لاهوتية "٠[4]

---

١) سورة القصص الآية : ٣٨٠
٢) سورة النازعات ٠ الآية / ٢٤٠
٣) في ظلال القرآن ٠ م٤/ ١٩٩٠م
٤) فجر الاسلام ٠ ص/٢٥٩٠

فقد كانت انطلاقتهم من حظيرة الاسلام ، وعقيدته - والحكم جزء منهما .
ولكن انشنت الدروب امامهم - نتيجة اجتهاداتهم - الى فجاج سحيقة ، أبعدتهم عن صفاء الاسلام ، وسماحته ، وعدله .

فمن خلال ممارساتهم ، تكونت لديهم آراء غريبة ، حول المشكلات التى أثاروها واتخذوها مبررا لخروجهم ، على جماعة المسلمين ، كمشكلة الامامة ، ومشكلة مرتكب الكبيرة ، والحكم عليه ، مع العلم أنه لم تكن للخوارج قط : أية وحدة حقيقية فى أعمالهم ، وعلى مختلف الممارسات ، ولم يكونوا وحدة متسقة المبادىء . وتظهر لنا مذاهبهم ، وكأنها آراء خاصة تقول بها فروع من الخوارج .

ونحن لا نرى لدى القوم نظرية واضحة ، حول المشكلة الأولى ، مشكلة "الامامة " بل نعتبر شعارهم الأول " لا حكم الا لله " تحللا من الامرة ، التى يجب أن ينصاعوا لأوامرها ، ما حكّمت شرع الله تعالى ، وقد بين عوار هذه القضية ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، لما سمع نداءهم ، فقال : كلمة حق يراد بها باطل .[٢] وانما مذهبهم أن لا يكون أمير ، ولابد من أمير ، برا كان أم فاجرا" .[٣] وأضاف شارح نهج البلاغة - ابن الحديد - كلاما ونسبه الى على رضى الله عنه " يعمل فى امرته المؤمن ، ويستمتع بها الفاجر ، ويبلغ الله فيها الأجل ، ويجمع به الفيء ، وتقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوي ، حتى يستريح بر ، ويستراح من فاجر ".[٣]

وقد غلت النجدات - من دون فرق الخوارج - فى الامامة ، فقالوا : "لا حاجة للناس الى امام ، اذا أمكن للناس أن يتناصفوا فيما بينهم ، فان هم رأوا أن ذلك لا يتم الا بامام يحملهم عليه ، فأقاموه جاز ".[٤]

---

١) الطبرى . ص/٢٥٩ .
٢) العقد الفريد . ج٢/٣٨٨ . لابن عبد ربه .
٣) شرح نهج البلاغة . ج٢/٢١ . لابن أبى الحديد .
٤) الملل والنحل . ج١/٢٤ . للشهرستانى .

وللامام عند الخوارج شروط . فيجب أن يكون أفضل الأمة ، وأتقاها وأقربها للحق والعدل ، وان كان عبدا حبشيا أو نبطيا ، رأسه كرأس زبيبة . فالخلافة حق شائع بين جميع المسلمين ، بشرط أن يقيم راية العدل ، ويحكم بكتاب الله ، وسنة رسوله .. دون النظر الى عروبته ، أو قرشيته ، أو هاشميته .. فالشورى والحرية ، توصل اليه .

فلا يستأثر بها أحد أو قبيلة من المسلمين ، مهما كانت مكانتها . وهم يذكرون انكارا قاطعا ، حصرها في بيت ما وراثة . ولذا عدوا الأمويين مغتصبين للخلافة ، تجب مجاهدتهم ، ومجاهدة من ارتضى حكمهم ، ونظامه الوراثي ، واختلفوا مع الشيعة الذين قالوا : ان الامامة تكون بالنص والتعيين . وخالفوا علماء السنة الذين اتفقوا على " أربعة شروط في الامامة ، تكون امامته خلافة نبوية ولا تكون ملكا عضوضا ، وهذه الشروط ، هي القرشية ، والبيعة ، والشورى والعدالة "[1] واذا جاء الامام عن هذا الطريق - وجار في حكمه ، وجب الخروج عليه اذ لا حكم لمن بدل . ولذا يعترفون بصحة بيعة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وعثمان رضي الله عنه في السنوات الستة الأولى ، والرضى بخلافة علي رضي الله عنه ، الى أن قبل التحكيم ، أما بعد التحكيم فيحكمون عليه بالكفر ، وكفروا معاوية وطلحة والزبير وعائشة وعمرو بن العاص . فقالوا : " واذا اختير الخليفة ، فلا يجوز له أن ينزل عن الخلافة ، واذا جاز له استحلوا عزله أو قتله ، اذا اقتضت الضرورة "[2] .

---

١) تاريخ المذاهب الاسلامية . ص/٨٠.

٢) مروج الذهب . ج٢/١١٠. للمسعودي والملل والنحل . ج١/١٧٥. للشهرستاني .

وقد لخص الشهرستاني نظريتهم في الامامة فقال : " جوزوا أن تكون الامامة في غير قريش،* وكل من نصبوه برأيهم ، وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل ، واجتناب الجور ، كان اماما ، ومن خرج عليه ، يجب نصب القتال معه ، وان غير السيرة ، وعدل عن الحق وجب عزله وقتله ... وجوزوا أن يكون عبدا ، أو حرا ، أو نبطيا ، أو قرشيا ".(١)

أما القضية الثانية ، فهي " قضية تكفير مرتكب الكبيرة " ، وقد عظمت الفتنة والمحنة في باب التكفير ، وكثر فيه الافتراق ، وتشعبت الأهواء والآراء .(٢)

---

١) الملل والنحل . ج١/١١٦.

*) وأرى وجاهة هذا الرأي ، لأن الأدلة والواقع يؤيدانه . والامام ابن حجر رحمه تعالى . يقول : بل المراد أن كونه قرشيا من أسباب الفضل والتقدم ، كما أن من أسباب الفضل والتقدم والورع والفقه والقراءة والسنن وغيرها . وهو في قوله هذا ينص صراحة على أن القرشية ، شرط أفضلية فحسب ، وليست من شروط الانعقاد .

٢) شرح العقيدة الطحاوية . ص/٣٥٥.

وأزعم أن اعتقادهم بكفر أصحاب المعاصي ، أو قل هذه البدعة ، كان وسيلة ساذجة ، وحجة بائرة ، للنفاذ إلى قتل المخالفين لهم من المسلمين ، فكم من صحابي تطاولوا عليه ، وأراقوا دمه ظلما وعدوانا ، تحت مظلة هذا القانون الجائر .

كما أن هذا الرأى - تكفير العصاة من المسلمين - فتح الأبواب ، لظهور فرق جديدة ، كالمعتزلة ، والمرجئة ، والقدرية ، وهذا من شؤم فرقة الخوارج ، وما نتج عن انحرافاتها من تيه وضلال .

ومرد هذه النظرة ، يعود إلى قولهم ، إن العمل جزء من الايمان ، فمن عطل الأوامر ، وارتكب النواهي ، لا يكون مؤمنا ، بل كافرا اذ الايمان لا يتجزأ ، بل ذهبوا الى أشنع من هذا ، فعدوا الخطأ فى الرأى ذنبا تجب التوبة منه ، وإلا يجب أن يتبرأ منه ، ويكفر ، كما فعلوا مع علي رضي الله عنه لقبوله التحكيم . قال: " فعلام خالفتموني ؟ ونابذتموني ؟ قالوا : إنا أتينا ذنبا عظيما ، فتبنا الى الله منه . فتب الى الله منه ، واستغفره نعد اليك " [1] .

فلما لم يتب كفروه ، وأجمعوا على اكفار مرتكب الذنوب ، وقادهم الى هذا الشطط سوء فهمهم لآيات الكتاب الكريم ، ونظرتهم السطحية المتشددة ، وتمسكهم بظواهر النصوص ، دون وضع الآيات فى موضعها الصحيح ، حيث تحف بها الأحاديث النبوية الشريفة ، والتي تلقى الضوء على مرامي تلك الآيات ، وقد أصاب ابن حزم في تحديد علة هؤلاء القوم حيث قال : " كانوا اعرابا قرأوا القرآن قبل أن يتفقهوا فى السنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء ، لا من

---

١) العقد الفريد . ج٢/٣٨٨ . لابن عبد ربه .

أصحاب ابن مسعود ، ولا اصحاب ابن عمر •

••• ولهذا تجدهم يكفر بعضهم بعضا ، عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها " •[١]

وهذا ما أشار اليه ابن تيمية رحمه الله تعالى ، مبينا بداية انحرافاتهم وسببها " من سوء فهمهم للقرآن " •[٢]

وقد ردّ الامام علي رضى الله عنه ، على انحرافاتهم التى وطئت عليهم من تلك الأبواب ، فأنكر عليهم تكفيرهم لمرتكب الكبيرة ، واحتج عليهم بفعل الرسول صلوات ربى وسلامه عليه نفسه ، وأعلمهم بأنه لو كان مرتكب الكبيرة كافرا ، لما صلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما مكنه من وراثة المسلم أو نكاح المسلمات ، أو أخذ نصيبه من الفيء " •[٣] وهذا التكفير قادهم الى مواقف لا يقرها عاقل ، فضلا عن المسلم ، فقد استحلوا دماء المسلمين ، من أطفال ونساء وكذلك أموالهم •• فى الوقت الذى يعيش المشركون من أهل الكتاب بأمان وسلام ••

وما قصة ذبح عبدالله بن خباب بن الأرت رضي الله عنهما ، بغائبة عن أذهاننا ، وكذلك قصتهم مع الكتابي ، الذى نجا من سطوتهم •• من نافذة "احفظوا ذمة نبيكم"[٤] وهم يستعرضون الناس • الى جانب الآراء التى وردت خلال الحديث عن فرقهم ، وان كانت الاباضية فى غالبية ما ذهبت اليه من آراء ، تلتقى مع أهل السنة ، رتد عدد ابن عمر رضي الله عنهما ، بعض انحرافاتهم ، لما سئل عن الحرورية : قال: " يكفرون المسلمين ، ويستحلون دماءهم وأموالهم ، وينكحون النساء فى عددهن ، وتأتيهم المرأة فينكحها الرجل منهم ، ولها زوج ، فلا أعلم أحدا أحق بالقتال منهم" •[٥]

---

١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل • ج٤/١٥٦• لابن حزم الأندلسى •
٢) مجموع الفتاوى • ج٣/٣٠•
٣) شرح البلاغة • لابن أبى الحديد • ج٨/١١٤•
٤) الكامل فى الأدب • ج٢/١٣٥•
٥) الاعتصام • ج٢/١٨٤• للامام الشاطبى •

والذى نقرره بغير قليل من الحذر ، شدتهم ، وتطرفهم .. بفتاويهم الملتوية السقيمة ، التي أخرجتهم عن حدود العقل ، بل الشرع ، وحصرتهم في دائرة الكراهية والرفض من المسلمين ، فقد خرّج ابن وهب ، عن بكير ، أنه سأل نافعا - مولى ابن عمر - كيف رأي ابن عمر في الحرورية ؟ قال : "يراهم شرار خلق الله ، انهم انطلقوا الى آيات أنزلت في الكفار ، فجعلوها على المؤمنين"[1]. وقد فسر سعيد بن جبير رضى الله عنهما ذلك ، فقال : " مما يتبع الحرورية من المتشابه ، قول الله تعالى : " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون"[2]. ويقرنون معها " ثم الذين كفروا بربهم يعدلون"[3] فاذا رأوا الامام يحكم بغير الحق ، قالوا : قد كفر ، ومن كفر عدل بربه ، ومن عدل بربه ، فقد أشرك ، فهذه الأمة مشركون ، فيخرجون فيقتلون من يرونه مخالفا لهم ، لأنهم يتأولون هذه الآية ، وهذا معنى الرأي الذى نبه عليه ابن عباس رضي الله عنهما " يقتلون أهل الاسلام ، ويدعون أهل الأوثان "[4] ولا يفرقون بين المعصية والكفر.

ويكاد يكون هذان المبدآن "- الامامة ، وكفر مرتكب الكبيرة - أهم مبادئهم ، وأهم ما تجمع عليه الفرق الخارجية المتعددة الكثيرة الخلاف فيما بينها ، مع أن لبعض طوائفهم آراء فاسدة وسقيمة ، كاباحة قتل أطفال المخالفين ونسائهم ، وإسقاط الرجم عن الزاني المحصن ، بل أنكر العجاردة أن تكون سورة يوسف من القرآن ، وأجاز بعضهم نكاح بنات البنات ، وبنات أولاد الأخوة والأخوات ، وقوفا مع ظواهر النصوص ، وكل هذا ضلال وخبال ، يدل على ابتعادهم عن سبيل المؤمنين.

---

١) الاعتصام . ج٢/ ١٨٣. للامام الشاطبى

٢) سورة المائدة . الآية : ٤٤.

٣) سورة الأنعام الآية . ١.

٤) الاعتصام . ج٢/١٨٤. للامام الشاطبى .

ورغم كل ما مر بنا من صور غلوهم وانحرافهم ، إلا أن الأيام والخصوم ـ على كثرتهم ـ لم يتمكنوا من طمس الصفات السامية التى تحلى بها رجال الخوارج ، فقد شهد لهم التاريخ صدق المبدأ والصراحة فى الرأى ، والسلوك ، والانهماك فى العبادة ، والاخلاص لعقيدتهم ، بل واستعذاب الموت الجماعى فى سبيل ما يعتقدونه ، وطلبه فى مظانه ، رغبة فى الجنة ، فاتخذت شخصياتهم طابع الفدائية .. فكانوا فى ثورة مستمرة ، وبركانا متفجرا ، لا يعرف الهدوء ، فبقيت آراؤهم جامدة على صور عقيمة ، فترة طويلة ، حتى دب الانفتاح الى نفوسهم وأفكارهم ، وأظن أن نيكلسون قد أصاب فى تحديد هذا ، فهو يرى " أن الخوارج ، كانوا المثل الأعلى ، فى الدفاع عن العقيدة والاستماتة فى سبيل الانتصار للمبدأ ، وبرغم ما كان من اعتسافهم فى ذلك المبدأ ، واشتطاطهم فى تلك العقيدة ، مما أدى الى اخفاقهم ، وقد لانت قناتهم قليلا ، وابتدأ الاعتدال والتسامح يدب الى نفوسهم ، ويسود أفكارهم ، حين وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم ، كاد ينتهي بإبادتهم ، واستئصال شأفتهم ، ولم تكن لهم مآرب شخصية يرمون الى تحقيقها ، من وراء حركتهم هذه ، كما كان لغيرهم من الأحزاب السياسية الأخرى " .(1)

ولعل اخلاصهم ، واجتهادهم فى العبادة والطاعة ، حتى هزلت أجسادهم ، وطول تلاوتهم لكتاب الله تعالى . أمال الكثيرين الى ايجاد الأعذار لهم . فهذا ابن عباس يصفهم بعد أن سار اليهم ليسمع منهم ، " لهم جباه قرحة من طول السجود ، وأيد كثفنات الابل ، وعليهم قمص مرحّضة ، وهم مشمرون ".(2) كما أن الامام علي ابن أبي طالب رضى الله عنه ذكرهم بقوله : " والله ما سيماهم بسيما المنافقين ، إن بين أعينهم لأثر السجود " . وهذا الذى دفعه الى تبرئتهم من الشرك والنفاق. فقد ورد عن الامام ابن كثير رحمه الله تعالى ، عن الهيثم بن عدي ، قال :

---

1) نقلا عن تاريخ الاسلام السياسى . ج١/٣٩٤. د/ ابراهيم حسن .
2) العقد الفريد . ج٢/٣٨٩. لابن عبد ربه .

حدثنا اسماعيل عن خالد عن علقمة بن عامر ، قال ، سئل علي عن أهل النهروان أمشركون هم ؟ فقال : من الشرك فروا ، قيل : أفمنافقون ؟ قال : ان المنافقين لا يذكرون الله الا قليلا ، فقيل : فما هم يا أمير المؤمنين ؟ قال : اخواننا بغوا علينا ، فقاتلناهم ببغيهم علينا ".[1] وهذا ما أورده ابن جرير ، وغيره في هذا المقام ، ولذا أوصى علي رضى الله عنه فى أواخر أيامه . "لا تقاتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه " . وهذا هو المعنى الذى ردده عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، عندما خاطبهم " إني قد علمت أو ظننت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدنيا ، ومتاعها ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها ".[2]

الى جانب اخلاصهم - من بين أهل الأهواء - وصراحتهم ، " فالخوارج في جميع أصنافها ، تبرأ من الكاذب ، ومن ذي المعصية الظاهرة ".[3] وقد قال عنهم الامام أبو داوود رحمه الله تعالى : "ليس فى أهل الأهواء أصح حديثا من الخوارج".[4] وكذلك شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : "فالخوارج مع أنهم مارقون - يمرقون من الاسلام ، كما يمرق السهم من الرمية ، وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتالهم ، واتفق الصحابة وعلماء المسلمين على قتالهم ... ليسوا ممن يتعمد الكذب ، بل هم معروفون بالصدق ، حتى يقال : إن حديثهم من أصح الحديث ،

---

١) البداية والنهاية . ج٧/٢٩٠. لابن كثير .
٢) العقد الفريد . ج٢/٤٠١.
٣) الكامل فى الأدب . ج٣/١٦٤. للمبرد .
٤) مقدمة فتح الباري. ص٤٣٢ - ٤٣٣.

لكنهم جهلوا وضلوا في بدعتهم ، ولم تكن بدعتهم عن زندقة والحاد ، بل عن جهل وضلال في معرفة معاني الكتاب " .[1] مع أن الرافضة يقرون بالكذب حيث يقولون : ديننا التقية ".[2] ولذا كانت غالبية القوم منهم لا يجيزون التقية على اختلاف بينهم في قول ولا عمل لان الله تعالى يقول : " اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية "[3].

---

١) منهاج السنة النبوية . ج١/٦٧ - ٦٨. لابن تيمية .
٢) المنتقى من منهاج الاعتدال . ص/٢٣. للذهبي .
٣) سورة النساء . الآية . ٧٧.

من شعراء الخوارج

مقدمـــة :

ان أول ما يلفت انتباهنا ، ونحن نلج باب الحديث عن شعر الخـوارج ، وبعض شعرائهم ، قلة نتاجهم الشعرى ، الذى انتهى الينا ، فلم يصلنا الا القليل منه فيما أحسب ، وأعتقد أنه لو انتهى الينا كله،لكان غزيرا ووافرا . لأن الذى سلم لنا من ضر الزمن ، لم يكن يعبر عن ضعف الشعراء أو قلة تجربتهم ، فقد جاء شعرا قويا رائعا فى غالبيته ، مما يدل على أن شعراء هذه الفرقة "كان فيهم كل العناصر التى تكون الأدب .. عقيدة راسخة لا تزعزعها الأحداث ، وتحمس شديد لها ، تهون بجانبه الأرواح والأموال ، وصراحة فى القول والعمل لا تخشى بأسا ، ولا ترهب أحدا ، وديموقراطية حقة ، لا ترى الأمير إلا كأحدهم .. ووراء كل ذلك نفوس بدوية غالباء فيها كل الاستعداد للقول،وفصاحة اللسان . وفيها كل ما نعهده فى البدوي من قدرة على البيان ، وسرعة البديهة ، وأداء للمعنى بأوجز عبارة ، وأقوى لفظ "[(١)] .

فقد وصل شعرهم مقطعات ، وأبيات قليلة ، تكاد تنتهى ببيت واحد أحياننا يمكن للدارس أن يصرح ويزعم ، أنها جزء من قصيدة ، أو أبيات صدرت بها بعض المقطعات ، فلم تكتمل إلا على ألسنة أصحابها ، أو أبيات قد تـرد متباينة عددا ، ومختلفة ترتيبا ، بين سفر وآخر من أسفار الأدب والتـأريخ . ففى زعمي أن تراثا لا يستهان به من شعر الخوارج ، قد أودع فى ثنايا النسيان، وزوايا الضياع اضطهادا له[(٢)] . كما اضطهد أصحابه .. ولكن على يد الرواة والمؤرخين،

---

١) الأدب العربى فى الجاهلية والاسلام . ص/٢٨. عمر رضا كحالة .

٢) تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع . المتنبى /شذرات الذهب .ج٣/٦. لابن العماد .

الذين وقفوا من الخوارج ودعوتهم موقف الرافض ، كأبى الفرج والمسعودى ، فأهملوا تراثهم الشعرى ، ووكلوه لعاديات الأيام ، تتناوشه بالضياع ، والى مثل هذا ذهب الدكتور النعمان القاضى . " فالاضطهاد السياسي العسكري لهم ، قد انسحب على أدبهم ، لأن هذا الأدب ، قد دوّن فى عصر كان للشيعة ، أعدائهم الألداء التاريخيين سلطان قوى ، وكان أكثر من دوّنه الشيعة ، كأبي الفرج والمسعودى ، يضاف الى ذلك ، أن الشعر لم يكن لديهم فنا ينقطعون له ، ويتنافسون فى تجويده "[1] .

هؤلاء الشيعة ، فعلوا ذاك ، فما بال غيرهم ؟ فابن قتيبة لم يذكر فى كتابه " الشعر والشعراء " أحدا منهم ، الا ما كان بصدد النيل منه . فقد ذكر سرقات الطرماح الشعرية من غيره . أما ابن سلام ، فلم يشر فى طبقاته اليهم ، لا من قريب ولا من بعيد . وابن رشيق القيروانى ، وجد من يدافع عنه ، أو يتلمس له الأعذار الواهية ، التى تصطاد من حقول القطعان المستذلة ، بسياط الجلادين والظلمة ، فلا يرون الا الذلة والخنوع سربالهم .. رهبة أو رغبة. يقولون: " ان مدارة السلطان واجبة ، والتصدى لمعارضته حمق ، حتى لو كانت المعارضة دفاعا عن مبدأ ، واستبسالا فى سبيل عقيدة ، كالذى كان من الخوارج ، حيث لم يروا الحكم الا لله وحده ، فاستحقوا بذلك اغفال نقاد ، مثل ابن رشيق "[2] فيقول ابن رشيق : " وأحمق الشعراء عندى من أدخل نفسه فى هذا الباب ، أو تعرض له - يعنى السلطان - وما للشاعر والتعرض للتخوف ، وانما هو طالب فضل ، فلم يضيع رأس ماله ؟ وكل شيء محتمل إلا الطعن فى الدول ، فان دعت الى ذلك

---

١) الفرق الاسلامية فى الشعر الأموى . ص٤٠٨ . د/ النعمان القاضى .

٢) قيم جديدة . للأدب العربى . ص١٢٠ . بنت الشاطىء

ضرورة مجحفة ، فتعصب المرء لمن هو في ملكه ، وتحت سلطانه ،[١] أصوب وأعـــذر له من كل جهة !.[٢]

إنه الشعر الداجن المتزلف والمتسول على أبواب السلاطين ، الذى يطبـــل في جوقتـه ،* ويصفق لقرع سياطه على ظهور المستضعفين ، وكم مارس شعرنـــــا هذه الأدوار ، وجنى الشعراء عليه ، بجناية النفاق والكذب والتملق .

فما ذكر ، كان من الأسباب التى ساعدت على ضياع شعر هذه الفرقة . وهناك أسباب لا تقل أهمية ، أدت الى اهمال هذا الشعر ، فشعراء الخوارج لم ينظروا الى الشعر على أنه رسالة ودعوة ، بل الرسالة هي الجهاد ، الذى يرونه السبيل الأمثل لاعادة الناس الى سبيل الحق . ـ كما يرون ـ ولذا لم يتخذوا الشعر حرفة لهم ، ولـــم يكن من عتادهم فى معاركهم الا قليلا .. فلم يبق لهم تعلقهم بالقرآن الكريـــــم ، ومحاريب العبادة ، والقيام في ساعات السحر الرائقة ، يناجون من لا تأخذه سنة ولا نوم ، بآيات كريمة يتلونها ، يستظلون بوعدها ، ويخشعون ويرقون وينتحبون من وعيدها وقتا له . كل ذلك زهدهم بالشعر وقوله :[٣]

تركت الشعر واستبدلت منـــه اذا داعي صلاة الفجر قامـــا
كتاب الله ليس له شريـــك وودعت المدامة والندامـــى

١) وهذا يخالف منطق النبوة . "ورجل قام الى امام جائر ، فأمره ، فنهاه "فقتلـــه" وسبقه سيد الشهداء حمزة " أتخشونهم فالله أحق أن تخشاه" . رواه الحاكـــم .
٢) العمدة . ج١/٤٥ . لابن رشيق .
٣) شعر الخوارج . ص/٢٤٤ . والأبيات للأعرج المعنى .. واسمه عدي بن سويد بـــن ربان ، وقيل : سويد بن عدى ، وهو مخضرم . كما ذكر المرزباني في معجمـــه .
*) الجوق : والجوقة : جماعة من الناس ، وكل خليط من الرعاء أمرهم واحد ، والجمع أجواق . المعجم الوسيط . ج١/١٤٨ .

لقد كان الشعر وسيلة آنية ، يعبرون من خلاله ، عما يجيش في صدورهم ، فشأنهم وحياتهم كانت أعجل من أن يلتفت الى جمعه وتناقله ، فقد لا يتم الخارجي أبياته الا ودماؤه تشخب من أشلائه ، التي أتت عليها السيوف والرماح ، فتمر في خاطره المواز لحظات ، ينطلق لسانه بتلك الزفرات والنفثات ٠ وأنى لمن يطلب الشهادة ، ويسعى لها ، أن يكثر من ذكر غيرهما ، أو يفطن لها من يتتبع مواطن القتل والشهادة ، ولا تنس أن الشراة قصيرة الأعمار ٠

كما أن القرآن الكريم قد استولى على مشاعر القوم ، فما يكادون يرفعون أنظارهم منه ، ان فرغوا من جهادهم ، وما أقل حظ هذا ! ٠

ولا يمكن أن نغفل زهد الرواة ، بشعر هذه الطائفة المتطرفة التي استحل الفقهاء قتالها ٠٠فقد أورد الجاحظ هذه الفتوى ، فقال : "لا تعرف فقيها من أهل الجماعة ، لا يستحل قتال الخوارج"٠[1] وبكلمة موجزة نستطيع أن نقرر أن للخوارج أشعارا كثيرة في ذاتها ، قليلة في أيدينا ، ذهبت بذهاب أصحابها ، وجفوة من يبغضها ، وتحامل من قصر دونها٠*

ولا يتوقع القارىء أن يجد سيرتهم مفصلة ، وحياتهم مبسوطة في دراستنا لبعض شعرائهم ، فما هي الا ومضات ، نستنير بها في طريقنا الى فهم شخصياتهم وأشعارهم ٠

---

(1) البيان والتبيين ٠ ج٢/٨٧٠ للجاحظ ٠

*) واذا كانت الحروب تصيب الأجيال بالنسيان ٠ فما أحراها بأن تعبث بالمواد فتقضي عليها ، أو تنقصها ، أو تفرقها ، حتى اذا اجتمعت بعد ذلك ، وقع لها في الجمع من أصولها المكتوبة المبعثرة ، ما يقع لها في الجمع من ذاكرة الرواة والحفظة لها ٠

تاريخ الشعر العربي ٠ د/ محمد نجيب البهبيتي ٠ ص/٥١٠

قطـــرى بن الفجاءة المــازنــى

قد يتساءل القارىء عن سبب تقديم قطري على غيره من شعراء الخـــــوارج، ألكثرة شعره، أم لجودته ؟ أم أن هناك أسبابا أخرى ؟ الحكم المسبق على الشيء، تحيز واضطراب . والكثرة لا تعطي صاحبها تقدما على أقرانه، فالذى دفعنى الى تقديمه تمثيله الصادق للفكر الخارجى المتطرف، حيث نجد فيه الشاعر الفــــارس المقدام، الذى لا يحسب لأهوال الحرب حسابا، بل طالب وصل منها، يقـــــود رجاله الى مهاوي الردى، بعد أن يلهبهم حماسة واندفاعا بخطبه الملتهبـــــة فمن هذا الشاعر ؟ وما سيرته ؟ وما المساحة التى شغلها شعره ؟

إنه أبو نعامة، جعونة بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم بن مر المازنى . قائـد الخوارج فى أقسى مرحلة اجتازوها، فى عهد القادة العظام للزبيريين والأمويـيـــن، ولسنوات طويلة، انتهت روايته[1]، وأفل نجمه فى طبرستان . وقطري : نسبة الى دولة قطر الحالية "موضع بين البحرين وعمان، وهو اسم بلد كان منه أبوه"[2]. وذكـــر الجاحظ، أن لهذا الفارس كنيتين، كنية فى السلم، وهى "أبو محمد"، وكنيته فى الحرب - اسم حركى- وهى "أبو نعامة"[*]. ولقب كذلك أمير المؤمنين[3].

وقد اجتمعت لدى قطرى صفات عديدة، جعلها فى خدمة مذهبه، فهــو فارس شجاع، وقائد محنك، وخطيب ملهب، وشاعر مؤثر، أو قل تجسدت الفروسية فى شخصيته، الفروسية التى لم تعد صيتا يملأ المجالس، ويشغل حديث الركبان، ويتطلع الى الثناء والاعجاب، ليركزه فى قلوب الناس، وانما عادت على يديـــه

---

١) وفيات الأعيان . ج٤/٩٣. لابن خلكان .

٢) المصدر السابق . ص/٩٤.

٣) البيان والتبيين . ج١/٢٢٧. للجاحظ .

*) نعامة . اسم فرســه .

وفروسيته لا يدرك عظمتها الا من شهدها ، ولا بأس بالتماس شهادة من تلك الشهادات الكثيرة التى حظي بها . فقد أورد ابن عبد ربه ، خبرا يعدد فيه مشاهير فرسان الخوارج ، فقال : " ومن مشاهير فرسان الخوارج ، عمرو القنا ، من بني سعد بن زيد مناة ، وعبيدة بن هلال بن يشكر ، والمقعطر من مشاهير فرسانهم ، وقطري أنجدهم جميعا ... ولما اختلف أمر الخوارج ، وانحاز قطري فيمن معه ، وبقي عبد ربه ، قال المهلب لأصحابه : ان الله تعالى قد أراحكم من أقران أربعة : قطري بن الفجاءة ، وصالح بن مخراق ، وعبيدة بن هلال ، وسعد الطلائع ،[(١)] ولما عدد فرسان العرب فى الاسلام ، ذكر قطري بن الفجاءة " وقالوا : ما استحيا شجاع قط أن يفر من عبدالله بن حازم ، وقطري بن الفجاءة صاحب الأزارقة ".[(٢)]

والأزارقة يمثلون العنف فى أبشع صوره ، من بين الفرق الخارجية ، بعد أن مثلوه فى آرائهم المتشددة ، وقد أردتهم هذه الاجتهادات الجانحة ، فى أتون معارك طاحنة ، مع خصومهم الأشداء .. ولاة وقادة .. وذاق الطرفان على أيدى بعضهم الويلات ، ولا تزال معركة " دولاب " فى شعرهم شلالا يهدر بالدماء ، ورحى تطحن الأجساد . ورغم كثرة الجيوش التى تطلبه ، لم يفلح أعداؤه فى القضاء عليه ، إلا بعد انقسام مهلك ، وفرقة مردية فى جماعته ، قادها عبد ربه[*] ، الذى أفتى بكفر قطري ،

---

١) العقد الفريد . ج١/٢٢٢ - ٢٢٣. لابن عبد ربه .

٢) المصدر السابق . ج١/١١٧.

*) عبد ربه الصغير : مولى بنى قيس بن ثعلبة . خرج على قطري ، وجمع الموالى والعجم من الخوارج ، وأخرجوا العرب من جيرفت . وكان الموالى زهاء ثمانية آلاف من القراء ، وقتل على يد جيش المهلب .
الكامل فى الأدب . ج٣/٣٨٢ - ٣٩٢ . وما بعدها .

وكانت النهاية التي لم تخطيء الفرسان أمثاله ، وما أقساها على النفس ، لقد كان فتى الكريهة ، وسداد الثغور ، ولكن لفرقته المارقة .

يكمل هذه الفروسية ، لسان يجيد الشعر ، وسنان يتقن النثر ، ومقول يأسر القلوب ، ويأخذ بزمام النفوس ، ويحملها على الصعب والذلول .. وكما كانت نهايته خجلى ، فلم يصلنا من شعره الا القليل ، فلا يتجاوز ما جمعه الأستاذ "إحسان عباس " فى كتاب "شعر الخوارج" من شعره ، وهي مجموعة مقطعات ، وأبيات مفردة ، الى جانب أريجيزات قصيرات النفس متقطعة ، ولكن ينظمها سلك ، يمثل الاطار الواسع للفكر الخارجي ، مع وضوح الآراء التى اعتنقتها الأزارقة ، ومنها تكفير القعد ، الذين لا عذر لهم فى التخلف عن جيش اخوانهم ، الذين هبوا لقتال الكفرة واللصوص والجاحدين ، ولا ننسى أن قطريا كان " يدين بالاستعراض[1] والسباء وقتل الأطفال "[2] .

والشاعر فى نتاجه كله - الذى وصلنا - لا يكاد يخرج عن مذهبه الذى اعتنقه خالصا مخلصا ، بل داعيا اليه . ملتمسا التطبيق الميدانى لآراء مذهبه ، فاذا كانت آفة التصورات أن تبقى رهينة التنظير ، فان التطبيق العملى حجتها وانتشارها وواقعيتها

فلم يكن قطري كغالبية شعراء عصرنا ، يتقنون صناعة القول ، فى ردهات الفنادق والقصور ، تحيط بهم الزهور الناعسة ، وآذان أثقلتها الأقراط ، بل هى نفثات مكلوم ، وآنات جريح ، وحمحمات خيول ، فقدت فرسانها ، فبكتهم ، وبحثت عن

---

١) الاستعراض : قتل الآخرين ، دون السؤال عن حال أحد منهم . ترتيب القاموس المحيط . ج٣/١٩٧ .
الاستعراض : للقوم : قتلهم ولم يبال بمن قتل . المعجم الوسيط . ج٢/٥٩٤ .
٢) البيان والتبيين . ج٣/٢١٤ . للجاحظ .

يمتطي صهوتها ، ويجيلها علىنى صدور الجرحى والصرعى . انه يدعو الى الخروج ، ودعوته هذه يوجهها الى من اعتقد مذهبه ، ولكن اثاقل الى الأرض ، وكان مع القاعدين ، وأبو خالد القنانى منهم :(1)

أبا خالد يا انفر فلست بخالد	وما جعل الرحمن عذرا لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهدى	وأنت مقيم بين لص وجاحد

انها رحلة قصيرة ، تلك الحياة التى ستعيشها " فلست بخالد " فكأنى أقرأ فى حاشية كتاب من كتب التفسير ، "يا انفر " يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله ، اثاقلتم الى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة "(٢)

إنها دعوة الى الخروج على هؤلاء اللصوص والجاحدين - كما يعتقدون - فقد غابت الأعذار ، وصحت عقيدتك .. عقيدة الهدى والرشاد ، التى ترى القعود كفرا ، فما إقامتك مع هؤلاء ؟ كيف توفق بين قعودك هذا،وإيمانك الذي لا يستقيم الا بجهادهم . وقد يفضح هؤلاء القعد فى أبيات أخرى .. ويبين حقيقة تثاقلهم عن الجهاد . فقد كتب أبياتا الى سميرة بن الجعد ، أحد أصحابه ، حين أصبح جليسا للحجاج :

لشتان ما بين ابن جعد وبيننا	اذا نحن رحنا فى الحديد المظاهر
نجالد فرسان المهلب ، كلنا	صبور على وقع السيوف البواتر
وراح ابن جعد الخير نحو أميره	أمير بتقوى ربه غير آمر
أبا الجعد أين العلم والحلم والنهى	وميراث آباء كرام العناصر
ألم تر أن الموت لا شك نازل	ولا بعث الا للألى فى المقابر
جفاة عراة ، والثواب لربهم	فمن بين ذى ربح وآخر خاسر
فان الذى قد نلت يفنى وانما	حياتك فى الدنيا كوقعة طائر
فراجع أبا جعد ، ولا تك مغضيا	على ظلمة أعشت جميع النواظر

١) شعر الخوارج . ص/١٠٥ - ١٠٦.
٢) التوبة . الآية . ٣٨.

وتب توبة تهدي اليك شهـــــادة فانك ذو ذنب ، ولست بكافـــر
وسر نحونا تلق الجهاد غنيمـــة تفدك ابتياعا رابحا غير خاســـر
هى الغاية القصوى الرغيب ثوابها اذا نال فى الدنيا الغنى كل تاجر(١)

القصيدة تكاد تجمع فلسفة الشاعر ، فقد بين مذهبه فى إخوانه من القعـــد مع حرصه على خروجهم ، فألان لهم النصيحة ، وفتح لهم أبواب الأمل فى قبـــول توبتهم ، والعفاء عن حوبتهم ، فهم فى حيز الذنب بعد ، ولم يدخلهم فى ملـة الكفر ، وعداد الكافرين ٠

استهل قصيدته بمعنى الآية القرآنية الكريمة " لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله " ٠(٢) وليس هذا بمستغرب من الخارجى الذى لا يفتر عن دراسته لكتاب الله ، وتلاوته ، والقيام به بين يدى الله عز وجل ٠ فقد كانوا يطيلون وقفاتهم المتأنية ، إن جاد لهم الزمن باستراحة من معاركهـــم المتلاحقة ، على القرآن الكريم ٠٠ وهذا أمدهم برافد زاخر فى أشعارهم ، فكانـــوا يكثرون من تضمين الآيات القرآنية فى قصائدهم ، وهل فى هذه البداية المشفوعـــة بروح الآية الكريمة ، دليل على استجابتهم السريعة لنداء القرآن ، ولو كان وفـــق فهمهم - فهناك فرق كبير بين من يتقلب فى أعطاف النعيم ، مسربلا بالخز وما لان من الثياب ، ومنكبا على لين الطعام ، وشهيه ، كابن جعد ، الذي آثر الحياة تحت رواق الظلمة وركن اليهم ، وآثر الفانية على الباقية ، وبين كوكبة الشراة الذين باعوا أنفسهم لله ، وتسربلوا دروعهم ، واندفعوا يجالدون الكفرة ، بثبات وصبـر ٠٠ وحقا إنها لكبيرة تلك الوقفة ، التى وقفها ابن جعد ، صاحب العلم والعقل ، والأصالة ، فقد ورث المكارم والفضائل ، عن آبائه ، كيف يركن الى الدنيا وأهلها ، وهو يعلم أن الموت غاية كل حى ؟ !! وسيهدم تلك اللذات التى أقعدت هؤلاء القوم ، عن القيام بواجبهم تجاه عقيدتهم ، وانكم يوم القيامة تبعثون ، كما دخلتم هذه الدنيا حفـــاة

---

١) شعر الخوارج ٠ ص١٢٠ ٠ د/ احسان عباس
٢) سورة النساء الآيـة ٠ ٩٥٠

عراة ، مجردين من كل مظهر من مظاهر النعيم ، الذى تميزت به عمن شرى نفسه ، فكان من الفائزين ، ونجا بنفسه عن طريق الضلال والخسران ٠٠ صوت قرآني نبوي،وانهـا لحياة قصيرة ، يطويها الفناء ، ويبقى وزرها ٠٠ وإني لأعيذك يا ابن جعد ، من أن تزخرف لك الدنيا وتضطرب الرؤية أمام ناظريك ٠٠ فالرابح من أحدث لذنبه توبة ، وندم على ما فرط ، وتوجه الى أرض المعركة ، مدبرا عن أمنيات من الدنيا خادعات ، وسعى وراء الشهادة ، يطلبها ، ويبذل مهجته فى سبيل ادراكها ٠ فالغني الحق ، هو الذى نال الجنة ، فى ظلال السيوف ، وليس الغني الذى كثر ماله ، واتسع سلطانه ، ومن أدرك الجنة ، لم يفته شيء ، ومن افتقدها فما حصل غير الخسران المبين ٠

هذه الأبيات الرقيقة الوادعة ، التى يهمس بها فى أذن أحد اخوانه معاتبا ، ومذكرا ، تحمل الرغبة الصادقة فى الاقناع المخلص ، وقد آتت أكلها ، والتحق ابن جعد بإخوانه الشراة ، مخلفا الحجاج ونعيمه (١) ٠

وهكذا فقد عاش الخارجى ثائرا على كل شيء ، على نفسه إن تثاقلت عن الجهاد ، ثائرا على المتخاذلين ، الذين أقعدهم حب الدنيا ، فتخلفوا عن ركب الشراة المجاهدين ، فلم يعذر أحدا من القاعدين ٠ ومن يعزف على وتر التكسب ، يريد حياة تسير على الجادة - كما يراها - لا يبالى بكبير ولا عظيم ، والجسد وإن قطعته سيوف الباطل ،

---

(١) فتؤثر الأبيات فى نفسه تأثيرا قويا ، فيلحق بقطرى ، تاركا للحجاج رسالة شعرية :

فمن مبلغ الحجاج أن سميرة ... قلى كل دين غير دين الخوارج
رأى الناس الا من رأى مثل رأيه ... ملاعين تراكين قصد المخارج
فأقبلت نحو الله بالله واثقا ... وما كربتي غير الإله بفارج
الى عصبة أما النهار فانهم ... هم الأسد أسد الغيل عند التهايج
وأما اذا ما الليل جن فانهم ... قيام بأنواح النساء النواشج

مروج الذهب ٠ ج٣/١٤٤٠

فما تلك الا ليخف الى الجنة ، مشرق الروح ، يتفيأ ظلال النعيم .. وعـــد الصدق الذى ينتظرون .

فلا تعجب بعد ذلك ، من هذا الامتزاج بين شعرهم وتصورات مذهبهم ، حتى بدا وكأنه - بل هو - شعر عقيدة وجهاد . لا يعرف الا القرآن ، والبيان النبوي منهلا .. فتسربل شعرهم بمعانيه وألفاظه ، وأضحى الشعر على يد قطري ، شرائح قرآنية ، فيها من القوة والوضوح والصدق الكثير .

واذا كان قطري ، يضيق عن رؤية أحد من قعد الخوارج ، فكيف سيكون موقفه من خصومه - الكافرين - في ساحة المعارك ؟ وما الشعر الذى سيعانق السيـوف ، بعد أن هجرت أغمادها ؟ !

هل سيكون تعبيرا عما يعانيه الفارس في جولاته ؟ هل سيرق لهول المعركة ، حيث الدماء والأشلاء ، فيبكي القتلى ، ويلتفت ليكفكف بعدها دموعه ؟ أم ذاك يغريه ، فيندفع ، ويدعو رجاله الى الإقدام والثبات ؟ ، لنستمع اليه ، وهـو يخوض معركة " دولاب " ، التى وصفها صاحب الأغانى ، فقال : " والتقى الفريقان في "دولاب"[1] على نهر دجيل وبرز لهم الأزارقة ، فقاتلوهم قتالا شديدا ، حتى تكسرت الرماح ، وعقرت الخيل ، وكثرت الجراح والقتلى ، وتضارب الجندان بالسيوف والعمد ، فقتل في المعركة ابن عبيس[2] ، وذلك في جمادى الآخرة سنة خمس وستين ، وقتل نافع بن الأزرق يومئذ ، وأتى ابن عبيس ، وهو يجود بنفسه ، فاستخلف على الناس " الربيع بن عمر الغدانى " وكان يقال له الأجذم ... واستخلف نافع بن الأزرق

---

1) قرية من أعمال الأهواز ، بينها وبين الأهواز نحو من أربعة فراسخ ، كانت بها معركة دولاب . وذلك في أيام ابن الزبير . الأغانى . ج٦/٤٢ .
2) مسلم بن عبيس . فارس أهل البصرة

لعمرك انى يوم ألطم وجهها على نائبات الدهر جدّ لئيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت طعان فتى فى الحرب غير ذميم
غداة طفت ع الماء بكر بن وائل وألافها من حمير وسليم
ومال الحجازيون نحو بلادهم وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدها وولت شيوخ الأزد فهى تعوم*
فلم أر يوما كان أكثر مقعصا يمج دما من فائظ وكليم
وضاربة خدا كريما على فتى أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطنا له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم (٣)

ووردت مقدمة الأبيات ، بصور مختلفة ، ولكن المحتوى واحد ، والمطلع متشابه :

- فوا كبدا من غير جوع ولا ظما وواكبدا من وجد أم حكيم
- واذا قلت تسلو النفس أو ينتهى المنى
أبى القلب الا حب أم حكيم .

الذى يلفت انتباهنا ، أن أم حكيم ، تصدرت المطلع ، فى الروايات المختلفة للأبيات ، فمن هذه المرأة ؟! ولمَ استهل الشاعر قصيدته بالحديث عن أم حكيم ؟ وما موقف شعر الخوارج ، أو قطرى على الأقل من الغزل ؟ ، يورد صاحب الأغانى حادثة تنم عن تزمت الخوارج فى رواية شعر الغزل ، وهذه مشادة طريقة حول فلسفة استحسان الشعر ، تدور بين ابن عباس ، ونافع الأزرق : " بينا ابن عباس فى المسجد الحرام ، وعنده نافع بن الأزرق ، وناس من الخوارج ، يسألونه اذا أقبل عمر بن أبى ربيعة ، فى ثوبين مصبوغين موردين ، أو ممصرين ، حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس ، فقال : أنشدنا ، فأنشد :

أمن آل نعم ، أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

---

*) فى البيت " اقواء " .

١) شعر الخوارج - . ص/١٠٦ . وفى الكامل ، والأغانى (جزء منها) .

حتى أتى على أخرها ، فأقبل عليه نافع بن الأزرق ، فقال : والله يا ابن عباس ، إنا نضرب اليك أكباد الابل ، من أقاصي البلاد ، نسألك عن الحرام والحلال فتتثاقل عنا ، ويأتيك مترف من مترفي قريش فينشدك :

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت ... فيخزى ، واما بالعشى فيحسر

فقال : ليس هكذا قال ؛ قال: فكيف قال ؟ فقال : قال :

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت ... فيضحى واما بالعشى فيخصر

فقال : ما أراك إلا حفظت البيت ، قال : أجل وإن شئت أن أنشدك القصيدة ، أنشدتك اياها ۰ قال : فإني أشاء ، فأنشد القصيدة حتى أتى على آخرها " ۰[1]

أما الغزل عند قطرى ، فلا يتعدى ذكر أم حكيم ، التى ترجح النصوص أنها زوجه ، وليست محبوبة ، فلا مكان للمرأة ، فى قلب شاعر شغلته العقيدة ومطالبها ، الا أن تكون دافعا قويا للنزول الى مظانّ الموت فى ساحة الوغى ، وقد تكون بجانبه كما كانت أم حكيم بجانب قطرى زوجها ، تخوض معه الأهوال ، وغمار الموت ، وهى ترتجز هذا الرجز الذى قد لا يصل الى عنفه إلا قلة من الرجال ۰

أحمل رأسا قد سئمت حمله ... وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عنى ثقله ۰[2]

فحبه لزوجه ، أو ذكره لها ، ما هو الا قرين لاحق لحبه ، واستماتته فى سبيل الوصول الى الشهادة ، عبر مواقف الشجاعة والبسالة والاقدام ، التى يقفها الأبطال ، متفانين فى طلب الثواب والجنة ، ويستعذبون ما يكابدونه فى حروبهم ، ولياليهم العامرة بالقيام والتبتل والبكاء ۰ زلفى الى الله ، فهي شريكته فى تلكم المواقف ،

---

١) الأغانى ۰ ج١/٧٢۰

٢) المصدر السابق ۰ ج٦ /١٤١۰

مواقف التضحية من أجل العقيدة ، وان غابت ، فهي ينبوع يتزود منه الفارس ليمضى في رحلة الصراع المريرة ٠٠ يتوجه اليها بحديثه عن تعلقه بعقيدته ، وتضحيته في سبيلها ، علّه يحظى بضربة تودى به ، وتخط اسمه في سجل الشهداء ، ولذا تجد بين جنبيه نفسا مقدامة ، لا ترهب الموت ٠

ان قطريا هنا يجمع بين رقة النفس ، وحماسة العقيدة ، تتخذ النسيب وسيلة فنية لأداء رأيه ، وتصوير موقفه ، مع حسرة الغربة ، وجلال الشهادة في وجه الكفار ، وانما يريد المسلمين " ٠ (١)

ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت ‏ ‏ ‏ طعان فتى في الحرب غير ذميم

ثم ينقلنا الى أرض المعركة ، بل الى الأنهار التى عادت مراكب لتلك الجثث ، لتنقلها الى المصير الأسود - كما يزعم - ومن كثرة القتلى في تلك الموقعة لا يستطيع الشاعر أن يعدد الرجال ، بل عدد القبائل التى قدمت رجالها وقودا لتلك الحروب ، فالناس قد جمعوا لهم " بكر بن وائل ، حمير ، وسليم ، الحجازيون ، تميم ، شيوخ الأزد ٠٠٠ " وخذلهم الله على أيدى عباده المؤمنين الخوارج ٠

أما المعركة فقد كانت مريرة رهيبة ضاريّة ، فلا تقع العين الا على قتلى تمج جراحاتهم دما ، من كثرة القعص الذى وقع بهم ، لقد كان القوم لا يبالون بسفك الدماء ، ان كانت منهم ، أو من خصومهم ، ومن يطلب الحسناء لم يغله المهر فسلعة الله غالية ، ولذا أباحت خيلهم كل حريم ، من الكفار ٠٠ عربون صدق والتزام بالعقيدة ، ووفاء بالعقد ٠٠ يقتلون ويقتلون ، مقبلين غير مدبرين ، لتكون لهم الجنة ، فقد ربح بيعهم ، وهذا لون جديد من الهجاء ٠٠ فقد كنا ننتظر بعد أن عدد القبائل ، أن يكشف الستر عن سوءاتها ، ولكنه آثر أن يبين لنا ، أن دائرة السوء كانت على الطائفة الكافرة ، التى باعت نفسها للدنيا وزخارفها ، انه الكفر والصد عن سبيل الله ، والعصيان ٠

---

١) تاريخ الشعر السياسى ٠ ص/٢١٧٠ أحمد الشايب ٠

لقد اعتمد فى تأييد مذهبه الخارجي على النسيب والحماسة ، ويبلغ من ذلك درجة سامية ، فشعره فى سبيل العقيدة الراسخة ، والفناء بالمذهب الذى اعتنقه خالصا ومخلصا ، حتى كان لذلك أثره فى جمال الشعر وقوته (١) .

وهكذا نجد هذا اللون من الشعر الثائر مع السيوف المشهرة ، يلهث صاحبه وراء الموت ، علّه يلحق باخوانه السابقين الذين قضوا نحبهم .. أدبا قويا ، قوة العقيدة فى نفس صاحبها ، وبسيطا بساطة حياته ، التى لا تعرف التأنق والتطريبة ، مؤثرا تأثير السيوف بالاعداء ، يبكون الميت ، لينفر الحى ، ويتخذ القادة والفرسان رمزا حيا للتضحية والفداء ، الى جانب صدق العاطفة ، وحرارة الشعور ، وعفوية النظم ، ونسيان الذات ، التى نذرها للسيوف الظامئة ، تنهل منها ، فلا عجب اذا فخر بتقواها ، وثباتها واقدامها ، فى ساحة الموت ، مع الزمرة المؤمنة .

فلو شهدتنا يومذاك وخيلنا	تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم	بجنات عدن عنده ونعيم

أية حماسة هذه ؟! انها حماسة بحلة جديدة ، نابعة من الزهد فى الدنيا ، لادراك نعيم الآخرة . وتمسك بالمبدأ ، بل والفناء فى سبيله ، ليكسب العقد الذى أبرمه مع خالقه ، " ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون" (٢) .

وتعال معي ، وأنصت الى هذه المناجاة بين الشاعر ونفسه ، نفس فطرت على حب الدنيا ، وطول الحياة ، وشاعر يستخف بآمال نفسه ، فيلزها فى شعاب الموت ، ليواجه أبطال الكفار ، وحسب تلك الأبيات شهادة ابن خلكان ومطلعها :

---

١) تاريخ الشعر السياسى . ص/١٢ .

٢) سورة التوبة الآية : ١١١ .

أقول لها وقد طارت شعاعـــا   من الأبطال ، ويحك لن تراعـــي

" وهذه الأبيات تشجع أجبن خلق الله ، وما أعرف في الباب مثلها ، وما صدرت الا عن نفس أبية ، وشهامة عربية ".(1)

ان للخارجي واخوانه نظرة خاصة الى الحياة ، فالآجال مكتوبة ، لا يقدمها حـــرص ولا يؤخرها هلع ، والخلود لا يكون لمخلوق ، فلمَ الفرق من الموت ، والفــــرار من الزحف ؟ فمن لم يمت معانقا الرمح ، لاثما الحسام ، فسيموت ميتة البعيــر الهرم .. فمن العجز أن تموت على الفراش ، وتمضي من دنياك ، ولم تقدم لآخرتك منها .

انه يؤكد حقيقة الحياة والموت .. ويصرخ استجيبوا لداعي الجهاد ، قبـــل أن يدعوكم الموت الى نهايتكم .. ان الصورة لتلك الحقيقة ، تشف من وراء صدورهـــم ، وتنضح تراضيا على الموت .. فالحياة فرصة طارئة ، والعاقل من اهتبلها ، ليعتق نفسه يوم القيامة .. من النار ، والموت في سبيل الحق أقرب طريق ، وأسرع سبيل للوصول الى دار الأمان بأمان ، وهذه نفثات متلاحقة ، من صدر شاعر ، تمـــوج بها حناياه ، فتنداح على لسانه :(2)

لا يركنن أحد الى الاحجـــام   يوم الوغى متخوفا لحمـــام
فلقد أراني للرماح دريئـــة   من عن يميني مرة وأمامـــي
حتى خضبت بما تحدر من دمـــي   أكناف سرجي أو عنان لجامـــي
ثم انصرفت ، وقد أصبت ولم أصب   جذع البصيرة قارح الإقـــدام
متعرضا للموت أضرب معلمـــا   بُهمَ الحروب مشهر الأعـــلام

وفي أبيات له أخرى ، يلح على القضية نفسها :(3)

الى كم تغاريني السيوف ولا أرى   مغاراتها تدعو إلي حماميـــا
أقارع عن دار الخلود ولا أرى   بقاء على حال لمن ليس باقيـــا

---

1) وفيات الأعيان ، ج٤/٩٤ . والكامل لابن الأثير . ج٤/٦٩ .
2) شعر الخوارج . ص/١١٢ .
3) المصدر السابق . ص/١١١ .

ولو قرب الموت القراع لقد أتى — لموتي أن يدنو لطول قراعيا
أغادي جلاد المعلمين كأنني — على العسل الماذى أصبح غاديا
وأدعو الكماة للنزال اذا القنا — تحطم فيما بيننا من طعانيا
ولست أرى نفسا تموت وان دنت — من الموت حتى يبعث الله داعيا
اذا استلب الخوف الرجال قلوبهم — حبسنا على الموت النفوس الغواليا

الشاعر هنا يسوق الأدلة الكافية ، على ما يعتقد ، وما ذهب اليه من مذهب في تقييم الحياة ٠٠ انه يعرى الحقيقة تلك من كل زيف ٠٠ وهاك أمثلة من ساحة المعركة بل المعارك ٠٠ يردفنا خلفه ، على صهوة جواده ، ويثبت قدمه ، فى أتون المعركة ، ويستعرض الأبطال ، ويفتح صدره،عله يحظى بضربة أو بطعنة نجلاء ، ٠٠ انه يفخر بشجاعته ٠٠ فلا هلع ولا خوف ،وانما اقدام وفداء ٠٠ بحث عن وسام الشهادة ، ليزين به صدره بطعنات حمراء ملتهبة ٠٠ لقد استهان بالموت ، ففر الموت من لقائه ، وهو فخر يحمل الدعوة للاقدام ٠ وليس حديث الأنا ٠

لقد أصبحت رغائب النفس ، وتطلعاتها الى الحياة فى كفة ، وفى الأخرى فارس وعتاده وإقدامه وأمنيته ٠٠ ومن يستبدل الباقية بالفانية ، لقد آثر الجنة على ما سواها ، ولكن عبر مظان القتل ٠٠ وكم فى الجهاد من دروس ، وشحذ همم ، واستصغار متاع ، ومعاناة وصراع بين مواكب الفرسان ، التى تحمل الموت الزؤام ، ولكن لمن حانت منيته ، لقد صيغت حياتهم ونفوسهم فى ظل تلك القناعات فكانت فريدة الصياغة ، وجاءت أشعارهم وحي جهادهم ٠٠ يفخر ولكن بما يلهب عزيمة الجبان ، ويهجو ولكن للاستخفاف بالخصم وأمانيه ٠٠

وشعر الحماسة هذا لم يتحرك وينبعث من عصبيات قبلية ، هبت لحماية شرفها ، أو الأخذ بثأرها ، وانما حركته عقيدة مستقرة فى النفوس ، متحركة فى الصدور ، لا تقر حتى تنال من الظلمة والجاحدين ، أو تتبع مواقع القتل ، الذى يحقق ما ينشدون ، من وعد الله للمؤمنين ، عبر دروب المنازلة ، التى تضعهم على طريق الجنة ٠

وهكذا مضت حياة الشاعر ، حتى لاقته المنية ، في شعب من شعاب طبرستان ، مخلفا معالم للأبطال ، وصوى للشعراء ، شعراء العقيدة ، بعد أن قضى حياته مرتحـــلا من معركة الى أخرى ، متخذا صهوة جواده محرابا ، ومنبرا ، وكفن مودع ، يزف الــــى الشراة بشائر الشهادة ، ويتوعد الكافرين مس سقر .

لقد كان طامة كبرى وصاعقة من صواعق الدنيا ، في الشجاعة والقوة ، ولـــه مع المهالبة وقائع مدهشة .. وشعره في الحماسة كثيرة .[1]

---

١) الأعلام للزركلي . ج٥/٢٠٠ . عن "سنا المهتدي" .

عمـــران بـــن حـــطّان

نحن الآن أمام شاعر آخر من شعراء الخوارج ، ولكنه يمثل زعامة القعد من الصفرية ، وفقيههم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، انه عمران بن حطان ، سدوسي من بني عمرو بن شيبان بن ذهل بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل • ويكنى أبا شهاب •(١) شاعر فصيح من شعراء الشراة ودعاتهم والمقدمين في مذهبهم•(٢)

انه من الشراة الذين فصلوا بين الايمان والجهاد ، ولم يعتقدوا أن الثاني شرط لاكتمال الأول ، وهم الصفرية • وقيل : كان قبل محدثا على مذهب الجماعة ، وقد أدرك صدرا من الصحابة ، وروى عنهم ، وروى عنه أصحاب الحديث ، وكان أصله من البصرة ، فلما اشتهر بهذا المذهب طلبه الحجاج ، فهرب الى الشام ، فطلبه عبدالملك ، فهرب الى عمان ، وكان يتنقل الى أن مات •(٣)

وقد اختلف في سبب اعتناقه لمذهبه هذا ، والذي يورده المؤرخون ، هو زواجه من ابنة عمه جمرة " ليردها عن مذهب الشراية ، وقال : أردها عن مذهبها الى الحق • فأضلته ، وذهبت به ، وملكت عليه قلبه ، وتمثلت له في كل طريق يسلكه ، وهو مرتحل عنه ، خوفا من الطغاة ، وفي النفس من هذا شك • والذي يرجح والذي يرجح عندى أنه التقى بعالم عظيم من علماء القوم فقلبه عن مذهبه •

أما مكانته الشعرية ، فقد شهد له معاصروه - رغم عدائهم - بها ، واعترفوا له بالسبق والتقدم • " فقد اجتمعت الشعراء عند عبدالملك بن مروان ، فقال لهم : أبقي أحد أشعر منكم ، قالوا : لا ، فقال الأخطل : كذبوا ، يا أمير المؤمنين ،

---

١) ويكنى أبا سماك •

٢) الأغاني • ج١٨/١٠٩ •

٣) المصدر السابق • ج١٨/١٠٩ •

فقد بقي من هو أشعر منهم ، قال : ومن هو ؟ قال : عمران بن حطّان ، قـــال : وكيف صار أشعر منهم ؟ قال : لأنه قال وهو صادق ففاقهم ،فكيف لو كذب كمـــا كذبوا " (١) .

وقال عنه الفرزدق : لقد أحسن بنا ابن حطان حيث لم يأخذ فيما أخذنـــا فيه ، ولو أخذ فيما أخذنا فيه لأسقطنا ، يعني لجودة شعره " (٢) . ولم تكن شهادة النقاد المحدثين بأقل من تلك الشهادات ،فقد ذكر الدكتور احسان عباس عنـــه : " انه أشعر شعراء الخوارج قاطبة " (٣) . ناهيك عن الثقافة الشاملة والعميقة ، والتقدم في الخطابة ، وبذا تربع على زعامة طائفة من الشراة ، شاعرا وفقيها ، وخطيبـــا ، وتحمل لذلك ألوان الشقاء والمرارة ، في رحلته الوجلة المترقبة المضطربـــة . وهو يفر من ملاحقة الحجاج ، ومطاردة عبدالملك ، بعد أن أهدر الأخير دمه ، حتى وافته منيته مستخفيا في قرية من قرى الكوفة .

هذه الرحلة رحلة الخوف من بطش الظالمين والكافرين - حسب زعمه - فمـــا الذي انثال على لسانه من شعر ؟ وما الذي حققه في صفوف أبناء مذهبه ؟ ومـــا الأغراض التي أذاب شعره في قوالبها ؟ .

لا نتوقع ونحن نتتبع أشعار عمران بن حطان ، أن ينقلنا الى ساحة المعــــارك وأهوالها ، ودوره فيها ، كما واكبنا قطريا ، وانما سنمضي معه في رحلته القلقة المرتحلة ، التي لا تنقطع فيها عبادته وتبتله ، وقيامه ، رغم ضرها ، وقد تختلط في أسماعنا أنات الأسى على من فقدهم من أحبته ، فأورثوه هما وسقما ، مع حشرجات صدره وهو يناجي خالقه ، فاجلس اليه واسمع نحيبه علـــى مرداس ، وبكاءه علـــى

---

١) الأغاني . ج١٨ / ١١٦ .
٢) المصدر السابق . ج١٨/١١٧ .
٣) شعر الخوارج . ص/١٤١ .

نفسه ، لقد تخلف عن اخوانه الذين سبقوه الى الجنة ، وهو رهين الألم والحسرة . في هذه الحياة النكدة . فقد كان مرداس معلما من معالم الخوارج ، بل وأصحاب المبادىء ثباتا على العقيدة ، وترفعا عن الدنيا ، وفداء لمذهبه . فترك رحيلمه في نفوس أصحابه جذوة الانتقام المضطرمة ، التي تلهبهم للقيام الى الجهاد ، وكانت نهايته على يد عباد بن الأخضر*، دليلا لمن يتطلع الى الشهادة : لقد ترك موته أثرا في حياة شاعرنا وشعره ، لا يقصر كثيرا عن أثر القرآن الكريم والحديث الشريف ، "لقد كان عمران يحب أبا بلال حبا عظيما ، وليس يبعد أن يكون قد حضر مجالسه التي وصفتها كتب الأدب ، بل ليس يبعد أن يكون لأبي بلال أثر في تشريه ، فتشريه قريب العهد بمجالس أبي بلال ، اذ أن أبا بلال قتل أيام ولاية بن زياد ، وعرف عمران بتشريه أيام ولاية الحجاج".[(١)]

ولكن ما الذي أقعده ، اذا كانت شخصية أبي بلال تحتل هذا الموقع في نفسه ؟! أورد ابن حجر تعليلا سديدا ، ينقله عن أبي الفرج فقال : "وكان من رؤوس الخوارج من القعدية ، وهم الذين يحسنون لغيرهم الخروج على المسلمين ، ولا يباشرون القتال ، حيث قال أبو الفرج الأصفهاني . انما صار عمران قعديا بعد أن كبر وعجز عن الحرب".[(٢)] فاكتفى بالدعوة والتحريض .

---

١) أدب الخوارج . ص/٨٦ . د/ سهير القلماوي .

*) عباد بن علقمة بن عباد المازني التميمي ، نسب الى الأخضر ، وهو زوج أمه . وجهه عبيد الله بن زياد في أربعة آلاف لقتال مرداس بن أدية ، ومن معه من الشراة ، فالتحما في معركة شديدة ، بقرب البصرة في صباح يوم جمعة ، وجاء وقت الصلاة فتهادن الفريقان الى ما بعدها ، وقضى عباد الصلاة مسرعا ، وحمل على أصحاب مرداس ، وهم بين راكع وساجد ، فقتلهم جميعا ، وأرسل رأس مرداس الى ابن زياد . وقتله بعض الشراة غيلة . الأعلام . ج٣ /٢٥٧.

٢) الاصابة في تمييز الصحابة . ج٣/١٧٩.

وأما ما ذهب اليه الدكتور نايف معروف ، في تبرير قعود عمران ، كان لا يرى عدلا ليعيش في كنفه ، ولا يرى أنصارا لأهل الحق،ليقوى الحق بهم ، فيميل الى القعود "(١) . فلا دليل عليه ، من حياته أو من شعره ، بل خلافه يتردد في أشعاره من دعوة وتطلع الى الخروج على الأعداء ، وقد يكون عمران في مرحلة من العمر لا تمكنه من شهود المواقع ، وإن شهدها لن يقدم ما يقدمه في مجال الدعاية للفكر الخارجي . ولو لم يكن دوره هذا أشد خطورة ، لما ألحت الولاة على طلبه ومطاردته ، فقد أفسد أهل العراق ، وحببهم بالشراية "(٢) . وان دل ذا على شيء ، فانما يدل على براعته في الحوار والاقناع والتأثير ، وهذا يصدر عن ايمان كامل بالمذهب ، مع الغيرة التي تدفعه لممارسة هذا اللون* من الجهاد ، الذي لم يمنعه من تأنيب المتثاقلين عنه ، وهم عليه قادرون .

واخوة لهم طابت نفوسهم	بالموت عند التفاف الناس بالناس
والله ما تركوا من منبع لهدى	ولا رضوا بالهوينا يوم ميجاس(٣)
أتعجزون ، وترجون اللحاق بهم	أني يكون ذوو عجز كأكياس(٤)

ولا تنس أن عمران بن حطان ، لو كان قعوده لدنيا يصيبها ، أو حبه لمرأة ينكحها ، لما نظر الى الدنيا التي يعيشها تلك النظرة المعرضة عنها ، فقد زهد في الدنيا وأهلها ، وانه ليتطلع الى الميتة المشرفة ، التي انتهى بها أبو بلال ، ويتمناها لنفسه ، فهي الغاية الأخيرة التي يرمقها ، وهو خائف على فواتها ، ميتة في ساحة المعركة ، تزغرد لها السيوف ، وتؤبنه الخيول .

---

١) الخوارج في العصر الأموي . ص/٢٥٨.

٢) الأغاني . ج١٨/١١١.

٣) ميجاس : موضع بالأهواز .

٤) شعر الخوارج . ص/١٤٠.

*) وهكذا كان عمران بن حطان مجاهدا بشعره ، وكان مجليا في هذه الحلبة ، تفرغ لهذا اللون من السلاح ، الذي يتناسب وموقعه وسنه ، تمرس به ، وسد ثغرة خطيرة .

لقد زاد الحياة إلي بغضـا ... وحبا للخروج أبو بـلال
أحاذر أن أموت على فراشـي ... وأرجو الموت تحت ذرا العوالـي
ولو أني علمت بأن حتفـي ... كحتف أبي بلال لـم أبـال (١)
فمن يك همه الدنيـا فانـي ... لها والله رب البيـت قـال

انى أرى فى هذه الأبيات لونا من الرثاء جديدا ، رثاء يندب القاعدين، ويدعوهم الى الخروج الى مجالدة الظالمين ، علهم يدركون ، من سبقهم من اخوانهم الى الجنة ، أبي بلال وصحبه ، فقد فازوا بالسهم الأطيب ، ويقسم الشاعر انه كاره لهذه الدنيا النكدة ، التي خلفته عن ركب الصادقين من أصحابه ٠٠

وأود أن ألفت انتباه القارئ الى صدق عمران ، وتحريه له ، فقد " كان عدلا فى روايته ، متحريا للصدق " (٢) ٠

لكننى لا ألمس الصراع الموهوم الذى رماه بعض الكتاب ، وانما الأسى الذي يعتلج في صدره ، والاشفاق المعذب الذى ينتابه ، فقد حال كبر سنه ، دون امتطاء مراكـب الشهادة :

يا عين بكي لمرداس ومصرعـه ... يا رب مرداس اجعلنـي كمـرداس
تركتنى هائما أبكـي لمرزئتـي ... فى منزل موحش من بعد ايناس
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفـه ... ما الناس بعدك يا مرداس بالنـاس
اما شربت بكأس دار أولهـا ... على القرون ، فذاقوا جرعـة الكاس
فكل من لم يذقها شارب عجـلا ... منها بأنفاس ورد بعد أنفـاس (٣)

ان موت مرداس ، خلف فى نفس الشاعر جرحا غائرا ، وصدمة عنيفة، تركته لا تمسك مآقيه الدموع ، وفجيعة لا مواسي له ، فلم يعد يأنس بأحد ، رغم كثرة القوم ، ومن خلال الدموع والأنين ، ورهبة الموت ، برفع يديه الى السماء ، طالبا ألا تفوته الشهادة

---

١) شعر الخوارج ٠ ص/١٤٣٠
٢) تهذيب التهذيب ٠ ج٨/١٢٧٠
٣) الكامل ٠ ج٣/١٦٨٠ والعقد الفريد ٠ ج١/٢١٧٠

التى اختير لها مرداس ، انه ملّ حياته ، كما ملّ أهلها ، فهو ينتظر جرعته من كأس الموت،ولابد آتية ٠

لقد انقلبت صورة الرثاء لديه ، اذ الوحدة والوحشة ، ليست لمن حلّ بين الصفائح والجنادل ، وانما الوحشة لمن خلفه الميت فى الدنيا ، فلم يعد الرثاء وصفا لساعات تطيف بها خيالات الحزن ، بل رثاء تطيف به خيالات الاطمئنان إلى النهاية السعيدة التى آب اليها الشراة ، وقد جدهم الشعراء ، بل نصبوهم منارات من دماء للأجيال القادمة ٠ " ان نظرة الخوارج للحياة والموت ، انعكست بشكل مباشر على رثائهم ، فخرج عن اطاره التقليدى ، فى التفجع والبكاء الحزين، وصاروا يغبطون قتلاهم على فوزهم بالشهادة ، ويتمنون اللحاق بهم ، لينجوا من شقاء الدنيا ، وعذاب الآخرة ، وبذلك يجددون العزم للحاق بهم ، فيكون ذلك حافزا لهم الى مزيد من التضحية والفداء "[1]٠

لقد كانوا فرسان نهار ، رهبان ليل ٠٠ أداروا ظهورهم للدنيا ونعيمها ، لئلا تعجل لهم طيباتهم فيها ، وادخروها لأنفسهم الى اليوم الموعود ، وهذا يسقط ما ادعاه الدكتور نايف معروف ، وبرر به زهدهم بالحياة الدنيا ٠ فقد " تعود للظروف القاسية التى عاشوا فى كنفها ، اذ لم تجف دماؤهم طوال العصر الأموى"[2]٠
ان ثقلة المطامع واللذائذ والمصالح ، وثقلة الخوف على الحياة ، ثقلة الذات الفانية ، والأجل المحدود ، والهدف القريب ، هى التى تشد الانسان وتقعده عن تلبية داعى الجهاد ، وعندما يتخفف الانسان منها ، ينطلق من قيد الأرض ، ويتطلع الى الخلود

---

١) الخوارج فى العصر الأموى ٠ ص/٢٦٧٠

٢) المصدر السابق ٠ ص/٢٧١٠

العلوى ، وخلاص من الفناء المحدود ، والآجال بيد الله • وقد فهم هذه الحقائق الشراة ، الذين باعوا نفوسهم رخيصة لله ، في سبيل عقيدتهم ، فلم تلجئهم ضرورات الأرض ، وجداول الدماء التى تنزف من كلومهم ، الى هذه النظرة البائسة المدعاة •

وأعتقد أن هؤلاء القوم ، خافوا على أنفسهم من مغريات الدنيا ولذائذها واسمع الشاعر ابن حطان ، ماذا يقول ، وهو يناجى حبيبته:(١)

يا جمر كيف يفوق الخفض معترف ؛ بالموت ، والموت فيما بعده جلل

إن هادم اللذات ، ينغص عليه حياته ، وكيف تلذ له الحياة الهانئة ، والنار تطلبه ، والموت يترصده ، والجنة قد غلا مهرها ، وتفضح زور الادعاء ، بتبيان حقيقة زهدهم ودوافعه من شعر ابن حطان ،الذى يمثل صلابة الخارجي وزهده •(٢)

وليس لعيشنا هذه مهاه(٣)	وليست دارنا هاتا بدار
جماد(٤) لا يزال الرسل(٥) منها	ولم يجعل لها درج الظئار(٦)
وان قلنا لعل بها قرارا	فما فيها لحي من قرار
لنا الا ليالي هينات	وبلغتنا بأيام قصار
أرانا لا نمل العيش فيها	وأولعنا بحرص وانتظار
ولا تبقى ولا نبقى عليها	ولا فى الأمر نأخذ بالخيار
وما أموالنا الا عوار	سيأخذها المعير من المعار
ولكنا الغداة بنو سبيل	على شرف ييسر لانحدار
كركب نازلين على طريق	حثيث رائح منهم وساري

---

١) شعر الخوارج • ص/١٧١•
٢) المصدر السابق • ص/١٥٣•
٣) مهاه : الطراوة والحسن •
٤) ناقة لا لبن فيها •
٥) الرسل : اللبن •
٦) ضرق •

وعاد اثرهم طربا اليهم (١)   حثيث السير مؤتنف النهار

أبيات تردد صدى الآيات القرآنية ، في نفس صاحبها ، وما ذلك بغريب على مثل عمران ، الذى كان القرآن أنيس وحدته ، ومحور حياته ، ان هذه الحياة لا تقر على حال ، وهي مفازة يجتازها البشر لينتهي كل الى غاية قطعية ، فكل نعيم لا محالة زائل ، فما بالك بالمتاع المعار ، الذى تعلقت به النفوس ، وهل الدنيا الا كما وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم " مالي وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها " * وهل ردد عمران سوى هذا المفهوم " فما لحي من قرار ، أيامنا قصار ، بنو سبيل ، ركب نازلين ·· حلوها ، ثم نزحوا بعد استراحة ، وهكذا تتبعهم أجيال وافدة ·· حقيقة ناصعة ، لا غموض ولا التواء ، عبر عنها بعبارات واضحة سهلة ·· فأين النظرة السوداوية التى تدفع أصحابها للانتحار ·

انها نظرات صادقة ، الى الدنيا ومتاعها ·· فهى ميدان الابتلاء والمغالبة والجهاد لإحقاق الحق ، أو الاستشهاد فى سبيله ، ومن كانت رحلته سريعة هكذا فما حاجته الى الزاد الكثير ·· الذى يعوق سيره ، ويفسد نهايته ·· لقد باعوها وشروا الآخرة ، وآثروا الباقية على الفانية ، والشقي من غررت به واستخدمته ·

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها   على أنهم فيها عراة وجوع
أراها ، وان كانت تحب فانها   سحابة صيف عن قريب تقشع
كركب قضوا حاجاتهم وترحلوا   طريقهم بادى العلامة نهيع (٢)

---

١) مؤتنف : مستقبل ·

*) حديث صحيح · عن ابن مسعود · صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) ، تأليف الشيخ محمد ناصر الدين الألباني · رقم ٥٥٤٤· ج٥/١٥٤· المكتب الاسلامى ·

٢) شعر الخوارج · ص/١٥٤·

انهم استصغروا الدنيا ولذائذها ، وتعلقوا بالآخرة ، وعملوا لها " كما يعتقدون" وأصبحت قيدا لهم ، تحجزهم عن ادراك أمنياتهم ، فتراهم يستعجلون الموت ، بل الشهادة . فاللبيب لا يخدع بمثل الدنيا ، بعد أن خبر حقيقتها ، وبدا له منها عوارها . وقد كان عمران رأس هؤلاء ، فلا عجب اذا قال الآمدى ، " انه أشعر الناس فى الزهد ، وأرقهم فى الشعر ، وأكثرهم تأثيرا بالسامع " .(١)

ولو كان زهدهم كزهد كلاب بلخ ، لاحتفظ لنا الرواة بما يدينهم بذلك ، ولكن بلغنا من شعرهم ، ما ينفي عنهم الرياء والنفاق . انه الزهد الحقيقى مع القدرة على التنعم . لقد كانوا ثورة على المنافقين المتزلفين بشعرهم ، لأن كلمة الحق شغلتهم ، فقد مر غمران بن حطان بالفرزدق ، وهو ينشد ،والناس حوله ، فوقف عليه ، ثم قال:(٢)

أيها المادح العباد ليعطى	ان لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم	وارج فضل المقسم العواد
لا تقل للجواد ما ليس فيه	وتسم البخيل باسم الجواد

فقال الفرزدق : لو لا أن الله شغل عنا هذا برأيه ، للقينا منه شرا . وهذه صفعة لشعراء التزلق والتملق ، والارتزاق ، فقد ازدرى المديح ، لأنه باب النفاق . وفى هذا لم يخرج عن عقيدته . فالله سبحانه هو الذى يعطى ويمنع ، وبيده البشر وما يملكون ، فلمَ لا تسأله ، وهو الجواد الكريم ؟! وتذل نفسك ، وتزور حقائق العباد ، وواقعهم ، وكفى الشاعر ذلا ، أن يصعد شعره مع دخان الرياء والنفاق ، ويتمسح بالولاة ، ويستمطر عطاياهم .

١) المؤتلف والمختلف . الآمدي . ص/٢٤٥ .
٢) الأغانى . ج١٨ /١١٩ . والكامل . ج٢/٢٠٨ .

وكنا قد وعدنا القارىء ، أن نرتحل مع الشاعر ، على دروب المطاردة والتخفـــي. واذا كانت رحلتنا مع قطري بن الفجاءة فى ساحات المعارك ، فرحلتنا مع عمـران من مصر الى مصر ، ومن قبيلة الى أخرى ، هروبا من بطش الحجاج وظلمـــه ، ذلكم الجبار الذى ذاق الهزائم على أيدى الشراة .. على يد غزالة الخارجيـــة ، التى وفت بنذرها ، ودخلت مع زوجها الكوفة ، وصلت ركعتين فى مسجدهـــا ، قرأت فيها البقرة ،وآل عمران ، فسجل هذه الشهادة عمران ، وأنطقها بجبـــن الحجاج.(1)

أسد علي وفى الحروب نعامـــة	ربداء تجفل من صفير الصافـــر
هلا برزت الى غزالة فى الوغـــى	بل كان قلبك فى جناحي طائـــر
صدعت غزالة قلبه بفـــوارس	تركت منازله كأمس الدابـــر

انها شجاعة ، دونها اقدام الفرسان ، حيث لاذ الحجاج بالفرار هربا من غزالـــة. ولكن هزيمته قد تكون الحاحا فى طلب عمران ، والكتابة بذلك الى عماله . فخـرج عمران متنقلا متنكرا فى أحياء العرب وقبائلهم .(٢)

نزلنا فى بنى سعد بن زيـــد	وفى عك وعامر عوثبـــان
وفى جرم وفى أدد بن عمـــر	وفى بكر ، وحى بنـــى الغـــدان

انه لا يكاد يستقر فى حي إلا ليغادره الى حي آخر ، والبيتان قائمة احصائية ، لتلك القبائل ، التى أناخ رأحلته فى ساحتها ، ليتزود لرحلة جديدة ، بعيدة المسالـك عن رصد الحجاج وعيونه .

---

1) الأغانـــي . ج١٨ /١١٦.

٢) شعر الخوارج . ص/١٦٥.

فالقوم يأتمرون به ، فترك العراق ، وتوجه تلقاء الشام ، فنـزل بروح بن زنباع ، وزير عبدالملك بن مروان ، مدعيا أنه من الأزد ، وهذه المواطن بعيدة عن الريبة والظنة ، فلا يمكن أن تؤوى متمردا أو ملاحقا ، ويكشفه القدر وتبدو هويته ، وكانت العيون في هذه المرة عيون الأدب والأخبار والأشعار ، التي قادت الطلب له ، ولكن لم يعثر روح إلا على أبيات شعرية ، خلفها ضيفه .(1)

يا روح كم من أخي مثوى نزلت به	قد ظن ظنك من لخم وغسان
حتى اذا خفته فارقت منزله	من بعد ما قيل عمران بن حطان
قد كنت ضيفك حولا لا تروعني	فيه الطوارق من انس ومن جان
حتى أردت بي العظمى فأوحشني	ما أوحش الناس من خوف ابن مروان
فاعذر أخاك ابن زنباع فان له	في الحادثات هنات ذات ألوان
يوما يمان اذا لاقيت ذا يمن	وإن لقيت معديا فعدناني
لو كنت مستغفرا يوما لطاغية	كنت المقدم في سري واعلاني
لكن أبت ذاك آيات مطهرة	عند التلاوة في طه وعمران

ان سعة اطلاعه ، وعمق ثقافته ، أزالت الغموض عن شخصيته ، " ما أسمع من أمير المؤمنين خبرا ، ولا شعرا الا عرفه ، وزاد عليه " .(2)

يطلعنا عمران في أبياته ، على كثرة التنقل والارتحال في حياته ، لأن الخوف يلاحقه ، ويترصده في كل سبيل ، يقض مضجعه ، وتتقاذفه الدروب والأحياء ، طلبا للنجاة اذا تبدت شخصيته ، وقضى حولا آمنا في كنف روح ، ثم داهمته الطوارق والخطوب ، فأزعجته ، وأسلمته للمخاوف من جديد ، متخذا الارتحال في نسبه مركبا ، ولكنه لم ينس إكرام روح له . إلا أن عقيدته الخارجية ، لا تسمح له

---

1) شعر الخوارج . ص/١٦٢.

2) الكامل في الأدب . ج٧/١٦٧.

من خلفيته الثقافية تلك ، فالقرآن حاضر في شعوره ، حضور الكلمات والمعانـــــى.
أضف الى ذلك الأيام التى قضاها بعيدا عن ساحات القتال ، فيتمكن من اعادة النظر في شعره ، فجاء عميقا ، مركز الأفكار ، ذا عبارة جزلة ، بعيدة عن الصنعة ، والاغراب فى الخيال

هذا ورغم قعود عمران عن القتال ، وشهود الوقائع فانه أصلب من قطرى دينـــا، وأشد غلوا فى فكرة الخوارج ، وانصرافا اليها . ولكنه دونه فى الشجاعـــة والبأس . وعمران أكثر شعراء الخوارج شعرا ، وشعره يمثل الخطوط العريضة لمذهبهم . فقـــد بلور فى شعره عقيدة الخوارج فى الحياة والموت ، والزهد والثورة على النفـــاق، مع جزالة عبارته ، ووضوح فكرة ، وعمق شعره ، وتركيز قناعته ، مع ندرة فى الخيال لايثاره التعبير الصريح ، البعيد عن الصنعة والتأنق .. لأن الصدق قيده .

الشعرى الذى خلفه الطرماح ، وهو الشاعر الخارجي الوحيد الذى كتب لديوانـــه أن يرى النور • وان كنت أشك ان هذا الديوان هو مجموع أشعاره • وأمام الاخبـــار الأدبية التي انتهت الينا • فالاخيرة تقطع بخارجية الشاعر ، و " اعتقاده مذهـــب الشراة الازارقة "[1] • وقيل " كان صفريا "[2] • ومادون الابيات المعدودة من شعـــره ، يبعد هذه الصفة عنه • مع السبل التي سلكها ، والممارسات التي قفاها في حياتـــه • كل ذلك يجعله في سرب آخر ، غير سرب شعراء الخوارج•

ولدفع تهمة التحيز عن الباحث ، نقدم مجموعة من الأسئلة التي يمكن ان يتوارى الشاعر خلفها ، ولعلها تقف معه في الساحة التي تظهره الى جانب شعراء هـــذه الفرقة •• فهل الابيات التي تحمل فكره الخارجي اعتراها الضياع والاهمال ؟ ام ان اعتناقه للمذهب كان في الهزيع الاخير من حياته ؟ ام ان عوامل اجتماعية ونفسيـــة اضعفت تأثير العقيدة الخارجية ، وتصوراتها في نتاج الشاعر؟•

كل هذه الاحتمالات ترد الذهن، ونخفف من اندفاع الباحث في حكمه علـــى الشاعر • ولكن يصعب التوفيق بين خارجية الشاعر ، ومديحه لآل المهلب الذيـــن خضدوا شوكة الشراة • وبينها وبين نهجه الجاهلي في شعره ، ماعدا ابيات تمـــت بنسب الى الفكر الخارجي • وقد حاولت الدكتورة القلماوى[3] ، ان تجد تبريرات لهذه

---

1) الاغاني ، ج١٢/٣٥•

2) البيان والتبيين ، ج٣/٧•

3) " وكانت اهم غاية للخوارج قلب نظام الحكم ، ليوافق مبادىء الاسلام الأولى ، وهذه كانـــت غاية الطرماح ايضا ، وقادته عصبيته القبلية لقلب نظام الحكم ، لينال اليمنيـــون ، ولينال هو حقه في الحكم" • ادب الخوارج في العصر الاموى ، ص ٩٩/•

القضية. ولكنها أبعدت المرمى، ولم تصب . فقد اعطت العصبية القبلية التي ألهبت مديح الطرماح وفخره، وسربلته بالمثل والقيم الجاهلية، معبرا من تطلعات الخوارج، ولكنها لم تفلح في الخروج من ... ساحة التأويلات الفضفاضة، والتي يغص بها الاطار الخارجي. واذا أنزل الدارس قسرا بعض تلك الاحتمالات، كأن يقبل بعض هجاء الطرماح ويوجهه الى اعداء الخوارج، كالأزد واليمن، فكيف يقبل على نفسه تبرير التطلعات الجاهلية، الناشبة في الأغراض الشعرية الاخرى؟ وان كان الطرماح، قد مذقها ببعض القيم الاسلامية، التي هيمنت على قطاع من الشعراء كبير؟ أوراش سهامها من كنانة الاسلام. ناهيك عن طرقه لأبواب الولاة والامراء، ملحا في طلب الدنيا ومتاعها، مع اعتداده وفخره بذاته .

ولعل نصيبه من اسمه كان عظيما، فالطرماح بن حكيم بن الحكم بن نفر الطائي . ومعنى الطرماح: الطويل القامة، المشهور، العالي الذكر والنسب. وفي لغة طيء الحية الطويل . وقد سئل امان بن الصمصامة، حفيد الطرماح . لم قيل لجدك الطرماح؟ وما الطرماح في كلام العرب؟ فقال: اما في كلامنا، معشر طيء فانه الحية الطويل، وأنشد أبوعمرو الشيباني في الطرماح:[1]

فهو طرماح قليل طبعه   مثل الحصان جيب عنه برقعة
يزعزع الدلو ولا تزعزعه

ويكنى الطرماح، أبانفر، وأباضبيبة.[2] وهو من فحول الشعراء الاسلاميين وفصحائهم. ومنشؤه الشام، وانتقل الى الكوفة بعد ذلك، مع من وردها من جيوش اهل الشام[3] . وأمكنته اقامته هذه في الكوفة ان يطلع على مختلف الثقافات، وينهل من معينها، وبخاصة عنايته باللغة والايام والانساب .

---

١) طبقات النحويين، ص/٢٤٩.
٢) كنى الشعراء، ص/٢٩٠.
٣) الاغاني، ج١٢/٣٥.

وقيل : نزل الطرماح فى الكوفة ، فى بنى تيم اللات بن ثعلبة ، وكان فيهم شيخ من الشراة ، له سمت وهيئة ، فكان الطرماح يجالسه ،ويسمع منه حتى رسخ كلامه فى قلبه ، فلما دعاه الشيخ الى مذهبه ، قبله واعتقده أشد الاعتقاد ، وأصحه حتى مات عليه "[١] .

وكان مؤدبا بالري- حسب رواية الجاحظ- فقد حكى عبد الاعلى قال : رأيت الطرماح مؤدبا بالري ، فلم أر احدا آخذ لعقول الرجال ، ولا أجذب لاسماعهم الى حد فيه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده ، وكأنهم جالسوا العلماء "[٢] .

الخبر الاول يؤكد خارجية الشاعر ، والتزامه بالمذهب ، ووفاته عليه . فمن هذا الشيخ الذى قلب الشاعر الى مذهب الخوارج ؟ واذا كان هذا معروفا عنه ،كيف امن الناس على اولادهم ، فرفعوهم الى الطرماح الخارجى يعلمهم . وهم يعرفون موقف العلماء من هذه الطائفة ؟. وان اغضوا عن ذلك ، كيف امنوا تأثيره على اطفالهم ، والدولة ترصد تحركات القوم ؟. الكلام فيه نظر .

ولا تنس الاشعار الكثيرة ، التى غرد بها مع سربه من شعراء عصره ، وبعد بها عن الروح الخارجية . من فخر وهجاء ومديح حتى فى الابيات التى اغرت الدارسين ، ودفعتهم الى ادخاله فى حظيرتهم

وانى لمقتاد جوادي وقاذف	به وبنفسي العام احدى المقاذف
لاكسب مالا ، او أؤول الى غنى	من الله يكفينى عداة الخلائف[٣]

لقد تعثرت خطواته ، على جادة الفكر الخارجى ، فى ابيات اراد ان يسيلها فى المجرى الخارجى . فالخارجى يتطلع بقلب مثقف الى طعنة نافذة ، أو قعصة مردية ،

---

١) الاغانى ، ج١٢/٣٦ .
٢) البيان والتبيين ، ج٣/٧ .
٣) الديوان ، ص/٣٣٣ .

تنقله الى " موعود ما فى المصاحف "والطرماح تتطاول نواظره الى حفنة من المال، تنقله الى الثراء والنعيم، وفى هذا دليل على حياة الالتواء، والتكسب، التى كان يعيشها الشاعر، وقد تكون نفسه التى بين جنبيه طلعة محلقة فى عالم الكبرياء، مع حبه الشديد لها، الذى ماوراءه نصيب لاحد، مع شدة غروره وإعجاً به بها، وما حصلته من علم وثقافة وابداع ... ولما تصل الى ما تطمح اليه وتريده • فعجزت قدماه عن متابعة طريق الخوارج النكد المرير، فوقع فى اضطراب نفسى وسلوكى نتج عنه التقلب فى شعره، والانحراف به عن المنهج الخارجي• او حالت بينه وبين الانغماس فى ذاك المذهب •

وما بال علاقته الحميمة مع الكميت .. أهي صحبة التكسب والاستجداء والتسول على ابواب الولاة؟ ام ماذا ؟ فقد حدث ابن قتيبة قال : كان الكميت ابن زيد صديقا للطرماح، لايكادان يفترقان فى حال من احوالهما، فقيل للكميت : لاشيء اعجب من صفاء مابينك وبين الطرماح على تباعد مايجمعكما، من النسب والمذهب والبلد، هو شامى قحطانى شار، وانت كوفي نزارى شيعي، فكيف اتفقتما على تباين المذهب، وشدة العصبية ؟ قال : اتفقنا على بغض العامة[١] •

ان من حق الانسان، ان يعجب من هذه العلاقة الحميمة، التى قامت على جذاذ الروابط• والتعليل لها واهن، فقد اختلفا نسبا ودارا، وكل منهما متعصب لقبيلته ومدينته • ومذهبهما ينفرهما من اللقاء، بل هما على طرفي نقيض فى النهج والتصور ،، ولا اعرف عداوة بين فرقتين، أشد عمقا مما بين الخوارج والشيعة• فقد كفر الخوارج عليا، ومدحوا قاتله، هذا إن لم يشترك بعضهم فى قتله • ولو كان الكميت كيسانيا، لهان الامر ••

---

١) الاغانى، ج١٢/٣٦•

وما تلقاه من تأويلات فى هذه القضية ، فهو رجم بالغيب ليس الا .
والذى يترجح لدي ، ان نفسية الشاعر اضطربت فى خضم الحياة يريد فلا يعطى ويتمنى فلا يصل، فنشأ ساخطا على العامة ، سالكا فجاج الهجاء المر فى اقذع صوره،حتى بز غيره من الشعراء فى هذا الفن ، فقال عنه المفضل : اذا ركب الطرماح الهجاء فكأنما يوحي اليه ، وأنشد :

لوحان ورد تميم ثم قيل لها	حوض الرسول عليه الازد لم ترد
او انزل الله وحيا ان يعذبها	ان لم تعد لقتال الازد لم تعد
لا عز نصر امرئ أضحى له فرس	على تميم يريد النصر من احد
لو كان يخفى على الرحمن خافية	من خلقه خفيت عنه بنو اسد (١)

مع محاكاته للشعراء الجاهليين فى ذلك ، والبناء على نهجهم ، واساليبهم القديمة ،الى جانب الضخامة والغرابة فى الالفاظ ، والافتتاح بالغزل ، ووصف الصحراء وحيوانها ، مع انه يعيش فى السواد ، ولكنه اتخذ الوصف ذلك، سلما يرتفع عليه ، ليبرز نفسه الي المجتمع من عل . لعل نظرات جديدة ترمقه .

والذى اعتقده ان الطرماح أعجب برأي الخوارج وشجاعتهم وفروسيتهم وتمردهم على كل مايقف بينهم وبين تحقيق تعاليم مذهبهم ، ونيلهم من اعدائهم ... ولكن غروره وحبه للمال ، خلفه عنهم .

فما الشعر الذى رشحه ، أو أوهم الدارسين بخارجيته ؟ وما مكانة هذا الشعر فى حيز ممارساته ؟

أمامنا قصيدة طويلة تحتوى على سبع وسبعين بيتا ، استهلها الشاعر بالحديث عن الاطلال ، متابعا بذلك شعر القدماء ، مع كثرة الغريب من الالفاظ ، التى تدفع القارئ للتردد على المعجم ، لبيان معانيها ، وكان الطرماح يقصد هذا ،

---

١) الاغانى ، ج١٨/٤٤٠ والشعر والشعراء ، ص/١٤٠ .

بل ويسعى اليه ، ويفهم بعض قصائده التى تابع بها الشعراء الجاهليين، وهــذه ظاهرة امتدت موجتها ، وأصبحت سمة كثير من شعراء عصره ، الا انها انحسرت على شواطئ الشعر الخارجي (١) •

طال في رسم مهدد ربده (٢)	وعفا واستوى به بلده
ومحاه تهطال أسميـــه (٣)	كل يوم وليلة تـرده
غير حشو من عر فج غرض (٤)	لرياح الصيف تطرده
وبقايا من نؤي محتجـز (٥)	ومصام مشعث وتـده
وحضيف لدى مناتج ظئرين (٦)	من المرخ أتأمت زنده

وان كانت مقدمته من الصحراء ، وخيامها ، ونباتها ، الا ان الشاعر احسن الانتقال الى غرضه ، فلا يكاد القارئ يتعثر وهو يجتاز المقدمة الى الغرض الجديد•

ترك الدهر أهله شعبـا	فاستمرت من دونهم عقده
وكذاك الزمان يطرد بالنا	س الى اليوم يومه وغـــده
لايلبثان باختلافهما المر	• وان طال فيهما أمـــده
كل حي مستكمل عدة العمر	ومود اذا انقضى عـــدده

ان صروف الزمان تفرق بين الأحبة • ويسوقهم بتداول الايام وتكرارها الى يومهم الموعود • فاذا استكمل المرء ماكتب له من العمر ، لايمهله بل يودي به الـــى الغاية الاخيرة •

ويتابع حديثه ، ولكن بلغة جديدة ، فهو يعيد معانى الآيات القرآنيـــة ، بلغة الشعر ، وهذا يوحي بسعة اطلاعه ، وعمق ثقافته ، وفهمه للكتاب الكريـــم ، وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ويسلك تلك الآيات في الحديث عن قضية الزهد

---

١) الديوان ، ص/١٩٣ ، شعر الخوارج ، أورد المؤلف جزءا منها ، ص /٢٣٥•
٢) مهدد : اسم امرأة ، ربده : اقامته .
٣) الأسمية : جمع سماء ،ويعنى به ماء المطر•
٤) الحشو : ماتكسر من النبت ، العرفج : نوع من النبات • غرض : هدف •
٥) النؤي : حفير حول الخيمة • مصام : مقام الخيل •
٦) حضيف : رماد فيه لونان • ظئرين : الزند او العود• المرخ : شجر جيـــد للايقاد •

فى الحياة الدنيا ، وحقيقة هذه الحياة التي تسبق الموت ... وفى هذا متح من معين العقيدة الاسلامية :

عجبا ما عجبت للجامع الما	ل يباهى به ويرتفده
ويضيع الذى يصيره اللـ	ـه اليه فلا يعتقده
يوم لاينفع المخول ذا الثر	وة خلانه ولا ولده
يوم يؤتى به وخصماه وسط	الجن والانس رجله ويده
خاشع الصوت ليس ينفعه	ثم امانيه ولا لدده
انما الناس مثل خامة الـزر	ع متى يأت يأت محتصده [1]

هذه الابيات فى نظري ، تمثل التوجه الحقيقى للخوارج ، المتجسد فى الزهد فى الحياة ومتاعها وزخارفها ، وان بدأها بصيغة لاتعبر عن حاله ، فان يعجب فعجب حاله وتكسبه ومحبته الشديدة للمال ... فقد شغلته ودفعته على أبواب الامراء مادحا ، مستمطرا أعطياتهم :

وشيبني ان لا ازال مناهضا	بغير غنى أسمو به وابوع
اخترمي ريب المنون ولم أنل	من المال ما أعصى به واطيع [2]

فالمال وجه من وجوه اعظامه لنفسه ، وهو - فى نظره - وسيلة من وسائل الاستعلاء والرفعة . فان حصله حصل معه ذاك الشموخ ، وهناك يعجب من بحث محب المال عن المال ، وحرصه على جمعه . وقد اضاع ماينفعه فى الآخرة . من حقوق الله ، وعمل لمرضاته . فلا ينشط فى العمل لها ، وهو على يقين ان المال الذى يفني عمره فى كسبه ، لن ينفعه يومذاك "(يوم لاينفع مال ولابنون الا من اتى الله بقلب سليم) [3] . يوم يؤتى به الى الحساب ، والخلائق مزدحمة ، مجردة من حولها وقوتها كل شغلته نفسه .. وسيكون الشهيد والخصم منه .. (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) [4] . (وتكلمنا أيديهم

---

١) الديوان ، ص /١٩٧ .

٢) الديوان ، ص/٣٢ ، والبيان والتبيين ، ج٤/٤٤ .

٣) سورة الشعراء ، الآية ٨٨ .

٤) سورة النور . الآية : ٢٤ .

وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون)[١] . لقد خشع صوته ، واختفى الصراخ والعراك، الذي يصاحب التكالب على الدنيا ... (وخشعت الاصوات للرحمن ، فلا تسمع الا همسا)[٢] فهنالك عمله والجنة والنار .

ليتذكر جامع المال .. ذاك اليوم .. وما اعده لذلك الموقف .. وما قيمة ماله ؟ وأنى له الذكرى؟!! .

وعمر الانسان وحياته ، كدورة الزروع تهيج ثم تصفر ، ثم تكون حطاما . (اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد ، كمثل غيث اعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما ، وفي الاخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا الامتاع الغرور)[٣] .

فسرعان ما تحطمها الريح وتقصفها ، فتحصد في موسم حصادها ، والموت يحصد البشر ، في أجلهم المحدود .

أمامنا لوحة ، أو مشهد من مشاهد يوم القيامة ، جمع الشاعر أجزاءه من الآيات القرآنية ، لغة ، واسلوبا ، تعابير توحي للنفس البشرية بالزهد والانصراف عن حطام الدنيا ، والنظر اليها من خلال المنظار السليم ، مامكانتها ؟ وما رحلة الانسان فيها ؟؟ وسيسأل عما عمل ... أحفظ أم ضيع ؟ انه في هذه الابيات ولج هذا الفن .. الحديث عن الزهد ودوافعه من أعرض أبوابه ... وتدفق شعره في مسيل الشعر الخارجي ، بعد ان صدر عن ينبوع تصوراتهم .. وان كان التكحل في العينين ليس كالكحل .

أما في المقطوعتين التاليتين ، فقد ذكر حال الشراة .. في ليلهم وما يكابدونه ، نشيج وبكاء ، تقلب وتضرع ، خوف واشفاق .. وفي نهارهم أسد تخطر في

---

١) سورة يس ، الآية : ٦٥ .
٢) سورة طه ، الآية : ١٠٨ .
٣) سورة الحديد ، الآية : ٢٠ .

آجمتها ... يبذلون النفوس رخيصة في سبيل عقيدتهم .. ولم يعد الشاعر هنا يصدر الشعر ، وهو بعيد عن حال هؤلاء ، بل غمس نفسه، حتى اصطبغت أشعاره بصبغة الخوارج .. وتعانق الشعر والعقيدة ...

لله در الشراة انهم	اذا الكرى مال بالطلى لرقوا
يرجعون الحنين آونة	وان علا ساعة بهم شهقوا
خوفا تبيت القلوب واجفة	تكاد عنها الصدور تنفلق
كيف ارجى الحياة بعدهم	وقد مضى مؤنسي فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهم	بالفوز ، مما يخاف قد وثقوا [١]

انه وصف دقيق للرجل الخارجي ، فقد كانت لياليهم هكذا ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفا وطمعا "[٢] فاذا أنس الناس الى مخادعهم واطمأنوا على فرشهم ، وحلقت أرواحهم في عالم الاماني والاحلام . اعترى الشراة الأرق ، وكانوا كما وصفهم أبوحمزة الشاري : " انضاء عبادة ، واطلاح سهر ، نظر الله اليهم في جوف الليل ، منحنية اصلابهم على أجزاء من القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا اليها ، واذا مرّ بآية من ذكر النار شهق شهقة خوفا منها ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ... "[٣] .

فكيف تلذ حياته - الشاعر - بعد ان مضى هؤلاء الى ما أعد لهم من قرة أعين . وخلفوني وراءهم . ولامؤنس بعدهم ... فما رجائي في الحياة ؟ انهم قد فنوا في سبيل عقيدتهم ، وقدموا الغالي والرخيص في سبيلها ، ووثقوا بموعود الله عز وجل لعبادة الصالحين ... أصحاب الجنة هم الفائزون ..

لقد كان الشاعر أسير المعاني والتعابير القرآنية .. اذ جعل من ابياته ظلا لكثير من الآيات الكريمة .. التي اكثر من تضمينها في شعره .. وليس هذا

---

١) الديوان ، ص/٥٧٨ .
٢) سورة السجدة ، الآية : ١٦ .
٣) البيان والتبيين ، ج٢/١١١ .

بمستغرب من الطرماح ، العالم ، ان لم يكن الخارجي .. فجاءت أبياته مؤثرة ، نافذة فى القلوب .. مع شدة التلازم بين المذهب الأدبى ، والعقيدة التى يتحدث عنها .

واذا كان الفوز لمن زحزح عن النار ، وأدخل الجنة ، فقد جعلها الشاعر وقفا على الانسان الخارجي - الذى اندفع مقدما غير مدبر، فى ساحة التقوى والجهاد - ويشاركه فى ذلك من كتب الله له السعادة فى كتاب قد سبق .(١)

لقد شقيت شقاء لا انقطاع لـه	ان لم أفز فوزة تنجي من النـار
والنار لم ينج من روعاتها أحـد	الا المنيب بقلب المخلص الشارى
أو الذى سبقت من قبل مولـده	له السعادة من خلاقها البـارى

ورغم حصره للفائزين من النار ، بالشراة المخلصين ، ومن كتب الله له الفوز بالجنة فى كتاب سابق .. فأنا ألمح التردد فى نفس الشاعر .. فالخارجى الملتزم ، يعتقد اعتقادا جازما ، من غير شك ، أن الجنة حكر على الشراة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم ..

فهل جعل الشاعر لنفسه مخرجا ، مع الصنف الثانى ، من الذين سبقت لهم السعادة .. " ان الذين سبقت لهم منا الحسنى ، أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها .. "(٢) وهذا احتمال يتلجلج فى صدري ؟ والقلوب لا يعلم حالها الا فاطرها . وكأنى بدنيا الشاعر قد آذنت بانصرام ، ومالت شمس أيامه الى المغيب ، فاستوت العقيدة الخارجية فى قلبه .. فحاول أن يخلصه لما عند الله .. فطلب الشهادة ..

---

١) الديوان : ص٢٣٣ .

٢) سورة الأنبياء . الآية : ١٠٢ .

القتلة التي تتشوفها نفسه ، هى القتلة التى نالها أسد الله حمزة بن عبدالمطلب شهيدا مقطع الأوصال ، مبقور الصدر ، ملاك الفؤاد ٠٠ وقد استرشد الطرماح بقول المصطفي صلى الله عليه وسلم ، لما ذهب يلتمس حمزة يوم أحد ، فوجده فى بطن الوادي ، قد بُقر بطنه ، ومُثل به ٠٠ " لو لا أن تحزن صفية ، وتكون سنة من بعدي ، لتركته حتى يكون فى بطون السباع ، وحواصل الطير "[(1)] ٠

وهكذا يتمنى - كما يقول - أن تكون قتلته ٠ تنشب الطيور مخالبها ، فى جسده ، بعد أن مزقته السيوف ، وتدخره فى حواصلها ، بعد أن رمت أعظمه ، لتتلاعب فيها الرياح والعواصف ٠٠ انه يذكرنا بالطيور الخضر التى تحمل أرواح الشهداء ٠٠ التى ذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى حديث من أحاديثه ، والنفس الشامخة التى تحمل الكبرياء والغرور ، تتلمسه حتى فى موتها ٠٠ فالطيور التى يريدها آكلة لجسمه ، أو لأشلائه ، مقيلها دون قبة السماء بقليل ٠٠ انها النسور التى تهوى القمم الشوامخ ٠

ويلفت انتباهنا فى هذه الأبيات ، سهولة الألفاظ ، ووضوح معانيها ، فكأنها من بيئة عصرية ٠٠ مع العفوية في التراكيب البلاغية ٠ التى تخللت الأبيات ٠٠ فالعظام الرقيقة البالية ، كحشائش رفيعة واهنة ، تتقاذفها الرياح ٠٠ وموعود ما فى المصاحف " كناية عن الجنان التى وعدوها ٠ الا أنها حافظت على الجزالة والقوة ٠

من هذه الأبيات ، وما سبقها من اللون الذى يدور حول العقيدة الخارجية ، ويذكر فيها الشراة ، ويصف حالهم ،وسهرهم بين يدي عبادتهم ، زلفى لله تعالى ٠٠ وإقدامهم فى مهاوي الردي ٠٠ تبين لنا غلو الدارسين ، الذين سلكوه فى شعر الخوارج ، بل وجعلوه من كبارهم ، كالأستاذ أحمد شايب ، والدكتور مصطفي الشكعة ، اذ عده الأخير " كبير شعراء الخوارج دون منازع "[(2)] ٠

---

١) السيرة النبوية ٠ لابن هشام ٠ ج٢/٨٦٠

٢) رحلة الشعر من الأموية الى العباسية ٠ ص/٦٨٠

[illegible] الجاهليين وينهج نهجهم ، ويطرق موضوعاتهم ، وبأساليبهم ، ليظهر براعته ومقدرته ٠٠ التى لا تقصر به ،وتقعده دون الجاهليين من الشعراء الفحول ٠ ولعل كلمة الأستاذ احسان عباس كانت فيصلا فى هذه القضية :

" ان من غير الانصاف ، أن نقابل بين الشاعرين - عمران والطرماح - لأن الطرماح شارك فى المنازعات القبلية ، وأسرف فى العصبية ، كما أسرف فى هجاء القبائل الأخرى ، وفى الفخر نفسه ، وبين حين وآخر ، تستيقظ فى صدره بعض المشاعر الزهدية ، الا أن كلبه على المال يباعد بينه ، وبين الزهد الدقيق ، فهو من أجل ذلك كله ، لا يمثل الروح الخارجية تمثيلا وافيا " ٠[1]

انه يختلف عن شعراء الخوارج شيئا بينا ، اذ كان موزع القلب بين مذهبه ودنياه - ان ألبسناه السربال الخارجى - واختلط بالجماهير عامة ، ومدح ولاة الأمويين ٠[2] وهجا خصومه هجاء مقذعا ، موجعا ، فشعره قوي ، ويدل على علم واسع باللغة وغريبها ٠

---

1) شعراء الخوارج ٠ ص/١٩٠

2) خالد القسرى ،ويزيد بن المهلب ، ومخلد بن يزيد بن المهلب - وهذا مظهر من مظاهر تعصبه القبلى للقحطانية ٠ ورثى قتيبة بن مسلم الباهلى ٠

شعـــر الخـــوارج وخصائصـــة

وان كنت تبغى عند ذى العرش حظوة   فلا تك الا مرهف السيف شاريا [(1)]

مبـــــاد الشعر الخارجـــى

بما أن المذهب الخارجى كان ثورة ورفضا لواقع الأمة المسلمة ، الراهـــن والفاسد - فى نظرهم - فى صورة التمرد الجذرى المسلح،والتصدى الدموى ، الـــذى لا يعرف الهوادة والمخاتلة ، فلابد من أساس متين ، من عقيدة راسخة ، وغايـــة عظمى ، تدفع رجال هذه الفرقة ، الى ركوب تلك السبيل ، وهذا يدفعنا الـــى الحديث عن المهود العقدية والسلوكية لهذه المجموعة .

لقد سبق أن عرفنا أن هذه المجموعة التى خرجت على خليفة المسلمين ، والأمة المسلمة ، لم تكن عقيدتها محل نظر وشبهة ، بل عرفت غالبيتهم ، بتمكـــن العقيدة فى نفوسهم ، وشحهم عليها . فقد أقاموا مذهبهم على أسس اسلاميـــة صرفة ، اعتمدت الكتاب والسنة - ولكن وفق فهمهم لها - .

وبرغم ما كان من اعتسافهم فى ذلك وشططهم ، فقد انتفت المنافع والمـــآرب الدنيوية ، اذ كانوا مثلا أعلى فى تمسكهم بعقيدتهم ، وسيطرتها على سلوكهـــم ، واستماتتهم فى سبيلها ، حتى كانت فلسفتهم تعبر عن صدق ذلك ، فهـــم يعتقدون أن العمل بأوامر الدين ، جزء من الايمان ، وشرط لاكتماله . فليس الايمان محصورا بالاعتقاد ، والايمان بالله ورسوله فحسب ، وانما العمل بما يفرضه الدين كذلك . فالايمان لا يكون حتى ينبثق منه العمل الصالح .. ومن ارتكب الكبيرة فهو كافر .

---

١) شعر الخوارج . ج/٢٣٠ . ولم يعرف قائله .

وان المطابقة بين القول والعمل ، وبين العقيدة والسلوك ، ليست أمرا هينـــا ولا طريقا معبدة ، انها في حاجة الى جهد ومحاولة • واستعانة بالله ، لأن ملابسات الحياة وضروراتها ، واضطراراتها كثيرا ما تنأى بالفرد في واقعه عما يعتقده في ضميره ، وان تجسد الواقع وفق التصور العقدي ، كان آيـة الصدق البارزة • والخوارج شقوا فجاج مذهبهم ، واعتزلوا المجتمع ، بسبب تحكيم الرجال في دين الله ، كما يتوهمون •• وهذا منطلق عقدي ، عبر عنه شاعرهم ، فروة بن نوفل الأشجعى *:

نقاتل من يقاتلنا ونرضى بحكم الله لا حكم الرجال (١)

واعتبروا تحكيم الرجال في دين الله كفر ، لا تغسل حوبته ، الا بتوبة صادقة الى الله عز وجل ، ومفارقة المحكمين ، ومجالدتهم ، حتى يفيئوا الى أمر الله ، وحكمه •• ولسان حالهم وشاعرهم يقول " ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، من المحكمين في دينك ، فيقول العيزار بن الأخنس الطائى :*

ينادون لا لا حكم الا لربنا حنانيك فاغفر حوبنا والمساويا
هم فارقوا في الله من جار حكمه وكل عن الرحمن أصبح راضيا (٢)

---

*) هو فروة بن نوفل بن شريك الأشجعى ، ثائر من زعماء المحكمة في صدر الاسلام . كان رئيس الشراة ، اعتزل عليا بعد التحكيم ، في خمسمائة ، وكره أن يقاتله • وبعد أن تنازل الحسن بن على عن الأمر لمعاوية ، ثار عليه ، وأقبل نحو الكوفة •• فندب معاوية أهل الكوفة لقتاله ، فجاء قومه وأدخلوه الكوفة وحبسوه ثم هرب من حبسه ، وخرج على المغيرة بن شعبة فقاتله ، وقتل فروة وأصحابه • سنة ٤١هـ •

١) شعر الخوارج • ص/٣٢•

*) العيزار من فرسان الخوارج الأشداء ، وممن شهد صفين وقاتل فيها • وقتل يوم النهروان •

٢) شعر الخوارج • ص/٣٢•

واعتزال هؤلاء القوم للمحكمين ، الى حظيرة الشراة ، لم يكن مستوحى من عصبية قبلية بغيضة ، أو مآرب فى أمجاد شخصية ، وانما استوحوه من عقيدتهم ، فقد كانت نزعتهم العقدية ، خصما عنيدا للعصبية ، نازعتها سلطانها على نفوس القوم ، وأفلحت فى تصديع وحدة كثير من التجمعات القبلية ، لأن ميزان العقيدة يسقطها لحساب أواصر جديدة للمؤمن مع اخوانه ، هى هذه الأخوة الايمانية ، فعقيدة المؤمن هى وطنه وعشيرته ، واننا لنسمع صدى هذه التصورات فى أبيات أبى بلال مرداس:

من كان من أهل هذا الدين كان لـه ودي ، وشاركته فى تالد المـال
الله يعلم أنـى لا أحبهــم الا لوجهك دون العم والخــال (١)

انه يبرز حقيقة ايمانية ، بل عروة من أوثق عرى الايمان ، كما ذكر ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أوثق عرى الايمان الحب فى الله ، والبغض فى الله " (٢) ، فها هو يحب هؤلاء الرجال لوجه الله ، وللعقيدة الصحيحة التى يحملونها ٠٠ وليس أبو بلال وحده ، وانما هذه تصورات مستقرة فى قلوبهم ، فهذا عيسى بن فاتك* ، يهدم تلك الكيانات الهزيلة ، التى اقامت العصبيات النخرة ، ومجدها الشعراء الآخرون :

أبي الاسلام لا أب لى ســواه اذا فخروا ببكر أو تميــم
كلا الحيين بنصر مدعيــه ليلحقه بذي الحسب العميــم
وما حسب ولو كرمت عــروق ولكن التقي هو الكريــم (٣)

---

١) شعر الخوارج ٠ ص/٥٠٠

٢) الايمان لأبى بكر عبدالله بن محمد بن أبى شيبة ٠ ص/٤٥٠ تحقيق الألبانى ٠ وقال : أخرجه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود مرفوعا ، وهو حسن ٠

*) كان من أصحاب نافع بن الأزرق ، وقتل بعد خروج الأزارقة ٠

٣) شعر الخوارج ٠ ص/٥٨٠ وتنسب الى نهار بن توسعة اليشكرى ح وفى البيت الأخير اقواء ٠

أليس هذا البيت الأخير ، ظلا للآية القرآنية الكريمة (١) " ان اكرمكم عند الله اتقاكم " ؟ وهل مثل هذا الشعر الذى يحمل المفاهيم العقدية ، وينادى بهما ، ينضح من قلوب ، صلتها بالعقيدة واهنة ؟ ! لقد سما الخوارج بعقيدتهم ، فوق وشائج العصبية والدم والتراب ، واستظلوا بمظلة الاسلام ، الذى ألف بينهم ، وهذا ما يصرح به عمران بن حطان :

فنحن بنو الاسلام والله ربنا   وأولى عباد الله بالله من شكر (٢)

فالناس سواسية ، لا تفاضل بينهم الا بالتقوى ، والاحباب الى الله تعالى : وليس عجيبا بعد هذا ، أن ينكروا استئثار قريش والعرب / بالسلطان ، أو حصره فى نظام وراثى ، واعتمادهم على شرط التقوى ، وهى التي تجمع الخارجي مع اخوانه الشراة ،فى ساحات المعارك ، لنيل الشهادة ، وعلى رأسهم أبو بلال :

انى وزنت الذى يبقى بعاجلة   تفنى وشيكا فلا والله ما اتزنا
تقوى الاله ، وخوف النار أخرجني   وبيع نفسى بما ليست له ثمنا (٣)

لقد كانت عقيدتهم محرك ثورتهم ، ومحور شعرهم ٠

الى جانب ذلك ، حياتهم المتواضعة الزاهدة بمتاع الدنيا وشهواتها ، فقد وضعوا الدنيا - من حيث دورها - ، فى مكانها الحقيقى ٠ اذ تعلقت عيونهم، وقلوبهم، بعالم آخر ، بعد عالم الأرض ، فلم تستبد بهم ضرورات الأرض ، واستعلوا عليها ، وعلى حطامها ، وشمروا للعبادة والذكر والجهاد ٠فيعبر عن هذه الحقائق عمران بن حطان

---

١) سورة الحجرات ٠ الآية ٠ ١٣٠

٢) شعر الخوارج ٠ ص/١٦٤٠

٣) شعر الخوارج ٠ ص/٥١٠

قائلا :-

حتى متى تسقى النفوس بكأسها ريب المنون ، وأنت لاه ترتع
أحلام نوم ، أو كظل زائل ان اللبيب بمثلها لا يخدع
فتزودن ليوم فقرك دائبا واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع (١)

فكان زاده في رحلته تقوى الله تعالى ، وما يبلغه رضوانه ، ومستقر رحمته ، فيكفيه من الدنيا ما يسد رمقه ، وسلاح شاك ، يحصد به أعداءه ، وجواد مقدام يقطع به غمرات الموت ، وبعدها يمضي شهيدا ، وأيوب بن خولى البجلي ، يعدد لاخوانه زاد المجاهد ، وهو يرثى هدبة اليشكري :

تزود من دنياه درعا ومغفرا وعضبا حساما لم تخنه مضاربه
وأبيض محبوك السراة كأنه اذا انقض وافي الريش حجن مخالبه (٢)

انها حياة المجاهدين ، الذين نذروا نفوسهم لله ، فقضوا لياليهم قائمين ساجدين ، مناجين ربهم ، قلوبهم وجلة ، عيونهم دامعة ، من خشية الله تعالى ، وعذابه الذى أعده للكافرين ، لقد استعذبوا الموت في سبيل حياة طيبة في الآخرة ، بعد أن تطوى أيامهم القصيرة ، وتفتح بوابة الرحلة الطويلة .. بوابة الحياة الخالدة ، التي تعبر منها البشرية الى مصيرها الأخير . ولذا نذروا حياتهم لله ، وجعلوها وقفا على طاعته ، والجهاد في سبيله .

ناهيك عن الاستعداد الفطري المتمثل في الصفاء البدوي ، والموهبة الأصيلة التي حافظوا عليها ، وصانوها عن تقاليد الحضارة المترفة المغرية ، وعلمهم الواسع بعامة ، واللغة بخاصة ، وفصاحة لسانهم ، وقدرتهم على البيان ، وسرعة على البديهة ، وأداء للمعنى بأوجز عبارة ، وأقوى لفظ ، مع رقة في الشعور ، ودقة الاحساس . هذا المهاد الذى قام عليه الشعر الخارجي ، صبغه بصبغته ، وجعله

---

١) خزانة الأدب ، للبغدادى . ج٢/٤٤٠ . وشعر الخوارج ص/١٥٦ .
٢) شعر الخوارج . ص/١٩٨ .

متلازما مع العقيدة ، بل خادما لها ، يحلق فوق مرابع انتجاعها ، متنقلا من ساعات الليل الرقيقة ، في جوف السحر ، حيث الذكر وتلاوة القرآن ومدارسته وآهات في الصدور ، ودعاء مكروب ، وطالب شهادة ، وحرق متخلف عنها - الى ساحات المعارك ، حيث عبق الدماء والأشلاء ، وبقايا الرماح المتكسرة على صفائح خدود الرجال ، وأعناق الأبطال ٠

لقد كان شعراء الخوارج من فرسانهم ، فكانوا مجاهدين حملة السيوف ، وهم أنفسهم الشعراء ، ذوو الموهبة واللسان ٠ فكان شعرهم يصدر مباشرة عن نفوس صادقة ، ملتزمة بالمذهب ، عاملة له ، فجاء صورة أدبية صادقة للعقيدة وتطبيقها ٠

ولقد وضعوا هذه الأداة - الشعر - التي يمتلكونها - في حماية العقيدة ونصرة الدين ، والدعوة الى المذهب الخارجي ، وكان على الذين يريدون القول أن يلتزموا هذه المثل ، وأن يستهدفوا هذه الغايات ٠

خصائص الشعر الخارجي

١- الناحية الموضوعية :-

بعد أن عرفنا مكانة العقيدة فى مهاد الشعر الخارجي ، وفى ضمير شعرائهم وتمكنها فيه ، نستطيع أن ندعي ، من غير تحيز ولا تسرع ، أن شعراء الخوارج رجال عقيدة ومبدأ ، حتى لم يعد بامكان أحدهم ،أن يبقي عقيدته مجرد شعور وجدانى ، فى أعماق ضميره ، بل ألهبته هذه العقيدة ، ليندفع محققا متطلباتهما فى عالم الواقع ، ومجال بعد أن وقرت فى القلب ، أن تظل حبيسة الشعور والأماني. بل لابد من ترجمة مدلولاتها الى واقع عملي فى الحياة ، متصلا بغاياتها العليا ، وأهدافها البعيدة ، ليصطبغ هذه الواقع بصبغتها ، ويتكيف مع قالبها . والشعر جزء من هذا الواقع . فقد ألهمت هذه الخلفية العقدية الشعر صورا من الفنون التى تتناسب وتطلعاتها ، بعد أن سالت الأغراض التقليدية للشعر فى مجراها ، إذ أصبحت نشازا فنيا وشعوريا ، كالمديح والهجاء وبكاء الأطلال والدمن ، وذكر المناقب القبلية ، والحروب ، والغارات والثارات ، لتواكب الأنغام والتصورات المذهبية .

لقد أصبحت تلك الأغراض ، وبحلتها الجاهلية ، من مخلفات الماضى المظلم " الذى أدارت العقيدة ظهرها له ، ونكرته . والتزمت بعقيدة لا ترضى دون مدّ رواق حكمها على الواقع برمته ، ومن كانه أكثر من الخوارج التزاما بعقيدتهم ومذهبهم .

لقد جال شعر الخوارج ، فى ميدان واحد ، وحول غرض واحد ، تنوعت صور خدمته ، وهو قيام واقع عقدي ، والدفاع عنه . فالموضوعات التى صاغوا أشعارهم فيها ، تنبع من هذه العقيدة ، والايمان بمبدئهم ومذهبهم ، إذ لم

تكد تفارق ميدان الحماسة ، المنبعثة من تلك العقيدة ، وذلك المذهب ، بعد أن تجاوزت مرحلة العصبيات القائمة على النسب والثأر ، وتمجيد القادة والأبطال. وهل الحماسة إلا فن الحرب والقتال ، والشجاعة وركوب المخاطر ، وخوض غمرات الموت ، عن الكر والفر ، ثم وصف ما في الحرب من عدد وسلاح ، ودماء وجرحى، وأشلاء وصرعى .. لكنها الحماسة والفروسية الاسلامية ، التي أسلمت خماصها لرجال استحوذت العقيدة على حياتهم .. فاندفعوا طالبين إحدى الحسنيين ، ولقاء السابقين من اخوانهم ، الذين مضوا شهداء ، وذلك أرجى وأطيب ، هذا الشعر في غالبيته ، يعكس صورة حياتهم ، بجوانبها المختلفة ، حيث يمتزج الزهد بالفداء، والتضحية ،والاستشهاد ،وطلب الجنة . وكل هذه شغلتهم عن التفرغ لقول الشعر اذ لم يكن الخارجي شاعرا ، في المقام الأول ، بل كان رجل عقيدة ، وفارس نزال " تجيش نفس أحدهم بالشعر قبيل المعركة ، أو اثناءها ، فيصور بلاءه وبلاء اخوانه، ويعبر عن أساه لمن لقي حتفه منهم ، وقد يتأمل في ذلك المقام ، أو في غيره أحوال الحياة والمجتمع بتلك النظرة الزاهدة ، التي تقترب في كثير من الأحيان الى ما يشبه التصوف ، وان لم تفقد وجهها الايجابي في الحرب والرفض والمقاومة.[1] لقد أصبح الشعر على أيديهم وألسنتهم سلاحا بتارا ، يصول مع صولاتهم ، ويبعث الهمم في نفوسهم ، وأمسى أنشودة المعارك ، وبرقيه النفير ، وبطاقة النذير .

وان كان شعر الرثاء ، يتصدر طائفة أشعارهم ، فان شعر الحرب يعقبه كثرة . ويحسن بنا أن نساير - ونحن نتحدث عن مضمون شعرهم - مواكب الشهداء ، من الخطوة الأولى التي خطوها على مدارج الشهادة ، من اعتناقهم لمذهبهم ، الذى دفعهم في هذا الطريق الشاق ، الى أن تجف دماء القتلى ، بعد أن دفنت أشلاؤهم في بطون نسور السماء .

---

١) في الشعر الاسلامي والأموي . ص/٣٧٦. د/ عبدالقادر القط .

وأستطيع أن أزعم الآن ، أن فاتحة التزامهم بمذهبهم ، وتقربهم الى حياضه ، الآية القرآنية الكريمة ، التي تدعو المؤمنين الى الارتفاع عن شهوات النفس ولذائذ الحياة ، الى سنام الاسلام - والتي كانت للخوارج صرخة مدوية في آذانهم ، لم تدع للراحة الى نفوسهم وأبدانهم سبيلا ٠

" يا أيها الذين آمنوا ، مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل"(١)

ان في مسيرتنا تحت ظلال هذه الآية ، مواكبة للشعر الخارجي ، انطلاقة ورحلة ونهاية ، الى أن يثوي صاحبه مضرجا بدمائه ، متطلعا نحو الجنان ، أو آملا بجولة جديدة ، تلحقه بمن سبقه من اخوانه ان فاتته هذه ٠

الخطاب والنداء في الآية ، موجه الى الحزب الخارجي - في اعتقادهم - اذ لا تصدق تلك الصفة الا اذا عنتهم ، فهم المؤمنون ، دون غيرهم ، لأن من تنكب طريقهم من زمرة الكفار والملاعين ، فارق الايمان قلبه ، حتى ولو كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، اذ قبل التحكيم في دين الله ، وهنا مفرق الطريق ٠٠ فلا نعجب بعدها اذا رموا خصومهم بهذه الصفة ، هجاء ، أو دعوة لمجاهدتهم ، أو رثاء لأصحابهم ٠٠ يقول قطري بن الفجاءة يوم دولاب :

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا   تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم   بجنات عدن عنده ونعيم (٢)

فخصومهم كفار ، وهم مؤمنون ، مهاجرون في حياتهم ، وفي سبيل الله تعالى ٠ ومن شدة تطرفهم : تكاد هذه الصفة - الكفر - تلاحق الخارجي ، ان أبدي ما يعتري النفس البشرية أحيانا ، من تردد ورهبة ٠ فهذا رجل من الخوارج ، كأني به يلوح

---

١) سورة التوبة ٠ الآية : ٣٨٠

٢) شعر الخوارج ٠ ص/١٠٦٠

لقائده قطري بن الفجاءة بها ، ليؤوب الى ايمانه وشجاعته،ويبقى في دائرة عقده مع الله تعالى ، فلمَ لا يكر على الكافرين وقائدهم المهلب ؟! يقول حصين ابن حفصة السعدي :

أيا قطري الخير ان كنت هاربا ستلبسنا عارا وأنت مهاجر
اذا قيل قد جاء المهلب أسلمت له شفتاك الفم والقلب طائر
فحتى متى هذا الفرار مخافة وأنت ولي ، وللمهلب كافر (١)

أي انصاف هذا !! حتى لو كان لأعدائهم الكافرين ، من أنفسهم . الأشعار هذه انطلقت من كفة ميزان العقيدة التي يحملونها ، ويزنون بها الناس . فاما خارجيا على الهدى ، واما كافراً من زمرة الملاعين . وهذه قيمة عقدية ، لاحت لنا من قبل في بعض أشعار الرعيل الأول من الصحابة .* وهذه القيمة يلح عليها الشاعر الخارجي اللاهث وراء خصمه في ساحة المعركة ، ويدفعها سهما يتمنى أن ينفذه ، والعصبة الأخرى ، لن تريش سهامها الا من هذه الكنانة .. لأن المعركة في ميدان العقيدة . فهذا كعب الأشقري* . شاعر المهلب يهاجم الخوارج بالسلاح نفسه :

لولا المهلب للجيش الذي وردوا أنهار كرمان بعد الله ما صدروا

---

١) الأخبار الطوال . ص/٢٨٦. للدينوري .

*) يقول عبدالله بن رواحة رضي الله عنه :

فأقسمت لا تنفك منا كتائب سراة خميس في لهام مسوم
نزوع قريش الكفر حتى تعلها بخاطمة فوق الأنوف بميسم

الديوان . ص١٣١. مجمع د/ وليد قصاب . دار العلوم . ١٤٠٢هـ .

*) كعب بن معدان الأشقري، أبو مالك : فارس ، شاعر ، خطيب، من شعراء خراسان، كان معدودا في جلة أصحاب المهلب بن أبي صفرة ، المذكورين في حرب الأزارقة وهو من " الأشاقر " من قبائل الأزد . وقد سأله الحجاج أشاعر أنت أم خطيب ؟ فقال : كلاهما ، وله قصيدة طويلة يذكر بها يوم ((رامهرمز)) وغيره ، رواها الطبري الأعلام . ج٥/٢٢٩.

انا اعتصمنا بحبل الله اذ جحـــدوا بالمحكمات ، ولم نكفر كما كفروا
جاروا عن القصد والاسلام واتبعـــوا دينا يخالف ما جاءت به النـــذر[١]

فالخوارج كافرون كذلك فى نظر خصومهم ، فالمعركة اذن معركة بين الايمان والكفر " وان كان شعراء الخوارج أكثر التزاما بهذه القيم • وأكثر تمسكا بحبلها ، ولكن على طريقتهم •

والخارجي يعلن براءته من الملحدين •• وفى ثنايا هذه المفاصلة البالية،التى يزعمونها، دعوة الى الخروج من بين ظهراني الكافرين ، واعلان الحرب عليهم ، فقد أضحـــت ديارهم ديار كفر ، والركون اليهم ، قرع لأبواب جهنم • وهنا كذلك قيمة اسلامية قديمة جديدة يبرزها الشاعر الخارجي فى شعره ،وهى الولاء لله ولرسوله وللمؤمنيـــــن، والبراء ممن خالفهم " • ولكن انظر بمن يبتدىء :

أبرأ الى الله من عمرو وشيعته ومن على ، ومن أصحاب صفيـــن
ومن معاوية الباغي وشيعتـــــه لا بارك الله فى القوم الملاعيـن[٢]

وهذه النظرة ، ستهدم القيم للجاهلية ، التى طالما رفعت أناسا،وحطت من آخريـن ، مديحا أو هجاء ، وبخاصة قيم العصبية القبلية ، التى تتعارض مع القيم الاسلاميـة، اذا حشدت فى صفوف الظالمين • فالقرابة والعصبية لن تكون الا لله ، وأتباع دينـه، اذ تهاوت الخؤولة والعمومة بل الأخوة ، ان لم تكن تحت مظلة المذهب،وهـــذا فارسهم أبو بلال يقول :

من كان من أهل هذا الدين كان له ودي وشاركته فى تالد المـال
الله يعلم انى لا أحبهـــــــــم الا لوجهك دون العم والخال[٣]

لقد جمعت بينهم هذه العقيدة ، ليس الا • ولم يجمع بينهم قيس أو تميم ، فهم أبناء هذا الدين ، والله ربهم ، وأقربهم الى الله من كان تقيا شاكرا لأنعمـــه •

---

١) الطبـرى • ج٧/٢٧٣•
٢) شعر الخوارج • ص/١٤٠•
٣) شعر الخوارج • ص/٥٠•

فهم العصبة المؤمنة التى التقت على دين الله ونصرته ، وفى هذا الفيصل بين الفروسية الجاهلية ،القائمة على الترف والشرف والنسب والثأر ، والفروسية الاسلامية التى تندفع تحت راية العقيدة ، وفى سبيلها ، وضمن صفوف أنصارها .. ولذا تهاوت قيم تلك الفروسية النافقة ، فى مضمون الشعر الخارجى ، لتعلو قيم العقيدة والمذهب .

ومن هذا زعموا أن الآية القرآنية عنتهم ، فهم حماة الدين وأنصاره "ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله ..." . تدعوهم الى الخروج ، وتستنفرهم لمحاربة الكافرين ، وهذه الآية سيتردد صداها ، ويتجاوب نداؤها فى شعر الخوارج ، حتى أصبحت لازمة أشعارهم ، يرددها وهو يدعو الى الجهاد والخروج .. وهو يفخر أو يرثي. إذ خرج السابقون ، وفازوا برضوان الله ، واتخذ منهم شهداء ، ومنهم عبدالله بن وهب الراسبى ، وزيد بن حصين ،ومالك بن الوضاح ، وكلهم من قادتهم وفرسانهم،من الذين هلكوا فى النهروان ، فيقول أبو بلال :

أبعد ابن وهب ذي النزاهة والتقى ... ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا
أحب بقاء ، أو أرجي سلامة ... وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيا رب سلم نيتى وبصيرتى ... وهب لي التقى حتى ألاقى أولئكا[1]

هذه دعوة للخروج .. ولكن لم تكن من وراء المنصات ، ولا من زوايا المخابىء ، وانما كانت من أرض المعركة . فشعراء الخوارج ، كانوا هم الزعماء ، وأصحاب المذهب ، وهم المجاهدون حملة السيوف . فأبو بلال هذا الذى كان يلبس درعه ويمتطي صهوة جواده ، ويرفع رأسه الى السماء ويقول :

إني وزنت الذى يبقى لأعدله ... ما ليس يبقى فلا والله ما اتزنا
خوف الإله وتقوى الله أخرجني ... وبيع نفسى ، بما ليست له ثمنا[2]

---

1) شعر الخوارج . ص/٤٨.
2) شعر الخوارج . ص/٥١.

فقد دفع ثمن دعوته تلك ، انه قدم نفسه فداء لهذه العقيدة،حتى غدا معلما من معالم القوم ، بل أصحاب المذاهب ، اذ أن كلماته تلك استمدت قوتها من واقعها لا من رنينها ، وجمالها من صدقها لا من بريقها ، حتى أضحت دفعة حياة لأنها انبعثت من قلب يؤمن بها، وبرهن على صدقه ودعوته ، باقدامه وشجاعته ، حتى غدت حياته منارة يسترشد بها الشراة ، فاسمع عمران بن حطان ،وهو يجسد البطولة والشهادة في شخصية أبي بلال :

لقد زاد الحياة الي بغضا ... وحبا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشي ... وأرجو الموت تحت ذرا العوالى
ولو أني علمت بأن حتفي ... كحتف أبي بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فاني ... لها والله رب البيت قال[1]

وعمران هذا رغم أنه رأس القعد ، كثيرا ما رفع صوته بالدعوة للخروج ، وقد تحدثنا عن هذا ، ونحن نسجل حياة الشاعر وشعره ، فالدنيا أصبحت بغيضة في نظره ،وكأنه يريد أن يغر بنفسه ، من ملاحقة الآية الكريمة "أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل"٠ واذا كانت أشعار الفروسية غند الخوارج قد اقتفت آثار الآية القرآنية ، فقد وضعتهم أمام حقيقتين ملحاحتين ٠٠٠ حقيقة الحياة الدنيا ومتاعها ، وثقلها وهي تمسك بالانسان ، أو يمسك بها ، وحقيقة الحياة الآخرة ، التى ينتقل اليها الانسان عبر بوابة الموت ٠٠ وما في تلك الحياة من نعيم مقيم ، ورضوان من الله أكبر ، أعده للمجاهدين في سبيله ، وما أعظمه من نعيم ٠ ان هذه المعادلة غير الحرجة ٠٠ حياة وترف تستميل شهوات الناس ببريقها ، وموت يرتحل بالانسان ، الى حياة أخرى ٠٠ وفيها نعيم للطائعين ، وجحيم للعصاة الناكبين ٠٠٠ والأولى غالية الثمن ٠

---

١) شعر الخوارج ٠ ص/١٤٢٠

اذ أن طريق العقيدة مبنية على الصعاب ٠٠ ولقد خاض الخوارج أولا معركتهم مع نفوسهم البشرية ، بكل نطلعاتها ، حتى لزمت طريق الجهاد واستعذبته ، مع حبها للبقاء والنماء والثراء ، وبعدها اندفعوا فى معركتهم مع اعدائهم الكافرين ، وان كنت أزعم أنهم كانوا أكثر تجلدا وتفانيا فى معركتهم الأولى ٠٠ حتى استعذبوا الموت فى معاركهم • فتبلد حس مكابدة الجهاد ، فى الناس بعامة ، نتيجة طبيعية للميل الفطرى لدى البشر للدنيا ولذائذ ها ، ولكن مواكب العقيدة لن تتخلف ، ولن تنقطع عن ورود حياض الوغى ، بل سيزيد اصرارها على المضي ، حتى تثوب الى احدى الحسنيين ٠

لقد اعدوا أنفسهم وامتحنوها بالعمل الشاق ، وفطموها عن شهواتها ومألوفاتها، فأعرضوا عن مغريات الحياة الدنيا وأبنائها ٠٠ وزهدوا بما فيها ، وان كانت هذه النظرة الزاهدة ، لم تورثهم صوفية سلبية انعزالية ، وانما أورثتهم نشاطا وخفة فى الإقدام على الموت ، والسعي اليه فى ساحاته ، فرهبانية الخوارج فى مهاوي الردى، وعلى صهوات الجياد ، وهذه متابعة لحياة الزاهدين من الرعيل الأول ، فى ثغور البلاد ٠

فالدنيا أمل كاذب ، ونعيمها سراب خادع ، وكيف يلذ للمرء شهواتها ، والموت متربص به وملاحقه ، فبناؤها خراب ، وجمعها شتات ، كما يقول عمران بن حطان :

اقترب الوعد والقلوب الى ... اللهو وحب الحياة سائقها
من لم يمت عبطة يمت هرما ... الموت كأس والمرؤ ذائقها
ما رغبة النفس فى الحياة ، وان ... عاشت قليلا فالموت لاحقها
وان ما جمعت وأعجبها ... من عيشها مرة مفارقها
يوشك من فرّ من منيته ... فى بعض غراتها يوافقها (١)

فظل الموت قائم فى نفسه ، لا يفارقه ، لذا لم تأخذه غفلة ، والشأن أعجل من أن يجعل الحياة وقفا على التزود من متاعها الزائل ٠ وان كانت النفس تواقة وميالة

---

١) شعر الخوارج ٠ ص/١٥٦٠

للاستزادة منها ٠٠ فما هي في حقيقتها الا حلم متخم في ليل طويل ، أو قيلة عابر سبيل في ظل شجرة ٠٠ فعلام التعلق بها ٠ يقول ابن حطان :

حتى متى تسقى النفوس بكأسها ريب المنون وأنت لاه ترتع
أحلام نوم ، أو كظل زائل ان اللبيب بمثلها لا يخدع
فتزودن ليوم فقرك دائبا واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع (١)

" ان الرغبة في الآخرة ، لا تتم الا بالزهد في الدنيا ، ولا يستقيم الزهد في الدنيا الا بعد نظرين صحيحين : نظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها ، وألم المزاحمة والحرص عليها ، وما في ذلك من الغصص والنقص والانكاد ، وآخر ذلك الزوال والانقطاع ، مع ما يعقب من الحسرة والأسف ٠٠٠
والنظر الثاني : النظر في الآخرة ، واقبالها ومجيئها ، ولابد من دوامها وبقائها ، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات ٠٠ والتفاوت الذي بينه وبين ما ههنا ٠ فهي كما قال الله سبحانه " والآخرة خير وأبقى " (٢) ٠
وهذه النظرة الى الزهد ، هي النظرة الراشدة ، ميل عن الدنيا مع قدرة على نيلها ، وطمع وايثار للآخرة ٠ لأنها خيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل ٠ وليس الزهد الملفق الذي بقي حبيس الهذيان والحرمان ، والعزلة والسبحة والخرقة ٠٠ فذاك اللعب عينه ، أما طالب الحق ، والزاهد الحقيقي ، فسبيله مختلفة ، يبينها أحد الخوارج :

يا طالب الحق لا تستهو بالأمل فان من دون ما تهوى مدى الأجل
واعمل لربك واسأله مثوبته فان تقواه ، فاعلم أفضل العمل

---

١) شعر الخوارج ٠ ص/٨٣٠

٢) الفوائد ٠ لابن قيم الجوزية ٠ ص/٩٤٠

الغفلة ، تحرف شدة طمع صاحبها بعض الناس عن رؤية مصير جلل ، يتخطف غيرهم من حولهم ، وما لهم قوة على دفعه ، انه الموت ، وما بعده أعظم منه . ولكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، فعجيب أمر مؤمل دنيا ، والموت يطلبه . هذا الفهم السديد لحقبة الحياة والموت ، استوحوه من عقيدتهم . "وهذا النظر الذى وراءه التذكر ، الذى وراءه التقوى ، التى وراءها الله . هذا وحده هو القوة التى تتناول شهوات الدنيا ،فتصفيها أربع مرات ، حتى تعود بها الى حقائقها الترابية الصغيرة ،التى آخرها القبر ، وآخر وجودها التلاشى " .(1)

هذا الترقب للموت ، ألهب فى نفوسهم الشوق الى لقاء الله تعالى ، فأصبح هذا الشوق نسيما يهب على القلب ، يروح عنه وهج الدنيا ، بالتطلع الى غاليات الأمانى ، التى أعطت الموت مذاقا جديدا ، اذ أصبح جسرا الى الجنة ، والفوز برضاء الله . والأشلاء سيجمعها ربي بعد غربتها ، فلم لا تكون الميتة على حد الظباة ، فانها أعز وأبقى ، ويعبر عن هذه المعانى عبدالله* بن أبى الحوساء

ما ان أبالى اذا أرواحنا قبضت ماذا فعلتم بأوصال وأبشار
تجرى المجرة والنسران عن قدر والشمس والقمر السارى بمقدار
وقد علمت وخير القول أنفعه أن السعيد الذى ينجو من النار(2)

---

1) وحى القلم . ج٢/١٩٨. مصطفى الرافعى

*) أحد بنى ثعل ، ولاه الخوارج أمرهم بوصية من فروة بن نوفل الأشجعى . بعد أن أخذت نوفلا قبيلته ، وحبسوه فى الكوفة ، فبايع أصحابه ابن أبى الحوساء ، قتل سنة (٤١هـ) . (الانساب) نقلا عن الدكتور احسان عباس .

2) شعر الخوارج . ص/٤١.

"فمن زحزح عن النار ، وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور".[1]
فكيف يفرق الخارجي من الموت ؟! لقد أصبح الموت عندهم أشهى من تناول اللذيذ من الطعام ، الذي يحلم به أهل الدنيا ، وللموت أجل ، ولكل أجل كتاب .. فـإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون "[1] . فلا يعجل المنية اقدام ، ولا يؤخرها احجام ، فعلام التردد والجبن ؟.

وهذا البهلول بن بشر* الشيباني يوضح هذه المعاني في شعره :

من كان يكره أن يلقى منيته فالموت أشهى الى قلبي من العسل
فلا التقدم في الهيجاء يعجلني ولا الحذار ينجيني من الأجل[3]

والاقدام هذا ليس حكرا على الرجال ، بل شاركت فيه النساء الخارجيات أزواجهن واخوانهن ، بل نافسن الرجال في السعي الى الشهادة في سبيل الله ، صابرات محتسبات ، مقبلات غير مدبرات ، فكن رفيقات جهاد وسلاح . فأم حكيم ، زوجة قطري ابن الفجاءة قائد الفرسان وزعيم الأبطال ، وحسبك من شجاعته ، حماسته الشهيرة التي تبعث الاقدام في نفس الرعديد من الرجال :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ، ويحك لن تراعي .[4]

---

١) سورة آل عمران . الآية : ١٨٥.
٢) سورة الأعراف . الآية : ٣٤.
*) من الشجعان الزعماء ، من أهل الموصل ، خرج في أربعين رجلا ، أمّروه عليهم واتفقوا على قتل أمير العراق خالد القسري ، وظهر أمرهم ، فوجه اليهم جيشا فالتقوا بهم في سواد العراق ، فانهزم جيش خالد ، واستفحل شأن بهلول حتى فكر في غزو الشام فاجتمع لقتاله جند الأمصار في مكان بين الجزيرة والموصل . وكانوا نحوا من عشرين ألفا ونشبت الحرب ، فقتل بهلول بعد عراك طويل . الأعلام. ج٢/٧٦.
٣) شعر الخوارج . ص/٢٠١.
٤) المصدر السابق . ص/١٠٨.

كانت من ذاك الصنف من النساء ، فقد عبرت عن رغبتها في اللحاق بركب السابقين، من الشهداء ، شهداء قومها وأبناء مذهبها ، علها تحظى من الله تعالى بمنزلة . فقد شعرت بطول الحياة وثقلها على نفسها ، على خلاف عادة النساء اللواتي أسقطن عن أنفسهن الجهاد في ساحات الوغى ، إذ خلقن لجر الذيول ، واعداد الرجال ، على أحسن تكليف ... فهي عادة تبحث عن أدوات الزينة والجمال . من عطور ودهون ورياش وأمشاط .. لتصلح بها حالها :

أحمل رأسا قد سئمت حمله
وقد مللت ، دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عني ثقله [(١)]

انها تبحث عن شهادة ، تريحها من ثقل رأسها ، وما فيه من هموم وآلام وأماني. وطلب الشهادة هنا ، ليس هروبا من الحياة ومشكلاتها وشقائها ، بل استعجال مرضاة الله تعالى ، واللحاق باخوانها الذين قضوا نحبهم في ساحات الجهاد . وحلقت أرواحهم في أعالي الجنان ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا .

وأود أن أشير هنا الى كثرة الأرجاز في شعر الحرب والحماسة عند الخوارج، وقد انتبه الى هذا الأمر دارسو شعرهم . فيقول الدكتور نايف معروف " ولعل أول ما يلفت النظر عند استعراض قصائد هذا الباب ، ظاهرة وفرة الأرجاز فيه والتي يفهم من خلال مناسباتها وسياقاتها ، أنها كانت تنشد في ميادين القتال ، تشجيعا لأصحابها على الصبر والثبات ، أو كوعيد يوجه الى الأعداء " [(٢)].

---

١) شعر الخوارج . ص/١٢٨.
٢) الخوارج في العصر الأموي . ص/٢٥٩.

واسمع الى هذه الأرجوزة القصيرة .. انها ارتفاع صدر لاهث ، وراء الشهادة ، قال أحدهم :

وخارج أخرجه حب الطمع
فر من الموت وفي الموت وقع (١)
من كان ينوي أهله فلا رجع

أية شجاعة هذه ، يعبر عنها بكذب خروج الأعداء ، وصدق غايتهم هم . فالموت الذى يرهبه الناس ، سيدركه الفناء ، اذا حلّ أجله .

وقد عبر عن هذه القضية عمران بن حطان ، مستمدا ذلك من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم . الذى يذكر فيه نهاية الموت ، وتنتهي الخلائق الى حياتها السرمدية ، اما جنة ، واما عذاب مقيم الى أن يشاء الله تعالى ، فعن أبي سعيد الخدرى (٢) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد : يا أهل الجنة ، فيشرئبون ، وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادى : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رأوه ، فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ : (وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضي الأمر وهم في غفلة ، وهم لا يؤمنون " (٣) .

لا يعجز الموت شيء دون خالقه والموت فان اذا ما ناله الأجل (٤)

---

١) شعر الخوارج . ص/٣٢١ .

٢) شرح السنة ، للامام البغوى . ج١٥/١٩٧ . وقال : هذا حديث متفق على صحته . أخرجه مسلم ، عن أبي كريب ، عن أبي معاوية عن الأعمش . وأورده البخارى في تفسير قول الله تعالى: " وأنذرهم يوم الحسرة - ج٨/٣٢٥ .

٣) سورة مريم الآية : ٣٥ .

٤) الأغاني . ج١٨/١٢٠ .

وانى لأعجب مما أوده الدكتور احسان عباس ، تعقيبا على هذا البيت . "وقد عجب الأقدمون كيف اهتدى هذا البدوى الساذج الى أن يميت الموت - كلمة قال مثلها من بعد الشاعر الانجليزى Donne حين صرخ ذات مرة ، أيها الموت انك ميت لا محالة"(١) . ولو عرف الأقدمون ومن أثبت رأيهم ، هذا الحديث ، لزال عجبهم ، ولكن هذا البدوى الساذج ، كان فقيها وعالما بالحديث ، فلا يستغرب أن يضمن معانى الأحاديث فى شعره .

ان من كانت الشهادة همه ، بحث عن مظانها ، واتجه الى ساحات المعارك ، يلتمسها ، والخوارج قضوا حياتهم فى تلك المواقع ، فلا عجب ان كان أغلب حديثهم فى شعرهم عن تلك المعارك . ولأن الشطر الأساس من مذهبهم ، يقوم على وجوب قتال الكفرة ، والشعر طليعة فرسانهم ، وبخاصة أولئك الذين التزموا التزاما متزمتا بمبادىء حزبهم ، فلذا رووا الأرض بدمائهم ، لتنبت ما يرضون ، بعد أن جاء شعرهم نازفا دماء شهدائهم ، وقبل كان أغرودة تنثال على شفاههم . تشجيعا وبعثا للحماسة فى نفوس القوم .

فاسمع الآن هذه الأبيات التى يصف بها إقدام الشراة وشجاعتهم فى أرض المعركة .. انه فارس الشراة الأول . أبو بلال:

فلسنا اذا جئت جموع عدونا	وجاءوا الينا مثل طامية البحر
نكف اذا جاشت الينا بحارهم	ولا بمهاييب نحيد عن البتر
ولكننا نلقى القنا بنحورنا	وبالهام نلقى كل أبيض ذى أثر
اذا جشأت نفس الجبان وهللت	صبرنا ولو كان القيام على الجمر(٢)

وقد استهل الشاعر أبياته هذه، بدعوات يستحث بها خطا السماء، ويستمطرها النصر والثبات .

---

١) شعر الخوارج . ص/٢٢ .

٢) المصدر السابق . ص/٥٢ .

الرجال المؤمنين ٠٠ ويندفعون كأمواج البحر الزاخر ، التى ستتحطم على أيـــدى الشراة ، الذين يرقبون حملتهم ، ليتلقوها بصدورهم وهاماتهم ، كى تتعانـــق أرواحهم الظامئة الى لقاء الله سبحانه مع قبلات الشهادة ، فهم صبر عند اللقاء ٠٠ ثبت فى المعارك ٠ هذه الشجاعة النادرة التى يتطلع صاحبها الى الموت ، متدفقة من عقيدة راسخة ، وتقوى يقظة ، فى مكابدة ليل ، يقول عيسى بن فاتك الحبطى:

اذا ما الليل أظلم كابـــدوه فيسفر عنهم وهــم ركـــوع
أطار الخوف نومهم فقامـــوا وأهل الأمن فى الدنيا هجـــوع (١)
وخرس فى النهار لطول صمـــت عليهم من سكينتهم خشـــوع

وتجسد ذلك الايمان ، الذى أيقظهم فى ساعات السحر ، لتتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وليدعوا ربهم خوفا وطمعا . وكل هذا ذخيرة وعدة نفسية ، فى الشجاعة والبسالة التى أظهروها فى ثباتهم واقدامهم على أدعياء الايمان ، فكتب الله تعالى للمؤمنين النصر على المرتزقة ، رغم كثرتهم ، وقلة أعداد المؤمنين ، فتحققت الآية الكريمة " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ،والله مع الصابرين" (٢) فالله مع العصبة المؤمنة ، ومن يكن الله معه فالنصر حليفه ، والعناية تحوطه٠ وهذا ما عبـــر عنه شاعر الخوارج عيسى بن فاتك ، وهو يتحدث عن لقائهم مع أعدائهم فى معركة "آسك" ٠

---

١) شعر الخوارج ٠ ص/٥٦٠
٢) سورة البقرة ٠ الآيـــة : ٢٤٩٠٠

فلما أصبحوا صلوا وقامـــــــوا	الى الجرد العتاق مسومينـــا (١)
فلما استجمعوا حملوا عليهـم	فظل ذوو الحبائل يقتلونـــا
أألفا مؤمن فيما زعمتــم	ويهزمهم بآسك أربعونـــا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتـم	ولكن الخوارج مؤمنونـــا
هم الفئة القليلة غير شـك	على الفئة الكثيرة ينصرونـا (٢)

فالقتل استمر في المرتزقة ، أتباع الجبابرة ، فسيوف الحق تحصدهم ولا يغرنـك كثرة الخبيث ، فانه زبد وغثاء ، والغلبة لأهل الحق على قلتهم ٠٠ لأنهم يتحسون ربح تلك الصفقة التى أجروها مع الله تعالى ، فقد باع ماله ونفسه ، مقابـل دخول الجنة ، وقد بايع ووفى. فهم شراة في سوق الموت ليس الا. ان الشراة قصيرة الأعمار " ٠ يقول كعب بن عمير :

شرى ابن حدير نفسه الله فاحتوى جنانا من الفردوس جما نعيمها (٣)

ويقول قطرى بن الفجاءة :

رأت فتية باعوا الاله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيـم (٤)

فهي صفقة رابحة ، بين الخارجي وربه ، والجنة ثمن مقبوض لا موعود ٠ وفي كـل ذاك حديث عن السلاح النفسي ، والذخيرة المعنوية ، التى تميت الخوف ، وتقـوي العزيمة ٠٠ وتشحذ الهمة ٠٠ وهو جانب عريض في ساحة الاعداد ٠

أما الحديث عن العدو والسلاح في شعر الخوارج ، فهو قرين الحديث عن المعارك والأبطال والأشلاء والدماء ، فكما أنه تزود التقوى في رحلته ، لم ينس أن يحـوط

---

١) لقد حظيت الخيل باهتمام الشعراء الشراة ، فقد حفلوا بها وصفا ومديحا ٠ لمـا شاركت الفرسان في الاقدام والشجاعة ، والكر على أعدائهم ٠

٢) شعر الخوارج ٠ ص/٥٤٠

٣) المصدر السابق ص/٠٦١

٤) المصدر السابق ٠ ص/٠١٠٧

ايمانه الذى فى صدره ، بدرع سابغة وحسام بتار ، ومطية تسبح به غمرات المـوت . بل كان زاده فى حياته ،ومن حياته . يقول أيوب بن خولى البجلى:

تزود من دنياه درعا و مغفـرا — وعضبا حساما لم تخنه مضاربـه
وأجرد محبوك السـراة كأنـه — اذا انقض وافي الريش حجن مخالبه (١)

ويقول عمرو القنا :*

وحسبي من الدنيا دلاص حصينة — وأجرد خوار العنان نجيـب (٢)

ويقول عطية بن سمرة الليثى:*

وحسبى من الدنيا دلاص حصينة — ومغفرها يوما وصدر قنـاة
وأجرد محبوك السراة مقلـص — شديد أعاليه وعشر شـراة (٣)
فأبلغ منه حاجتى وبصيرتـى — وأشفى نفسى من ولاة طغـاة

انهم دعاة الحرب ، وفرسان المعارك .. فأعدوا لذلك العدة ،من عتاق الخيل التـي تندفع وتنقض كصقور جارحة ، وقد سربل جسده بدرع سابغة ، تحميه من ضربـات الكافرين ، ووصل معصمه بعضب بتار قلّ أن ينبو فى يده ، فالسيوف قواضـب وبواتر ، ومرهفات ، وذوات شطب ، ومشرفية ، وهندية .. وكلها حدة ومضاء . أمـا

---

١) شعر الخوارج . ص/١٩٨.
*) من بنى سعد بن زيد مناة من تميم ، أزرقى حارب مع قطري ،وعبيد بن هلال ، ثم انحاز الى عبد ربه الكبير .. وكان من فرسان الخوارج وشجعانهم الأشـداء ، اشتهر بوقائعه فى حروبهم مع المهلب . مات حتف أنفه نحو ٧٧هـ .
٢) شعر الخوارج . ص/٨٨. انظر الاعلام . ج٥/٨٢. للزركلى .
*) من أصحاب نجدة الخارجى .
٣) شعراء الخوارج . ص/٦٧.

الرماح التى يحنون الى معانقتها ، للموت بها قعصا ٠٠ فهى موت زؤام بيـد أبطالهم ٠ لأنها خطية ، أو زاغبية ، وانظر الى هذا المشهد الذى نقله حبيب ابن حذرة الهلالي * ، وقد لفه جو المعركة المحموم ٠٠ غبار النقع ، ورهج السنابك ، وعبير الدماء :

وشهدت الخيل فى ملمومـة	ما ترى منهن الا الحدقـا
يتساقون بأطراف القنـا	من نجيع الموت كأسا دهقـا
فطراد الخيل قد يؤنقنـى	ويرد اللهو عني الأنقـا
بمشيح البيض حتى يتركـوا	لسيوف الهند فيها طرقـا (١)

لقد شهد ذلك اللقاء اللجب ٠ وعايش تلك الساعات المريرة ، فى ساحة الجهـاد والمطاردة ، حيث عـلا الغبار أرض المعركة ، حتى لم تعد ترى وسطها الا عيـون خيل جامحة ، تلتمع أحداقها ، وفى أتون هذا العراك، يتساقى الفرسان كؤوس الدمـاء بل كؤوس الموت ٠٠ بأطراف رماحهم ، التى تحملها الأبطال الذين من عاداتهم الطراد والبسالة والدربة ٠٠ والسيوف البتارة تفل بحدها الصارم ، سيوفا أنهكها قراع الكتائب ٠٠٠ وتكاد هذه الصور صور الشجاعة والفروسية والموت تتكرر فى الشعر الخارجى ، بل تكاد تشغله ٠٠ واستكمل هذه الصور عمرو بن الحصين فى قصيدتيـه ٠٠ حيث كان فى نفسه طول وهدوء ٠٠ فوصف تقوى رجال الخوارج وشجاعتهم وأسلحتهم ، ونيلهم من أعدائهم ، وطلبهم الشهادة ٠٠ ونقتطف من إحدى قصائده هذه الأبيـات: (٢)

أ) فأقود فيهم للعدا شنج النسـا   عبل الشوى أشران ضمر الحالـب

---

*) من خطباء الخوارج وشعرائهم وعلمائهم، وقد انتمى للخوارج فى سن كبير، وهـو مولى لبنى هلال بن عامر ٠

١) شعر الخوارج ٠ ص/٢١٣٠
ملمومة : الكتيبة الكثيفة ٠   يؤنقنى : يعجبنى ٠

٢) مطلع القصيدة : - ما بال همك لبس عنك بعازب يمري سوابق دمعك المتساكب ٠

أ/ شنج النسا : متقبض العرق ٠ يعنى غير مترهل ٠ عبل الشوى : ممتلئ الأطراف أشران : شديد المراح ٠

ب/ متحدراً كالسيد أخلص لونـــه ... ماء الحسيك مع الجلال اللاتـــب
أرمي به من جمع قومي معشـــرا ... بورا أولى جبرية ومعايـــب
في فتية صبر ألفهم بـــه ... لفّ القداح يد المفيض الضـــارب
فندور نحن وهم وفيما بيننــا ... كأس المنون تقول هل من شـــارب
لنظل نسقيهم ونشرب من قنــا ... سمر ومرهفة النصول قواضـــب
ج بينا كذلك نحن جالت طعنــة ... نجلاء بين رهائب وترائـــب
كم من أولي مقة صحبتهم شروا ... فخذلتهم ولبئس فعل الصاحـــب
متأوهين كأن في أجوافهـــم ... نارا تسعرها ألـف حواطـــب
تلقاهم فتراهم من راكـــع ... أو ساجد متضرع أو ناصـــب
د يتلو قوارع تمتري عبراتـــه ... فيجودها مرى المريّ الحالـــب
ومبرئين من المعايب أحـرزوا ... خصل المكارم أتقياء أطايـــب
عرّوا موارم للجلاد وباشـــروا ... حد الظباة بآنف وحواجـــب
ه متسربلي حلق الحديد كأنهـم ... أسد على لحق البطون سلاهـــب
في كل معترك لها من هامهـم ... فلق وأيد علقت بمناكـــب (١)

لقد علقت عيون الشاعر في مواطن الشجاعة،والتقى،وملاعبة الأسنة ، وجذل الطعـان وصليل السيوف ، التي جذمت الأنوف،والحواجب . فتراه في قصيدته يبدى ويعيـــد حول تساقي الموت في ساحات المعارك،تحت ظلال الرماح المشتجرة،والسيوف المتقارعة لينهل أو يعل من كؤوس الموت .. فيمضي إلى أبي بلال،وابن وهب الراسبي ، في الجنان وتشهد له بشجاعته عتاق الخيل ، وكرام الرماح والسيوف ، ومواقع الدروع ، التي أطنب الشاعر في وصفها ، وان فاتت الشهادة الفارس الخارجي ، وبقي وراء اخوانه الذيـــن مضوا شهداء ، يجتر آلام الحياة ، وكيد الظالمين ، فهو يتحين الجولـة القادمـــة

ب) السيد : الذئب . اللاتب : اللاصق

١) شعر الخوارج . ص/٢٢٨.

أ) بور : لا خير فيه . ب) المفيض : الذى يدفع السهام ويرمى بها .

ج) الرهائب : عظام مشرفة على البطن . الترائب : أعالي الصدر

د) المرى : الناقة الكثير اللبن .

ه) سلاهب : جمع سلهبة ، وهى الفرس الطويلة .

مع ما يعانيه من ألم ضاقت نفسه ذرعا به ، ذلك هو الاحساس بطول الحياة وتفاهتها والتبرم بالزمن وأهله ، وهذا حال عشاق الشهادة ، فالدنيا فى نظرهم سجن المؤمن وجنة الكافر ، فكيف تروق الحياة للشراة ، وقد فارقوا اخوانهم ٠٠ وظلوا رهناء المحبسين ، سجن النفس التى لم يتحقق حلمها ، وسجن الواقع النكد الذى يحاصره ٠

أقول لنفسى فى الخلاء ألومها ... هبلت ، دعيني قد مللت من العمر
ومن عيشة لا خير فيها دنيئة ... مذممة عند الكرام ذوي الصبر
سأركب حوباء الأمور لعلنى ... ألاقي الذى لاقى المحرق فى القصر (١)

فشعر الحماسة هذا ، بيانات حربية ، عن عمليات فدائية ، تجيش شجاعة واستبسالا. وكان أقوى فى تأثره بالمفاهيم والتصورات العقدية من الأغراض الشعرية الأخرى ٠٠ اذ كان ميدانه الجهاد، الذى تجسدت فيه الأفكار فى صورة أهوال وأشلاء ٠

ولكن هذه البطولة الفذة ،والشجاعة النادرة لم تنسهم الاعتراف بواقع خصومهم ، من شجاعة واقدام ، وفى هذا الى جانب الصدق والنبل رافد زاخر لاثبات شجاعتهم كذلك ٠ فاستمع الى قطري فارس الخوارج وإمامهم فى المعارك ، يصف بطولة المهلب وحدة شوكته

ولكن منينا بالمهلب انه ... شجى قاتل فى داخل الحلق منشب (٢)

---

١) تنسب هذه الأبيات الى الحويرث الراسبى ، يرثي صالح بن مسرح ، أحد فرسان الخوارج ومخابيتهم ، وكان ناسكا مصفر الوجه ، لا يرفع رأسه خشوعا ، وقد خرج هو بنفسه عام ٧٦ هـ ، بعد اتفاق بينه وبين شبيب ، وكان خروجه بجوخى ، ثم أتى النهروان فصلى فى مصارع أصحابه ٠ وقال : اللهم الحقنا بهم،فانهم مضوا على طاعتك ، ثم صار الى نصيبين ، وقتل عام خروجه ٠ شعر الخوارج ٠ ص/١٧٧٠

٢) شعر الخوارج ٠ ص/١١٣٠ وبذا لا يحتكر الفارس الشجاعة لنفسه ، بل يعترف بها لأعدائه ، وهو ما عرف بشعر الانصاف ٠ وقصائده " المنصفات " ٠ وللعرب قصائد قد أنصف قائلوها أعداءهم ، وصدقوا عنهم ، وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حر اللقاء ، وفيما وصفوه من أحوالهم ، فى أمحاض الاخاء ، قد سموها " المنصفات " ٠خزانة الأدب ج٣/٥١٧٠ ومثال ذلك قول خداش بن زهير :

بأنا يوم شمطة قد أقمنا ... عمود المجد ، ان له عمودا
فجاؤوا عارضا بردا وجئنا ... كما أضرمت فى الغاب الوقودا
فعانقنا الكماة ، وعانقونا ... عراك النمر واجهت الأسودا
فلم أر مثلهم هزموا وقلوا ... ولا كذيادنا عنقا مجسودا

طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٠ تح/ محمود شاكر ٠ ج١/١٤٦٠

وهذا الاعتراف بشجاعة الخصم ، انصاف وصدق ..

" وهكذا كان شعر الخوارج ، شعرا يعبر عن فدائية خالصة ، فهو كله - وأقول غالبيته أو معظمه - بطولة وحماسة واستبسال في سبيل العقيدة، واقبال على حياض الموت الزؤام ، دون خوف أو وجل ، بل في رضى وطمأنينة ، واستبشار بغفران الله".[١]

وفي هذا بون شاسع بين شعر الحرب في الجاهلية ، وبين شعر الحماسة عند الخوارج، فتلك حماسة تحركها العصبيات البغيضة ، التي تقوم على الأخذ بالثأر ، وهذه تحركها عصبية حديثة لعقيدة ومذهب ، يقوم على الجهاد في سبيل الله ، وايثار الآخرة على الأولى .. فلا عجب اذا رأينا في أشعارهم وجهادهم شجاعة قل نظيرها ، وبطولة عدم مثيلها ، وهم يحضون في شعرهم على إلهاب الثورة على اعدائهم ، وجندلة المخالفين لهم في حفر الموت . والاندفاع في ذلك ، لاختصار المسافة بينهم وبين موعود الله ، واللحاق باخوانهم ، ولكن ضلوا عن المحجة .

وتنكشف أرض المعركة ، عن مواكب الشهداء ، فيقف من اخطأته الشهادة من شعراء الشراة ، ليرثي اخوانه الذين زفوا الى الحور العين . وكان هذا الغرض رديف شعر الحرب، والفروسية، والحماسة ، الا أنه شغل الرقعة الواسعة من شعر الخوارج، لكثرة القتل المستحر فيهم . كلما تلاقوا مع أعدائهم ، وما أكثر أيامهم ووقائعهم.. التي طحنت كثيرا من رجالاتهم وفرسانهم ، ومزقتهم أشلاء وصرعى ، ولذا لم يبق الرثاء الخارجي حبيس الصور المألوفة لهذا الغرض ، في شعرنا العربي ، من أنين وشكوى ، وبكاء وعويل على الميت ، وثناء عليه ، وذكر فضائله ، وتعديد محامده ، من مروءة ونجدة، وسيادة ووفاء، وكيف يبكي من أدرك أمنيته ، وأجيبت دعوته ، وفاز بما طلب، من تطهر، وشهادة، وجنات ، فاسمع هذا الرثاء ، رثاء الأم ولدها ،

---

١) التطور والتجديد . ص/٩١.

وما عهدنا بالنساء فى ساعات الموت إلا باكيات معولات يشققن الجيوب ، ويلطمن الخدود ، وينصبن مناحات الندب والتفجع ، ولكن المرأة الخارجية ، تغبط ولدها على المصير الذى انتهى اليه ، فقد تحقق سؤله ، انها أم عمران بن الحارث الراسبى الذى قتل فى معركة " دولاب " :

الله أيد عمراناً وطهره	وكان عمران يدعو الله فى السحر
يدعوه سرا واعلانا ليرزقه	شهادة بيدي ملحادة غدر (١)
ولى صحابته عن حر ملحمة	وشد عمران كالضرغامة الهصر

انها تبريكات بالشهادة ، فالله سبحانه استجاب لعمران دعاءه فى السحر ، فهو من رجال مدرسة الليل ، وكان يلح بسؤاله ربه ، أن يرزقه شهادة ، بيد ملحدة ظالمة غادرة ، وعمران أهل لأن يحظى بشرف الشهادة ، فقد كان مقداما شجاعا ، يبحث عنها فى أتون المتالف ، انها لم تبك فى فقيدها الكرم والمروءة ، وانما ترفع مع صورة الفارس الخارجى الشهيد ، توقه الى الشهادة فى ساحات المعارك ، وما أدركه من أجر عظيم عند ربه ، لتندب الذين فاتهم هذا الشرف من القاعدين . وشاركها فى هذا اللون من الرثاء حبيب بن جدرة الهلالي ، اذ يقول ، وهو يرثى ملحان بن معروف وعبدالملك بن علقمة :

من صادق كنت أصفيه مخالصتي	فباع دارا بأغلى صفقة الدار
إخوان صدق أرجيهم وأخذلهم	أشكو الى الله خذلانى لأنصارى (٢)
فصرت صاحب دنيا لست أملكها	وصار صاحب جنات وأنهار

---

١) الكامل فى الأدب . ج٣/٢٩٦ .

٢) شعر الخوارج . ص/٢١١ .

وحق لمن كانت هذه أمنيته الغالية ، أن يتخذ رمزا للفداء ومنارة للاقتداء ، كما كان اماما لاخوانه في عبادته،وتقواه،وتبتله،وشجاعته ، واقدامه وسط المعمعة ٠٠ لقد كان هؤلاء الشهداء أنموذجا اتحد في شخصيتهم التصور بالواقع ، والعقيدة بالسلوك ٠

وهذه أبيات لحسان بن جعدة يرثي بها بسطاما اليشكري الملقب بشوذب ، وقد جمع بها ألوانا من الرثاء ٠٠ دموعا وبكاء وثناء ورجاء ، ومنارات للاقتداء :

يا عين أذري دموعا منك تسجاما   وابكي صحابة بسطام وبسطاما *
فلن ترى أبدا ما عشت مثلهم   أتقى وأكمل في الأحلام أحلاما
بسيهم قد تأسوا عند شدتهم   ولم يريدوا عن الأعداء احجاما
حتى مضوا للذي كانوا له خرجوا   فأورثونا منارات وأعلاما
اني لأعلم أن قد أنزلوا غرفا   من الجنات ، ونالوا ثمّ خداما

ان السماء والأرض تبكي الأتقياء والصالحين ، اذا جاءهم الموت،فكيف يفعل المؤمن اذا فقد أحد اخوانه الأتقياء ، الذين لا يحجمون عن لقاء الأعداء ، بل يتقدمون للغاية التي خرجوا من أجلها ، وهي الشهادة في سبيل الله ٠٠ انه سيذرف الدموع الملهبة، المتطلعة الى هؤلاء الشهداء ، الذين أصبحت دماؤهم منارات تحث القاعدين ،وتحدو السالكين ، وتستزيد من الواردين ، على مناهل الشهادة والفداء ٠٠ لقد أضحى الشهداء رواد السبيل الى الجنان،وأمن غرفاتها ، بعد أن كانوا روادا في الاستقامة والصدق والتقوى ٠

وحق كذلك لمن فاز بالجنة أن تزف له التهاني ، فقد أصاب السعادة ، وبلغ الغرض الأقصى من الطلب ٠

---

١) شعر الخوارج ٠ ص/١٩٥٠

*) ان في ذكر الشاعر لأسماء القتلى في رثائهم ، تخليدا لذكراهم ، وليجعل منهم قدوة ومشعلا لأصحابهم من الشراة ، في التضحية والاقدام والفداء ٠

ساروا الى الله حتى أنزلوا غرفا من الآرائك فى بيت من الذهب
فأصبحت عنهم الدنيا قد انقطعت وبلغوا الغرض الأقصى من الطلب (١)

كما يقول الأصم الضبي ، وهو يرثى قتلى الجوسق ..

لقد شرى الشهداء نفوسهم لله تعالى ، يبغون بها الخلد وما حوت ، وقد ربح بيعهم وفازوا بما وعدهم الله تعالى .. وليبك على نفسه من تخلف عنهم ، وبقي أهل الغي والضلال .. وهذا أبلغ لون من ألوان الرثاء .. وقد رثى به كعب بن عميرة ، فرسان الخوارج الذين قضوا في معركة النهروان .

لقد فاز اخوانى فنالوا التى بها نجوا من عذاب دائم لا يفتر
أبى الله الا أن أعيش خلافهم وفى الله لى عز وحرز ومنصر
ويا رب هب لى ضربة بمهند حسام اذا لاقى الضريبة يهبر
فقد طال عيش فى الضلال وأهله أخاف التى يخشى التقي ويحذر (٢)

انه أغرودة الغبطة ، غبطة هؤلاء الشهداء ، الذين فازوا بعد أن زحزحوا عن النار، ونجو من عذابها الدائم ، وأخطأت الشهادة الشاعر ، فخلفته وراءهم ، متطلعا، وسائلا الله أن يحظى بتلك الميتة ، التى ترشحه لذلك المآل . فقد طال ليل شقائه بين أهل الضلال ، ويخشى الفتنة على نفسه ، وهذا انعكاس للتصورات الاسلامية عن الحياة والموت والشهادة ، التى يحملها الشراة على صورتها الناصعة .. وفى تلك المعانى التى تناولها الشاعر فى رثائه صدى الآيات القرآنية ، التى تتحدث عن الحياة والفوز الحقيقى فى الآخرة .. فقد ارتوت معاني الرثاء بالمعانى القرآنية .. الى جانب العواطف الصادقة فى رثائهم ، وهى ترشح بالاكبار، والاشادة بالفارس الخارجى ، وأخلاقه وتقواه وبسالته .

---

١) شعر الخوارج . ص/١٢٥.
٢) المصدر السابق . ص/٦٠.

انهم يرثون ويبكون ، ولكنهم في رثائهم وبكائهم أقوياء ، يذرفون الدمع ليسفكوا الدماء . ويبكون الميت ليتشجع الحي ، ويؤبنون المفقود ، ليرسموا المثل الأعلى للموجود ".(١)

انهم أعطوا الرثاء نغما خاصا ، فلم يعد ذلك الندب الجنائزي ، الذي يواكب تشييع الموتى ، وانما هي تطلعات الى هؤلاء القوم وشجاعتهم ، وما أكرمهم الله به من شهادة وجنات . انها بطاقات تهنئة ترفع الى الشهداء ، ودعوات لله تعالى أن يلحقهم بهم في مستقر رحمته ، ونهضات لتحقيق ذلك اقتداء بهؤلاء الأعلام ، وأصدق دليل على هذا اللون من الرثاء ، قول أبي بلال في رثاء عبدالله ابن وهب الراسبي وغيره :

أبعد ابن وهب ذي النزاهة والتقى ... ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحب بقاء أو أرجي سلامة ... وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيا رب سلم نيتي وبصيرتي ... وهب لي التقى حتى ألاقي أولئكا(٢)

هذا الشعور ، وهذه الأماني ، جعلتهم لا يبكون قتلاهم ، ولا يرثونهم بالصورة التي نجدها عند الفرق الأخرى ، اذ كان قتلهم - في رأيهم - السعادة المنشودة ، وهي سعادة يطلبها كل خارجي لنفسه ، لذلك مضوا يمجدون قتلاهم ".(٣) ويؤكدون التزامهم بطريق أسلافهم الذين سبقت لهم الحسنى ، ويسعون لادراكهم في الجنة . ولكن هذا التجديد في الرثاء ، لم يغيب البكاء* والدموع والتأوه ، كما لاحظنا ، بل تسح

١) الأدب العربي في الجاهلية والاسلام . ص/٢٨.
٢) شعر الخوارج . ص/٤٨.
٣) التطور والتجديد في العصر الأموي . ص/٣٠٤.
*) قال حبيب بن حزرة الهلالي ، رثى قتلى الخوارج مع الضحاك :
أبكي الذين تبوأوا الغرف العلى ... تجرت لهم من تحتها أنهار
أبكي لنفسي لا لهم أبكيهم ... لا صبر حيث تعارف الأبرار
- أنساب الأشراف . ج٨/٣٦٨.

أحيانا عيون الشعراء الدموع ، عندما يذكر اخوانه،الذين ارتحلوا مع قافلة الشهداء .
انه يبكي فيهم المثل والرمز الخارجي ، يبكي الصلاح والتقوى والاستقامة والشجاعة والشهادة ·· ويحض بذلك على الثورة ، والدعوة للفكر الخارجي ، والسير على الدروب التي أنارها الشهداء بدمائهم ·

وفي الجملة " جاء رثاؤهم خاليا من التفجع الحاد ، ومن أنة الحزن الدائمة ، لأن ما صار اليه شهداؤهم ، كان خير عزاء لهم ، كما جاء بعيدا عن نزعة القنوط واليأس المرير . ومعاني هذا الرثاء اسلامية ، تستقي أفكارها من القرآن ، فجاءت عاطفته صادقة ·· لأنهم نذروا أنفسهم للموت في سبيل مذهبهم ·· ولكن بالرماح قعصا :

(١)
فثوى صريعا والرماح تنوشه ان الشراة قصيرة الأعمار

ولابد من أن نسجل نتيجة واضحة ، أو ظاهرة تكاد تكون عامة ، وهي أن الشعر عند شعراء هذه الفرقة ، اما تسجيلا لأعمال حربية ، أو رثاء لقتلاهم . ومرد ذلك أن الشعر لم يكن حرفة،أو هواية عندهم . بل كان وسيلة آنية ، يعبرون به عما يعتمل في نفوسهم ، وما يدور في خلدهم ، لذلك لم تكن قصائدهم شعر مناسبات يفتخرون هنا ، ويمدحون هناك ، وانما كان يجرى على ألسنتهم عفو الخاطر دون كثير تكيك أو تمحيص أو تثقيف ، ولما كانت حياتهم سلسلة من الحروب المتواصلة ، فقد كثر القتل فيهم ، وبذلك كثر نصيب الرثاء في هذا الشعر . الى جانب نظرتهم للحياة والموت ، والخروج،والحروب ·· ولذا تداخلت الأغراض في القصائد بل الأبيات الشعرية ·

---

١) الخوارج في العصر الأموي · ص/٢٧١·
٢) الكامل في الأدب · ج٢/٢٤٩·

الفخـــــــــــر :

لم يتناول شعراء الخوارج فى قصائدهم الموضوعات التقليدية التى عرفها شعرنا العربى ، واضحة المعالم ، محددة الأغراض ، وانما جاء شعرهم نفثات صدورهم المنبجسة من عقيدة مستقرة فى قلوبهم ، فتداخلت الأغراض الشعرية فى قصائدهم ومقطوعاتهم . ويبقى الفارس الخارجى ، المثل والرمز ، يتراءى لنا فى مواقع متعددة من تلك القصائد ، فكما أنه استأثر بالأضواء ، ونحن نتابع أشعار الحماسة والفروسية والرثاء . كذلك يلوح لنا الآن ، وقد ارتفع على أكتاف هجاء خصومه ، ليشيد ويفخر بشجاعته وتقواه ، والتزامه بمذهب الشراة ، وعهدنا بالفخر مواكبا المديح ، أما هنا فقد جاء الفخر قرين الهجاء ، لأنه يزيد من رغم الأعداء وغيظ قلوبهم .

ويرى ابن رشيق أن الفخر هو المديح نفسه ، ولكن الشاعر يخص نفسه وقومه ، ونحن كذلك نراه قد يكون شطرا من الهجاء . اذ يقصد به التفضيل والترجيح بين الصفات الممدوحة التي يعتز بها ، والصفات المهجوة التى يفتخر عليها"[١]

والفخر ضرب من الحماسة بل نشيدها ، وهو التغنى بالفضائل الكريمة ، وطيب الشمائل ، والمباهاة بالنفس والقبيلة . وهو من أخص صفات العرب فى الجاهلية . اذ كانوا يفخرون بالشجاعة ،والاقدام ، والنجدة ، واغاثة الملهوف ، وحماية الجار والكرم ، وعراقة الأصل والشرف والترف .

وقديما كره الناس أحاديث المباهاة والأنا ، وعدوه ضربا من الغرور والادعاء ، إلا فى ساحات القتال ، وعرصات المعارك . وقد أشار ابن رشيق الى ذلك فقال:

---

١) تاريخ آداب العرب . مصطفى صادق الرافعى . ج٣/١٠٢.

"ليس لأحد من الناس أن يطرى نفسه* ، ويمدحها فى غير منافرة ، الا أن يكـون شاعرا ، فان ذلك جاز له فى الشعر ، غير معيب عليه" (1) . لاسيما اذ استقام وصدق ، وخلص من المبالغة والكذب ، وتغنى بالصفات الكسبية ، وقد تلمس شعر الخوارج هذه السبيل .

فلم يكن فخر الخوارج* بأحسابهم وتراثهم ، وعظمة قبائلهم ، وعراقة أنسابهم فتلك بضاعة الجاهلية وقيمها ، التى أسقطها الاسلام ، ووضعها الرسول صلى اللـه عليه وسلم ، تحت قدميه الشريفتين . " ألا ان كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمىّ موضوع .." (٢) .

والخوارج ينظرون الى أنفسهم ، أنهم حماة الدين،الذين أخذوا على عاتقهم رد الضالين الى جادة الكتاب الكريم،والسنة النبوية المطهرة ، فلذا أداروا ظهورهم للدنيا وحطامها ، وكسروا موازينها ، وأهالوا التراب على قيمها ، فجاء فخرهم

---

*) عن عياض بن حمار عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه خطبهم فقال: "ان الله عز وجل أوحى الي أن تواضعوا ،حتى لا يفخر أحد على أحد" . صحيح ابن ماجة.الألباني . ج٢/٤٠٦ .

١) العمدة . ج١/٢٥ .

*) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لينتهين أقوام يفخرون بآبائهم الذين ماتوا ، انما هم فحم جهنم ، أو ليكون أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه ، ان الله أذهب عنكم عبية الجاهلية ، وفخرها بالآباء انما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من التراب" . صحيح الجامع الصغير . رقم ٥٣٥٨ .

٢) انظر حجة الوداع . من رواية جابر فى صحيح مسلم . ج٤/٣٧ .

متناغما مع المذهب الخارجي ، وقيم العقيدة والشراية ، وهذا قمة الالتزام بين العقيدة والفن . فقد أسقطوا الروابط القبلية ، ليرفعوا راية العقيدة التى جمعت بين أتباعها .. وجعلت مقياس التفاضل بينهم التقوى .. والفخر يكون بالانتساب الى هذا الدين والالتزام بأحكامه .

فنحن بنو الاسلام والله ربنا   وأولى عباد الله بالله من شكر (١)

لقد غابت القبلية من ساحة الفخر ، لتحل محلها العقيدة وجماعة الشراة ، والحرب التى تثار ليست لمآرب قبلية ، أو عرقية ، وانما هى معركة لصالح الجماعة وهدفها الذى تسعى اليه . فلا يدنس حماها ظالم أو معتد . واللغة التى تعيد الحق الى نصابه ، وتمضى قرار صاحبه ، هى لغة السلاح ، وهذا جزء من تصورات الخوارج - فلتسقط لغة الحوار والجدال ، ليقوم السيف حكما ، ففى لسانه الكلمة الفصل ، وهذا ما ارتجزه عبيدة بن هلال اليشكرى :

انى لمذك للشراة نارها
ومانع ممن أتاها دارها
وغاسل بالطعن عنها عارها
حتى أقرّ بالقنا قرارها (٢)

وفى هذا الرجز تتبدى لغة القوة والفتوة .. وقد ذابت الشخصية الفردية ضمن العصبة الخارجية . وان كنا نجد الفخر الشخصي فى أشعارهم وأرجازهم . فاسمع الى عبيدة بن هلال نفسه يقول:

أنا ابن خير قومه هلال
شيخ على دين أبى بلال   وذاك دينى آخر الليالى (٣)

---

١) لعمران بن حطان . شعر الخوارج . ص/١٦٥.
٢) شعر الخوارج . ص/٩٧.
٣) المصدر السابق . ص٩٧.

ولكنه يجعل من فروسيته وشجاعته رافدا يتحدر في مسيل أبى بلال ، الذى كان معلما شامخا من معالم الفرقة الخارجية ، وهو هنا يطابق بين إقدامه وعقيدته . وكذلك المنهال الشيباني البصري يفخر فيقول :

انى لأروع فى الهيجاء مختلف ... كالليث مسكنه الطرفاء والأسل (١)
وكم تركت بعين الجر من بطل ... يمشى العرضنة فيه الرمح معتدل

ويترجح عندي أن هذا الفخر ، ليس تمجيدا ((الأنا)) وانما هو ربط بين ذاتهم ، وبين انتمائهم .. وبث لروح التضحية والفداء فى نفوس أتباعهم . فهذا فارسهم وامامهم .. فليتخذوه قدوة فى الاقدام والشجاعة ، كما كان قدوة لهم فى التقوى والعبادة .

ومثل هذه الأبيات ، وتلك الأراجيز ، تنطلق عادة من قادة الركب،أو الفرسان منهم ، ويتناوبها الأبطال بعده ، وهى اثارة الحماسة والشجاعة فى نفوس القوم ، قبيل احتدام المعركة ، أو العمل الشاق ، وهذا صالح بن مخراق ، يتوجه بفخره مخاطبا أعداءه ، مطفئا جذوة البسالة والشجاعة في نفوسهم ، ومضرما فى صدر أصحابه الاقدام والحماسة ، والا فالفارس الفرد ، لن يترك أثرا كبيرا فى خصومه،ان تجرد ظهره من أتباعه :

قل للمحلين آتاكم صالح ... وصالح فى الحرب كبش ناطح
وصالح في الغيل لبث كالح ... وصالح ظفر وناب جارح (٢)
يهوي به طرف سريع سابح ... فى كفه عضب حسام لائح

انه فارس جماعته ، وألح على تكرار اسمه فى أبياته "صالح" وكأنه يريد أن يجعلها صفة له .. ليجمع بين قيمتين عظيمتين .. بدور فخر الخوارج حولها " الشجاعة

---

١) شعر الخوارج . ص/١٨٠.
٢) المصدر السابق . ص/١٢٥.

والملاح" . فهو كبش ناطح ، وليث كالح ، وناب جارح ، ويمتطى صهوة سابح بكفه حسام لائح .. بيد شجاع صالح .. انه يطوف حول هاتين القيمتين .. اذ الذخيرة الروحية ، والعدة الحربية ، وهذا زاد رجل العقيدة .

وتتضح دلالة الرمز ، أو " الأنا " فى شخصية الخارجى وفخره ، على لسان عمران بن حطان ، اذ أنه طائر فى سرب جماعته ، فحديثه عن الشجاعة والتقوى، رفع من شأن الراية الخارجية ، ودعوتها ، التى احتشدت وراءها جموع المؤمنين ، الذين عاهدوا الله على نصرة الحق .

يقول :

ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت	طعان فتى فى الحرب غير ذميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا	تبيح من الكفار كل حريم[1]
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم	بجنات عدن عنده ونعيم

فالفخر - كما نلاحظ كان بصفات الايمان،والتقوى،والشجاعة ، ولكنها شجاعة صادرة عن عقيدة راسخة ، جندت أتباعها للعمل فى سبيلها ، فهم يخوضون غمرات الموت لذلك .

لقد تحولت الأغراض الشعرية ، على أيدى الشعراء الخوارج ، الى فنون تدور فى فلك العقيدة والمذهب . فالشعر حماسى ، ولكن اختلفت نقاط الرصد لهذا الشعر ، وبذا لايكون غريبا أن تجد المقطوعات تتكرر شواهد على أغراض متعددة.. فكم تحدثنا - وطال حديثنا - عن قيامهم الليل ، وبكائهم ومناجاتهم فى ساعات السحر ، واجتهادهم فى العبادة ،من صلاة وصيام برى أجسادهم . وكان ذلك بمعرض حديثنا عن الحماسة والفروسية والرثاء . وها نحن نردد مقطوعة قد سبق ذكرها دليلا على فخرهم

---

١) شعر الخوارج . ص/١٠٦.

باستقامتهم وتقواهم ، وان كانت من شعر الطرماح :

لله در الشراة انهم	اذا الكرى مال بالطلى أرقوا [١]
يرجعون الحنين آونة	وان علا ساعة بهم شهقوا

وقد جمع قيم الفخر ، عيسى بن فاتك الحبطي ، فى قصيدة واحدة يقول فيها :

فلما أصبحو صلوا وقاموا	الى الجرد العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم	فظل ذوو الجعائل يقتلونا
أألفا مؤمن فيما زعمتم	ويهزمهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم	ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك	على الفئة الكثيرة ينصرونا [٢]

انهم رهبان ليل ، وفرسان حرب ، عرف الله اخلاصهم ، فكتب لهم النصر على قلتهم ، وهذا شأن أتباع الحق • انهم وعدوا بالنصر ، كما أفادت الآيات القرآنية •

وهكذا رأيت أن الفخر الخارجى ، كان بالتقوى ، التى دفعته الى غمرات الموت ، وحياض المعارك • طالبا الشهادة ، مع الاشادة بالمؤمن الشاري وشجاعته •

ولا يعنى هذا أن الذاتية والقبلية قد اندثرتا فى شعر الخوارج ، فقد تجد فى سبيلك وأنت تقص آثارهم • من سقط على الطريق ، أو تعلق بحبال الجاهلية فى فخره ، الذى أرداه فى مستنقع الخصومات القبلية المستعرة آنذاك • كما يبدو واضحا فى شعر الطرماح ، وفخره على تميم اليمن ، اذ اختلطت عصبيته القبلية بايمانه ، وهذا حكم لا ينسحب على شعراء الشراة ، الذين أوثقوا حبالهم بعرى العقيدة ، وخلصوا لها • وأوهنوا كل رابطة ، ليست من سداها ولحمتها ، فلا عجب ان رأيت بني تميم والأزد من الشراة ، يواجهون بسيوفهم أبناء قبيلتهم ، فى جيش الخلافة ،

---

١) شعر الخوارج • ص١٠٦

٢) المصدر السابق • ص/٥٤

كما أن عمرو بن الحصين الأعجمي داس فارسيته ، بعد أن تعلق قلبه بمذهبـــه ، وإخوانه الشراة ، حتى غدا الفخر عند الخوارج فنا جديدا فى نهجه وغايتــه . إذ يصب فى صالح الجماعة الخارجية ، ولا يكاد يغادر ساحتها ، واصطبغـــت معانيه بالمثل الأعلى للايمان ، فاكتسب رونقا وبهاء .

الهجـــــاء :

لقد أوجدت الرسالة الاسلامية فضائل وقيما جديدة ، مستمدة من ايمانهـــا لا من الروح الجاهلية ، والفضائل القبلية البالية ، وأصبح التمسك بهـــذه الفضائل من المحامد التى دار الفخر حولها ، والاخلال بها من المطاعن التى تنقص من قدر مقترفها ٠

وكما أن الفخر دار فى فلك العقيدة الخارجية ، كذلك الهجاء ، فقد سار فى سبيله ، ولكن باتجاه معاكس ، فالخوارج حماة الدين ، يردون عن حياضه أهـــل الأهواء ، كما جاء فى القرآن الكريم ، وذهبوا الى وجوب قتال من يخالفهم ، لأنهم كفرة ، ملحدون ، غادرون ، منحرفون ، ظالمون ، مرتزقة ، جبناء ، ولذا اختلط هجاؤهم بمقطوعات الحماسة وأبياتها ، بعيدا عن الأنماط التقليدية التى ســار عليها الهجاء الجاهلى ، والهجاء الأموى ، فلم يعد ينظم فى سلك القيـــم الجاهلية ، من ضعة القبيلة ، وقلة عددها ، أو بالسباب والافحاش ، وتمزيـــق الأعراض ، أو اظهار العيوب الخلقية ٠ واذا انزلق بعض شعراء الخوارج الى فجاج الجاهلية فى هجائهم ، فانما هى خطوات قصيرة ، وبخاصة أن هذا الفن لم يصادف هوى فى نفوسهم ، ولم يروه سبيلا لاقناع الخصوم ، (١) وردهم عن ضلالهم بعـــد أن حكموا السيف ، ورأوه دواء للمنحرفين ، لذا لم يؤمنوا بالغارة على اعدائهم هجاءً ٠ (٢)

---

١) يقول عمرو بن ذكينة :ـ تنهى الولاة بحد السيف عن سرف
كفى بذاك لهم من زاجر ناه ٠ شعر الخوارج ٠ ص١٩٣ ٠

٢) حث نافع بن الأزرق أبو الوازع الراسبى على الخروج قائلا : يا نافع لقد اعطيت لسانا صارما وقلبا كليلا ، فلوددت ان صرامة لسانك كانت لقلبك وكلال قلبك كان للسانـــك ٠ أتحض على الحق وتقعد عنه ، وتقبح الباطل وتقيم عليه :

لسانك لا تنكى به القوم انمـــا ... تنال بكفيك النجاة من الكـــرب
فجاهد أناسا حاربوا الله واصطبر ... عسى الله أن يخزي غوي بنى حرب

شعر الخوارج ٠ ص/٦٩ ٠

ولا تعجب اذا رأيت الخارجي يقف واعظا شعراء الهجاء ، بالكف عن نهش أعراض الناس ، وسبابهم ، لأنهم مؤاخذون بما يقولون ، والموت أقرب الى ابن آدم من شراك نعله ، فكيف يستبيحون الحرم ؟

والله لا يحب الفاحش المتفحش البذئ* . فاسمع الآن نصيحة يزيد بن حبناء ، لزياد ابن الأعجم ، عندما مرّ به وهو يفحش فى هجائه :" ويحك !! حتى متى تتمادى فى الضلال ، كأنك بالموت قد صحك ومساك "(١).

وقد أوسع لتلك القيم : الكفر والضلال .. " الصحابي عبدالله بن رواحة ، أحد شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم . فى هجائه لقريش على الرغم من برودة هذا السلاح فى جنب كفار قريش وقتها ، وزهد حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك فيه .. وقد ذكر صاحب الأغانى هذا فقال : " كان فى ذلك الزمان ، أشد القول عليهم - كفار مكة - قول حسان وكعب ، و أهون القول عليهم ، قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا ، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة "(٢).

وتابع الخوارج ابن رواحة فى هذا السبيل مع اختلاف المهجو ! فعلى من صب الخوارج هجاءهم ؟ وبم كان الهجاء ؟

---

*) وعن أنس رضى الله عنه قال: "ماكان الفحش فى شئ قط إلاشانه ، ولاكان الحياء فى شئ قط إلازانه " صحيح ابن ماجة . الألبانى . ج٢/٤٠٧.

١) الأغانى . ج١٥/٣٩٠. فرد عليه زياد بقوله:

يحذرنى الموت ابن حبناء والفتى	الى الموت يغدو جاهدا ويروح
فقل ليزيد يا ابن حبناء لا تعظ	أخاك وعظ نفسا فأنت جنوح
تركت التقى والدين دين محمد	لأهل التقى والمسلمين يلوح
وتابعت مرّاق العراقين سادرا	وأنت غليظ القصر يين صحيح

٢) الأغانى . ج٤/٤.

أعداء الخوارج المجتمع الاسلامي بكامله ، والمقاتلون منهم بخاصة ، فبعد أن انحازوا الى حروراء ، ونمت في تجمعاتهم الأفكار الغالية المتطرفة ، حيث كفروا خصومهم ، وأخرجوهم من ملة الاسلام ، وعن طريق الهدى، أحالوا تلك النقائص ، سهاما يرمون بها أعداءهم .. فقد قارفوا ذنوبا تحل دماءهم ، فيقول حبيب بن حذرة :

يا رب انهم عصوك وحكموا في الدين كل ملعن جبار
يدعو الى سبل الضلالة والردى والحق أبلج مثل ضوء نهار (١)

فأعداؤهم عصاة ، حكموا الملاعين الجبابرة ، دعاة الضلال والهلاك ، فقد أتت آيات الحق ، وارتفعت منارات الهدى ، ولكنه الضلال الذى أصمهم ، وأعمى أبصارهم .. وستتكرر صفة الكفر، ووشاحها الجبن والنفاق ، فى معظم أبيات الهجاء ومقطوعاته.. ولا بأس بتكرار أبيات أم عمران بن الحارث الراسبي :

الله أيد عمرانا وطهره وكان عمران يدعو الله في السحر
يدعوه سرا واعلانا ليرزقه شهادة بيدى ملحادة غدر (٢)

ويتداعى الى خاطرى ، وأنا أقرأ هذه الأبيات قولة عمر بن الخطاب رضى الله عنه " الحمد لله الذى جعل منيتي على يد رجل لم يسجد لله سجدة "* وما أظن هذه الأبيات إلا صدى تلك المقولة ، وبخاصة أن عمر رضى الله عنه، لم يخرج عن سبيل النبوة ، حسب نظرتهم الى الخلفاء الراشدين اللاحقين له .

وقطري بن الفجاءة يلح على هجاء أعداء الخوارج بالكفر كذلك .

ولو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم (٣)

١) الخوارج في العصر الأموى . ص/٢٧٩.
٢) المصدر السابق . ص/٧٣.
*) وفي رواية " الحمد لله الذى لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط".
التاريخ الاسلامي، محمود شاكر . ج٣ /١٧٩.
٣) شعر الخوارج . ص/١٠٧.

أما عند عيسى بن فاتك الحبطي ، فالخصوم أهل بغي وإلحاد ، لا يجوز الركـــون اليهم ، وترك مجاهدتهم ٠٠ حتى يفيئوا الى رحاب الدين - كما يفهمونـــه - فيقول :

أخاف عقاب الله إن مت راضيـا   بحكم عبيد الله ذي الجور والغدر[١]
وأحذر أن ألقي الهي ولـم أرع   ذوي البغي والالحاد فى جحفل مجر

وفى الرسالة التى خلفها سميرة بن الجعد ، بعد أن هجر الحجاج وقلاه ، والتحـق بركب الشراة ٠٠ هجاء مرّ للطاغية ، ولكل أفراد الأمة المسلمة وقتها ، فقـد سلكوا سبلا تفرقت بهم عن سبيل الهدى ٠

فمن مبلغ الحجاج أن سميـرة   قلى كل دين غير دين الخـوارج[٢]
رأى الناس الا من رأى مثل رأيه   ملاعين تراكين قصد المخـارج

جنوح وغلو في الاعتقاد والسلوك ٠

وأعتقد أن أقذع الهجاء ، كان للجيش الاسلامى ، لأنهم يقاتلون أتباع الحق ، ويمالئون السلطة ، لما في يديها من مال ومتاع ٠ فهم أبناء الدنيا وعبيدها ، فالمال يتدفق والهبات تترى ، فلنقاتل تحت هذه الراية المعطاءة ، فقال عمران بن حطان يـرد على الشرط الذين برروا قتالهم للخوارج ٠ " ومالنا لا نقاتل الخوارج !! أليـست أعطياتنا داره " ٠

فلو بعثت بعض اليهود عليهـم   يؤمهم أو بعض من قد تنصـرا[٣]
لقالوا رضينا ان أقمت عطاءنـا   وأجريت ذاك الفرض من بركسكـرا

لقد عدهم مرتزقة ٠٠ تغريهم العطايا والهدايا ٠٠ ويندفعون مجالدين اذا زيد فـى أعطياتهم ٠ والارتزاق سبيل أصحاب المنافع،والمصالح الدنيوية، وليس سبيل رجـال

---

١) أنساب الأشراف ٠ ج٤/٢٠ وشعر الخوارج ٠ ص/٥٦٠
٢) شعر الخوارج ٠ ص/١٢٢٠
٣) أنساب الأشراف ٠ ج٧/٩٩٠

رجال العقيدة ، فيقول أحدهم شامتا بهلاك المرتزقة :

كم من قتيل تنقر الطير حولـه   بسولاف غرته المنى والجعائل[١]

وأورد المعنى نفسه ،عيسى بن فاتك الحبطى ، وهو يتحدث عن معركة آسك ، فقال :

فلما استجمعوا حملوا عليهم   وظل ذوو الجعائل يقتلونا[٢]

فهؤلاء مخدوعون ، غرر بهم ، أفسدت الدنيا عليهم دينهم ، اذ أن هناك سبيلين لا ثالث لهما - فى نظرهم - سبيل الآخرة ، وهو سبيل الخوارج ، وسبيل الدنيا سبيل اعدائهم .. وليس بمستغرب أن تنقض قيم الفخر ، فى هجائهم ، فالكفر والاعراض عن الدين ، يدل الشجاعة والتقوى .

وهناك هجاء شخصى - وهو اللون الثانى للهجاء - الا أنه لم يغادر ساحة الكفر ،والجبن،والفرار ، وقد صبه عمران بن حطان على الحجاج بن يوسف الثقفى ، فقال :

أسد علي وفى الحروب نعامة   ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت الى غزالة فى الوغى   بل كان قلبك فى جناحي طائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس   تركت منابرهٔ كأمس الدابر[٣]
الق السلاح وخذ وشاحي معصر   واعمد لمنزلة الجبان الكافر

انه جبان وكافر !!

---

١) شعر الخوارج . ص/٧٨ .
٢) المصدر السابق . ص/٥٤ .
٣) وفى رواية " منازله "
٣) شعر الخوارج . ص/١٦٦ .

وقد تعدى الهجاء - وفي أضيق السبل - ذلك الأسلوب، الى الهجاء الشخصي ، وبعاهات خلقية ، من دمامة ، وكراهة رائحة، وضعة نسب ، وهو ارتكاس في مستنقع الهجاء الجاهلي ، وإن كان محدودا ، ومن ذاك رجز عبيدة بن هلال اليشكري ، الذي يهجو به زيد بن جندب* :

أشفى عقنباه وناب ذو عصل
وقلح باد وسن قد نصل (١)

وقوله أيضا يهجوه :

ولفوك أشنع حين تنطق فاغرا   من في قريح قد أصاب بريرا (٢)

أما الهجاء بضعة النسب ، وسوء المنبت ، ولؤم الأجداد ، فهو سهم رمى شبيب* الحجاج بن يوسف الثقفي به، فقال :

عبد دعي من ثمود أصله   لا بل يقال أبو أبيهم يقدم (٣)

لقد ربط نسبه بثمود ، الذين اقترن اسمهم بالطغيان والضلال ، فقد طغوا في البلاد وأشاعوا فيها الفساد . فرعون وثمود .

---

*) زيد بن جندب الايادى الأزرقي . خطيب الأزارقة ، وأحد شعرائهم ، كان ينعت بالمنطيق ، قال الجاحظ : كان أشفى أفلح (أي مختلف الأسنان ، مشقوق الشفة العليا) ولو لا ذلك لكان أخطب العرب قاطبة . الأعلام . ج٣/٥٧ .

١) شعر الخوارج . ص١٠١ .

٢) المصدر السابق . ص١٠١ .

*) كان شبيب الحروري يصيح في جنبات الجيش ، فلا يلوى أحد على أحد . وفيه يقول الشاعر : ان صاح يوما حسبت الصخر منحدرا   والريح عاصفة والموج يلتطم
ولما قتل أمر الحجاج بشق صدره ، فاذا له فؤاد ، مثل فؤاد الجمل ، فكانوا اذا ضربوا به الأرض ينزو كما تنزو المثانة المنفوخة" . العقد الفريد . ج١/١١٨ .

٣) الخوارج في العصر الأموى . ص/٢٨١ .

كما أن هناك أبياتا من شعر الخوارج ، سالت فى روافد الهجاء المتباينة ٠٠ من اللوم والتأنيب والتقريع للنفس ، أو لأحد المقربين من الجماعة الخارجية ٠ وهذا ديدن الانسان الذى يحاسب نفسه ، فيلومها على تقصيرها ، ويحمد الله على استقامتها ٠٠ وكأنهم من رواد حلقة الامام الحسن البصرى رضى الله عنه ، اذ يبين حال المؤمن فقال : " ان المؤمن والله ما تراه يلوم الا نفسه ، ما أردت بكلمتى ؟ وما أردت بأكلتى ؟ ما أردت بحديث النفس ؟ وان الفاجر يمضى قدما ما يعاتب نفسه "(١) ٠

ولا أقسى على الخارجي من الانفصام بين القول ، والفعل ٠٠ لأن القول لا وزن له ان لم يعقبه جهاد ، والقعود عنه ذنب عظيم فى نظرهم ٠

وقصيدة قطري بن الفجاءة التى وجهها لسميرة بن الجعد ، واحدة من قصائد اللوم والتقريع اللطيف ، يقول :

وراح بن جعد الخير نحو أميره	أمير بتقوى ربه غير آمر
أبا الجعد أين العلم والحلم والنهى	وميراث آباء كرام العناصر
ألم تر أن الموت لا شك نازل	ولا بعث الا للآلى فى المقابر
فراجع أبا جعد ولا تك مغضيا	على ظلمة أعشت جميع النواظر(٢)

انه تقريع خفيف ، فهو يذكره بالآخرة ، والمصير الذى ينتظر العصاة ، وقد يكون اللوم والتأنيب للنفس التى تثاقلت عن الجهاد ، ونصرة المؤمنين ، فهذا عمرو ابن الحصين ، يلوم نفسه على خذلانه أصحابه حين يقول :

كم من أولي مقة صحبتهم شروا   فخذلتهم ، ولبئس فعل الصاحب(٣)

---

١) فى ظلال القرآن ٠ ج٦/٣٧٦٨٠

٢) شعر الخوارج ٠ ص/١٢٠٠

٣) الخوارج فى العصر الأموى ٠ ص/٢٨١٠

وفى بعض الأحيان نجد لومهم لبعضهم يتخذ لهجة التنديد ، والنقد الحاد الشديد . ولكن لا يخرج عن الأدب واللفظ المهذب ، فهذا زيد بن جندب ، يرصد ظاهرة كثرة الاختلاف بين أتباع العصبة الخارجية ، وأثرها على تماسكهم وقوتهم ، وطمع الأعداء فيهم ، وسبب الفرقة هذه - فى نظره - هو تحولهم عن جدهم وجهادهم الى الجدل المفرق فيقول :

قل للمحلين قد قرت عيونكم ... بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كنا أناسا على دين ففرقنا ... قرع الكلام وخلط الجد باللعب [1]
ما كان أغنى رجالا ضل سعيهم ... عن الجدال وأغناهم عن الخطب

وهكذا يتحول الهجاء على ألسنة شعراء الخوارج الى جندى صادق مخلص ، يندفع ليذود عن الجماعة الخارجية ومذهبها ، فقد ارتفع عن قذف المحصنات، وتمزيق الأعراض، والطعن بالأنساب ، ليسمو باتصاله بالأصول، والفضائل الخلقية الاسلامية .. فكان جديرا فى خلق رجاله ، وترفعهم عن الاقذاع والفحش ، وذلك لأنهم لا يستعملون هذا السلاح للتشهير بالخصوم [2] ، والافتراء عليهم ، وانما يقصدون التنديد بما تردى فيه الخصم من باطل وانحراف [*] .

---

١) شعر الخوارج . ص/١٢٩.

٢) - أو لأن أعدق الهجاء أعفه وأصدقه، كما يقول خلف الأحمر : "أشد الهجاء ما عف لفظه ، وصدق معناه" . العمدة . ج١٧١/٧.

*) "ولم يكن الهجاء عند العرب فى اعتبار السب والافحاش، ولكنه سلب الخلق، أو سلب النفس، أو فصل المرء عن مجموع الخلق الحي، الذى يؤلف قومية الجماعة، وتركه عضوا ميتا ، يتواصفون ازدراءه" . تاريخ آداب العرب . الرافعى - ج٨١/٣.

ومن هنا كادت تجف ينابيع الهجاء الجاهلي في ساحاتهم ، اللهم الا ما كان من الطرماح ، الذى سلك سبيل الجاهليين فى هجائه ومديحه . وهذا يؤيد ما ذهبت اليه ، من الشك فى خارجية هذا الشاعر .. اذ تلمس فى شعره الهجاء القبلي، فيضع من شأن تميم ، فهى ذليلة مسترقة ، تخضع لمن دونها ، سائر أيامها ، ثم يفخر بطيء وقحطان وإقدامهما .

فيقول :

بأي بلاد تطلب العز بعدما	بمولدها هانت تميم وذلت
أقرت تميم لابن*دحمة حكمه	وكانت اذا سيمت هوانا أقرت
وكانت تميم وسط قحطان اذ سمت	كمقذوفة فى اليم يوما فضلت
تميم بطرق اللؤم أهدى القطا	ولو سلكت سبل المكارم ضلت(١)

لون جديد فى فن الهجاء ، فهو لأعدائهم ، هجاء بالكفر والالحاد ، والبعد عن الاسلام . أما فيما بينهم ، فهو نقد لروح التخاذل ، والاخلاد الى الراحة والدنيا ونعيمها ، مع التذكير بالآخرة والشهادة .

كما أن أسلوب هذا الهجاء الوضوح ، وقلة الصنعة والتكلف ، لأن الهجاء وليد الفطنة ، وسر الخاطرة ، واللمحة الدالة ، وهذا يتجافى مع التقعر والتكلف ، وإطالة التفكير .

---

*) يزيد بن المهلب . ودحمة أمه .
١) ديوان الطرماح . ص. ١٣٩.

المديح :

كان من الطبيعي أن يخبو سنا هذا الغرض الشعرى ، فى ديوان الخوارج لأن قوامه التقرب من الممدوح ، والتزلف اليه ، رغبة أو رهبة . وقد جعله بعضهم بضاعة يستأكلون به الممدوح . ولما فيه من تزكية النفوس ، التى نهينا عنها .. "فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن أتقى."[1] ولا يخفى ما فى المديح من افراط،وتزيد، ومبالغة،وكذب .

ولذا نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن التمادح . فعن عبدالرحمن ابن أبى بكرة ، عن أبيه ، أن رجلا مدح رجلا عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال النبى عليه السلام : "ويحك قطعت عنق صاحبك" ثم قال : " ان كان أحدكم مادحا أخاه لا محالة ، فليقل : أحسب فلانا ، ولا أزكى على الله أحدا ، حسيبه الله ان يرى أنه كذلك "[2] . وعن الحكم : سمعت ميمون بن أبى شبيب أن رجلا جعل يثنى على عامل عند عثمان ، فجعل المقداد يحثى فى وجهه التراب، فقال له عثمان : ما شأنك ؟ قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " اذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب " .[3]

وعن معاوية ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . يقول : "اياكم والتمادح فانه الذبح" .[4]

---

١) سورة النجم ، الآية : ٣٢.

٢) صحيح البخارى . ج١٠/٣٩٧. فى الأدب ، باب ما يكره من التمادح ، وصحيح مسلم رقم ٣٠٠٠/٦٦. فى الزهد والرقائق . وصحيح ابن ماجة . ج٢/٣٠٨.
وشرح السنة للامام البغوى . ج١٣/١٥٠.

٣) صحيح مسلم رقم ٣٠٠٢/٦٩. وشرح السنة ، للامام البغوى . ج١٣/١٥٠.

٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة . رقم /٢٦٧١.

الى جانب نفسية الخارجي التى أحاطت بها توجيهات العقيدة ، فاذا كان الشعراء يلهثون وراء المترفين والسلاطين ، لنيل أعطياتهم ، فان الخوارج انصرفوا عن الدنيا وزهدوا فى متاعها وحطامها ، وبحثوا عن غالي أمنياتهم ، الشهادة فى سبيل الله، فترفع شعراؤهم عن الاسفاف الى التكسب،والارتزاق فى شعرهم ٠ ولذا لم يحفلوا بفن المديح ، بل ازدروا شعراءه ، لأنه فى نظرهم سبيل التملق والنفاق ٠ وهذا ما واجه به عمران بن حطان الفرزدق ، وهو ينشد مادحا :

أيها المادح العباد ليعطى ان لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم وارج فضل المقسم العواد
لا تقل فى الجواد ما ليس فيه وتسم البخيل باسم الجواد (١)

انها ثورة على النفاق،والتكسب من وراء الكلمة ، وتصحيح لمسيرة الشعراء ، شعراء المديح ، فالعباد وما بأيديهم من أموال ومتاع ، لله سبحانه وتعالى ٠ ولذا توجه اليه بحاجتك ، وليس الى العبيد الضعفاء ، فان للكلمة حرمة ، فلم تمتهنها وتذلها بالكذب والمبالغة والارتزاق ٠ فلا عظيم الا الله ، ولا من يخشى سخطه سواه سبحانه ٠

وهذا يبين لنا مكانة الصدق النفسى والفنى،التى ارتقى اليها شعراء الخوارج . فزوجة عمران بن حطان تعترض على زوجها ، عندما ظنت أنه تجاوز فى شعره نطاق الصدق ، فقد أورد المبرد : ان امرأة عمران بن حطان السدوسي ، قالت له : "أما حلفت أنك لا تكذب فى شعر ؟ فقال لها : أو كان ذاك ؟ قالت : نعم ،

---

١) شعر الخوارج ٠ ص/١٥٨٠ لقد التزم الشاعر ، وطلب من غيره الالتزام بقاعدة أصبحت من قواعد النقد العربى ، فى فن المديح ، وبخاصة عند حازم القرطاجنى ، الذى ألح عليها ، أن لا يجعل الشاعر المدح ، حلية لمن لا يستحقها ، ولا هو من بابه " ٠ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ٠ ص/١٧٠٠

قلت :

فكذاك مجزأة بن ثور* كان أشجع من أسامة

أيكون رجل أشجع من أسد ! فقال لها : ما رأيت أسدا فتح مدينة قط ، ومجزأة ابن ثور قد فتح مدينة " (١) .

وعلى قلة حظ هذا الغرض فى شعرهم ، فقد خلا شعرهم من المديح النمطي الا ما ندر ، وارتفعوا به الى ربى العقيدة ، حيث التقوى والصلاح ، والشجاعة والاقدام ، وان كانت فى غير ميدانها ، ولا تتمثل تلك الصفات ، فى زعمهم ، الا فى الانسان الخارجي ، الذى رفض مبدأ التقية ، وأشهر سيفه مدافعا عن مذهبه وعقيدته ، اذ دفعه ايمانه العميق الى النشاط فى العبادة ، العبادة بمعناها الشامل ، والجهاد أسمى . فلا عجب ان بقي مديح شعرائهم حبيس هاتين الخصلتين .. وهى حقيقة القيم التى يرفع من قدرها فى ميزان السماء ، ان صحت العقيدة ، وسلم الايمان . ولا سبيل لشاعر العقيدة ، الا فى هذا الميدان ، وقيمه ، فجاء مديحهم مخالفا مديح معاصريهم ، الذين تابعوا شعراء الجاهلية الى حد كبير ، غاية وأسلوبا .

فالغاية من مديح شعراء الخوارج ، ابراز الصفات الايمانية ، لرجال العقيدة ، من خلال الانسان الخارجي . فانظر كيف يبدي لنا الطرماح حياة الشراة فى هدأة السحر ، بعد عراك طويل فى النهار .

---

*) سدوسي ، شجاع فاتح صحابي ، الأولى أن يقدم صحابي ، جعل له عمر بن الخطاب رئاسة بني بكر بن وائل ، ولما أسن جعلها عثمان بن عفان لابنه "شفيق" . ومجزأة هو الذي فتح مدينة "تستر" ولفتحها حكاية طريفة . رضي الله عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين . الاعلام . ج٥/٢٧٩ .

١) الكامل . ج٢/٢٠٧ .

لله در الشراة انهـــم   اذا الكرى مال بالطلى أرقوا
يرجعون الحنين آونــة   وان علا بهم ساعة شهقـوا
خوفا تبيت القلوب واجفة   تكاد عنها الصدور تنغلــق
قوم شحاح على اعتقادهم   بالفوز مما يخاف قد وثقوا (١)

اني لألمح غاية اظهار الرمز ، ولو كانت هذه الأبيات لغير الطرماح، لقطعت بتلك الغاية العظيمة ، التى يمارسها اعلام المذاهب والعقائد ، وذلك باحاطة شخصياتهم ، بهالات، وأطياف العظمة، والعملقة ٠ والطرماح هنا كساهم جلابيب التقوى ، وسربلهم الايمان ٠

انه المديح ، ولكن ليس لاستمطار العطايا والهبات ، بل دعاية للمذهب الخارجي ، كما كان فخرهم يمارس هذا الدور ، فاذا كان الشراة أحلاس الليل ، عبادة وتبتلا، وبكاء ، فانهم فرسان الوغى ، يمضون الى ساحات المعارك ، وخواطر الشهادة والجنة تداعبهم ، فتفتر شفاههم عن ابتسامات الفرح والبشر ٠٠ والشجاعة القيمة المدحية الثانية ، فى ديوان الخوارج ، وهذا أحدهم يمدح عصبته :-

وهم الأسود لدى العرين بسالة   ومن الخشوع كأنهم أحبــار
يمضون قد كسروا الجفون الى الو   غى متبسمين وفيهم استبشار
فكأنما اعداؤهم أحبابهــم   فرحا اذا خطر القنا الخطار (٢)
يردون حومات الحمام وانها   تالله عند نفوسهم لصغـار

والشراة عندما يمدحون بهذه الصفات ، يرفعون المثل الخارجي ٠٠ الذى لا يرونه إلا حيث أمر الله تعالى ، في محاريب العبادة ، وميادين الجهاد ، يلهثون وراء الشهادة ، لقد استصغروا أنفسهم بجانبها ٠

---

١) شعر الخوارج ٠ ص/٢٣٨٠
٢) المصدر السابق ٠ ص/٢٣٣٠

انه لون آخر فى ساحة هذا الفن الشعري ، فقد صور شعراء الخوارج مثلهم العليا من خلال مديحهم ، وتعدادهم صفات الممدوحين من اخوانهم ، لأنهم لم يصطفوا المديح لكسب أو جاه ، وانما كان من أجل فكرة آمنوا بها ، وعقيدة التزموا سبيلها ، فانتزعوا قيم المديح من كنانة هذه العقيدة ٠ على قلته واختلاطه مع الأغراض الأخرى ٠

ولكن الغلو والشطط ، الذى اتخذوه منهجا فى حياتهم ، أرداهم فى الضلال والتخبط ٠ بل وأبعدهم عن الاستقامة ، ومواكبة توجهات العقيدة الاسلامية ، وتكفير رجالاتها ، من الرعيل الأول ، صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

فلا يستغرب بعد هذا ، أن يمتدحوا قاتل علي بن أبى طالب كرم الله وجهه ، عبدالرحمن ابن ملجم ، لا رحمه الله تعالى ٠٠ فهذا عمران بن حطان ، يمدح هذا الهالك ، مؤيدا به مذهبه المارق ، فيقول :

يا ضربة من تقي ما أردا بها	الا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
انى لأذكره حينا فأحسبه	أوفى البرية عند الله ميزانا
أكرم بقوم بطون الطير قبرهم	لم يخلطوا دينهم بغيا وعدوانا
لله در المرادى الذى سفكت	كفاه مهجة شر الخلق انسانا
أمسى عشية غشاه بضربته	مما جناه من الآثام عريانا
حتى متى لا نرى عدلا نعيش به	ولا نرى لدعاة الحق اعوانا (١)

أرأيت مثل هذا الضلال والعمى ، ويحسبون أنهم مهتدون ، ان هذا التالف أشقى خلق الله ، مع أحيمر ثمود ، على لسان المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، فقد روى الامام أحمد رحمه الله تعالى حديثا ، ٠٠٠ عن عمار بن ياسر رضى الله عنه

---

١) الأبيات هذه ، وردت متفرقة ، فى كتب التاريخ والأدب ٠٠ ذكرها الأستاذ احسان عباس ٠٠ فى كتابه "شعر الخوارج" ٠ ص/١٤٧ ٠ ٠ وأغلبها ورد فى خزانة الأدب للبغدادى ، ج٢/٤٣٦ ٠ وقد عارض أبيات عمران تلك ٠ عديد من الشعراء المسلمين ، نختار منهم ، القاضى أبا الطيب الطاهر بن عبدالله الشافعى يقول :

انى لأبرأ مما أنت قائله   عن ابن ملجم الملعون بهتانا =

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعلي حين ولي غزوة العشيرة : يا أبا تراب ، ألا احدثك بأشقى الناس رجلين ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك ، يا علي على هذه - يعني قرنه - حتى يبل هذه - يعني لحيته .. "(١)

بل ان واحدا من هؤلاء المارقين ، يخاطب هلال بن أحوز ، قائد الجيش الاسلامي في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، قائلا :

وانا معشر قتلوا عليا   وعباد بن أخضر في الضلال
وان بصيرتي لما تبدل   وان الدين دين أبي بلال (٢)

نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى .. ومن العمى بعد البصيرة .

ففي كل ما سبق من المديح ، ترى صورة الالتحام والصدام التي عاشها الخارجي ، مع عقيدته ، ومن أجلها ، حتى كأن الله سبحانه وتعالى خصهم بقصر الأعمار .. " ان الشراة قصيرة الأعمار " (٣).

= يا ضربة من شقي ما أراد بها   الا ليهدم للاسلام أركانا
اني لأذكره يوما فألعنه   دنيا ، وألعن عمرانا وحطانا
عليه ثم عليه الدهر متصلا   لعائن الله إسرارا واعلانا
فأنتما من كلاب النار جاء به   نص الشريعة برهانا وتبيانا

مروج الذهب . ج٢/ ٤٢٧.

١) أورده ابن كثير ، في البداية والنهاية . ج٦/٢١٨.
شعر الخوارج . ص/١٩٤. وقال ابن أبي عباس المرادي :
ونحن قتلنا ، يا لك الخير حيدرا   أبا حسن مأمومة فتفطرا . شعر الخوارج ص٣٥
٢) وصدره : " فثوى صريعا والرماح تنوشه " من أبيات : عبيدة بن هلال اليشكري.
شعر الخوارج . ص/٩٣.

لقد سار مديحهم ، مواكبا الفخر فى أشعارهم .. متسربلا الصدق ، مجافيا النفاق والكذب ، متجردا من التكسب وطلب النوال والرفد ، مستمدا نهجه من القيم القرآنية ، وان وجهت فى غير وجهتها .

فالمديح القديم تحول فى شعرهم ثناء بالشجاعة والتقوى على الجماعة الخارجية المثالية ، التى تحرص على الاستشهاد ، بدافع من روح التقوى المتطرفة ، واذا أخذنا نقرأ فى شعرهم ، فلن نجد ثناء بغير هاتين الصفتين " .

وقد خرج المديح ، عن هذا المسار ، الى سبل أخرى ، قصيرة ، فقد توجه الى بعض الرجال ، والقبائل التى سبق معروفها لأحدهم . فكان مديحهم بدافع الشكر ، والاقرار بالمعروف . فلما أكرم روح بن زنباع مثوى عمران بن حطان فى منزله ، أيام ملاحقته . قال يمدحه :

أكرم بروح بن زنباع وأسرته ... قوم دعا أوليهم للعلا داع
جاورتهم سنة فيما أسرّ به ... عرضى صحيح ونومي غير تهجاع (١)

وكذلك مدح قبيلة الأزد ، التى وجد فى مساكنها الاكرام ، والحفاوة . ومدحه لهم ، لا يتجاوز قول " من صنع اليكم معروفا فكافئوه .. " * فكان هذا المديح منه لهم :

نزلنا بقوم يجمع الله شملهم ... وليس لهم دعوى سوى المجد يعتصر
من الأزد ان الأزد أكرم معشر ... يمانية طابوا اذا نسب البشر (٢)

---

١) شعر الخوارج . ص/١٦٣.

*) جزء من حديث نبوى شريف ، ورد بروايات متعددة - صحيح الجامع الصغير وزيادته ج٥/٣١٨. وهناك حديث نبوى آخر ، عن أبى سعيد الخدرى ، "من لم يشكر الناس ، لم يشكر الله . سلسلة الأحاديث الصحيحة ، رقم ٤١٧. الألبانى .

٢) شعر الخوارج . ص/١٦٤.

انه مديح تقليدى ، لا يغادر القيم التقليدية للمديح ، من أصالة النسب ، وحماية الجار ، واكرام الضيف ·· فأين اختفت القيم القرآنية ، التقوى والبسالة ؟! تلك للخوارج ليس الا !!

ومع برودة هذا المديح ، فهو نادر فى شعره ، اذ قلما يرى الخارجي غيره أهلا لمديحه ·· واذا مدح فلا تجد الصدق والاجادة التى تلقاها فى مديحه للمثل الخارجى · مع أنهم فى أشعارهم هذه ، لم يعنوا بالتجويد ، وابتكار المعانى ، وانما جاءت -كعادتهم - عفوية بسيطة ، فلم تلن قناتهم للمديح ولا لانت قناة المديح لهم ·

وهناك بون شاسع بين من يتعامل مع الشعر باعتباره " طالب فضل " وبين من يتعامل معه باعتباره " صاحب رسالة " ·· وعندما يحاط بالشاعر ، يسعه الصمت ·· لأن الاسترفاد بالشعر نقيصة ومذلة ، واستهانة بالشعر والشعراء ··· لأن حصائد الألسنة ، ان لم تكن دعوة الى الخير ، أو تزيين فضيلة ، ·· أو ·· تكب صاحبها فى سخط الله ·· ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا أو ليصمت :

الغـــــزل :-

لقد ظل حب الجمال ، والتقرب من المرأة ، والتغزل بها ، لدى شعـــراء العصر الجاهلى ، وبعض شعراء العصر الأموى ، نجوى الأرواح ، وحديث القلـــوب . فقد استهل به الجاهليون من الشعراء قصائدهم . حيث يبوح الشاعر بحبه ، وحزنـه لفراق حبيبته .. وعندما ينتقل الى معشوقته ، يشبب بها ، فيصورها تصويـــرا حسيا - كأبدع ما تكون محاسن الغواني - كما يصور ناقته وراحلته ، وقد يطـرق السبيل الأخرى ، التى انتهت الى ما يعرف بمدرسة " الغزل العذري " . فيعبـــر عن أحاسيسه وصبابته ، ومرارة الألم من الحرمان النفسي ، الذى مني به ، فالدهر لــم يوافقه ، وأقام بينه وبين محبوبته فيافي واسعة . فعانى من نيران الوجد ، وفرط الجوى ، وطول النوى ما عانى . فشكى وأنّ ، وأرسل نفثات شجونه ، أغانـــى وألحانا .

هذا حداء السرب ، فى رحلة الغزل .. ولكن لشعراء الخوارج شأن آخـــر . فقد طغى الجد الصارم على حياتهم ، وولى عهد الهزل والعبث . أو لا مكـــان له فى حياة الخارجي ، الذى نذر نفسه جنديا فى سبيل عقيدته ومذهبه . فباتـت عواطفه وأحاسيسه ، تحلق مع جماعته ، التى اندفعت لتحقيق مبادئها فى عالـم الواقع ، ولتبدع حياة وفق تصورها ، وكما يحلو لها .

واذا عثرنا على أبيات غزلية ، فى ديوان الخوارج ، فهو قليل ، بل نادر . وانما هو بالزوجة - لا بالعشيقة - الزوجة التى تقف الى جانبه ، فى جهاده وبلائه فـى أرض المعركة .. وما حديث أم حكيم عنا ببعيد . والنفس البشرية متعلقة بالأحبـة ،

إلفة وذكرى • والشاعر الخارجي ، يتذكر زوجه ، ولكن لا ليبثها لواعجه ، بل ليحدثها عن مواقف البطولة والرجولة * ، التى أبداها وكابدها ضمن العصبة الخارجية وما لاقاه من أهوال المعركة ٠٠ أهي حركات تحمية ، تزيد من اندفاعته فى صفوف اعدائه ؟ فحرارة شوقه ، تعانق حرارة عقيدته ، لتلهب فى نفسه جذوة الفروسية ، والشجاعة ٠٠ فأشواقه وغزله معبر الى أتون المعركة ، حيث الدماء ، والأشلاء ، والشهادة ٠

ولا نود أن نكرر ما ذكرناه عن موقف شعراء الخوارج من هذا الغرض الشعري ، فالذى شغلته عقيدته ، ومطالبها ، لا يفرغ لمثل هذه الفنون ، الا أن تكون رافدا يصب فى مجرى العقيدة ، أو سلاحا مطواعا بيد الخارجي فى معاركه ٠

ففارس الخوارج قطري بن الفجاءة ، ندّ عن لسانه نسيب وغزل ، زاد من جمال شعره وقوته ، اذ لابس شعر الحماسة ، وانطلق معه ، فتحول على يديه وسيلة فنية لتصوير موقفه ، وأداء قناعته وتصوراته • فاسمعه يقول :

لعمرك انى فى الحياة لزاهد ... وفى العيش ما لم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها ... شفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك انى يوم ألطم وجهها ... على نائبات الدهر جدّ لئيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم (١)

---

*) وعرف هذا اللون من الغزل عند الشعراء الجاهليين كعنترة ، الذى كان الغزل لديه أميما ينسق فيه أضوحة الحديث عن شجاعته ، وفروسيته ، كي تطمئن صاحبته اليه ، وتزداد تعلقا به ، اذ كان خيالها وراءه فى حومة الوغى ٠

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ... ان كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الوقيعة أننى ... أغشى الوغى واعف عند المغنم

شرح المعلقات ٠ ص/٢٠٠ ٠

١) شعر الخوارج ٠ ص/١٠٦ ٠

أرأيت كيف ينفض يديه من الغزل ، متلمسا سلاحه ، مستجيبا لداعي الجهاد ، فمضى سابحا في غمرات الموت .. هكذا يتحول الغزل من سبحات عاطفية ، وذكريات زائرة ، الى ثورة عاصفة ، ارتفعت فيها الأسلحة وتشاجرت ، وهدر شلال الدماء، ودارت رحى المعركة لتطحن الأشلاء ..

فكيف يروق الغزل لشاعر ، أحاطت به تكاليف عقيدته ومذهبه ، وجمع الناس لاخوانه، ورموهم عن قوس واحدة .. وأين سيكون حديث النساء وذكراهنّ ؟ والى جانب أية جثة سقطت بقصمة رمح،أو بضربة سيف ؟ أيتغزل فوق الأشلاء الدامية ، ويذرف عبرات الفراق على مصارع القوم ؟! أم يدفعه ذاك الى وقفة صادقة مع اخوانه الشراة ؟ الجواب على لسان زياد الأعسم* ، وهو يرثي داود* بن النعمان العبدى :

تعاتبني عرسي على أن أطيعها	وقبل سليمى ما عصيت الغوانيا
فكفي سليمى واتركي اللوم إنني	أرى فتنة صماء تبدى المخازيا
فكيف قعودي والشراة كما أرى	عزين يلاقون البلايا الدواهيا (١)

---

*) من بني عمر بن عوف بن عمر بن عبد القيس . وقيل مولى لهم . كان يرى رأي الأزارقة ، وكان يبيع بسوق الزبادى .. وخرج في جماعة فقتلوا ،أيام الوليد ابن عبدالملك

*) كان عابدا مجتهدا ، وكان يقول لأصحابه : إني مللت الدنيا والمقام في دار الكفر مع الظلمة الكفرة . ثم حج، وتوجه في أربعين من أصحابه الى البصرة ، وكان أبوه غنيا ، فحاول أن يثنيه عن ذلك، فأبى . وفي سنة ٨٦ هـ خرج الى موقوع - ماء بناحية البصرة - فتوجه اليه جيش ، فقاتل هو وأصحابه ، حتى قتلوا . وبقي هو وحده ، فألجأوه الى حائط ، ثم رموه بالنبل ، وطعنه رجل ، وقال : ذق بما قدمت يداك . فقال ويحك حر النار أشد من هذا ومات .

شعر الخوارج . ص/١٩٠.

١) شعر الخوارج . ص/١٩٠.

ولقد أصاب الدكتور البهبيتي فيما ذهب اليه في قوله : ان الحب وسيلة من وسائل التعبير التصويرية ، عن مختلف الانفعالات البشرية في الشرق منذ القدم، ولا يزال كذلك الى اليوم ... وهو كذلك لا يقصد له الشاعر لموضوعه ، وانما يقصد الى غير ذلك ، مما يهم الشاعر أمره ، ويأخذ عليه نفسه . ومن هنا يأخذ ذلك الاستفتاح الغزلي للقصيدة الجو الذي يعيش فيه الشاعر ، والذي يملي عليه شعره .. ".(١)

ومن هذا المنطلق ، تبرز تلك المقدمات الغزلية النادرة في شعر الخوارج . إذ نهج شعر الخوارج سبيلا جديدا في قصائدهم ، فقد خلت من تلك المقدمات ، واتخذت شكل المقطوعة .

فتلك المقدمات - ان وجدت - انتهت على يد الشاعر الخارجي الى الفخر بالجهاد ، والحرص على الاستشهاد ، ورثاء الأبطال الذين حفوا بالاصطفاء والاختيار. فسربلت تلك المقدمات بالتطلعات الخارجية ، مع بقاء نغمة الحماسة ، مدّاحة في أجواء القصائد ، مهما تباينت أغراضها ومعانيها .

واننا نجد في الغزل الخارجي حبا تحوطه العفة ، وتحرسه التقوى ، وينأى عن وصف محاسن النساء . لقد اتخذت المرأة في الشعر الخارجي" وضعا جديدا، يختلف اختلافا تاما عن وضعها في الشعر التقليدى حينذاك ، فهي ليست موضوعا للغزل العاطفي ، الذى يبث فيه الشاعر أشواقه وحرمانه ، بل هي رفيقة سلاح أو كفاح. تخوض معه المعارك أحيانا ، وتبلي بلاء ، لا يكاد يقل عن بلاء الرجال" فاذا ذكر الشاعر الخارجي امرأته في مطلع قصيدته، أو مقطوعته ، لا يلبث أن يقرن بين حبه إياها ، وحبه الشهادة في سبيل الايمان والمبدأ ، لا إدلالا بفروسيته

---

(١) تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث . ص/ ٩٩ - ١٠٠ .

المفردة على طريقة الشعراء الجاهليين ، فى هذا المقام ، ولكن تصويرا لوجه آخر من الحب ، ينصرف فيه الخارجي، ورفاقه عن أهواء الدنيا ومتع النفس"[١].

وهكذا تحول الغزل مع غيره من الأغراض الشعرية ، على يد الخوارج الى فنون سياسية ، توائم مذهبهم ، وتلتزم بتوجهاته وتطلعاته ، وتحركاته ، حتى تجسد التلازم الكامل بين الفن والعقيدة فى أشعارهم • وقد صدرت أشعارهم تلك ، عن نفوسهم المفعمة بالايمان ، كما يصدر الماء عن النبع ، وتخلصوا من قداسة المثال الجاهلي فى الشعر •

وفصل الخطاب فى شعر الخوارج " أنه صورة ثورة غالية العناد ، جامحة القياد ، تستبيح دم من لا يؤمن بها • وكانت تتخذ السلاح سبيلا الى نشرها كثورات الأقوام ، وفتنها العارمة "[٢] •

---

١) فى الشعر الاسلامى والأموى • د/ القط • ص/٣٧٩•

٢) شعر الحرب • د• المحاسنى • ص/٧٣•

الناحيــة الفنيــة

أ- بنـاء القصيدة الخارجية:-

لقد ساعد شعراء صدر الاسلام فى اقامة الحياة الأدبية على دعائم جديـدة . ولكن الزمن لم يمهل هؤلاء الشعراء ، ولا الأجيال التالية ، أن يكملوا البنـاء . فاستدار لهم،قبل أن ينتهوا من عملهم ذاك ، لتسارع الأحداث واضطراب الفتـن والأهواء ، التى حملت معها ألوانا من التوجهات متعددة ، تعدد الأهـواء والآراء التى تحملها النفوس .

فتراخت حركة البناء ، التى تعهدها شعراء الصدر الأول ، تحت مظلة الظروف الوليدة ، اذ ارتطمت أقدامها،وتقدمها بفتن ظالمة مظلمة ، وظهرت عناصـر جديدة من الشعراء ، تطلع بعضهم الى الموروث الجاهلى ، وهو رصيد عظيم قائـم بذاته ، والبناء الأول لم يكتمل ، ولم يعمق مجراه فى أرض الواقع لقصر عمـره .

فلقد تجمع فى نهر الحياة الأموية مياه غزيرة دافقة ، ذات ألوان مختلفـة ، وطعوم شتى ، وتهيأ للشعر الأموى قدر كبير من أسباب الحياة،والنمو، والتمايـز ، وقادت الحياة خطا الشعراء الى مفارق الطرق ، فوجدوا أنفسهم أمام ثلاثة مفـارق متعددة ، أو ثلاث سبل فنية متميزة .

السبيل الأول : أن يؤسسوا شعرا جديدا، يعبر عن حياتهم الجديدة ،فى شتى أنحائهـا ، ويسهروا على رعايته، وتجويده ،وتأصيله .

السبيل الثانيـة : أن يحتضنوا الشعر الاسلامي ، الذى أرسى أسسه شعراء صدر الاسلام، ثم ينهضوا به ، ويؤصلوه ، ويوجهوه للتعبير عنهم .

السبيل الثالثة : أن يستعبروا للتعبير عن حياتهم نمطا شعريا مؤسسا ومؤصلا ، وهو القصيدة العربية ، التى أسسها شعراء الجاهلية وأصلوها . فتجددت تقاليدها وتوطدت ، واكتملت ملامحها ، واستقرت صورتها ، وظلوا ينقحونها ، ويصقلونها ، ويعقدون فيها ، حتى أصبحت طائفة من القيود الفنية الثقيلة ، وحتى لم يعد فيها - فى صورتها الأخيرة - مجال لغير التفريع والتدقيق والتعقيد .

ولم يلبث الشعراء أن تفرقوا فى هذه السبل جميعا . فمضى شعراء الحجاز على رأس فريق من الشعراء ، فى السبيل الأولى ، ففتحوا صفحة جديدة فى ديوان الشعر العربى ، وسلكت طائفة أخرى،يتقدمها أكثر شعراء الخوارج ، وبعض شعراء الشيعة ، السبيل الثانية،فاحتضنت الشعر الاسلامي اليافع ، وراحت ترعاه وتؤصله . وذهب جمهور عريض من الشعراء ، تدفعه ظروف شتى فى السبيل الثالثة . فاستعار القصيدة الجاهلية بصورتها الدقيقة الكاملة ، التى استقرت عليها فى آواخر العصر ".[1]

وبما أن القصيدة الجاهلية وبناءها . هى الأصل فى تلك السبيل ، فلابد من التعرف عليها ، فكيف كان بناء القصيدة الجاهلية تلك ؟

لقد كان شعراء العرب فى الجاهلية ، فى أكثر حالاتهم ،لا يهجمون على أغراضهم، بل يمهدون لها ، وكانت غالبيتهم تبدأ بالوقوف على الأطلال أو الديار ، كما يظهر هذا جليا فى مطلع قصائد المعلقات . فكان الشاعر الجاهلى - لأنه من قوم ألفوا الرحلات والأسفار والانتقال ، من دار الى دار - يتخيل أنه - فى رحلته الى الممدوح وغيره - رأى رسوم منازل الأحباب ، بعد نزوحهم عنها ، فتهيج أشواقه وتثير

---

١) قصيدة المدح د/ وهب رومية . ص/٣٠٣- ٣٠٤.

أطلالها بقايا ذكرى الحب في نفسه ، فيقف على الآثار باكيا ومسلما ، ومسائلا ، ثم يصف ما حظي به في عهد الصبا والشباب ، من لهو ومتاع ، ثم ينتهي من هذا النسيب الى غرضه من مدح أو فخر أو غيرها ، وقد التزم التمهيد للمديح - أو كاد - عند شعراء الجاهلية ، فكانوا في وقوفهم على الديار يصفون الأطلال ويصفون الرحيل ، ويتشوقون بلمع البروق ، ومر النسيم ، ولا يعدون في وصف النساء اذا تغزلوا ونسبوا ، كما كان يذكر الشاعر منهم ما قطع من مفاوز ، وما أجهد من ركائب ، وما تجشم من هول الليل وسحره ، وأكثروا من ذكر الابل ووصفها ، لأنها دوابهم الصبورة على السير "(١)

هذا البناء التقليدي الموروث ، للقصيدة الجاهلية . غدا نمطا ومثالا يحتذيه أكثر الشعراء ، ويعاب الخروج عليه ، من أنصار القديم ، لأنه من الرواسم الشعرية ، التي يجب الحرص عليها في بناء قصائدهم . وهذا ما ألح عليه كثير من النقاد القدماء .. فيقول ابن قتيبة : " فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب .. وليس لمتأخر الشعراء ، أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، أو يبكي عند مشيد البنيان . لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر ، والرسم العافي ، أو يرحل على حمار ، أو بغل ، ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة ، والبعير ، أو يرد على المياه العذاب الجواري . لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي ، أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس والورد ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة "(٢)

---

١) النقد الأدبي الحديث . د/ محمد غنيمي هلال . ص/١٨٤ - ١٨٥.
٢) الشعر والشعراء . ج١/ ٧٤ - ٧٦.

ولكن ما رأي شعراء الخوارج في هذه النظرة القاصرة ؟ وما السبيل التي سلكوهـا في قصائدهم ؟ .

يسير على من أعلن الثورة على المجتمع ،وكثير من قناعاته، وتصوراته ، بعـد أن رآها - من خلف الهوى - قد جانبت طريق الحق والاستقامة . وجنحت نحو الضلال والالحاد ، أن يثور على المثال الجاهلي أنى وجد . ويرابط على ثغور عودتـه . حتى ولو كان في الشعر ، الذي جعله شعراء الخوارج وقفا على العقيدة، ومتطلباتهـا، والدفاع عنها ، فكانت حركتهم الشعرية ، في غالبيتها متأثرة كل التأثر بالاسـلام وتعاليمه .

الى جانب حياتهم المضطربة ، التي تذكرك بحياة الرسول صلى الله عليـه وشعرائه ، مع تفاوت في الساحات والتوجهات ، ولو ادعى هؤلاء غير ذلك . هـذه الحياة لم تمكن الشعراء أن يطيلوا قصائدهم،التي تستنـزف موجة العاطفة الملتهبة في حناياهم ، وانما هي نفثات لاهث مضطرب ملاحق ، لايجد وقتا للتروي والتحكيك والتطويل ، فجاءت أغلب قصائدهم مجافية النمط الجاهلي ، ملتزمة شكل القصائـد القصار ،أو المقطعات ، حتى الأبيات وقد تكون يتيمـة،وليدة الارتجال ، واحتـدام العواطف والمشاعر . فأيامهم العاتية ، كانت مفعمة بالاحداث المريرة ، التي فجرت في ذواتهم عيونا ، ولكنها كانت تغيض أحيانا من شدة المعارك ، وتحت قعص الرماح، مع أن بعضها قد اتخذ مسالك جديدة،تجرى فيها تلك الفنون الشعرية ، رغم صرامـة الواقع وقسوة التجربة ، وعظم الهدف المواكب لتألق العقيدة في نفوسهم .

فالشاعر الخارجي ، تخلص الى حد كبير من ربقة المثال الجاهلي في بنـاء القصيدة ، فلم يسلك مسلك القدامى في النظم ،وانما كان يباشر الغرض بـلا مقدمـة ، ويدخل الموضوع ، بلا تمهيد ، ويتصل بغرضه ، دون افتتاح ، فهو لا يملك الوقت ، الذي

يفتش فيه غن المقدمة، وهو غير مضطر لتلك المقدمة ، بعد أن أسقط من مذهبه كل ما لا يتفق مع تطلعاته، وحرص عليه الآخرون من الشعراء . فهو صاحب حق، وحامل رسالة ، ووصي دين ، فلا يسعه الا مباشرة الحديث بدون استئذان .

كما أن لجدة الشعر ، والأغراض التى طرقها شعراء الخوارج أثرا كبيرا فى تنكبه طريق القدماء ، فى الديباجة الغزلية .. وتعدد الأغراض الشعرية فى القصيدة الواحدة .

واذا وجد فى القصيدة الخارجية ، ما يمكن أن نطلق عليه مقدمة ، أو ديباجة تقليدية[١] . فقد تسربلت بما يلائم الغرض المطروق، والهدف المنشود .. كما حدث فى قصيدة قطري بن الفجاءة . وقصيدة عمرو بن الحصين ، وكما ذكر الأستاذ أحمد الشايب : " فالنسيب ينتهى الى الفخر بالجهاد ، وحزن عمرو بن الحصين فى مطلع قصيدته حوار ينتهى الى حرصه على الاستشهاد ، والأسف ألا يموت كأصحابه الشراة "[٢].

وتلك البدايات أو المقدمات - فى اعتقادي - وان لم تكن مقصودة لذاتها ، فقد حققت ما اشترطه كثير من النقاد ، فى المقدمات الحسنة ، التى توائم موضوع القصيدة .

وما اهمال تلك المقدمات التقليدية ، من شعراء الخوارج ، وعدم اقامة وزن لها، الا زهد فى هذا التراث الجاهلى ، مع ضيق الوقت، وحراجة الموقف، وحرارة الانفعال

---

١) وقد نجد بعض المطالع التقليدية - ولكنها محدودة - التى تعكس صورة المقدمات الطللية : كما فى قول العيزار الطائى :- ألا حي رسم الدار أصبح باليا وحي وان شاب القذال الغوانيا ما هى بقية القصيدة ؟ ذاك فى ذمة التاريخ . شعراء الخوارج . ص/٣٣ .
ولا ننسى قصائد الطرماح ذات النهج الجاهلى بناء ومجرى .

٢) تاريخ الشعر السياسي . ص/٢٠٩

كل ذلك أبعدهم عن الرواسم الجاهلية في القصيدة . فجاءت تلك الزفرات المتواثبة اللاهثة ، الملتزمة بقضايا العقيدة ، بعيدة عن كل تلك الرتوش التي تزين القصيدة . كما أن حياتهم كانت مجافية لكل ألوان الزينة،والتطرية ، لأن الشأن لديهم أعجل من الالتفات الى تلك المشاغل ، ولذا أضحى غياب المقدمات تلك عن أشعارهم ظاهرة عامة ، وما لاح منها في صدر القصائد،ومطالعها ، لا يعدو الابتسامات التي تعلو وجه المجاهد ، اذا مضى شهيدا .

ولو عدنا الى ديوان أشعار الخوارج - على قلتها ، ولأسباب سبقت - نجد أن القصائد أقل حظا من غيرها ، اذ لم تتجاوز العشرين ، وأطولهن قصيدة عمرو ابن الحصين - التي تند عن التاريخ الذي جعلناه ميدان دراستنا - وتكاد لا تختلف عن القصائد الأخرى ، الا بطول النفس ، والالحاح والتكرار على معان متقاربة ، فقد بلغت ستة وخمسين بيتا .. ولا أرى مانعا من استعراض بنائها ، استكمالا لهذه الدراسة .. وتوثيقا للأحكام التي أصدرناها على شعر هذه الفرقة .

فقد قال عمرو بن الحصين قصيدته في رثاء أبي حمزة الخارجي،وغيره من الشراة . وقد عدها الأستاذ احسان عباس " من مختار شعر العرب "[(١)] .

ومطلعها :-

هبت قبيل تبلج الفجر[(٢)] هند تقول ودمعها يجري

---

١) شعر الخوارج . ص/٢٢٣ .

٢) ولساعات السحر ، والهزيع الأخير من الليل ، مكانة في نفس الخارجي .. يقول عبيدة بن هلال اليشكري :

الليل فيه للشراة نيل
والليل للغواة ويل

شعر الخوارج . ص/٩٤ .

اذ أبصرت عيني وأدمعهـــا	ينهل واكفها على النحــر
أني اعتراك وكنت عهـــدي لا	سرب الدموع وكنت ذا صبــر
أقذى بعينك ما يفارقهـــا	أم عائر ، أم مالها تـــذري
أم ذكر اخوان فجعت بهـــم	سلكوا سبيلهم على قـــدر

الأبيات الأربعة : هي مقدمة هذه القصيدة ، وإن كانت على صورة جديدة من المقدمات ، إن وجدت في صدر القصائد الخارجية ، وما أندرها .. اذ أن معظمها جاء بـــلا مقدمات ، تحاكي بناء المقطوعة ، مع اطالة بسيطة فيها .

فالمقدمة في رائية عمرو بن الحصين هذه ، ليست تقليدية ، يبكي الشاعر فيهـــا أطلال حبيبته ، وهو يدور ولهانا في مدارج لهوه وصباه ، وانما هي زفرات ودمـــوع نازفة .. فقد هبت هند حبيبته أو زوجته على الأغلب . لا لتختلس من الزمـــان لحظات،تبر بوعدها لحبيبها ، ليتناغيا ويبثا لواعجهما لبعضهما . وقد أخـــذت السنة أهلها ، لا .. لقد أيقظها في تلك الساعة المبكرة ، النيران المضطرمـــة في صدرها ، والتي أذابت ما في قلبها،وقلب زوجها،فتدفق ذوبه دموعا مـــدرارة . تطفىء أو تخفف حرارة وجدها ، واستعمال الشاعر لكلمة " هبوا " تعبير عن خطـــر داهم ، وشر زاحم ، ومصيبة عظيمة .. وكيف ينام الخارجي وهو مشفق على نفسه مـــن عذاب الله عز وجل ، ان قصر،أو تخاذل في نصرة دينه ، وتأخر عن المعركة التـــي قضى اخوانه نحبهم فيها ، ومشفق على نفسه من ملاحقة البغاة الظلمة له .. وفـــي كلتا الحالتين ما يمنع الرقاد .. ويجافي الجنب عن المضجع .

والخارجية هذه ، مع بكائها ، تعجب من بكاء الشاعر ، لأن عهدها بالشراة بعامـــة وبزوجها بخاصة ، أنه جلد صابر محتسب ، فلم تره باكيا دامعا . فتتوجه اليه سائلة ، متعجبة ! ما أصابك ؟!

واسمع هذا الحوار الحزين ، ماذا دهاك ؟! وماذا نزل بك ؟! فان بكاءك شيء عهدي به جديد ، فما عرفتك إلا عزيز الدموع ، صامد القلب · متجلدا في المواقف القاهرة ·· والصبر عدة المؤمن ·· وكنت كذلك !

أوقعت قذاة في عينيك ، فأسالت دموعها ، أم ألم بها عائر ، فاستنزف دموعها ، أم أن هناك سببا آخر ؟! الأسئلة هذه، وتعدد الاحتمالات ، اشارة صارخة الى أن الخارجي صاحب صبر وتجلد ، قلّ أن يرى باكيا ·· لأن البكاء لا يكون الا من خشية الله ، أو من فوات الشهادة · والدنيا التي يبكيها الناس لا وزن لها في ميزانهم · والموت كأس دائرة ، ولن يخلد الا قيوم السموات والأرض، ولكن العين تدمع والقلب يحزن ، وقد عظمت الرزية في أبي حمزة ؟ فهو منارة من منارات الشراة، وعلم من أعلامهم · وفارس من فرسانهم ، وما معركة " قديد " بغائبة عن الأذهان (١)

---

١) هو المختار بن عوف بن سليمان بن مالك الأزدي السّليمي البصري ، أبو حمزة ، ثائر فتاك ، من الخطباء القادة ، ولد بالبصرة ، وأخذ بمذهب الاباضية ، وكان في كل سنة ، يوافي مكة ، ويدعو الناس الى الخروج على "مروان بن محمد " · ولم يزل على ذلك الى أن التقى بطالب الحق عبدالله بن يحيى ، سنة ١٢٨هـ · فذهب معه الى حضرموت ، وبايعه بالخلافة ، ويقول الشماخي : ان "أبا عبيدة التميمي" أرسل أبا حمزة ، وبلج بن عقبة ، نجدة لطالب الحق · وتوجه أبو حمزه من اليمن يريد الشام ، لقتال "مروان" فمر بمكة ، فاستولى عليها ، وتبعه جمع من أهلها ومرّ بالمدينة ، فقاتله أهلها في " قديد " فقتل منه نحو سبعمائة ، ثم دخل المدينة ، وهرب نائبها عبدالواحد بن سليمان ، فقتل الخارجي من أهلها كثيرا · ثم خطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوبخ أهل المدينة · ومما قال في خطبته: " يا أهل المدينة ، بلغني أنكم تنتقصون أصحابي ، قلتم : شباب أحداث ، وأعراب جفاة أجلاف ، ويحكم ! فهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا شبابا أحداثا · شبابا والله مكتهلون في شبابهم ، غضّة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن السعي في الباطل أقدامهم ·· قد باعوا الله أنفسا تموت بأنفس لا تموت ، قد خالطوا كلالهم بكلالهم ، وقيام ليلهم بصيام نهارهم ، منحنية أصلابهم على أجزاء من القرآن ، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفا من النار ، واذا مروا بآية شوق شهقوا شوقا الى الجنة ، فلما نظروا الى السيوف قد انتضيت ، والى الرماح قد شرعت ، والى السهام قد فوقت ، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت ، استخفوا والله وعيد الكتيبة لوعيد الله في القرآن ·· فكم من عين في مناقير الطير، طال ما فاضت في جوف الليل من خشية الله، وطالما بكت خالية من خوف الله "
ووجه مروان جيشا له بقيادة عبدالملك بن محمد السعدي ·· انتهت المعركة بقتله · الاعلام·ج٧ ص/١٩٢· وانظر البداية والنهاية : ج١٠/٣٥ـ ٣٦·

هذه المقدمة الرائعة ، لا يقل حسن التخلص الى غرضه الأصيل عنها روعة وجمالا ، فقد انسل الى موضوعه ، وبدت القصيدة نسيجا متكاملا ، لا فواصل بين اجزائها ، فقد انتقل الى حديثه عن الشراة ، وجهادهم ، وشجاعتهم ، واستقامتهم على الهدى ، تبتلا وقياما وقتالا ، مع زهدهم في الدنيا ، لقد شغلتهم عقيدتهم عن كل شيء ، حتى عن أنفسهم ، وبعد ذا ، لنا أن نتساءل : أهذه مقدمة تقليدية ؟ أم انها اختلاجات صدر حزين ، اضطرمت عواطفه ، فأذابت دموعه ، فكان من معدن القصيدة ، والشيء من معدنه لا يستغرب .

ولن تكون القصيدة الأخرى ، قصيدة قطري بن الفجاءة ، التي استهلت بمقدمة ، من غير هذه السبيل ، التي عمق مجراها شعراء الخوارج ، حتى تخلصوا من تلك المقدمات تماما .

يقول قطرى :

لعمرك اني فى الحياة لزاهد	وفى العيش ما لم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها	شفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك اني يوم ألطم وجهها	على نائبات الدهر جدّ لئيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت	طعان فتى في الحرب غير ذميم (١)

من النظرة الأولى ، نستطيع أن نقول : ان المقدمة الغزلية ، قد استهلت القصيدة . ولكن حتى هذه الأبيات الثلاثة ، التي شغلت ساحة المقدمة ، لا تمت الى المقدمات التقليدية بأكثر من ذكر الزوجة لا الحبيبة ، ولا ليبثها لواعجه وأشواقه ، تحت ظلال الحدائق ، وبجانب المياه المترقرقة في الجداول ، وزقزقات العصافير الحالمة ، أو ليندب حظه فوق الدمن والأطلال ، التي عفا عليها الزمن ، وتناوشتها الرياح . وانما هي اشادة برفيقة الدرب والكفاح ، التي شاطرت الخارجي مرارته ، وبلاءه في

---

١) شعر الخوارج . ص/١٠٦ .

المعارك ، وملاحقة الظلمة له . والارتماء فى مظانّ الشهادة .. فهي بجانبه ، تتحرف لزمرة باغية ، أو تتحيز الى ثغرة جديدة .. ولكن هيهات أن يحلو الحديث للخارجي عن النساء ، وجمالهن،وعفتهن ، والسيوف والرماح تشتجر فوق رأسه ، تعزف أغنية الموت،على دفقات الدماء ،وهي تشخب من الأشلاء .. حتى ولو كانت تلك المرأة زوجة .

فسرعان ما ينفض يده من ذاك الحديث ، ليندفع وراء خصومه،قتلا وقصعا وبترا .

هذه المقدمة أشبه ما تكون بالفخر ، الذى انعطف الى أرض المعركة،لينقلنا اليها . فذكره زوجه ، فى مطلع قصيدته ، مقرون مع حبه للشهادة فى سبيل الله تعالى . وهذا وجه آخر من وجوه الحب والعشق .. الذى انقلب على يد الشاعر الى فن يلائم تطلعات الخارجي وتصوراته .

فالمقدمة التقليدية ، ان وجدت - ونادر ذلك - استحالت الى لون آخر جديد ، يختلف عما عهدناه ، انها صورة تلائم هذا المذهب،الذى قام على الجهاد ، والعراك . وتتساوق مع الغرض الذى يجول فى ذهن الشاعر .. ويسبح على حصانه فى غمرات الموت .. فأخرج الغرض فى معرض النسيب .

وبعد هذه المقدمة الجديدة السريعة ، ينتقل الى موضوعه عبر رباط علقة ومناسبة .فهو يتوسل الى ذلك ، بحرف من حروف العطف ، وأداة من أدوات الشرط "لو" ليحقق التواصل والترابط بين المقدمة والغرض .. فجاء الرباط محكما ، محققا الانسجام والالتحام - من غير مفاصل وحدود -

ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت طعان فتى فى الحرب غير ذميم

وفوق ذاك الانسجام بين المقدمة والقصيدة ، حققت هذه المقدمة ،حسن الافتتاح وجمال المطلع .. لتناغمه مع الغرض الأصيل .. فغابت من قصائد الخوارج أدوات الربط

والانتقال التقليدية بين المقدمة والأغراض الأخرى ، فى القصيدة • ولم يتوكأ عليها "دع ذا ، عد عن ذا ، ذر ذا ••••" بعد أن أصبحت تقليدا فنيا لدى كثير من الشعراء وهم يدلفون الى غرض جديد •

وبذلك أحسن شعراء الخوارج التخلص (١) ، ودقة الربط بين المقدمة والغرض ، ولم يترسموا فى ذلك خطا القدامى ، فجاءت سبيلهم جديدة موفقة •

أما اللون الآخر ، من شعر الخوارج ، وهو القسم الأعظم "المقطعات" التى عرفها شعرنا العربى ، ومهما تباينت أقوال النقاد والدارسيين ، في حدود المقطعة ، وعدد أبياتها ، فهى لا تزيد على العشرة أبيات ، ولا تقل عن ذلك بكثير •• وهى مجموعة من الأبيات الشعرية ، التى انسابت على شيء من التلاؤم ، يعبر الشاعر فيها عن فكرة عابرة ، أو حدث عارض ، لأداء مهمة عاجلة ••

والذى أغرى شعراء الخوارج بهذا اللون من البناء الشعرى ، وقادهم الى الحرص عليه ، حتى لا يكاد أحدهم يخرج عنه - الظروف التى عاشتها هذه الجماعة ، من مطاردة وملاحقة وتنكيل ، دفعتهم الى الارتجال الذى لا يحتمل الاطالة • فالشاعر واخوانه من الخوارج ، التزموا ساحة المعارك التزامهم بعقيدتهم ومذهبهم • فقد شغلتهم الحروب والدروب عن اطالة الأبيات وتنقيحها • حيث كان الشعر عندهم ، اختلاجة

---

١) التخلص : هو أن يأخذ مؤلف الكلام ، فى معنى من المعانى ، فبينما هو فيه ، اذ أخذ فى معنى آخر غيره ، وجعل الأول سببا اليه • فيكون بعضه آخذا برقاب بعض ، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر • بل يكون جميع كلامه ، كأنما أفرغ افراغا وذلك مما يدل على حذق الشاعر ، وقوة تصرفه ، من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه ويكون متبعا للوزن وللقافية ، فلا تواتيه الألفاظ على حسب ارادته •
المثل السائر • ج٣/١٤٧ • د/ الحوفى الحوفى وطبانة • والاقتضاب خلافه •

نفسية ، ولحظة شعورية مواره فى خاطره ، تدفعه الى القول فى المواقف الطارئة ٠ ولذا ألفينا نتاجهم فى غالبيته التزم بالقصر • فلم تند سوى قصائد قليلة ونادرة عن نظام المقطعات • كما أن الموضوعات التى طرقها شعراؤهم ، لم تفلت من الحديث عن العقيدة،ورجالها،والجهاد فى سبيلها ٠ مجردة عن المقدمات ، وتعددية الأغراض فلذا لم تلزمها الاطالة ٠٠ واكتفت ببضعة أبيات ، أفرغ الشاعر فيها شحنة انفعالاته ، من غير تريث ومداورة ، وتفتيق للمعانى ٠٠ وهذه سبيل الشعراء والفرسان ، الذين عانوا وعايشوا التجربة تلك ، وذاقوا مرارتها ٠٠ " فطبيعة الموضوع ، وطبيعة التجربة التي يعبر عنها الشاعر ، والظروف التى تحيط بنظم القصيدة ، والتى لم تترك للشاعر فرصة الاسهاب ، فى عرض أفكاره ،والخوض فى جزئيات الأحداث ،ووقائعها ، فمن هناك كان الايجاز سمة واضحة فى هذا الشعر • شعر العقيدة والجهاد - لأنه كان يدور فى الغالب حول فكرة واحدة،وينعدم فيه تعدد الأغراض ٠"(١)

فتلك الظروف المريرة الوجلة القلقة ، لم تسمح للشاعر أن يطيل وقفته ، مع خواطره ومشاعره فتدفقت أبياته الشعرية سريعة،وكأنها سيف سل وسط المعمعة ، الى جانب النصال ، فجاءت مرتجلة ، لاتملك وقتا للاطالة والاتساع ، لأن تلك الظروف لم تدع له نفسا ليمتد مشكلا قصيدته ٠

واذا سلمنا بقول الأستاذ الشايب : " لم يكن شعراء الخوارج من الفحول المكثرين غالبا ، فالشعر لم يكن لديهم حرفة تجود وتصنع لذاتها ، أو للبراعة الفنية ، والسبق فى مضمار الشعر المادي ، وانما كان شعرهم وسيلة لخدمة مذهبهم ، وثمرة لها فكان

---

١) لمحات من البطولة العربية فى شعر الحرب ٠ غانم جواد رضا ٠ ص/٤٥٠ دار الحرية للطباعة - بغداد ٠

لذلك مقطوعات فى أغلب الأحيان،أو قصائد قصيرة ، وكان ينشأ عند الحاجة اليـــه كأنه خطابة مرتجلة "(١)

فيمكن عندها أن نجعل هذه المقطعات ، بداية تجربة شعرية لدى هؤلاء الشعراء. لأن عودهم لا زال غضا ، ومسيرتهم فى هذا الفن وليدة ، لم تتعد طور المحاولـــة . فمقدرتهم على نظم الطوال لم تكتمل بعد . فكان نتاجهم هذه المقطعات،والأبيـــات والنتف، واليتيمات .

وهذا الاحتمال لا يقوم أمام الأسباب ، التى اضطرت الشاعر الخارجى الى النظم علـى هذا القالب الشعرى ، وكذلك تنقضه تلك الأشعار القوية الجزلة ، التى عدّت مـــن عيون الشعر العربى ، وها هي مقطوعة لقطرى بن الفجاءة . تقدم نفسها :

أقول لها وقد طارت شعاعـــا ... من الأبطال ويحك لن تراعـــي
فانك لو سألت بقاء يـــوم ... على الأجل الذى لك لم تطاعـــي
فصبرا فى مجال الموت صبـــرا ... فما نيل الخلـــود بمستطـــاع
ولا ثوب البقاء بثـــوب عز ... فيطوى عن أخى الخنع اليـــراع
سبيل الموت غاية كل حـــي ... فداعيه لأهل الأرض داعـــي
ومن لا يعتبط يسأم ويهـــرم ... وتسلمه المنون الـى انقطـــاع
وما للمرء خير من حيـــاة ... اذا ما عد من سقط المتـــاع(٢)

ومقطوعته الأخرى وأخواتهـــا :

- يارب ظل عقاب قد وقيت بهـــا ... مهري من الشمس والأبطال تجتلـــد(٣)
- لا يركنن أحد الى الاحجـــام ... يوم الوغى متخوفا لحمـــام(٤)

---

١) تاريخ الشعر السياسى . ص/٢٠٦ - ٢٠٧.
٢) شعر الخوارج . ص١٠٨.
٣) المصدر السابق . ص١١٠.
٤) المصدر السابق . ص١١٢.

وغيرهن من مقطوعات شعراء الخوارج .. كقول عمران بن حطان :

ان كنت كارهة للموت فارتحلـــــي ثم اطلبي أهل أرض لا يموتونـــا
فلست واجدة أرضا بها بشـــــر الا يروحون افواجـــا ويغـــدون[(١)]

واذا كانت هناك اعتراضات على ما أذهب اليه ، فلن تحرمني تلك الاعتراضات مـن الإدلاء برأى أراه ، أو بقول أستصوبه . لقد كان كثير من شعراء هذه الفرقـــة ، من طبقة الفحول من الشعراء ، ولم تقصر بهم أشعارهم عن اللحاق بهؤلاء الشعـراء ، ولكن الظروف التى احاطت بهم ، وقسوتهم على المسلمين ، التى تركت آثارهــا فى أحكام النقاد القدامى ، فجاءت متحيزة ومجحفة . ولم تنصفهم ، بل اضطهـدت آثارهم ،ونكلت بتراثهم ،كما اضطهد رجالهم ونساؤهم ..

واختيارهم أو تفضيلهم المقطعات على القصائد ، ليس عجزا ، ولا قلة تجربة وانمـا للأسباب التى ذكرناها سابقا ، وأود أن أضيف لها سببا آخر ، وهو اعطاء الجانـب الشعري دوره فى الجهاد ، وهو لون ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثه للمسلمين ،على استعمال هذا السلاح ، والذى يسود الأعداء أن نغفل عنه .. " المسلم يجاهد بلسانه"[(٢)] فهو يثير الحماسة فى النفوس ، ويلهب العزائم ، ويثبت الاقـدام . وقد تميزت مقطعاتهم فى غالبيتها بالشعور الجاد ، والحس المتقد . فتلهب الحماسة الكامنة ، وتثير الاحساس اذا خمدت جذوته.والإطالة لا تصلح لهذا الدور.

---

١) شعر الخوارج . ص/١٦١.
٢) ورد فى كتاب مشكاة المصابيح . للحافظ الخطيب التبريزى ، حديث رقمه / ٣٨٢١ ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه : " جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكـم " وقال عنه الألبانى ، صحيح .

وقد فطن النقاد القدماء لهذا الأمر ، فقد أورد ابن رشيق عددا من الأخبار التي تثير هذه القضية : سئل أبو عمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ فقال: نعم ليسمع منها ، قيل : فهل كانت توجز ؟ قال : نعم ليحفظ عنها .." [1]

وقال الخليل بن أحمد : يطول الكلام ويقصر ليفهم ، ويوجز ويختصر ليحفظ .. والا فالقطع أطير في بعض المواضع ، والطوال للمواقف المشهورات .." [2]

وقيل لابن الزبعري : انك تقصر أشعارك ، فقال :لأن القصار أولج في المسامع ، وأجول في المحافل . وقال مرة أخرى : " يكفيك من الشعر غرة لائحة ، وسبة فاضحة " [3].

وقال الراغب الأصفهاني : " وقالت مليكة بنت الحطيئة : يا أبت كنت ترغب عن القصار ، فصرت ترغب فيها ، فقال : لأنها في الآذان أولج ، وعلى الفكر أروج ، والناس اليها أحوج " [4].

فلم نبعد عن شعراء الخوارج هذه الغاية ؟ وان لم يلهثوا وراءها وسط الظروف التي أحاطت بهم ، وقد أحيط بهم .

وقد أورد أبو هلال العسكري خبرا ، يساير ما ذهبت اليه ، لو حملناه على لسان شعراء الخوارج . فقال : قيل لابن حازم : ألا تطيل القصايد ؟ فقال :

أبى لي أن أطيل الشعر قصدي	الى المعنى وعلمي بالصواب
وايجازي بمختصر قريب	حذفت به الفضول من الجواب
فأبعثهن أربعة وستاً	مثقفة بألفاظ عذاب
خوالد ما حدا ليل نهارا	وما حسن الصبى بأخي الشباب
وهن اذا وسمت بهن قوما	كأطواق الحمائم في الرقاب
وكنّ اذا أقمت مسافرات	تهاداه الرواة مع الركاب [5]

---

١) العمدة . ج١/١٨٦.
٢) المصدر السابق ج١/١٨٦.
٣) المصدر السابق ج١/١٨٧.
٤) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء . ص/٤٤.
٥) كتاب الصناعتين . ص/١٩٤.

والآن لدينا خبر أورده أبو زيد القرشي فى جمهرته ، قال : مرّ أبو عبيدة " معمر بن المثنى "[1] برجل ينشد شعرا ، فطوّل فيه ،فقال أبو عبيدة : أما أنت فقد أتعبت نفسك بما لا يجدي عليك ، وما كان أحسن من أن تقصر من حفظك فى هذا الشعر ما طال منه فيه . ألم تعلم أن الشعر جوهر لا ينفد معدنه ، فمنه الموجود المبذول ومنه المعوز المصون . فعليك بالبحث عن مصونه ، يكثر أدبك ، ودع الاسراع فى مبذوله ، ثم قال :

مصون الشعر تحفظه فيكفي   وحشو الشعر يورثك الملالا[2]

فهل فى هذا تعليل لكثرة المقطعات فى شعر الخوارج - فرقة أبى عبيدة - وردّ على أولئك ،الذين حاولوا التقليل من مكانة شعر الخوارج ، فى صرح الشعر العربى . حتى أوقفوهم فى مرتبة دون مرتبة الفحول المطبوعين من الشعراء .. أرى وجاهة هذا الرأي .. ويقف الى جانب ما ذهبت اليه . آراء كثير من النقاد ، الذين بخسوا هؤلاء الشعراء حقهم . فاذا كان أغلب هؤلاء الشعراء قد أعرضوا عن الاطالة ، لظروف نفسية ،وخارجية محيطة ، ولغاية فى نفوسهم ، فقد خلفوا فى هذه المقطوعات روائع للأدب العربى ، ولكن الشنآن أبعد النقاد عن الانصاف .. وحسب شعراء الخوارج ، أن هلل النقاد لغيرهم من

---

١) معمر بن المثنى التيمي بالولاء ، البصري ، أبو عبيدة النحوى ، من أئمة العلم بالأدب واللغة . مات سنة عشر ومائتين . قال الجاحظ : لم يكن فى الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة .
وقال المبرد : كان أكمل القوم ، وقال الدارقطني : لا بأس به ، الا أنه يتهم بشيء من رأى الخوارج ، ويتهم بالأحداث*.

٢) جمهرة أشعار العرب ، فى الجاهلية والاسلام ، لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى . تحقيق / د. محمد على الهاشمى .

---

*) الأعلام . للزركلي . ج٧/٢٧٢.
وميزان الاعتدال فى نقد الرجال . للذهبى . مجلد٤/١٥٥.

الشعراء ، الذين سلكوا مسلكهم،وأجروا الشعر فى سبيلهم ٠٠ ومن ثم رفعوهم الى
الى مصاف الزعماء فى حركة التجديد فى الشعر العربى ٠٠ التى كان الخوارج أهلها
وأصحابها ، ولكن عين السخط تبدى المساويا ٠

ذاك اللون الشعري الذى آثره الخوارج ، واتخذوه نهجا فى صياغتهم لأشعارهم، ساعد
على تحقيق الوحدة الموضوعية ، فبعد أن كانت القصائد التقليدية ، مجموعة
مواقف يرتحل اليها الشاعر الجاهلي ، ومن تبعه من شعراء العصور التالية ،حتى
غدا ذلك التعدد سنة جارية ، وطريقة فنية ، محددة الملامح ، لا يحيد عنها
من الشعراء إلا هالك،فى نظر النقاد المحافظين ٠٠ فالمقدمة الطللية أو الغزلية
أو الخمرية ، فيما بعد ، مدرج يتوصل منه الى النسيب ، ليعرج منه على مشاهد
الصحراء وما حوت ، والتى قطعها على متن راحلته ، ليدلف منها الى غرضه
المنشود ، من مديح أو هجاء أو فخر ٠٠

انقلبت على يد شعراء الخوارج ، بعد أن تخلصوا من ربقه المثال الجاهلي ، الى
وحدة متكاملة ، طبعت بطابع عام ، طابع الحماسة والجهاد فى سبيل الله عز وجل ،
ولكن على طريقتهم الخاصة ٠٠

فقد جاءت أغلب قصائدهم ، أو مقطعاتهم مستقلة بفكرة واحدة ، بعيدة عن النمطية ،
التى تنعطف الى أغراض متباينة ، لا تلتقى الا بعسر ، اذ شغلت بموضوع واحد ،
ينضح من المذهب الخارجي ، وللمذهب نفسه ، فقد ملأت العقيدة على الشاعر
الخارجي قلبه ،وعقله ، فجاءت قصائدهم ومقطعاتهم تدندن حولها ٠ ولا تكاد
تدابرها ٠٠ واذا لاح فى قصائدهم ومقطعاتهم بروق أغراض متعددة ، فانما هى
أطياف الغرض الأساس ، والتى جاءت مطواعة بيده ، لتتلازم وتتعانق تلازم الفارس
وجواده وعدته ، وبخاصة بعد أن عبرت عن خواطر نفسية ، وانفعالات داخلية واحدة ،
ومعاناة ومكابدة ٠

لقد تحولت الأغراض الشعرية ، على أيديهم الى ما يشبه الغرض الأوحد ، وهذا
ما طـ ئاء ـ

ونحن نتحدث عن الناحية الموضوعية ، فشغل ذلك الغرض تلك الأبيات المتوترة الأحاسيس ، الشديدة التأثير في السامع .. لما فيها من تعبير عن معاناة حقيقية في ميدان الدعوة والجهاد .. والأطياف المحيطة بذلك الغرض،يتوسل بها للوصول الى الهدف الأول والأوحد .

كما أن الوحدة الشعورية والعاطفية ، واكبت الوحدة الموضوعية ، وكل ذلك أكسب شعرهم تأثيرا كبيرا في السامعين .

ولم تكن تلك الوحدة الا نتيجة للوحدات الثلاث في هذا الشعر ، والتي انتبه لها الدارسون . " ومن ثم سيطرت على هذا الشعر وحدات ثلاث ، وحدة الغايات ، ووحدة الخصائص ، ووحدة التيارات النفسية .. ووحدة الغايات ، تمثل النقطة التي تلتقي عندها أحلام كل واحد ، أولئك الشراة ، وهي الاستشهاد في سبيل الله،أو طلب الموت ، ويمثلها قول البهلول :

من كان يكره أن يلقى منيته ، فالموت أشهى الى قلبي من العسل
فلا التقدم في الهيجاء يعجلني ، ولا الحذار ينجيني من الأجل (١)

وان كانت عظمة الشعر تكمن ، فيما يتناوله من قضايا وأفكار ، واستشراقات سديدة لمسيرة الأمة . تنتهي الى التمكين للعصبة المؤمنة في الأرض ، لتجعل كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ..

وليس في تلك الأشكال التي لا تتعدى القوالب الباردة .. وان كانت مطلوبة من الأديب المسلم ، كي يحقق الصفات الفنية الناضجة في نتاجه ..

وبكلمة موجزة وخاتمة ، لقد غلبت المقطعات،والمقطعات القصيرة ، والأبيات القليلة

---

١) شعر الخوارج . د/ احسان عباس . ص١٠.

على شعر الخوارج ، وصبوا فيها انفعالاتهم وعواطفهم ، التى لا تلح على تقليب الفكرة على وجوهها ، ولا يستسيغ الشاعر الخارجى اعتصارها ٠ بحيث لا يغادر طرفا منها ، وانما يمر بها فى سرعة بداهة ، ويكشف عنها فى لماحية خفيفة ٠

ب- الخصائص المعنوية واللفظية والبلاغية :-

اذا كانت الوحدة بين الشعور والسلوك ، وبين العقيدة والعمل ، هى سمة هذا الدين ، فيجب أن تصبح هذه العقيدة وتصوراتها منهجا كاملا للحياة .. تطبع سلوك الفرد ، وأقواله ، وتحركاته بطابعها ، واذا وقع الانفصام النكد ، بين القول والعمل ، فعلى الدعوات وأصحابها العفاء ، " يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون " كبر مقتا عند الله ، أن تقولوا ما لا تفعلون ، ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص " .(١)

والشعر لون من ألوان القول ، تحلى بالفنية والأداء المتميز ، والتأثير ، والامتاع ، فعليه أن يستمد كيانه ، ومقاييسه ، وجماله من تلك العقيدة .. ومن أجدر وأولى من الخوارج بهذه الخاصية ، وهم الذين غلبت أعمالهم أقوالهم .

" وقلنا : ان الخوارج الذين احتفظوا بطبعهم البدوى المهذب ، لم تفسدهم تقاليد الحضارة المترفة ، ولا نزعاتها الفاسدة ، بقوا صافيّ الطبع ، سليمي الخلق ، لا تعوزهم الجرأة الصادقة ، ولا الصراحة الصريحة ، ثم أضافوا الى ذلك عقيدة دينية قوية خالصة ، لا تعرف الهوادة ، ولا الدنية ، ولا تعد التقية شرعة أصلية ، تدارى بها الجبن والاستكانة .... وقد جمعوا الى ذلك بلاغة القرآن ، فهم من الجيل الذى نشأ فى ظل الاسلام ، وأخذ بآدابه ، ودرس قرآنه ، واهتدى بسنته*، فصار جيلا اسلاميا جديدا فى ثقافته ودينه ، ولغته وأدبه ".(٢)

---

١) سورة الصف ، الآيات (٢ ، ٣ ، ٤) .

*) مع التحفظ على هذه العبارة .

٢) تاريخ الشعر السياسى . ص/٢٠٥ - ٢٠٦.

فقد التزم شعراء الخوارج فى نتاجهم الشعرى القيم،والتصورات الاسلامية ، وما يكون لهم الا أن يكونه شعرهم صورة عن دعوتهم،وفكرتهم ، التى ترفض الانحراف عن جادة الحق،المتمثلة فى الدين وصفائه . وتتطلع الى تلك الصورة الناصعة التى كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم .. وأعتقد أن شعراء الخوارج حققوا التلازم بين فنهم، وعقيدتهم،ومذهبهم .. وما أشك أن هذا التلازم ، لم يعرفه الشعر العربى من قبل ، فشعرهم شعر مذهب انحدر من كيان الدين الاسلامى ، وانشعب فيما بعد فى سبل الانحراف والضلال .. فجاء شعرهم اسلامى الأفكار والروح ، قل أن تراه حائرا بين المعانى الجاهلية،والاسلامية ، فقد شق طريقه بتميز ومفاصلة واضحة .

فكانت قصائدهم ومقطعاتهم - فى غالبيتها - اسلامية المعنى، اسلامية المنطلق ، المسيرة ،والغاية - لو غابت من سمائها أسماء من اتخذوهم خصوما وأعداء دين - لأنهم لم ينهلوا فى أشعارهم من مناهل سابقيهم ، من الشعراء الذين قل فيهم من استطاع أن يطبع شعره ، وبطلقه من ألسنة التصورات الاسلامية الجديدة .. اذ بقوا فى بعض نزعاتهم يرسفون بأغلال التوجهات،والاعتبارات الجاهلية ، وهذا شأن الخطوات البكر ، التى لن تنجو من التعثر .

وبمقدار ارتباط الشاعر بعقيدته فهما وسلوكا ، يكون رصيده من الثقافة الاسلامية واسعا ، وتمد تجربته بمخزونه من هذا الرصيد . والتأثر عفوى وطبعى ، لأن التجربة الشعورية تغترف من الخلفية الفكرية ، وسيكون الأثر عميقا فى نتاج الشعراء ، الذين طبعت العقيدة حياتهم .

ولعل عمق الثقافة ، وسعة الاطلاع ، على فنون المعرفة ، وبخاصة القرآن الكريم ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، كانت رافدا ، ومعينا على الاسترسال فى ايراد المعانى . وبدون تخليط واضطراب ، ويضاف الى ذلك المعاناة والمكابدة المتلاحقة ، التى عاشها الخوارج ، والشعراء زعماء هذه الطائفة وفرسانها . حيث

كانت من الروافد التي طغت على شعرهم ، وأمدتهم بثروة ضخمة من المعاني والأحاسيس والتجارب ·

هذه الحياة المتواصلة والمنسجمة مع العقيدة طبعت شعرهم بالقوة،والوضوح،والصلابة ، والصدق،والالتزام بمجرى العقيدة وتوجهاتها - ولكن وفق فهمهم لكتاب الله تعالى، الذي تكاد تتردد تلاوته مع تردد أنفاسهم ، وسبحات مشاعرهم · الى جانب عكوفهم على مدارسته · فالمستغرب بعد هذا أن لا يكون شعرهم مرآة صافية لحياتهم، التي أرادوا صياغتها وفق عقيدتهم،ومذهبهم،مع تجيش به نفوسهم من حماسة تسري في عروقهم،تدفعهم الى الزهد في الدنيا ومتاعها ، وسعيهم الدائم والدائب الى مجالدة الظالمين،الذين أمسكوا بخطام الأمة ، وانحرفوا بها عن جادة الاسلام كما يدعون - وترامبه على شفار السيوف ، وأطراف الرماح،وهم ينالون من اعدائهم نيلا · علهم يحظون بشهادة تنقلهم الى دار الخلود ·

فالخارجي يعيش لعقيدته ، وتمكينها في الأرض ، وهذا ديدنهم وفق تصورات مذهبهم· فجاء شعرهم متشابها في معانيه ، ينضح بمواقف البسالة والاقدام على الموت ، وتتجسد الأفكار في صورة أهوال وأشلاء ·· دائرة ضمن الايمان الذي لا يرتضي دون الجهاد سبيلا · فامتزج - كما رأينا ونحن نجول في ميدان الأغراض الشعرية - بمفاهيم العقيدة · حتى بدا وكأنه شعر عقيدة وجهاد في سبيل ما نذروا أنفسهم له ·

وعندما تطالع شعرهم تلمس أثر تعلقهم بالقرآن الكريم ، تلاوة ومدارسة ، فتجده قد تضمن كثيرا من الآيات القرآنية ، وآثروا معانيها ، حتى أضحى شرائح قرآنية ·· وان كانوا قد فشلوا بتوجيهها الوجهة الحقيقية ، مما جند حشودهم في صفوف معاول الهدم في كيان الأمة المسلمة ، وتدمير قوتها ، التي يجب أن تتوجه الى العالم فاتحة

وهادية .

لأن الغاية من الفن في منظار الاسلام - فيما أحسب - ليس التنفس الفنى المجرد عن كل هدف ، وانما التحرك فى مصلحة الجماعة ، وألفتها ، ومن ثم اثارتها وتوجيهها ، لتحقيق أغراض العقيدة . حيث غدت الكلمة الملتزمة سلاحا خطيرا من أسلحة الميدان ، والتى يود الأعداء أن تغفل عنها ، " ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم.. "[(١)]
واذا كان أغلب الشعراء المعاصرين لشعراء الخوارج قد تسولوا على أبواب السلاطين ، والخلفاء وأعتاب الأمراء ، فان شعراء الشراة ارتقوا بأنفسهم وبشعرهم الى ربى العقيدة ، والصدق ، والاخلاص ، عبر الوشائج المتينة بين العقيدة والشعر ، اذ كانوا ينهلون من ينابيع العقيدة ، ويعيشون فى ألق الايمان ، فجاء التزامهم لمذهبهم موائما التزامهم بشعرهم . بعيدا عن الرغبة والرهبة .

واذا كان الجود بالنفس أقصى غاية الجود ، فدونه أن يجود الخارجى ، ويجعل شعره وقفا على مذهبه ، يضمنه معاني الحق التى آمن بها ، ويحيل تحت حرارة حماسته لعقيدته ، الأغراض الشعرية التقليدية ، الى شعر عقيدة ، يحمل مضامينها الفكرية .

فلا غرابة بعد ذلك ، أن ترى الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، مضمنة فى أشعار القوم ، لفظا ومعنى مرة ، ومعنى أحيانا أخر . وقد تغيب هذه المعانى عن ذهن الدارس الذى قطع علاقته مع كتاب الله تعالى ، أما الدارس التى ارتوت ذاكرته بآيات الذكر الحكيم ، فيستطيع أن يلاحق أطياف الآيات القرآنية ، فى شعرهم ولو كانت خافتة .. أضع الآن هذه الأبيات التى نسبت[(٢)] الى عمران بن حطان أمامك ، يقول :

---

١) سورة النساء . الآية . ١٠٢ .

٢) يقول د . احسان عباس : " ليست نسبتها اليه مؤكدة ، لأنها وردت فى المصادر ، ومنها العيون والعقد ، والأغاني ، والحماسة البصرية ، منسوبة لأمية بن أبى الصلت " انظر ص/ ٢٠ الحاشية : ٣ من ذيل السمط " . وقال : أبو الحسن الأخفش ، وصاعد اللغوى : انها لرجل من الخوارج ، قتله الحجاج ، وأحر بأن يكون هذا هو الصواب " . شعر الخوارج . ص/ ١٧٠ .
ويترجح عندى ، بل أكاد أجزم ، أنها ليست لأمية بن أبى الصلت ، لما فيها من المعانى والألفاظ والتراكيب القرآنية .. ويغلب على ظني أنها لرجل من الخوارج .

اقترب الوعد والقلوب الــــــــى ... اللهو وحب الحياة سائقهـــــــا
باتت همومى تسرى طوارقهـــــا ... أكف عيني والدمع سابقهـــــا
مما أتانى من اليقين ولــــــم ... أكن أراه يلــــم طارقهــــــا
أم من تلظى عليه موقدة النـــا ... ر محيط بهم ســرادقهـــــا
أم أسكن الجنة التى وعــد الأبرا ... ر مصفوفة نمـارقهــــــا
لا يستوي المنـزلان والأعمــا ... ل لا تستـوى طرائقـــــها
هما فريقان فرقة تدخـــــــل ... الجنة حفت بهم حدائقــــها
وفرقة منهم قد أدخلـــــــ ... ـت النــار فشانتهم مـرافقهـا
تعاهدت هذه القــــلوب اذا ... همت بخير عاقت عوائقهـــا
من لم يمت عبطة يمت هرمــا ... الموت كأس والمرؤ ذائقهــــا
ما رغبة النفس فى الحيـاة وان ... عاشت قليلا فالموت لاحقهــــا
وأيقنت أنهـــا تعــــود كما ... كان براها بالأمس خالقهــــا
وأن ما جمعـت وأعجبهـــا ... من عيشهـــا مرة مفارقهـــا
وصدها للشقاء عن طلــــب ... الجنـة دنيا الهم ماحقهــــا
عبد دعا نفسه فعاتبهـــــا ... يعلـم أن المصير رامقهـــــا (١)
يوشك من فرّ من منيتـــــه ... فى بعض غراته يوافقهــــا

... من الوهلة الأولى ، التى تقرأ فيها هذه القصيدة ، يستقر فى ذهنك ، أنهـــا شريحة من الآيات القرآنية ، توزعت أبيات القصيدة ، وقد يكون فــى هـــذا الأسلوب غنية عن الحجاج والجدال فى صواب مبدئهم،وتوجهاتهم .. فالمعانى لــم تخرج عن ظلال الآيات القرآنية ، وما تضمنته من تصورات ، لا يتجاوزها الا كل مــن لا يريد أن ينطلق انطلاقةعقدية ، فى نظراته هذه .

فالشطر الأول من البيت الأول فى القصيدة ، تضمن معنى قوله سبحانه وتعالى ، وحاكى فى تصدره للقصيدة ، تصدر الآية للسورة الكريمة . "اقترب الوعد الحق ، والقلوب الى اللهو ...".

---

١) شعر الخوارج . ص/١٠٧.

«اقترب للناس حسابهم ، وهم في غفلة معرضون، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم ..."[1]

وقوله في البيت الرابع .. أم من تلظى ... هو تكرار للآية القرآنية الكريمة "فأنذرتكم نارا تلظى ، لا يصلاها الا الأشقى"[2] . وفي عجز البيت نفسه "محيط سرادقها ..." معنى وتركيب الآية الكريمة : "أحاط بهم سرادقها "[3].

ويلوح في البيت الخامس :

أم أسكن الجنة التي وعد الأبرار مصفوفة نمارقها

معنى عدة آيات قرآنية . "مثل الجنة التي وعد المتقون"[4] . و "ان الأبرار لفي نعيم ..."[5] و " نمارق مصفوفة ..."[6].

وكذلك في البيت السادس :

لا يستوي المنزلان ولا الأعمال ....

يكرر الشاعر معنى الآية الكريمة . " لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ... "[7]

وفي البيتين السابع والثامن :

هما فريقان فرقة تدخل الجنة حفت بهم حدائقها
وفرقة منهم قد أدخلت النار فشانتهم مرافقها

ضمن الشاعر معنى الآية الكريمة : " فريق في الجنة ، وفريق في السعير .. "[8].

---

١) سورة الأنبياء . الآيات : ١ - ٢ - ٣ .
٢) سورة الليل : الآية : ١٤.
٣) سورة الكهف : الآية : ٢٩.
٤) سورة محمد : الآية ١٥.
٥) سورة الانفطار . الآية : ١٣.
٦) سورة الغاشية . الآية : ١٣.
٧) سورة الحشر . الآية : ٢٠
٨) سورة الشورى : الآية ٠٧

وهناك فى البيت التالى :ـ

وأيقنت أنها تعود كما   كان براها بالأمس خالقها

يردد الشاعر معنى الآية الآتية : " لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة".[١]
وهذا الاتساع فى التضمين للآيات القرآنية ، فى شعر الخوارج ، كان معنويا ولفظيا أحيانا ، ومعنويا مرات أخر . وإذا تغيرت صور الألفاظ ضمن الأبيات الشعرية وتراكيبها ، فهو من مراعاة السياق الشعرى وضرورته .

ولم يكن هذا التضمين المعنوى حكرا على القصائد، المقطعات الشعرية ، التى تناولت الحديث عن الحياة، والموت، والزهد بما فى أيدى أهل الدنيا ، بل تكاد تشمل شعر الخوارج ، وتجعل من هذا التضمين سمة بارزة فى شعر هذه الطائفة .

فاذا أراد أن يستنفر المتثاقلين عن القتال ، لم يذكرهم بقسوة الخصوم، وظلمهم للأبناء والنساء إن تمكنوا ، ولا بالدفاع عن التراب، والكلأ ، والمقدسات ، بل يصرخ فى وجوههم ، ان الخوارج شقوا طريق الجهاد فى دعوتهم ، وأيقنوا أنه طريق الخلاص الوحيد .. والجهاد لا يسقط الا عن أهل الأعذار ، من المرضى ، والعرج والعميان ...

فيقول قطرى بن الفجاءة :ـ

أبا خالد يا انفر فلست بخالد   وما جعل الرحمن عذرا لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهدى   وأنت مقيم بين لص وجاحد[٢]

أتراه تجاوز معنى الآيتين الكريمتين " لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولو الضر، والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم

---

١) سورة الكهف . الآية : ٤٨.
٢) شعر الخوارج . ص/١٠٥.

وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما"[(١)] فقد ضمن ذلك في الشطر الثانى من البيت الأول وما جعل الرحمن عذرا لقاعد ٠

وفي البيت الثانى أورد معنى الآية الكريمة " ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيرا"[(٢)]٠

ولا أشك أن هذا التضمين لمعانى الآيات القرآنية ، لم يكن متصيدا متكلفا ، بل يتداعى الى لسانه، تداعى خواطره المنسلة من عقيدته ومذهبه ٠ وكيف لا تفرض الآيات القرآنية ، وما تضمنته من معان ايمانية ، وجهادية،نفسها على الشاعر ، وهو لا يفتر عن مطالعة الذكر الحكيم ، ومدارسته وتلاوته فى سلم أو حرب ، ولذا لاتنعدم المعانى تلك فى شعر الخوارج تلميحا ، ان لم يكن تصريحا ٠

اسمع الآن عيسى بن فاتك الحبطى يقول فى معركة "آسك" :

هم الفئة القليلة غير شك   على الفئة الكثيرة ينصرونا[(٣)]

لقد استحضر معانى الآيات التى تؤيد مذهبه ، ولكن باستدلال متدرج ، فقد غلبت الفئة القليلة ، الفئة الكثيرة ، وهذا من السنن الربانية ، بشرط تحقق الايمان والاخلاص ٠ وقد تحققت تلك السنة على يد الجماعة الاسلامية فى معركة بدر ، وهى ماضية الى يوم القيامة " كم من فئة قليلة - غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين"[(٤)]

---

١) سورة النساء ٠ الآية : ٩٥٠

٢) سورة النساء ٠ الآية : ٩٧٠

٣) شعر الخوارج ٠ ص/٥٧٠

٤) سورة البقرة ٠ الآية : ٢٤٩٠

وأضيف هنا الى تمكن العقيدة في نفوسهم ـ انشغالهم بقضاياها، وخوض المعارك لتحقيقها على أرض الواقع ..

وهذه المعاني القرآنية ، التي صبغت أشعارهم ، لم تكن حبيسة الأغراض العقدية في شعرهم ، بل امتدت الى الأغراض الشعرية الأخرى ، التي طرقها أولئك الشعراء .. والتي اتخذت صورا جاهلية على يد أغلب السابقين والمعاصرين من الشعراء لهم . فقد غابت المعاني القبلية، والعصبية الجاهلية . بعد أن انحسرت أمام الموجة الاسلامية الزاخرة .. ففكرة الثأر التي ألهبت الشعراء حماسة فيما سبق . اندثرت لصالح العصبية المذهبية التي حركت أتباعها ، ودفعتهم الى ساحات المعارك ، ترد الناكبين عن الحق ، وتحظى بالشهادة ، ان اصطفي لها .. وهي صفقة ، فاز من ربحها ، يقول قطري بن الفجاءة :

رأت فتية باعوا الاله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم (١)

ويقول الله عز وجل :

" يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ... " (٢) .

فقطري بن الفجاءة . لم يخرج عن معنى هذه الآيات ، فقد حصل البيع ، نفوس بيعت لله ، تزهق في سبيله، في ساحات المعارك ، لتنعم يوم القيامة بجنات عدن ..

وكأن لسورة الصف ، وما تضمنته ، نصيبا عظيما في أذهان شعراء الخوارج . فقد استهدفت السورة أن تقرر في ضمير المسلم أن دين الله هو المنهج الالهي للبشرية ، في صورته الأخيرة ، سبقته صور منه تستهدف أطوارا معينة في تاريخ البشرية ، وسبقته

---

١) شعر الخوارج . ص/١٠٧.

٢) سورة الصف . الآية : ١٠ - ١٢.

ويقول عمران بن حطان :

فنحن بنو الاسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر (١)

فلا نسب لأحد بينه وبين الله تعالى . ومكانة الرجل ، وجهاده وبلاؤه في سبيل الدعوة ، والجهاد في سبيل الله تعالى . " ان أكرمكم عند الله أتقاكم " (٢).

ولا أريد أن استعرض الكم الواسع من الأبيات التي اغترفت معانيها من التصورات الاسلامية ، من القرآن الكريم ، أو من الحديث النبوي الشريف ، وسأكتفي بما أوردته مع شواهد قليلة أخرى ..

فقد كانت حياتهم ، وحياة شهدائهم ، جهاد أنفسهم في ذات الله تعالى . حتى تستقيم على الصراط الذي ارتضاه ربنا ، وبذا كانوا قد ارتفعوا بنفوسهم وأرواحهم الى مكانة سامية ، وارتقوا بها الى شفافية ايمانية ، عبر اخباتهم وتبتلهم وقيامهم في ساعات السحر . وهذه الصفات هي سمت المؤمنين حقا . يقول الأصم الضبي وهو يرثي قتلى الجوسق :

قوما اذا ذكروا بالله أو ذكروا خروا من الخوف للأذقان والركب (٣)

وهو يردد معنى الآية الكريمة ، بل الآيات الكريمات : " والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا " (٤) و " انما يؤ من بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا " (٥) و " اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا " (٦).

---

١) شعر الخوارج . ص/١٦٥.
٢) سورة الحجرات . الآية ١٣.
٣) شعر الخوارج . ص/١٢٥.
٤) سورة الفرقان . الآية : ٧٣.
٥) سورة السجدة الآية : ١٥.
٦) سورة مريم الآية : ٥٨.

كما أنهم ومن خلال شعرهم ، بينوا منزلة المخلوق من البشر، ومن هو السعيد ؟ ومن هو الشقي الخاسر ؟ وهذا ما ردده يزيد بن حبناء ، وكان صدى للآية القرآنية : " فمن زحزح عن النار، وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور "(١) ويقول :

ان الشقي الذى فى النار منزله والفوز فوز الذى ينجو من النار(٢)

فبعد كل ما سبق ، نستطيع أن نقرر ، ان شعراء الخوارج فى غالبيتهم استمدوا معانى أشعارهم ، من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية،ينبوعا الرسالة ، ومصدرا العقيدة الهادية ، والتزموا فى شعرهم بها التزاما وثيقا ، حتى غدا شعرهم خادما للعقيدة،وتطلعاتها ، وفى كل ميدان ارتاده الشعر الخارجى ، فقد أحاله موكبا من المواكب الداعمة لمسيرة مذهبهم • وقد فاتت هذه الصبغة بعض الشعراء الذين أدرجوا فى قائمة شعراء الخوارج ، كالطرماح - والشاذ لا حكم له - فى أغلب شعره • ولعل هذا الالتزام بالعقيدة ،قولا وعملا - وفق فهمهم - أعطى أشعارهم الصادرة عن عواطف صادقة، تأثيرا كبيرا فى السامعين •(٣) اذ مثل هؤلاء بحق أصحاب مدرسة الالتزام فى الشعر العربى •• فلم يخلطوا تصوراتهم ومذهبهم بظلم ، وان لم يظهروا لنا فى شعرهم سوى القليل من القناعات المذهبية ، كالتكفير للمسلمين وغيره •• وكأنهم ألهموا الأستاذ أحمد أمين غاية الأدب فى نظرهم " اذ ليست وظيفة الأدب أن يعلم الحقائق ، وانما وظيفته أن ينتفع بالحقائق المعروفة ويهيج بها عواطف الناس.(٤) انه أدب موجه •

---

١) سورة آل عمران - الآية : ١٨٥•

٢) شعر الخوارج • ص/٨٧•

٣) يقول الجاحظ : "اذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع ،بعيدا من الاستكراه ، ومنزها من الاختلال ،مصونا عن التكلف ، صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة"• البيان والتبيين ج١/٦•

٤) النقد الأدبى : ص٦٥•

فجاءت معانى أشعارهم مصطبغة بصبغة العقيدة التى آمنوا بها • وان اخلاصهم للمعانى والأفكار الاسلامية وضعهم فى قائمة شعراء الفرق الاسلامية ، وان لم يشققوا فجاج المعانى ويولدوها ، لوضوح الحق الذى آمنوا به ،ولأن تدقيق المعانى سبيل الى التعمية أحيانا ، وهم لا يريدون الا الوضوح والصراحة • والأمر عندهم لا يحتمل الجدل والبراهين • فأرسلوا معانى نظرتهم فى شعرهم أرسالا • ولم يلجأوا للتحليل والتعليل • لتمكن عقيدتهم فى صدورهم ، وصدقهم معها ، واعتزازهم بشخصياتهم •

وقد كان شعر هؤلاء القوم ، لا يلتزم القيم والمعانى الاسلامية فى مادته فحسب ، ولكنه كذلك يلتزم القيم الفنية فى أساليبه ، اذ تنعكس فى ألفاظه وتعابيره ظلال تلك التصورات التى بشروا بها • فاذا اضفنا هنا الى كثرة المدارسة والتلاوة لكتاب الله تعالى - التى كانت ديدن الشراة فى سلم أو حرب والتى أمدتهم بروافد زاخرة أغنت شعرهم ببلاغته وأطيافه وصفائه وأساليبه البارعة وألفاظه العذبة وديباجته المشرقة وسلامة أسلوبه - أصول رجال تلك الطائفة اذ كانوا من صريح القبائل العربية - فى أغلبهم - ورجال البادية الذين انطلقوا مع الجيش الاسلامي الفاتح ومن ثم استوطنوا تلك الأمصار المفتوحة ، وجمهورهم من العرب الأقحاح • الذين عرفوا بصفاء السليقة والفصاحة والتشدد فى الدين • فاجتمع لهم الى جانب الفصاحة وقوة الأسلوب • واستقامة اللسان بعد أن تجرد من التلوث بلكنة الأعاجم ورطانتهم • والذين أصبحوا فيما بعد من أبناء هذه الأمة • جمعت بينهم وشائج العقيدة • فلغة القوم عربية صميمة ، تحمل عمق الينابيع التى انحدروا منها ، وارتووا من زلالها ، فرسخوا جذورها بثقافة مذهلة من علوم هذه اللغة ، وكل ذلك سيترك فى شعرهم طابع القوة والجزالة ، والبساطة والرقة والتهذيب ، وكانوا بذلك قد جمعوا بين شطرى الابداع وعوامله ، فطرة مطبوعة على الفصاحة ، وثقافة لغوية ودينية رائعة مكتسبة ، ارتشفها القوم من البلاغة القرآنية والنبوية •

ولا ينكر عاقل منصف النمط الفريد من البلاغة والروعة ، واشراق البيان ، وعبقرية التعبير فى الينبوعين السابقين ، اذ تجد الجزالة والسلاسة ، والقوة والعذوبة الأخاذة •

ولا شك أن اللفظة هى اللبنة الأولى فى البناء الأدبى ، والشعر لون من ألوان الأدب ، تتحكم اللفظة فى جمال القصيدة وروعتها ، والارتقاء بمعانيها وظلالها ، اذا أحسن الشاعر استعمالها واستفاد من مرونتها وأطيافها •

وقد شغلت قضية اللفظ والمعنى أذهان النقاد ، منذ عرف النقد، ووقف على قدميه ، اذ عالجها على أساس المقابلة بين كل منهما ، وانشعبت الآراء فيها . واذ كان كثير من النقاد لا يحفلون الا بالمعنى ، دون اللفظ ، فما ذلك الا لأنهم يرون فى الألفاظ معرضا للمعانى ، أو كالثوب للجارية الحسناء . تزداد حسنا فى بعض المعارض دون بعض . " وكم من معنى حسن، قد شين بمعرضه الذى أبرز فيه ، وكم من معرض حسن، قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه " .(١)

وهناك من النقاد من قام فى وجه هذا الرأي ، اذ يرون فى الصياغة المقوم الحق للأدب ، فكما أن القصصي لابد أن يسير على نهج خاص فى سرد حواد ثه ، كي تستكمل شرائط قالبها الفنى العام ، كذلك الكاتب والشاعر فى ما يعالجان من أغراض ، ولابد أن تستوفى الجمل، والعبارات، خصائص الصياغة الفنية ، ليدخل الكلام فى باب الأدب ... وقد تكون المعانى جارية على ألسن الناس، يرددها العوام وغيرهم . ولكن لا يستطيع أن يدخلها ميدان الأدب سوى الأدباء . بما يراعون من جمال التعبير فى الجمل ، ومن قواعد الفن فى الأجناس الأدبية ، ولهذا نادى جمع من نقاد العرب بأن قيمة الألفاظ فوق قيمة المعانى " .(٢)

" فالمعاني مطروحة فى الطريق يعرفها الأعجمي والعربى ، والبدوى، والقروى ، والمدنى ، وانما الشأن في اقامة الوزن ، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وصحة الطبع، وجودة السبك . فانما الشعر صياغة ، ودرب من النسيج ، وجنس من التصوير ".(٣)

وسئل الأصمعى من أشعر الناس ؟ فقال : من يأتى على المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرا ، أو الى الكبير فيجعله بلفظه خسيسا ".(٤)

---

١) عيار الشعر . ص/٨٩. لابن طباطبا .

٢) النقد الأدبي الحديث . هلال . ص/٢٥٦.

٣) الحيوان للجاحظ . ج٢/١٣١ - ١٣٢.

٤) نقد الشعر . قدامة . ص/١٠١.

والرأي الذي نميل اليه ، ونجد فيه الاستقامة والانصاف ، أن اللفظ والمعنى جناحا العمل الشعري وبهما يحلق . فالمعنى الشريف العظيم،اذا أكرمه الشاعر بلفظ لطيف، وصانه عن التعقيد والغرابة والهجنة ، رفع من شأنه ، وجعله في عداد الروائع الأدبية.وقد تحيز لهذا الرأي عدد من النقاد ، منهم ابن قتيبة ، الذي سوى بين اللفظ والمعنى فقال : " فخير الشعر عندي ما حسن لفظه وجاد معناه ، فاذا قصر اللفظ عن المعنى ، أو حلا اللفظ ، ولم يكن وراءه طائل،كان الكلام معيبا."(١) فاللفظ والمعنى ، وان كانا عنصري الجمال ، لا تتجلى الصورة الأدبية الا بهما.وعن طريق صياغتهما .

ويكون الشاعر فذا في لغته،اذا استطاع أن يحقق التجانس والانسجام بين اللفظ والمعنى . فجاء باللفظ القوي الفخم ، للمعنى القوي،والمناسبة اللائقة به.واستعمل اللفظة السهلة الرائقة الواضحة ، في ما يستدعي الرقة ، ويستوجب السلاسة ، وكل ذلك بلا زيادة أو قصور ، مع تجنب الألفاظ الثقيلة المستكرهة .

والخوارج وأعني الشعراء منهم ، الذين التزموا بالمعاني الاسلامية في قصائدهم سيكونون أكثر التزاما بالمفردات والتراكيب والصياغة القرآنية والنبوية . فحاكوا كلامهم ، وخاطوا ألفاظهم على قدود المعاني التي أرادوا التعبير عنها ، خدمة لعقيدتهم ومذهبهم . وان كانت اللغة التي تعاورها الشعراء في شعرهم ، تلك الكتلة اللغوية البدوية الخشنة ، التي كان يعرفها الشعر الجاهلي ، وحاول كثير من الشعراء المعاصرين للخوارج ، أن يتابعوهم بذلك ، والطرماح في أغلب شعره اختار تلك السبيل . اذ حاول أن يحاكي الشعراء الجاهليين ، ويبدو ذلك في قصائد الوصف أظهر وأبين ، مع أنه عاش في المدن ، وحرمته تلك الحياة معرفة الاستخدام الصحيح والدقيق للألفاظ .

---

١) الشعر والشعراء . لابن قتيبة . ص/ ٣ ٤٠ .

فقد ذكر عنه صاحب الموشح : أنه " عرف بضعف الحس اللغوى بعض الشعراء الذين نبتوا فى المدن ، مثل الطرماح والكميت ، ويسجل الرواة على الطرماح ، أنه كان يستخدم الألفاظ البدوية الغريبة فى شعره استخداما غير دقيق ، وأنه كان يكلف بادخاله ألفاظ النبط الآراميين فى شعره "[١].

وقد علل الدكتور شكرى فيصل تلك الظاهرة ، التى أحضرها الشعراء بتكلفهم الحياة الجاهلية ، فقال : لقد فصلت الحياة الجديدة ، بين شعراء هذا الدور وبين التراث الشعرى القديم ، فبدأ فى بعض صوره وأساليبه، وفى بعض تعابيره وأوصافه ، غريبا عنهم ، لا يحسنون وصفه ، فاذا فهموه ، لم يحسنوا تمثله ، فاذا خيل اليهم أنهم تمثلوه ، ثم جاءوا يحتذونه ، اتضحت هذه الجهالة ، وظهر سوء الفهم . وكان ذلك أثرا طبيعيا لتناول هذه الأشياء الغريبة، ومثل هذا الجهل بالقديم، والاضطراد فى فهمه دفع بالطرماح مثلا ، فى بعض الأخطاء الواضحة . فهو يقلد الجاهليين فى وصف الثور الوحشى ، فى ليلة ممطرة باردة ، على بعد ما بينهم وبين هذه المظاهر ، من حياة الجزيرة الصحراوية، فيستعمل لفظا يدل على الريح الحارة ، اذ يقول عن هذا الثور : " أنه كانت تلفه سارية وطفاء (أى سحابة مثقلة بالماء ، وهيف مبرد) :

كمخفق الحشيين بات تلفه وطفاء سارية وهيف مبرد

والهيف ريح حارة ، تأتى من قبل اليمن ، وقد أشار المرزوقى[٢] الى ذلك ، فقال : "خالف الطرماح أكثر العرب ، فجعل الهيف فى البرد ، فقال : وذكر شطره ..."[٣]

ولعل هذه السقطات ضريبة تكلف مالا طائل وراءه ، من لبس ثوب مستعار ، والكذب فى الوصف، اذ يرى عينيه ما لم ترياه . مع أن شعر الطرماح ظل - لما فيه من الغريب - مشغلة الرواة اللغويين الى ما بعد عصره ، وأدى دوره فى تعليم العربية وأوابدها .

---

١) الموشح . ص٢٠٨ . للمرزبانى .
والاغانى . ج١٢/٣٦ .
٢) الأزمنة والأمكنة . ج٢/٧٥ - ٧٨ .
٣) المجتمعات الاسلامية . ص/٤٣٠ .

واذا كان معظم الشعراء فى عصر الخوارج ، التزموا القيم الجاهلية فنيا . كان على الخوارج أن يلتزموا القيم الاسلامية ، وأن يحرصوا على أن يكون فنهم صورة عن دعوتهم وفكرتهم .. المستمدة من القرآن الكريم ، وحديث النبى صلى الله عليه وسلم .. وهذا ما تحقق على أيديهم ، فقد ارتقى القوم باللغة العربية - بعد أن خصت بذلك التشريف فكانت لغة الرسالة - الى مكانة قد صقلت وشفت ، وتخلت عن كثير من مظاهر خشونتها ، والتقت على منتخبات جديدة ، وعلى قاموس جديد ألفته الألسنة ، وانطلقت به فى يسر واسماح ، وذلك فى ميدان الشعر .

وما مرد ذلك الا للحياة الاسلامية ، التى عاشها الشراة تحت رواق الآيات القرآنية . فاغترفوا من معين القرآن ، وألفاظه المصقولة الفصيحة الرشيقة .. وجاء شعرهم صورة عن تلك الألفاظ القرآنية ، فصدر ذلك الشعر عن طبع لا أثر فيه للتكلف ، وتحدر من ألسنتهم دون انتقاء أو التواء ، فمالت ألفاظه الى البساطة والعفوية ، مع توهج الكلمات التى رقدت فى مواقد البطولة والاقدام ، وتجسدت فيها القوة والرصانة . فجمعت بذلك بين السهولة واليسر ، والجزالة والرصانة والوضوح ، وبعد عن الاغراب والتعقيد اللغوى ، الذى يغيب المعانى وراء وشاحه .

وشعراء الخوارج - كما مر معنا - دعاة المذهب وفرسانه ، فاذا فاتهم تحقيق ما يصبون اليه فى مواطن الفتك والقتل ، فلم يفتهم التبشير بمذهبهم ، واقناع قطاع من المسلمين ليس بالقليل فى المواطن التى اتخذوها ساحة لتحركاتهم . ويدلنا على ذلك المطاردة الدائمة لشاعر حظ السنان فى يده قليل ، وهو عمران بن حطان ، ولكن نصيبه من الجهاد باللسان كبير ، وتأثير شعره فى السامعين عظيم . حتى كاد يفسد الناس على بنى أمية . وشاركه فى ذلك أغلب الخوارج . فقد ذكروا ، أن عبدالملك بن مروان أتى برجل منهم ، فبحثه فرأى منه ما شاء فهما ، وعلما .. فاستدعاه الى الرجوع عن مذهبه فرآه مستبصرا محققا .. فزاده فى الاستدعاء ، فقال له : لتغنك الأولى عن الثانية ، وقد قلت فسمعت ، فاسمع أقل . قال له : قل : فجعل يبسط له من

قول الخوارج ، ويزين له مذهبهم بلسان طلق ، وألفاظ بينة ، ومعان قريبة ، فقال عبدالملك بعد ذلك على معرفته : لقد كاد يوقع فى خاطرى ، أن الجنة خلقت له ، وأنا أولى بالجهاد منهم ... وكان عبدالملك من الرأى والعلم بموضع.(١)

هذا التأثير الذى وصفه عبيد الله بن زياد أنه أسرع الى القلوب من النار فى البراع، كان بسبب صدقهم لمبدئهم ، وثقافتهم الواسعة ، وحجتهم الواضحة ، ولغتهم الناصعة. واللغة عندهم وسيلة - وليس قيمة فنية - لتحقيق واقناع وتبشير بالدعوة الخارجية ، فكانت ألفاظهم جزلة قوية ، فى مواكب الفتوة والجهاد والحماسة والشهادة ، يسيرة لينة ، من غير ابتذال وسقوط، وبعد عن العامية، مع هدوء ورقة فى مخاطبة الوجدان والشعور، ولا تحفل بلغة الحجاج والجدال والتعقيد . " لأن التعقيد يستهلك المعانى ويشين الألفاظ " .(٢)

ولأنهم لا يؤمنون بالغموض والمداورة .. بل مسلكهم الوضوح ، والصراحة ، وهذا ديدن الشاعر الداعية ، الذى يشعر أنه جزء من عقيدته ، والعقيدة تعدل الحياة ، بل ان الحياة ترخص فى سبيل العقيدة . وهمه أن يبرز رأيه الى الجماهير، ويدعوهم الى الالتزام ، وكذا اتخذ الخوارج الشعر وعاء حيويا لتجاربهم ، مراعين فيه البساطة فى التعبير ، والسهولة ،مع جزالة فى الألفاظ أكسبت معانيه روحا وتأثيرا .

كما أن هذه الألفاظ ، متحها الشعراء من القرآن الكريم، الذى استولى على مشاعرهم وقلوبهم، وألسنتهم ، فتكاد تحس وأنت تقرأ شعرهم أنك تحت ظلال آيات الذكر الحكيم . اذ أن تردد الألفاظ القرآنية فيه . " الاسلام ، الالحاد ، الكافرون ، المجاهدون ، الرسول ، الفردوس ، الشهادة ، الجنان ، نمارق ، مصفوفة ، الأبرار ، ركوع ، سجود تهجد ...وغيرها " يدلك على جد الخوارج فى تطبيع الحياة وحركتها ، وفق هذا الكتاب الكريم .

---

١) الكامل فى الأدب . ج٣ / ٢٣١ - ٢٣٢.

٢) كتاب الصناعتين . ص/١٥٢.

يقول عمران بن حطان :

فنحن بنو الاسلام والله ربنـــا   وأولى عباد الله بالله من شكـــر[(١)]

ويقول عمرو بن حصين :

تلقاهم فتراهم من راكـــع   أو ساجد متضرع أو ناحـــب[(٢)]

ويقول الأصم الضبي :

كانوا اذا ذكروا نار الجحيم بكوا   وان تلا بعضهم تعريفها صعقوا[(٣)]

ويقول عمران بن حطان :

أم من تلظى عليه موقدة النا   ر محيط بهـا سرادقهـــا
أم أسكن الجنة التي وعد   الأبرار مصفوفة نمارقهـــا[(٤)]

ويقول عمران كذلك :

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهــم   بمثل الجمال الصفر نزاعة الشـوى[(٥)]

فهذه الأبيات التي بين يديك عينة من شعر الخوارج،تصدر ألفاظها من الآيات القرآنية ، لتعبر عن الأفكار الاسلامية . وقد يكون هذا الاقتباس ، وبمثل هذه السعة ، جديـــدا على الشعر العربي ، ولا حاجة أن نعيد الألفاظ التي تخللت الأبيات تلك . وهذه الثقافة القرآنية ، شغلت ساحة التفكير عند الخوارج ، اذ صبغت أشعارهـــم ، والألفاظ جزء منها ، بصبغة واحدة ، أدت الى تشابه أشعارهم ، والتشابه ينـــاق

---

١) شعر الخوارج . ص/١٦٥.
٢) المصدر السابق . ص/٢٢٩.
٣) ربيع الأبرار . ص/١٥٦. وقد ورد في شعر الخوارج مطلع هذه الأبيات .
صلى الاله على قوم شهدتهم : كانوا اذا ذكروا أو ذكروا شهقوا. ص/١٢٧.
٤) شعر الخوارج . ص/١٧٠.
٥) المصدر السابق . ص/١٥٦.

فى مجرى التكرار فى أغلب الأحيان ٠٠ وان كان التكرار وسيلة قوية للتأثير فـــى الأسماع، والقلوب ، وتثبيت الأفكار ، وقد نوه الأستاذ احسان عباس ، الى هـــذه القضية ، وقدم لها تعليلا معقولا ، وان كان قاصرا ٠ اذ جعل الحاجات التى يعبر عنها هذا الشعر محدودة مشتركة فيما بينهم ٠ وهذا ما جعل التكرار سمة بــــارزة ٠ فانظر الآن الى صورة من صور التكرار حتى اللفظى الذى ساقته المعانى ٠٠ يقـــــول عمرو القنا :

فحسبي من الدنيا دلاص حصينـــة   وأجـرد خوار العنان نجيــب
معي كل أوه برى الصوم جسمـــه   ففى الجسم منه نهكة وشحــوب [١]

ويقول عطية بن سمر الليثى :

وحسبى من الدنيا دلاص حصينـــة   ومغفرها يوما وصدر قنـــــاة
وأجرد محبوك السراة مقلـــــص   شديد أعاليه وعشر شـــــراة [٢]

ويقول عبدالله بن أبى الحوساء الكلابى :

ما ان نبالى اذا أرواحنا خرجـــت   ماذا فعلتم بأوصال وأبشار [٣]

ويقول أبو بلال مرداس بن أديـة :

ما ان نبالى اذا أرواحنا قبضت   ماذا فعلتم بأجساد وأوصــــال [٤]

وهذا التشابه والتكرار فى تلك الأبيات ، جاء دون تكلف واعمال ، بل صدر عـــــن الشعراء طبعا وعفوية ٠٠ ورغم هذه العفوية والطبع فى التعامل مع الألفاظ وايرادهـــا

---

١) شعر الخوارج ٠ ص٨٨٠
٢) المصدر السابق ٠ ص/٦٧٠
٣) المصدر السابق ٠ ص/٤١٠
٤) المصدر السابق ٠ ص/٥٠٠

في قصائدهم ، فقد جاءت موفقة في التعبير عن المعاني ، موافقة الغرض المطروق ، من حيث الجزالة والقوة ، في قصائد ومقطعات الحماسة والفروسية. فقد حفلت قصائدهم بألفاظ ممثلة لطبيعة الصراع بين الاسلام والكفر - في رأيهم ، والاقدام على خوض المعارك، الذي أكسب تلك الأشعار طابعا من القوة ، وهذا ما دفع أبو عبيدة أن يقول كل ما سمع شعر قطري بن الفجاءة الفارس ، ، "هذا الشعر لا ما تعللون به نفوسكم من أشعار المخنثين" .

فاسمع الى واحدة من مقطعات قطري بن الفجاءة تلك ، والتي تتجلى فيها صلابة الخوارج وجلدهم وثباتهم .. مطبوعة بطوابعهم ، اندفاعا في جزالة وقوة .. معبرة عن شجاعتهم وجرأتهم يقول :

يا رب ظل عقاب قد وقيت به	مهري من الشمس والأبطال تجتلد
ورب يوم حمى أرعيت عقوته	خيلي اقتصارا ، وأطراف القنا قصد
ويوم لهو لأهل الخفض ظل به،	لهوي اصطلاء الوغى أو ناره تقد
مشهرا موقفي والحرب كاشفة	عنها القناع ، وبحر الموت يطرد
ورب هاجرة تغلي مراجلها	مخرتها بمطايا غارة تخد
تجتاب أودية الأفزاع آمنة	كأنها أسد تقتادها أسد
فان أمت حتف أنفي لا أمت كمدا	على الطعان وقصر العاجز الكمد (٢)
ولم أقل لم أساق الموت شاربه	في كأسه والمنايا شرع ورد

ولا ننس قصيدته التي تبعث الشجاعة في قلب الجبان الرعديد :

أقول لها وقد طارت شعاعا	من الأبطال ويحك لن تراعي (٣)

انها خلاية الألسنة التي تستميل الأسماع ، وتهز النفوس، وتثير المشاعر . مع فصاحة العبارة وقوة الأسلوب .

---

١) شعر الخوارج . ص١١٠.

٢) شعر الخوارج . ص/١٠٨.

والآن انظر تلك الألفاظ التى اتشحت بالهدوء، فى القصيدة التى أرسلها قطرى ابن الفجاءة ، الى سميرة بن الجعد ، أحد أصحابه حين أصبح جليسا للحجاج ، يقول:

ألم تر أن الموت لا شك نازل ولا بعث الا للألى فى المقابر
حفاة عراة والثواب لربهم فمن بين ذى ربح وآخر خاسر
فان الذى قد نلت يفنى وانما حياتك فى الدنيا كوقعة طائر
فراجع أبا جعد ولا تك مغضيا على ظلمة أعشت جميع النواظر(١)

"نازل ، بعث ، حفاة ، عراة ، ثواب ، ربهم ، مغضيا ، أعشت" . وكذلك ترى الطابع الهادىء ، الذى وسم تلك الألفاظ ، فى أبيات سميرة بن الجعد ، التى خلفها وراءه للحجاج يقول :

عجبت لحالات الأنام وللدهر وللحين يأتى المرء من حيث لا يدرى
وللناس يأتون الضلالة بعدما أتاهم من الرحمن نور مع البدر
ولله لا يخفى عليه صنيعنا حفيظ علينا فى المقام وفى السفر(٢)
علا فوق عرش فوق سبع ودونه سماء يرى الأرواح من دونها تجرى

وهذا الهدوء المتسق مع الغرض الذى تناوله الشاعر، تأملات واستغراب ، لم يحرم العبارة الجزالة ، اذ جاءت منسابة من غير تعقيد أو التواء ، ولا اعتساف بتقديم وتأخير ، ولا تلمس تدابرا بين الجزالة والسهولة فى شعر الخوارج .

لقد كان شعر الخوارج ، رفيع الصوغ محكم البيان ، لم تنفر كلماته، ولا ندت أبياته ، تلونت مع تلون الأغراض ، من صلابة، وقوة، واندفاع ، الى هدوء واتزان ، واحيانا رنة أسى ، وأنة حزن ، فى رثاء ، أو فجائع دهر ، وما أكثرها .

وقد تمكن شعراء الخوارج من الجمع بين الجزالة والفخامة والسهولة والعفوية ، فانثنت الأعناق لسماعه ، وشنفت الآذان بعد أن استمال القلوب .

---

١) شعر الخوارج . ص/١٢٠.
٢) المصدر السابق . ص/١٢٤.

ان شعراء الخوارج ، عمقوا سبيل التجديد فى لغة الشعر ، حيث السهولة واليسر اللذان يمكنان الشاعر من نقل آراء مذهبه الى الجماهير ، مع ما امتاز به شعرهم من السلاسة والبساطة فى التعبير ،وبعد عن مشقة الاختيار والارتقاء ٠٠ اذ أصبحت الجزالة أو القوة والسهولة ظاهرتين ملازمتين لشعرهم، وما ذلك بمستغرب ممن ملك ناصية اللغة ، واستقى من ينابيع الرسالة ، واتخذ من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، مدرسة فنية له ٠ فشعره صورة جديدة،ورائعة للشعر الاسلامى القوى، تلهبه حماسة،وايمان،وفداء،وثبات على المذهب ، وزهد فى الدنيا ومتاعها " علهم يحظون بمكان فى الجنان ٠

فشعرهم خلا من الغريب ، والتعقيد اللغوى ، والألفاظ الحوشية ، وغيرها من مظاهر الخشونة اللغوية ، مما أشاع السهولة فى أقطار الشعر الخارجى ونواحيه فى أغلب الأحيان،ووفق فى التعبير عن تجربة شعرائه تعبيرا صادقا ، بعيدا عن التكلف والرياء ٠

اذا اتفقنا على أن شعر الخوارج ، شعر سهل مطبوع ، بتدفق بيسر وانسياب، مع بساطة فى التراكيب،وسهولة فى الأسلوب ، ووضوح فى المعانى ٠ الى جانب المواقف الملحة التى قيل فيها ، والتى لم تتح للشاعر الخارجى الوقت ، للاعداد، والتنميق ، أو المراجعة،والتدقيق ، مع زهده فى التحكيك،والتنقيح ، لأن الشعر لديهم ، اختلاجة نفسية، أو لحظة شعورية موارة فى خواطرهم ، تدفعهم الى القول ، دون أن يلتفتوا الى الروية والتكلف ، والمعاودة ٠

فاننا نسلم بخلو شعرهم ، فى أغلبه ، من الصنعة الشعرية ،أو الجهد الفنى المركز ، مع ندرة فى الخيال ٠٠ وأود أن ألح هنا على الأسباب التى أبعدت الشاعر الخارجى عن التنميق،والصنعة ،والافتنان ، هو أن الغاية الفنية لم تكن مقصودة عندهم ، بل يحدوه الى قول الشعر ، التعبير عن المشاعر والأحاسيس والانفعالات النفسية ، ويأتى الفن هدفا لاحقا ، بعد تركيز الأفكار ، وحسن عرضها ، مع مراعاة الصدق فى نقل أبعاد التجربة الشعورية والموضوعية ٠٠٠ فهناك توازن وتناسق بين التصور والتصوير ٠ لأن تلمس الصدق الفنى ، قد يبعد الشاعر عن المبالغة ،والافراط فى نقل الانفعالات ، ولا يمكن للشاعر الملتزم ، أن يزيف مشاعره لحساب أحد ٠ فلا عجب بعدها أن تلوح لك الصور الشعرية ، لدى شعراء الخوارج ، كالومض الخاطف ٠٠

وسيلقى قولنا هذا انكارا من بعض الباحثين ، الذين سيداورون حول تقسيمات الصدق ويجعلونه لونين ، صدقا خلقيا ، وصدقا فنيا ٠٠ وهم فى مداورتهم تلك ، يطمس معنى الصدق بمفهومه الكامل ، الذى يترجم التصورات الى واقع قائم ، وحياة معاشة ٠٠

" فالأدب لم يوجد فى هذه الحياة الانسانية ، ليكون ميدانا لاظهار البراعة اللغوية والمهارة الصياغية ٠ لم يبرز الى الوجود ، ليكون مجالا للتحذلق والتفيهق والتطوف والبهلوانية ٠ " ٠ (1)

---

1) وظيفة الأدب ٠ محمد النويهى ٠ ص/٤٣٠

كما أن ملكة الخيال ، ليست وسيلة الاختلاق والتزييف ، بل هي ملكة الابصار التام ، والعميق للتجربة الانسانية ، من نافذة التصورات السليمة ٠٠ وعندها تكون قوة التصوير دعامة من دعائم الجمال ، والتأثير ، والصدق الفني لتصوير المعنى واثارة الفكر ، والخيال ، وتوصيل أعمق الحقائق الى العقل والقلب ٠٠

وقد أصاب الدكتور محمد غنيمي هلال ، وهو يدرس قضية الصدق في الشعر قال : " ان القرآن لم ينب الشعر من ناحية قوة التصوير ، اذ أن هذه القوة ، هي مقياس بلاغة الكلام ، التي بلغ القرآن فيها قمة الاعجاز ، والذي ينكره القرآن من الشعر ، هو الذي ينافي صدق الأداء ، وهذا متصل بمفهوم الشعر في عصر الرسول نفسه ٠٠٠٠

ذلك أن شعراء العرب في بادئ الأمر ، كانوا لا يتكسبون بالشعر ، وكان الشاعر في الجاهلية - كما يذكر الجاحظ ، ومن تابعه من النقاد - أرفع منزلة من الخطيب ، لحاجتهم الى الشعر ، في تخليد المآثر ، وحماية العشيرة ، فلما تكسبوا بالشعر ، صارت الخطابة فوقه" ٠ ودامت هذه المكانة للشعر عند المسلمين ، ما ذكر بفضيلة أو حث على خير ٠٠٠٠ فكانت مهمة الشعر ، هي تسجيل المحامد ، وتصوير آيات البطولة الخلقية ، لتجد سبيلها الى النفوس ، ثم الدفاع عن القبيلة ٠٠٠

على أن المادحين من مال الى الصدق ، واتخذه له مذهبا ، دافع فيه عما يعتقد ٠ ومن هنا استصوب الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

شعر حسان الذي يقول :

وان أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقال اذ أنشدته : صدقا
وانما الشعر لب المرء يعرضه ... على المجالس ان صدقا وان كذبا (١)

فالشعراء الذين يحفلون بالصدق كانوا قلة ٠ وكان الشعر في حاجة الى استقامة مفهومه ، بصلاحه وصلاح أهله ، وذلك عن طريق الصدق ، بحيث لا يعبر الشاعر عما لا يعتقد

---

١) شرح ديوان حسان بن ثابت ٠ د/ عبدالرحمن البرقوقي ٠ ص/٣٤٨٠

ولا يسوقه متجرا يتكسب ، فيمتهنه ، ويمتهن به نفسه . ولو أن النقاد القدامى وجهوا جهودهم الى اقامة معنى الشعر ، بتقويمه على اساس صدقهم . كما تنبه الآية الكريمة ، وكما اهتدى الى ذلك النقاد المحدثون ، فى فرضهم صدق الأداء النفسى والفني ، لبلغ الشعر العربى منذ القديم منزلة أرقى مما وصل اليها ، ولكان قد ارتقى الى مرتبة عالمية " .(١)

والصدق الذى حفل به شعراء الخوارج ، قيد خيالهم ، مخافة الوقوع فى المبالغة التى تزيف المعنى ، والمبالغة بوابة الكذب .. حتى أن اتباع المذهب الخارجى اعترضوا على الشاعر عندما توهموا أنه جانب الحقيقة .. فقد أورد المبرد : أن امرأة عمران بن حطان قالت له : أما حلفت بانك لا تكذب فى شعر ، فقال لها : أوكان ذاك ؟ قالت : نعم ، قلت :

فكذاك مجزأة بن ثور كان أشجع من أسامة(٢)

ففى الخبر أن عمران بن حطان ، قد حلف : أنه لن يكذب فى شعر . وزوجته فهمت من هذا التشبيه ، المبالغة والكذب . فاعترضت عليه . ولكنه حاول أن يبرر ، وهو تبرير صادق ، صدق التزامه بالمذهب الخارجي . فكان فنه " يتسم بالصدق وتوخي الحقيقة ، ويبرأ من الكذب والمبالغة ".(٣)

كما أن الأخطل ، شهد له بتلك الخصلة "فقد اجتمع الشعراء عند عبدالملك بن مروان فقال لهم : أبقي أحد أشعر منكم ؟ قالوا : لا فقال الأخطل : كذبوا يا أمير المؤمنين ، قد بقى من هو أشعر منهم ، قال : ومن هو ؟ قال : عمران بن حطان

---

١) دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر ونقده ، د/ هلال . ص/٢٢-٢٦.
٢) الكامل فى الأدب . ج٢/٢٠٧.
٣) أدب السياسة . ص/٤٨٩.

قال : وكيف صار أشعر منهم ؟ ، قال : لأنه قال وهو صادق ، ففاقهم ، فكيف لو كذب كما كذبوا ؟![1]

فلذا كان الخيال نادرا في شعر الخوارج • لأن الخيال المجنح ، ينطلق من ذهن خلي يطارد وراء الصور ليقتنصها • أما الشعر الذي ملكت زمامه عقيدة لها تبعة ثقيلة ، أودت بعهد النوم في حياته ، فسيبقى خياله في حدود معاناته، ومكابدته . يعايش الواقع النكد الذي يحيط به • ويتطلع بعين الى واقع استقامت مسيرة الحياة على جادة الحق ، وبأخرى الى الجنان التي نذر نفسه أن ترتحل اليها، من فوق قنطرة الشهادة •

وهذا الأمر ليس خيالا ، بل واقعا اكتسبه، وعاشه، بعد أن وقر الايمان في قلبه، وخالط مشاعره وتفاعل مع أحاسيسه ، وبين حناياه، فترقرق الخيال - إن وجد - ليصور حقائق عقدية وأفكاراً ايمانية ، وانحسر نصيب الوهم والظن ، ليبقى مجال التخيل محدودا في شعر الخوارج . لأن شعراءهم آثروا التعبير بالحقيقة ، على التوسل بالخيال وقد يكون مرد هذا ، الى قناعتهم بصدق شعورهم، والتزامهم بدعوتهم، وأحقيتها • أضف الى ذلك اضطراب حياتهم وقلقها ، الذي لم يمكنهم من متابعة خياله اذا حاول الانطلاق • فجاء شعرهم نفثات فارس في ساحة الوغى ينفس بها عن مشاعره، واختلاجات صدره، وشعر البديهة والارتجال - كما هو معلوم - يكون حظه من الروية والتدقيق يسيرا •• فهو ينحدر عن الطبع ، ويصدر كما يصدر الماء عن النبع •

فلم يتح لشعرهم أن ينقح بطول التفتيش ، واعادة النظر ، مع كراهية القوم للتكلف والمبالغة ، وتهاويل الخيال، وتضخيمه للأشياء وايثار الصدق، والواقعية، والوضوح، والمباشرة في القول والعمل •

---

١) الأغاني • ج١٨/١٦٦•

والذي يرجح عندي ، وأكاد أراه سببا رئيسا في قلة احتفال الخوارج بالصور الفنية هو التلقائية فى قولهم الشعر ، لأن الخيال عنصر هام من عناصر التأثير والجاذبية ، بل هو خادم للحقيقة ، اذا استطاع الشاعر بالخيال أن يخرج من الألفاظ صورا تفيض بالحياة ، وتحرك الوجدان .. وهذا بلا شك ، يحتاج الى مصابرة ، واعادة وجهد . والقوم لا يصبرون على ذلك (لأن مدار اللائمة ، ومستقر المذمة ، حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف ، وبيانا يمازجه التزيد ".(1)

ولا يفهم مما سبق أن الصور الفنية غابت من سماء الشعر الخارجي ، بل كانت اشراقتها خاطفة . فقد وردت صور بيانية رائعة وموفقة، فى قصائد ومقطعات الشعراء الخوارج . ولكن ما هى الصورة الفنية تلك .

يعرف الأستاذ عبدالقادر القط الصورة فيقول : " هى الشكل الفنى الذى تتخذه الألفاظ والعبارات ، بعد أن ينظمها الشاعر فى سياق بيانى خاص ، ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة . مستخدما طاقات اللغة وامكانياتها ، فى الدلالة والتركيب والايقاع والحقيقة والمجاز .... وغيرها من وسائل التعبير الفنى " (2)

ولعل التشبيه من أكثر الفنون البيانية التى يستعين بها الشعراء لتكوين الصور التى يرجى منها أن تقرب المعنى الى ذهن السامع، وتوضحه ، وتزينه ، ليقع من قلب السامع بمكان .

وهذا ما تحقق على يد عبيدة بن هلال فى صورته الرائعة التى رسمها ليقول :

يدنو وترفعه الرماح كأنــــه شلو تنشب فى مخالب ضـــار
فثوى صريعا ، والرماح تنوشه ان الشراة قصيرة الأعمـــار (3)

---

1) البيان والتبيين . ج١/١٣.
2) الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر . ص/٤٣٥. ط١٩٧٨.
3) شعر الخوارج . ص/٦٢.

هذه صورة من أرض المعركة حيث الالتحام والصدام ، الذى عاشه القوم ، وذلك لاسقاط القوة الباغية التى تنكبت الجادة - كما يدعون - فالرجال وحوش ضارية ، تمزق فريستها ، ولكن بأطراف الرماح ، التى علقت بأجساد الأعداء كالأنياب الحادة .. فعادت الأجساد أشلاء .. ولو أردنا أن نضع عنوانا لهذه اللوحة ، فلا أروع من (إن الشراة قصيرة الأعمار) .

وأنظر هذه الصورة التى رسمها فروة بن نوفل الأشجعى ، لرجال الخوارج ، فى حومة الوغى ، اذ هزلت الأجساد من كثرة الصوم والسهر ، ولكن صارت أكثر مضاء فى المعارك ، فهى كالسيوف البتارة . يقول :

هم نصبوا الأجساد للنبل والقنا ... فلم يبق منها اليوم الا رميمها
تظل عتاق الطير تحجل حولهم ... يعللن أجسادا قليلا نعيمها
لطافا براها الصوم حتى كأنها ... سيوف اذا ما الخيل تدمى كلومها (١)

ويصورهم سميرة بن الجعد ، وقد أرخى الليل سدوله ، ونام أبناء الدنيا مع أحلامهم ومغامراتهم .. وهب الشراة وجلين ، فوقفوا بين يدي الله ، متضرعين باكين ،كنساء ثكالى،بعد أن أمضوا نهارهم على ظهور خيولهم .. فهم فرسان هيجاء ، وأسد معارك ورهبان ليل . يقول :

الى عصبة أما النهار فانهم ... هم الأسد عند الحرب أسد التهايج
وأما اذا ما الليل جن فانهم ... قيام كأنواح النساء النواشج
ينادون بالتحكيم لله انهم ... رأوا حكم عمرو كالرياح الهوائج (٢)

كما يصف الرهين المرادى تماسكهم فى المعارك ، وشجاعتهم وبأسهم،فهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . اذ يقول :

تخال صفهم فى كل معترك ... للموت سورا من البنيان مرصوصا (٣)

---

١) شعر الخوارج . ص/٤٣ .
٢) المصدر السابق . ص/١٢٣ .
٣) المصدر السابق . ص/٦٢ .

وهكذا ترى أن الصور السابقة كلها ، تتحدث عن الانسان الخارجي ·· عن شجاعتـــه واقدامه في المعارك الطاحنة · أما ساعات الليل الرائقة ، فهي ميدان سبحات المتبتيلين الطامعين المشفقين · طامعين بعفو الله وجنته · مشفقين من عذابه،ان قصروا فـــي جنب الله تعالى ، وقبلوا حكم غيره ··

أما الدنيا في نظرهم · فعمرها قصير ، وخطرها كبير ، على من كانت في قلبه وشغلته عن ذكر الله عز وجل ·· فالخارجي قلاها ، وطردها من ساحة اهتماماته ، وزهـــد بمتاعها ·· وقد أجاد شعراء الخوارج في تصوير الدنيا وبيان حالها وحال الانســان وهو يقطع مفازتها أو تقطعه · يقول عمران بن حطان مصورا لها :

وليس لعيشنا هذا مهـــاه	وليست دارنا هاتا بــــدار
جماد لا يراد الرسل منهـــا	ولم يجعل لها درج الظئــار
ولكنا الغداة بنو سبيـــل	على شرف بيســر لانحـــدار
كركب نازلين على طريـــق	حثيث رائح منهم وســـار
وعادر اثرهم طربا اليهـــم	حثيث السير مؤتنف النهار[1]

فالحياة الدنيا ناقة جف ضرعها ، ولا يرتجى دوام سرورها ، والانسان مرتحل عنهـــا بعد أيام قليلة ، سيطويه الفناء ، كما طوى من جاء قبله ·· وسيطوى الأجيـــال المتلاحقة بعده ·· فهم ركب نزلوا على طريق ، فقضوا بعض لباناتهم ، ثم حثـــوا مطاياهم،ولكن الى حياة أخرى ·· وقد ألح عمران على تصوير الحياة بصور مختلفـــة :

يقول :

أراها وان كانت تحب فانهـــا	سحابة سيف عن قليل تقشـــع
كركب قضوا حاجاتهم وترحلـوا	طريقهم بادي العلامة مهيـــع
أحلام نوم أو كظل زائـــل	ان اللبيب بمثلها لا يخـــدع[2]

---

١) شعر الخوارج · ص/١٥٤·

٢) المصدر السابق · ص/١٥٠·

وبما أن الخوارج رجال حرب وجلاد ، فلابد أن يكون لآلة الحرب نصيب من تلك الصور الفنية .. وإن كان عمران بن حطان من القعد، لكنه رسم صورة للفرس الجموح الذى امتطاه الخارجى، وهل فى إجادة رسم الصورة هذه ، تعويض عن شهود الوقائع ؟ أم أن تفرغه للقول ، مكنه من الاجادة ؟ فاسمع ما يقول :

	عرّى الركاب التى قد كان يعملها	واختار أجرد صهالا له خصل
أ	كأنه فلكة فى كف فارسه	اذا جرى وهو حامى العقب منسحل
ب	يمشى بشكته فى القوم مشترف	كأنه قارح بالدو مبتقل
ج	وحارك مثل شرخ الكور مرتفع	وليس فى صلبه ضعف ولا عصل
د	طوع القياد وأىّ تقريبه خذم	أقب كالسيد لا رطل ولا سفل
هـ	حتى كأن بعُرْشيه ومحزمه	أشطان بئر متوح غربها سجل[1]

فى كل بيت صورة ، لذلك الحصان ، فهو فى اندفاعه ..كالموج المضطرب ، يدفع بعضه بعضا .. وعندما يمشى بفارسه وعدته ، تراه متبخترا كحمار وحش مسن فى مفازة ، يرعى البقل ، ولكنه حذر يقظ . أما أعلى كاهله ، فهو كالرحل العظيم .. من غير عرض أو مرض .. لقد استكمل صفات كرائم الخيل .. طواعية بيد الفارس ، مع شدته وجموحه ، اقدام وقوة ... ضمور ولكن من غير هزال .. جمال وعظم .. فشعر عرفه كحبال تتدلى فى البئر ، تمتح الماء بالدلاء الكبيرة ... وأظن أن جمال الصورة قد اختفى وراء الألفاظ الغريبة الوحشية ..

أ- العقب : الجرى يجئ بعد الجرى الأول . منسحل : مسرع فى مشيه .
ب/ الشكة : السلاح . الدو : المفازة . القارح : حمار الوحش المسن . مبتقل :يرعى البقل.
جـ الحارك : أعلى الكاهل . الشرخ : الحرف الناتى . ويكون ذلك فى آخر الرجل وواسطته . العصل : الاعوجاج .
د- وأى : شديد كأنه حمار وحش . التقريب : ضرب من السير . خذم : سمح سهل . أقب : ضامر . رطل : لين رخو . سفل : مهزول .
هـ/ عرشا الفرس : آخر شعر العرف . الغرب : الدلو العظيمة . أى (الدلو) :ثم أخذها عمر فاستحالت فى يده غربا .
١) شعر الخوارج . ص/١٥٢.

فهى صورة تقوم فى مفاوز الجزيرة وفيافيها ، حيث الحمار الوحشى ، والذئـــاب ..

وهناك لون آخر من الألوان التى توسل بها شعراء الخوارج الى الصورة الفنية ، وهو الاستعارة . التى يستطيع الشاعر بفضلها أن يقيم علاقات جديدة بين الأشياء ، تزيد الشعر جمالا وطرافة .

يقول عبيدة بن هلال :

طال ليلى ، وغير الدهر حالـــى ورمانى بصائبات النبـــال
أفرق الدهر بيننا قطـــرى ورمانا بفتنة الدجـــال(١)

فالدهر هنا يرمي الشاعر ، بنبال قاتلة ، بفجائع ومصائب .. ولم يكتف بذلك بل رمـى طائفته بفتنة الدجال .. وهل فتنة الدجال الا مضلة مهلكة .. فرقت بين الأحبة،وأذهبت ريحهم .

وقطرى بن الفجاءة ، يضع بين أيدينا صورة من صور فروسيته،فهو كما يقول ، يقف فى مكـان لا يخفى قاطنه . وكأنه طالب منازلة ، والحرب ازاحت القناع عن وجهها .

مشهرا موقفى والحرب كاشفـة عنها القناع وبحر الموت يطــرد
ورب هاجرة تغلي مراجلهـا مخرتها بمطايا غارة تخـــد
ولم أقل لم أساق الموت شاربه فى كأسه والمنايا شـــرع ورد(٢)

انها الاستعارة التى جعلت الحرب مخلوقا له وجه ، يرفع القناع عنه.وهل وجه الحـرب ذاك الا بداية الهلاك والدمار ، اذا أسفر ..

أما الهاجرة ، فقد اضرمت النيران تحت مراجلها ، وبدأت تغلى .. وشاعرنـا يمخر عباب هذه الصحراء،وكأنه يمخر عباب البحار . والعلاقات جديدة ،يقيمهـا الشاعر ، لاضفاء هالات جديدة حول شجاعته .

---

١) شعر الخوارج . ص/٩٨.
٢) المصدر السابق . ص١١٠.

أما يزيد بن حبناء ، فقد أعمل الصوم في الأجسام ، بريا ، حتى عادت هزيلة شاحبة ، يقول :

معي كل أواه برى الصوم جسمه ففي الجسم منه نهكة وشحوب (١)

وكذلك الكناية ، وردت في شعر الخوارج ، ولكن حظها قليل ٠

يقول نافع الأزرق :-

فقالت تميم نحن أصحاب شارة ولن ينتهوا ، حتى يعضوا الأصابعا (٢)

فقد كنى الشاعر بعض الأصابع ، عن الندم الذى انتابهم ، بعدما عظمت مصيبتهم ٠٠

أما الكناية عن العفة والغيبة ٠ فقد وردت في شعر يزيد بن حبناء :

لا أقرب البيت أحبو من مؤخره ولا أكسر في ابن العم أظفاري (٣)

فهو شريف عفيف ٠٠ يأتي البيوت من أبوابها ٠٠ ولا يكسر أظفاره ، في نهش ابن عمه ٠٠

والكناية عن زهد الشراة في الحياة الدنيا ومتاعها ، نحول أجسادهم التي غودرت في أرض المعركة ٠ طعاما للغربان والطيور الجارحة ٠ ولكن أنى للأجسام التي ضوت من كثرة العبادة والجهاد ٠ أن تحمل اللحم ٠ وقد أبدع حجية بن أوس ، في ذلك المعنى ، بوساطة فن الكناية ٠

يقول :

ترى عافيات الطير يحجلن حولهم يقلبن أجساما قليلا لحومها (٤)

---

١) شعر الخوارج ٠ ص/٨٩٠

٢) شعر الخوارج ٠ ص/٦٩٠

٣) المصدر السابق ٠ ص/٨٧٠

٤) المصدر السابق ٠ ص/٤٣٠

فالطير تقلب أجسادهم ، بعد أن سقطت قعصا - ميتة فى أرض المعركة .. ولكن لم تجد لحما على هذه العظام .

وهناك فى قصيدة عيسى بن فاتك الحبطي . لوحة رائعة ، تعددت ألوانها ، يقول:

مضوا قتلا وتمزيقا وعليا تحوم حولهم طير وقوع
اذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن فى الدنيا هجوع
لهم تحت الظلام ، وهم سجود أنين منه تنفرج الضلوع[1]
وخرس بالنهار لطول صمت عليهم من سكينتهم خشوع

الى جانب بعض المحسنات البديعية الأخرى ، وان كانت على قلة ، ولا تنس أن الخوارج اعتمدوا فى تكوين الصور الفنية ، فى أشعارهم على القرآن الكريم ، فكانوا بذلك أكثر واقعية وجدية ، وأقرب الى الحقيقة .

كما كانت صورهم قريبة المأخذ ، سريعة فى تدفقها ، توائم سرعتهم فى الحياة . ولتناسب طبيعة الظروف التى أحاطت بهم ، وصرفتهم عن التفنن والتدبيج . فاعتمدت الصورة - عند شعر الخوارج - على الواقع المحسوس ، فى جميع عناصرها ، فى أغلب الأحيان .

وان افتقدنا الظواهر الفنية الواسعة ، فى شعر هؤلاء القوم ، مقارنا مع شعر معاصريهم . فقد استعاض عن بعضها ، أو عن الاهتمام بها ، بحرارة العاطفة ، وتوخي الصدق والصراحة . اذ كان معيارهم لجودة الشعر وروعته ، هو مدي التعبير عن الحق ، والالتزام به ، وايثار الصياغة القرآنية ، التى أمدت المعاني بروعتها وجمالها .. مع انها قدمت الأفكار والمعانى بصورة مباشرة فى أغلب القصائد والمقطعات .

فهل نستطيع أن نقول : ان شعراء الخوارج ، لم يحلقوا بخيالهم ، ويطيلوا سبحاتهم .. لأن الصدق والارتجال قيدهم ؟ أرجح ذلك .

---

١) شعر الخوارج . ص/٥٦.

وقد تكون الطبيعة البدوية ، التي يحملها غالبية شعراء الخوارج ، تركت بصماتها واضحة في آثارهم الشعرية • اذ أن هذه الطبيعة ، تميل الى الايجاز ، وتتعلق بالواقع • فشمل الايجاز كل بناء القصيدة شكلا وموضوعا ، اطارا وصورة ، كان يشمل أفكارها كما يشمل ألفاظها ، وكان يتناول معانيها ، كما كان يتناول زينتها • (فلم يكن الشاعر ليسرف في التشبيه ولا ليلح عليه ، ولم يكن يجرى وراء الاستعارة ، أو يتصيدها ، ولم يكن يستكثر من هذه الألوان وانما كان يدع اقدارها وصورها ، تجرى في ما قدر لها أن تجرى فيه)(١) • بالاضافة الى الطبع الذى لا يرتاح للتصنع والتكلف •

لقد كان شعرا تصطنعه المواهب ، في حدود قدراتها ، لا تتكلف أن تشحذ هذه القدرات، ولا أن تضيف اليها • (كانت تستجيب لهذا التنفس الأدبى ، استجابة حرة مطلقة ، ولذلك تقرأ هذا الأدب ، فتحس الانسياب والتدفق ، فليس هناك قوة في التعابير ، ولا جفوة في الصور ••• ولا رغبة في الزخرف ، ولا ايثار السبك على المعانى ، ولم يكن شعرا تطغى عليه فنية مصطنعة • وكان التفنن الهادىء الذى لا تحس معه جهد الأديب ولا اعتصار قواه • وكان الوضوح ، وحسن الأداء ، من كمال التفنن •)(٢)

---

١) المجتمعات الاسلامية • ص/٣٦٧• بتصرف
٢) المجتمعات الاسلامية ص ٣٦٨•

الأزان الشعـــريـــة:ـ

لقد أولى النقاد قضية الأوزان الشعرية ، عناية كبيرة ، اذ أنها تمثل ركناً من أركان الشعر ، وقد يكون من أهمها ، يقول صاحب العمدة : (الوزن أعظم أركـــان حد الشعر، وأولاها به خصوصية ، وهو مشتمل على القافية ،وجالب لها ضرورة ...)[١] . فالوزن قسيم اللفظ،والمعنى،والقافية في الشعر . وجزء لا يتجزأ من العملية الشعرية، التي لا تستقيم الا به ، ومع غيره من العناصر الشعرية التي لا تتشكل القصيدة ، الا باجتماعها .

والوزن في ذاته ، صورة مجردة ، ولا قيمة لها منفصلة عن المعنى ، وانما يتبدى وسط العناصر الأخرى ، ويبدو جماله ، من خلال انسجامه وملائمته للغرض الشعرى ، فيقول صاحب (كتاب الصناعتين) : " واطلب لها وزنا يتأتى فيه ايرادها ، وقافيـــة يحتملها ، فمن المعانى ، ما تتمكن من نظمه في قافية ، ولا تتمكن منه في أخرى.."[٢] فالشاعر المبدع ، هو الذي يحسن اختيار الوزن المناسب للغرض الشعرى الذى سيطرقـــه ، بحيث يستوعب آثار تجربته الشعرية . والحالة الشعورية التى تختلج فى حنايــــاه . ومن الصعوبة بمكان ، أن نحدد لكل غرض وزنا معينا ،وكذلك كان شأن الشعراء الجاهليين . فكانوا كما قال الدكتور محمد غنيمى هلال : "يمدحون ويفاخرون ، ويتغزلون ، فــــى كل بحور الشعر .... والأمر للشاعر ، فقد يقع على البحر ذى التفاعيل الكثيرة فـــى حالات الحزن ، لاتساع مقاطعه وكلماته ، لأناته وشكواه . محبا كان أم راثيا ، ولملاءمة موسيقاه لأغراضه الجدية الرزينة . من فخر وحماسة ، ودعوة الى قتال ، وما اليها.."[٣]

---

١) العمدة . ج١ /١٣٤.

٢) كتاب الصناعتين . ص١٥٧.

٣) النقد الأدبي الحديث . د/ محمد غنيمى هلال . ص٤٦٨.

والحقيقة أن استمرار الأوزان العربية القديمة حتى يومنا هذا ، لم يكن مجرد مسألة تقليدية أو قصورا من الشعراء عن الابتكار والتجديد • ولكن هذه الأوزان الستة عشر ، تمثل في الواقع تنوعا موسيقيا واسع المدى ، يتيح للشعراء أن ينظموا في دائرته كل عواطفهم وخواطرهم وأفكارهم • دون أن يجدوا تضييقا ، أو حرجا ، يضطرون معه الى محاولة الخروج على هذه الأوزان ، ليلائموا بين مادة شعرهم الجديد ، وما تقتضيه من موسيقى ، وايقاع خاصين •••"(١)

ولقد كان بحر الطويل بحرا أثيرا لدى شعراء الخوارج ، فقد نظموا على أوزانه مختلف الأغراض الشعرية التى تناولوها ، وما ذلك الا لكثرة مقاطعه المناسبة لجلال مواقف الحماسة ، والمفاخرة ، والشهادة • وقد يكون لاختلاف حالات الشاعر النفسية ، والدواعي التى هاجته للقول ، شيء من الأثر • ففى الحماسة قال قطرى بن الفجاءة وعلى وزن البحر الطويل :-

ورب مصاليت نشاط الى الوغى	سراع الى الداعى كرام المقادم
أخضتهم بحر الحمام وخضته	رجاء الثواب ، لا رجاء المغانم
فأبنا وقد حزنا الثواب ولم نرد	سوى ذاك غنما ، وابتغاء المكارم(٢)

واستخدم البحر نفسه الجعد بن ضمام الدوسى ، فى الرثاء فقال يرثى صالح بن مسرح :

أيا عين فابكى صالحا ان صالحا	شرى نفسه لله يبغى بها الخلدا
وقد كان ذا رأي مبين ورأفة	صفوحا عن العوراء يدفعها عمدا
وقد كان فى الحرب العوان يشبها	ويسعرها بالخيل محبوكة جردا(٣)

---

١) اتجاه الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى • د/ هدارة • ص/٥٦٦•
٢) شعر الخوارج • ص/١١٩•
٣) المصدر السابق • ص/١٧٨•

واستخدمه عيسى بن فاتك الحبطي ، في الهجاء ، حيث يقول :

أخاف عقاب الله ان مت راضيا بحكم عبيد الله بالجور والغدر
وأحذر أن ألقى الهي ، ولم أرع ذوى البغى والالحاد فى جحفل مجر(٢)

واستخدم هذا البحر ـ الطويل ـ كذلك فى الأغراض الشعرية الأخرى ، حتى كاد أن يشاطر بمفرده ، البحور الشعرية الأخرى ، التى نظم القوم عليها أشعارهم ٠ ولو أردنا أن نضع هذا الكلام بلغة الأرقام لاتضح لنا ، أن مكانة هذا البحر فى الشعر الخارجي ، عزيزة وأثيرة ٠

البحر	عدد القصائد	عدد الأبيات
الطويل	١٥١	٥٨٠
البسيط	٥٨	٢١٢
الكامل	٢٩	١٩٢
الوافر	٣١	١١٠
الخفيف	١٢	٦٣

بالاضافة الى مقطعات وأبيات قليلة ٠ نظمت على وزن مجزوء الكامل ، والمتقارب ، والسريع ، والمنسرح ، والرمل ، والمديد ٠
وليس هذا الايثار لبحر الطويل بدعا من الخوارج،بل كان كذلك أثيرا لدى شعراء العصر الجاهلى ٠٠٠ يتبعه البسيط والوافر والكامل ٠٠ وقد ذكر هذه القضية أبو العلاء المعري

---

١) شعراء الخوارج ٠ /١٦٥٠

٢) المصدر السابق ٠ ص/٥٦٠



الا أنهم أكثروا من استعمال بحر الرجز في نظمهم .. في الوقت الذى (لم يكن الرجز فى الشعر العربى - وهو بعض أوزانه الأصيلة - ليحل مكانا رفيعا من حياة الشعراء وفى انتاجهم الفنى ، كان شائعا حقا ، ولكن شيوعه لم يكن يعدو الأبيات القليلة ،[١] التى كانت لا تقال فى الأغراض الكبرى ، التى تقال فيها القصائد ، وانما تقال فى هذه الأغراض القريبة والصغيرة .

اذ كان الشاعر يقوله حين يخرج للحرب ، أو حين يتصدى للمبارزة ،أو حين تهتف به منازعه الداخلية.[٢] ، أن يغنى لنفسه غناء قريبا دانيا سهل التأتى . وعلى أن أكثر هذا الذى يروى من الرجز لا يبدو كبير حظ من الأصالة الفنية . الا أنه كان على كل حال لونا من التعبير الأدبى ، الذى رافق احداث الحياة فى القرن الأول ، ولربما كان هذا الرجز فى هذا الدور ، هو الصورة القريبة للسليقة الشعرية التى غادرت الجزيرة العربية ، والتى كان يتنفس بها العاديون من الشعراء ، أو من الذين يريدون أن يقولوا الشعر[٣] .

ومرد هاتين الظاهرتين - قلة الأبيات ، ودواعى قول الرجز - معا ، ظاهرة أصيلة تكمن وراءها . ذلك أن الرجز انما يقال أغلب الأحيان ارتجالا ، لا يتهيأ له الشاعر ، ولا يعد

---

١) فقد ذكر أن أبا عبيدة معمر بن المثنى ، قال : كان الشاعر يقول من الرجز البيتين أو الثلاثة ، ونحو ذلك ، اذا حارب ، أو شاتم ، أو فاخر ..
المزهر ، تح . د / محمد احمد جاد المولى ، ج٢/٤٨٤ .

٢) يقول ابن حبيب : "كانت العرب تقول الرجز فى الحرب ، والحداء والمفاخرة وما جرى هذا المجرى ، فتأتى منه بأبيات يسيرة " . الأغانى . ج١٨/١٦٤ .

٣) المجتمعات الاسلامية فى القرن الأول الهجرى . بنصرف . ص/٤٣٣ .

له نفسه ، هذا الاعداد الداخلى الخاص ، وانما هو ينطلق به ، فيما يلقى من أحداث ، وما يشهد من ملاحظ ، يقتضيه المقام ، أن يقول فيها هذا الشعر الخفيف القريب ".(١)

وان حياة الخوارج المضطربة القلقة ، زادت مساحة الرجز ، لأنه يتناسب مع الحركات السريعة فى أرض المعركة ، فهو أحدية الجهاد ، وسلاحه المعنوى، وهدهدة النفس فى أرض المعركة ، اذ تزيد من حماسة المقاتل ، وتضطرم جذوة الأندفاع فى صدره .

اذن لقد دبت الحياة فى هذا الوزن الشعرى ، فانتشر وكثر ، وعلا صوته . وتنوعت أجراسه وانغامه ، اذ (أخذت موضوعاته تتغير ،وتدب فيها مظاهر الحياة الاسلامية ، كما أخذت معانيه تظهر فيها أفكار اسلامية جديدة ، وأخذ أسلوبه ، يتطور مع صورته الشعبية الجاهلية ، الى صورة شعبية اسلامية ".(٢)

فهذا عبدالله بن يحيى يرتجز،ويقول :

أضرب قوما حبطت أعمالهم
الله مولانا ولا مولى لهم (٣)

أرأيت أوضح من هذه المعانى الاسلامية . اذ هى ترجيع للآية القرآنية " ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم".(٤)

واسمع راجزا آخر من الخوارج يقول :

يا نفس من طول الحياة ملى
وعيشك المنقطع المولى
علّي ألقى عاصما لعلى
فى جنة عالية وظل
وبيبها وكهمس المصلى (٥)

---

١) المجتمعات الاسلامية فى القرن الأول الهجرى . بتصرف . ص/٣٤٣ و ٣٤٨.
٢) حياة الشعر فى الكوفة . د/ يوسف خليف . ص/٣٥٢.
٣) شعر الخوارج . ص/٢٢٢.
٤) سورة محمد . الآية : ١١.
٥) شعر الخوارج . ص٢٠٣.

انها تتحث عن الزهد الخارجي فى الدنيا ومتاعها ، والتطلع الى الجنان التى سبقه اليها " بيهس وكهمس " .

لقد أصبح الرجز فنا شعريا يزاحم القصيد ساحته ، اذ لم يعد حكرا على المناسبات والحوادث الطارئة . وبخاصة بعد أن رفع راية اللغة السهلة مخلفا وراءه - على ألسنة الخوارج كثيرا من الألفاظ الحوشية الجافية ، التى عانت من هجير الصحراء وقرها .. وان بعض العرب الأقحاح من الرجاز ، اتخذوا هذا الوزن سلما للوصول الى عملية الاحياء اللغوى . وبعث الرفق في الوحشى النادر .

وأيا كان الأمر، فقد ألان شعراء الخوارج من قناة الرجز، وطوعوه للأغراض الشعرية المختلفة . المتشحة بالنزعة الاسلامية، مع طول نفس فى عدد الأبيات . واتساع فى ساحته على حساب القصيد . اذ بلغت ثلاثين أرجوزة فى ديوانهم .

الشيعة

نشأتهم ، آراؤهم ، شعرهم

نشأت التشيع وتطوره

مقدمــــة :

قد يكون الحديث عن الخوارج، نشأة ومعتقدا، وسيرة ، أقل صعوبة مــن الحديث عن الشيعة ، وأقرب منالا ، واثبت قدما ، لصدق القوم فى حديثهم، ووضوح مبادئهم، وترجمتها الى سلوك عملى . اذ لم يعهد عنهم صناعة الكذب، أو الترويج لمذهبهم به .

"فهم-كما رأينا - أصدق أهل الأهواء ، وبخاصة ان بدعتهم لم تكن عــن زندقة والحاد ، بل عن جهل وضلال فى معرفة معانى الكتاب"[1] . أما الشيعة فقد اتخذوا الكذب دينا ، تحت اسم التقية ، " وهم يقرون بذلك حيث يقولون : ديننــا التقية ، وهو ان يقول أحدهم بلسانه خلاف ما فى قلبه ، وهذا هو الكذب والنفاق"[2] وكثيرا ما يأتون من الاحاديث والمفتريات، وينسبونها الى آل البيت الأطهــار . فكان لهم أوفر الحظ والنصيب من الكذب . وكانت لهم ريادة تشقيق سبل وضــع الحديث، حتى أضحت ديارهم ميدانا للكذب، ودارا للضرب، حتى سماها الامــام مالك رضى الله عنه " دار الضرب".

لقد سلط الشيعة أهواءهم على تعاليم الدين، فعكروا رونقه باكاذيبهم،التى صدرت عن عوج عقلى، ومرض قلبى، فالتقوا على قدر من التجنى والغلو ، التفــاوت بينهم فى درجة التعصب،والبغض،والعداوة ،وقد أجمع علماء الأمة على كذبهــم ، لان أصل مذهبهم مستند الى جهل وحقد ، وهذان يدفعان الى الكذب والبهتــان، يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (وقد اتفق أهل العلم بالنقـــل والرواية والاسناد ، على ان الرافضة أكذب الطوائف، والكذب فيهم قديم. ولهــذا

---

١) منهاج السنة النبوية ، لابن تيمية ، ج١/٦٧.

٢) المصدر السابق، ج١/٦٨.

كان أئمة الاسلام يعلمون امتيازهم بالكذب • قال أبوحاتم الرازي : سمعت يونس ابن عبدالأعلى يقول : قال أشهب بن عبدالعزيز : سئل مالك عن الرافضة ، فقال : لاتكلمهم ولاترو عنهم ، فانهم يكذبون، وقال أبوحاتم : حدثنا حرملة ، قال : سمعت الشافعي يقول : لم أر أحدا أشهد بالزور من الرافضة • وقال مؤمل بن اهاب : سمعت يزيد ابن هارون يقول : يكتب عن كل صاحب بدعة ، اذا لم يكن داعية الا الرافضة ، فانهم يكذبون " • وقال محمد بن سعيد الأصبهاني : سمعت شريكا(*) يقول : احمل العلم عن كل من لقيت الا الرافضة • فانهم يضعون الحديث ويتخذونه دينا "(١) •

واسمع شهادة ابن ابي الحديد - وذكرنا حاله - فيهم - : " واعلم ان أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة ، فانهم وضعوا في مبدأ الامر أحاديث مختلفة في صاحبهم، حملهم على وضعها عداوة خصومهم "(٢) •

فالقوم قد عطلوا عقولهم، وصفدوها بسلاسل الاوهام والبهتان ، ودفعوها تخبط في ليل بهيم ، فبدت غربة الاسلام بين ظهرانيهم ، اذ شوهوا معالمه وتاريخه ، باختلاق أحاديث،وأحداث ماعرفها الزمن ، وما أغضت عليها الليالي والأيام •

وما إخالهم الا الصنف الأول الذي ذكره أمير المؤمنين ابوالحسن رضي الله عنهما في قوله : " سيهلك فيّ صنفان : محب مفرط يذهب به الحب الى غير الحق ... "(٣) انه الصنف الذي اتخذ محبة آل البيت قناعا لوجوههم المنكرة • انه ينظر في وجوه القوم ، فيرى الشر والكيد فيها • فيهتك سترها ، لتبدو حقيقتها •

---

*) هو شريك بن عبدالله النخعي الكوفي القاضي الحافظ الصادق، أحد الأئمة من أقران الثوري ، وأبي حنيفة ، وهو من الشيعة، الذي يقول بلسانه "أنا من الشيعة" وهذه شهادته فيهم• ولد سنة "٩٥هـ" وتوفي سنة ١٧٧هـ• انظر : ميزان الاعتدال، ج٢٦٩/٢• الامام الذهبي•

١) منهاج السنة النبوية ، لابن تيمية ، ج٥٩/١ - ٦٠•

٢) شرح نهج البلاغة • لابن أبي الحديد ، ج٢٦/٣•

٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ،ج٦١٢/٨، والخبر رواه أبوصبرة قال : سمعت عليا يقول: يهلك في السنة رجلان: مفرط في حبي ، ومفرط في بغضي" اسناده حسن• كتاب السنة ، لابن أبي عاصم ، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة للشيخ محمدناصر الدين الالباني ، ج٤٧٧/٢•

وكم من نحلة فاسدة منحرفة، باعها في الضلال طويل، انتحلت عليا وآل بيته • حتى كثرت المغالطات، وربا الكذب تحت مظلة التشيع فأصبح قبابا للاكاذيب والأهواء، بعد أن أوضع القوم في الفتن • واضطجعوا في مراقد الضلال •

فكان الوصول الى الحقيقة، وسط هذا الركام الهائل من المرويات الملفقة، وعبر الدروب الملتوية، الضاربة في ظلام التقية، ضربا من المغامرة، لاينتهي اليها الا بتوفيق من الله، ثم استنارة بمصابيح النبوة، ومشاعل الهداية، نسأله سبحانه ان نكون من الذين وفقوا الى الحق، وسلكوا سبيله، وان كنت على ثقة • ان كلمة الحق شديدة على نفوس المبطلين • " واذا دعوا الى الحق الواضح أعرضوا عنه، وقالوا : لنا أخبارنا ولكم أخباركم، فنحن نقول لهم : سلام عليكم لانبتغي الجاهلين "[٢] •

معنى كلمة " الشيعة ":

الشيعة لغة، تعني القوم والصحب والأتباع والأعوان[٣] فكل قوم اجتمعوا على أمر، فهم شيعة، وكذلك الذين يتبع بعضهم بعضا، وان لم يكونوا كلهم على اتفاق • وهم الأولياء، والفرقة من الناس على حدة، وكل من عاون انسانا، أو تحزب له، فهو له شيعة، ويقع على الواحد، والاثنين، والجمع، والمذكر، والمؤنث، بلفظ واحد، ومعنى واحد[٤] •

---

١) الكامل في التاريخ، لابن الاثير، ج٣/٢٢٤•

٢) البداية والنهاية، لابن كثير، ج٧/٢٤٧•

٣) الصحاح للجوهري، ج٣/١٢٤•

٤) القاموس المحيط، للفيروزآبادي، ج٣/٤٧ـ ٤٨•

والمعنى الأصلي لهذه الكلمة ، لم يتجاوز حدود المطاوعة والمتابعة ، ووردت هذه المعاني وغيرها في الآيات القرآنية الكريمة " وان من شيعته لابراهيم "[(١)] . " ولقد ارسلنا قبلك في شيع الأولين)[(٢)] . (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته ، وهذا من عدوه)[(٣)] .

أما المدلول الاصطلاحي للكلمة : فقد غلب على كل من يتولى عليا ، وأهل بيته رضي الله عنهم ، حتى صار اسما خاصا لهم . وعرف الجرجاني الشيعة ، فقال : (هم الذين شايعوا عليا رضي الله عنه) وقالوا : انه الامام بعد رسول الله ، واعتقدوا ان الامامة لاتخرج عنه ، وعن اولاده "[(٤)] .

ومن التعسف ان نثبت تعريفا ، ثم ندعى انه جامع مانع،يدل على حقيقة هؤلاء القوم، عبر المراحل التاريخية التي اجتازوها ، وان كان قد انتهى حال غالبيتهم الى ماذكره الشهرستاني : يقول : " الشيعة هم الذين شايعوا عليا رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بامامته وخلافته نصا ووصية ، إما جليا،وإما خفيا ، واعتقدوا انالامامة لاتخرج عنأولاده . وان خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية عنده "[(٥)] .

ويخرج هذا التعريف مجموعة السابقين من الصحابة والتابعين، الذين كانوا يقفون، الى جانب علي رضي الله عنه،كما يخرج الفرق التالية من هذه النحلة .

---

١) سورة الصافات ، الآية : ٨٣.
٢) سورة الحجر ، الآية : ١٠.
٣) سورة القصص، الآية : ١٥.
٤) التعريفات، للجرجاني، ص /١٣٥.
٥) الملل والنحل ، للشهرستاني، ج١/١٤٦.

بداية التشيع:

اعتقد ان الأهواء قد تحكمت في تحديد الوقت الذي ظهر فيه التشيع، في عالم الأمة المسلمة • فالشيعة يحرصون على اقناع الاخرين، وايهامهم ان بذرة التشيع وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم، منذ السنوات الاولى لبعثته، وترعرعت على يديه الشريفتين، ومن هؤلاء النوبختي والقمي، ومحسن الامين العاملي، ومحمد الحسين آل كاشف الغطاء[1]، ومحمد جواد مغنية، والخميني في كتابه الحكومة الاسلامية[*]، وغيرهم من علماء الشيعة، قدماء ومحدثين •

فيقول النوبختي (ت سنة ٣٠٠هـ) : " فأول الفرق الشيعة، وهم فرقة علي ابن ابي طالب عليه السلام، المسمون شيعة علي عليه السلام، في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وآله - وبعده، معروفون بانقطاعهم اليه، والقول بامامته "[٢] •

ويقول محمد حسين الزين - من علمائهم المعاصرين - إن التشيع " قد ظهر في أيام نبي الاسلام الاقدس، الذي يغذي باقواله عقيدة التشيع لعلي عليه السلام، وأهل بيته، ويمكنها في أذهان المسلمين، ويأمر بها في مواطن كثيرة، آخرها يوم " غديرخم " ١٨ ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة بعد حجة الوداع "[٣] وساق أحاديث كثيرة للتدليل على ماذهب اليه، وبجملتها تتحدث عن مكانة علي ابن ابي طالب رضي الله عنه وفضائله، وان كان الوهن لايبعد عن أغلبها، وذلك مما ينطبق عليه قول ابن الجوزي رحمه الله تعالى : " فضائل علي الصحيحة كثيرة، غير ان الرافضة لاتقنع، فوضعت له مايضع لا مايرفع "[٤] • وقال الامام عامر الشعبي رضي

---

١) في كتابه " أصل الشيعة وأصولها " :(ان اول من وضع بذرة التشيع في حقل الاسلام هو نفس صاحب الشريعة - يعني أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الاسلام جنبا الى جنب، وسواء بسواء " ص/٨٧•

*) الحكومة الاسلامية، للخميني، ص/١٣١•

٢) فرق الشيعة، لابي محمد الحسين بن موسى النوبختي، ص/١٥، تحقيق : هلموت ريتر•

٣) الشيعة في التاريخ، محمد حسين الزين، ص/٢٠•

٤) انظر : تلبيس ابليس، لابن الجوزي، ص/٩٩•

الله عنه : " ماكذب على أحد في هذه الامة ماكذب على علي رضى الله عنه "[(١)] .

ولا أشك ان هذا الالحاح ، على تلك البداية ، هو اعطاء الصبغة الشرعية لهذا المذهب، ومحاولة نقض دعوى مخالفيهم القائمة على رد بدايات التشيع الى أصول أجنبية ،من ىيهودية ،ونصرانية ،ومجوسية وغيرها ، افتتحها عبدالله بن سبأ .

وما أظن ان لهذا الرأى أدلة تقف الى جانبه ، بل يعارض ما جاء في الكتاب الكريم ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، الداعين الى الالفة والاخوة، فلا خلاف ولافرق[(*)] في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ونجد من يرجع ظهور هذه الفرقة الى الفترة التى اعقبت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . وذلك نتيجة للاختلاف فيمن يخلفه على امامة المسلمين ، فيزعمون ان المسلمين انقسموا الى جماعات ثلاث بعد وفاة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، فجماعة الأنصار ، يرون انهم أحق بالخلافة لايوائهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ونصرهم دعوة الاسلام ، وجماعة بنى هاشم ، ومعهم نفر من الصحابة الذين رأوا ان عليا أهل للخلافة ، لسابقته ، وجهاده ، وفضله ، وقرابته . وجماعة المهاجرين ، ووراءهم السواد الأعظم من المسلمين ، الذين بايعوا أبابكر الصديق رضى الله عنه بعد أن أحتج على الأنصار ، بقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم : " الامامة فى قريش "[(٢)] .

---

١) تذكرة الحفاظ ، للامام الذهبى ، ج١٠/٧٧ ، طبعة حيدر آباد .

*) (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وماوصينا به ابراهيم وموسى ، وعيسى ، أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ماتدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب) سورة الشورى ، الآية :١٣ .

٢) مقالات الاسلاميين ، لابى الحسن الاشعرى ، ص/٢ ، وفرق الشيعة : للنوبختى ص/٢٣ ومابعدها . الحديث بلفظ "الائمة من قريش" حديث صحيح ، رواه ابوداود ج٢/١٦٣ ، وتمامه "عن انس رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : الائمة من قريش ، اذا حكموا عدلوا ، واذا عاهدوا وفوا ، وان استرحموا رحموا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، لايقبل منهم صرف ولاعدل" ورواه البخارى بلفظ آخر عن معاوية .

وذهب الى هذا الرأى الأستاذ أحمد أمين وغيره (*) فى قوله : " كانت البذرة الاولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، ان أهل بيته أولى الناس ان يخلفوه ، وأولى أهل البيت العباس ، عم النبى ، وعلي ابن عمه ، وعلي أولى من العباس" (١) . ولو صح ان هناك كوكبة من الصحابة الكرام رضوان الله عنهم ، ترى تقديم ابن أبى طالب للخلافة ، على ابى بكر ، فلا يعنى بحال ان هناك معارضة من هؤلاء على تولية ابى بكر الخلافة ، ويدلنا على هذا اجماع المسلمين ، على بيعته ، اذ لم يتلكأ عنها الا افراد ، ندم من تأخر منهم عن البيعة والمسألة عند هؤلاء القوم - على قلتهم - لم تتعد الاجتهاد فى تقدير الاكفأ من الاثنين ، لتولى الخلافة ، ولكن لاوصية ولاعصمة .

وهناك طائفة من مؤرخى الفرق، ترى ان بداية التشيع ، ظهورت معاصرة لحركة الفتنة ، في آواخر عهد عثمان رضى الله عنه ، وهي حركة السبئية التى لاتلتقى مع التشيع الصادق ، فى بساطته واعتداله - ان وجد - وان كانت - فيما اعتقد - البداية الحقيقية لحركات التشيع الغالية ، التى خرجت من حظيرة الاسلام بأباطيلها ، وأضاليلها ، التى أردتها فى نيران قنبر . ويذهب فريق من الباحثين الى ان التشيع ظهر أثناء خروج علي رضى الله عنه للقاء بطلحة ، والزبير ، وعائشة رضى الله عنهم ، ومن هؤلاء ابن النديم الشيعى . يقول : " لما خالف طلحة والزبير عليا ، وأبيا الا الطلب بدم عثمان بن عفان ، وقصدهما علي ليقاتلهما (*) حتى يفيئا الى أمر الله ، تسمى من اتبعه على ذلك شيعة ، فكان يقول : شيعتى" (٢) . وهناك آخرون

---

*) من المستشرقين مثل برنارد لويس .

١) فجر الاسلام . أحمد أمين .

*) ليس صحيحا ، وانما لحق بهم ، للاتفاق على تنفيذ القصاص من قاتلى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وسيأتى بيان هذا فيما بعد .

٢) الفهرست ، لابن النديم ، ص/٢٤٩ .

قولهم، بما ورد في نص صحيفة التحكيم من كلمات تدل على ذلك " شيعة علي، وشيعة معاوية "[1] • ويربط بعضهم بداية التشيع بفاجعة " كربلاء "[2] التي انتهت باستشهاد الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وأعقبتها حركة التوابين في الكوفة• وهم الذين التقوا على الأخذ بثأر الحسين من قاتليه، بعد أن شعروا بخذلانه/وهم الذين أغروه بالقدوم عليهم،ثم تخلفوا عن نصرته • وذلك في سنة ٦١هـ• والذي يتبدى لي ، ان في أغلب ماسبق من تلك الآراء اعتسافا واضحا اذ أغفلت التطور الذي اعترى مدلول كلمة " الشيعة " عبر المحطات التأريخية ،التي شهدت نمو مفهوم التشيع • حتى انتهى الى مذهب، بله مذاهب فكرية وسياسية، شرد أغلبها عن طريق الاسلام،الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بعد أن كان ميلا في النفوس الطاهرة لعترة النبي وتقديمهم •

ومجانبة للاعتساف والتجريف في دراستنا ، آثرنا أن نعود بحديثنا الى الأيام الأولى التي صدرت عنها آراء الباحثين • لنواكب الأحداث التأريخية والشخصيات المؤثرة فيها • ونفند - بعدها - تلك المزاعم التي حمّلها القوم رجال الرعيل الأول، الذين رضي الله عنهم، ورضوا عنه ، وحرصت على التزام الحق بصواه ودلائله ، اذ ان اختلاط الكلام بالهوى، يحرمه من سلوك جادة الحق، ولذلك رصدت كل الاتجاهات، واستنبأت الأحداث ، وسألت الأخبار بعد تمحيصها• وخلال ذلك لم يكن القلم طيع المقادة ، بل كان وقافا كثير التلفت، لكثرة الدسائس والأكاذيب •

---

*) وبه قال ابن حزم في فصله ج٤، وابن حمزة وأبوحازم وخلافهما من الشيعة •

١) انظر تاريخ الطبري • ج٥/٥٣/٥٤•

٢) انظر : الصلة بين التصرف و التشيع ، لكامل مصطفى الشيبي، ص/٢٣•

بعد أن أكمل الله دينه، وأتم نعمته، لحق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى، وقد ترك الأمة معصوبة على عبوديتها لله تعالى وحده • متحابة في ذات الله سبحانه، فلا فرق، ولاخلاف، ولا أحزاب " فلم يكن في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأبي بكر، وعمر شيء من أهل الاهواء ، يعني بدع الخوارج، والروافض، والقدرية " كما قال الامام مالك رضي الله عنه[1] • فالفرقة وليدة الفتن، والرعيل الذي صنع على عين المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كان أقل فتنا من سائر من بعدهم •

واذا تمكنا من تجاوز المواقف الجزئية، وتخلصنا من أغلال الأخبار المكذوبة، التي حيكت على يد أهل الأهواء، نستطيع أن نقطع أن الأمة قد أعطت صفقة يدها لأبي بكر - خليفة لرسوله الكريم، ولم يتوقف إلا أفراد من الجماعة المسلمة عن بيعته، منهم سعد بن عبادة رضي الله عنه، الذي أرادها لنفسه[2] • وهذا الاجماع، لم يكن الا وليد الاعتراف بفضل الصديق، ومكانته، وأحقيته • ناهيك عن الأخبار الكثيرة التي أشارت، وصرحت بخلافة الصديق رضي الله عنه، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ماروته السيدة عائشة رضي الله عنها : " ادعي أبابكر أباك، وأخاك، حتى أكتب كتابا ، فاني أخاف أن يتمنى متمن، ويقول قائل : أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون الا أبابكر "[3] وكان الاختيار الموفق •

وعهد بالأمر من بعده الى الفاروق رضي الله عنه، واتقى بذلك مايخشى، وأقره الصحابة رضوان الله عنهم، وصوبوا رأيه، فكانت ولايته كهجرته نصرا وفتحا ، إمتد رواق الاسلام، مع نشاط جحافل الحق في فتوحاتها ، فعادت غربا على يديه،

---

١) فتح الباري، للعسقلاني، ج١٣/٢٥٣ •
٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد ، ج٣/٤٤، طبعة ليدن •
٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته ، للألباني، ج١/١٢٩ •

ولم ير عبقري من الناس يفرى فرية[(١)] • ولم يتخلف عن بيعته أحد ، وشهد بفضله وجهاده الجميع • فاسمع شهادة ابن عباس رضى الله عنه للفاروق، وهو يستقبل الآخرة ، ويودع الدنيا ، مشفقا على نفسه ، اذ جمع رضى الله عنه احسانا وشفقة• "أليس قد دعا رسول الله أن يعز الله بك الدين والمسلمين ، اذ يخافون بمكة ، فلما أسلمت كان اسلامك عزا • وظهر بك الاسلام ، وهاجرت، فكانت هجرتك فتحا، ثم لم تغب عن مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قتال المشركين ، ثم قبض، وهو عنك راض، ووازرت الخليفة بعده على منهاج النبى صلى الله عليه وسلم ، فضربت من أدبر بمن أقبل، ثم قبض الخليفة وهو عنك راض،ثم وليت بخير ماولى الناس، مصّر الله بك الامصار ، وجبى بك الأموال،ونفى بك العدو ، وأدخل بك على أهل بيت من سيوسعهم فى دينهم وأرزاقهم، ثم ختم لك بالشهادة،فهنيئا لك • فقال : والله ان المغرور من تغرونه • ثم قال : أتشهد لى يا عبدالله عند الله يوم القيامة ؟ فقال : نعم، فقال : اللهم لك الحمد "[(٢)] • واكد علي قول ابن عباس رضى الله عنهم • وشهد به فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، أنا أشهد لك بهذا عند الله "[(٣)] •

والقى الراية بين يدى الستة من أهل الشورى، وبايع المسلمون عثمان ابن عفان رضى الله عنه، بعد تشاور ليالى وأياما • ولم يتخلف عن بيعته أحد ، فقد قال عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه " انى رأيت الناس لايعدلون بعثمان احدا"[(٤)] وقال الامام أحمد رحمه الله تعالى، فى رواية حمدان بن على : " ما كان فى القوم أوكد من بيعة عثمان، كانت باجماعهم "[(٥)] •

---

١) عن ابن عمر ، ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " بينا انا نائم ، رأيتنى على قليب فنزعت منها ما شاء الله ، ثم أخذها ابن ابى قحافة فنزع فيها ذنوبا او ذنوبين، وفى نزعه ضعف، والله يغفر له • ثم أخذها ابن الخطاب ، فاستحالت غربا ، فلم أر عبقريا من الناس يفرى فريه ، حتى ضرب الناس بعطن "• فتح البارى : ج٢/٣٨• وصحيح مسلم فى كتاب فضائل الصحابة •

٢) فتح البارى ، للعسقلانى، ج٧/٦٥ - ٦٦•

٣) منهاج السنة ، لابن تيمية ، ج٣/١٤٢ ، طبعة القاهرة•

٤) التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة ، لابى بكر الباقلانى ، ص/٤٧•

٥) منهاج السنة ، لابن تيمية ، ج١/٥٣٣•

وأنكر قوم عليه في آخر أيامه أفعالا ، كانوا فيما نقموا عليه من ذلك مخطئين، وعن سنن المحجة خارجين، فصار ما أنكروه عليه اختلافا الى اليوم، ثم قتل رضوان الله عليه ، وكانوا في قتله مختلفين، فأما أهل السنة والاستقامة فانهم قالوا : كان رضوان الله عليه مصيبا في أفعاله ، قتله قاتلوه[*] ظلما وعدوانا"[(١)] .

وقد حفلت أسفار التأريخ ومؤلفات مؤرخي الفرق والملل والنحل بتبرئة عثمان رضي الله عنه ، مما أتهم به من تقصير، أو ميل، حتى الأعداء ، فجولد تسيهو يقول : " ومن الاجحاف أن نتهم عثمان بضعف الايمان، أو بفتور الحماس للاسلام "[(٢)] .

ولكن تغير أحوال المجتمع أصدأ مرآة الحياة في نظر بعض الناس، فعظموا صغائر الامور ، وأساؤا فهم الحقائق، وخلعوا على كثير من الحوادث غير أوصافها، وانقاد بعض الأغرار من ذوي المطامع الى أغراضهم ، فمشوا الى الفتنة ، ومشت اليهم الفتنة "[(٣)] يسوقهم ابن سبأ وزمرته ، اذ تمكن- بمكائده- من رؤوس العامة والغوغاء في الأمصار الاسلامية . وأصبح له في كل مصر عصابة تتصل به ، وكانت تلك العصابات هي التي تولت اشعال الفتنة . وأصبحت هباءة لبدء ظهور الفرق والمذاهب،التي مزقت وحدة المسلمين ، وبددت شملهم" ولم يكن صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم المبشر منه بالشهادة والجنة هو المجني عليه وحده بهذه المؤامرة السيئة الفاجرة . بل الاسلام كان مجنيا عليه قبل ذلك . والأجيال الاسلامية التي تلقت تاريخ ماضيها الطاهر الناصع، مشوها ، ومحرفا ، هي كذلك ممن جني عليهم ذلك اليهودي الخبيث، والمنقادون له بخطام الأهواء والشهوات"[(٤)] .

---

*) روى عمر بن حبيب ، عن يحيى بن سعيد ، قال : قال علي بن الحسين : والله ماقتل عثمان رحمه الله على وجه حق" . ابن سعد ، ج٥/٢١٦ .

١) مقالات الاسلاميين ، للاشعري ، ص/٣ .

٢) العقيدة والشريعة ، جولدتسيهو ، ص/١٦٩ .

٣) عثمان بن عفان، الصادق عرجون، ص/٢٧ ، طبعة الدار السعودية ، سنة ١٤٠٢هـ .

٤) حاشية العواصم من القواطم ، محب الدين الخطيب ، ص/١٢٣ .

ففي ظل هذه المرحلة ظهر هذا اللون من " التشيع " على يد ابن سبأ . وترعرع في محاضن الفتن،والكيد،والانحراف . وهو بداية الغلو . وكأني بمؤرخي الفرق قدماء،ومحدثين،يجمعون على هذه البداية . لاصناف الغلاة . فأبو الحسين الملطي يقول : " ان أهل الضلال الرافضة ثماني عشرة فرقة، يلقبون بالامامية ، وأولهم السبئية ، حيث نشأ التشيع على يد عبدالله ابن سبأ "(١) .

ويقول الشهرستاني : " ان عبدالله بن سبأ هو أول من أظهر القول بالنص بامامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومنه انشعبت اصناف الغلاة "(٢) . وسبقه الى ذلك ابن حزم،ووافقه ابن تيمية والمقريزي وغيرهما ، ومن المتأخرين الشيخ محمد أبوزهرة ، والشيخ محمد حسين الذهبي، وغيرهما .

وفي هذه المرحلة التي انتهت باستشهاد أمير المؤمنين،عثمان بن عفان رضي الله عنه . أرسى ابن سبأ مفاهيم التشيع المتطرف . فقد هاجم الخلفاء الراشدين الثلاثة ، واعتبرهم مغتصبين للخلافة التي هي من حق علي بن ابي طالب نصا . كما ورد في فرق الشيعة : " ان ابن سبأ يعتبر أول من قال بالغلو ، وأظهر الطعن على ابي بكر وعمر وعثمان والصحابة وتبرأ منهم "(٣) . فكانت دعوة ابن سبأ مراكب فتنة ، أجراها في تيار التحريش والتلفيق والدس، والعداء اليهودي البغيض لهدم كيان الأمة ، وزعزعة راية الخلافة ، فرست تلك المركب في دماء عثمان رضي الله عنه . لتتزود لرحلة جديدة على دماء المسلمين.. " فقد تنقل ابن سبأ في بلدان المسلمين، يحاول ضلالتهم ، مبتدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام، فلم يقدر على مايريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم، فقال لهم فيما يقول : العجب ممن يزعم أن عيسى

---

١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، لابي الحسين الملطي، ص/١٨ .

٢) الملل والنحل، للشهرستاني، ج١/٧٤ .

٣) فرق الشيعة ، للنوبختي، ص/٤٠ .

يرجع، ويكذب بأن محمدا يرجع ، وقد قال الله عز وجل : (ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد)[1] فمحمد أحق بالوجوع من عيسى، قال : فقبل ذلك عنه، ووضع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها ، ثم قال لهم بعد ذلك، انه كان ألف نبى، ولكل نبى وصى، وكان علي وصي محمد ، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعلي خاتم الأوصياء • ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على امرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ، تستميلوا الناس وادعوهم الى هذا الأمر)[2]

ورحى الفتنة تدور ، وأهل النهى والصلاح، لايملكون ايقافها ، وان كانوا قد أدركوا ابعادها ... فعلي رضى الله عنه يرد على مثيرى الفتنة على عثمان رضى الله عنه،ويقول لهم : " كيف علمتم يا أهل الكوفة ، ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر - البريد المزعوم- وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا ؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة "[3] • ولعل سؤالا يقفز ليطرح نفسه على القارئ • لم لم ينصر علي عثمان بن عفان رضى الله عنهم؟ يجيب معبد الخزاعى ، فيقول: لقيت عليا بعد الجمل ، فقلت له : إنى سائلك عن مسألة كانت منك ومن عثمان، فان نجوت اليوم،نجوت غدا ان شاء الله • قال : سل عما بدا لك، قلت : أخبرنى أي منزلة وسعتك إذ قتل عثمان، ولم تنصره ؟ قال : ان عثمان كان اماما ، وانه نهى عن القتال وقال : من سل سيفه فليس منى، فلو قاتلنا دونه عصينا "[4] •

فبالادعاءات الباطلة،التى نظر اليها نظرات قاصرة،مستخفة، يكون ابن سبأ قد طعن فى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وازدراهم جميعا ..

---

١) سورة القصص : ٨٥•

٢) تاريخ الطبرى ، ج٤/٣٤٠ ، فلا يغرنك غيرة الكذبة على الاسلام، وهم وراء الدعاة تكذيبا وتشريدا وتقتيلا •

٣) تاريخ الطبرى ، ج٤/٣٥١•

٤) العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، ج٤/٣٠٢•

الخلفاء ،ومن سلم لهم بالخلافة ، وفتح باب الكذب على مصراعيه ، وفتن كثيرا من الغوغاء .

وكان أمر الله نافذا . فجاءت بيعة علي رضى الله عنه ، كبيعة اخوانه من قبل،على قدرها ،وفي ابانها ، مستمدة من رضى الأمة ، لامن وصية سابقة مزعومة ، أو رموز خيالية موهومة . كما زعم شيعة ابن سبأ . الذى هو " أول من قال بفوض الامامة لعلي ، وأظهر البراءة من أعدائه ، وكاشف مخالفيه "[١] . وانما الحجة فى مبايعة القوم الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان، وهم المهاجرون والأنصار . وليس للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد . بعد بيعتهم . مع العلم ان الامام علي رضى الله عنه،كان كارها لتولى الخلافة ، تحت سحب الأيام الكالحة ، حيث دماء عثمان رضى الله عنه لاتزال تشخب على الأرض، والأمة كلها تحتلب دما . وعلي لايريدها على مراكب الفتن . فقد روى الطبرى خبرا عن محمد بن الحنفية رضى الله عنه قال : كنت مع أبى حين قتل عثمان، فقام فدخل منزله ، فأتاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا : ان هذا الرجل قد قتل، ولابد للناس من امام، ولانجد اليوم احدا أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم، ولا أقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : لاتفعلوا ، فانى أكون وزيرا خير من ان أكون أميرا ، فقالوا :لا والله مانحن بفاعلين حتى نبايعك، قال : ففى المسجد ، فان بيعتى لاتكون خفيا ،ولاتكون الا عن رضا المسلمين "[٢] .

ورواية سيف، تقول : " ان الناس قد غشوا عليا ، فقالوا : نبايعك فقد ترى مانزل بالاسلام، وما ابتلينا به من بين القرى، فقال علي : دعوني والتمسوا

---

١) فرق الشيعة ، للنوبختي ، ص/٤٣ .
٢) تاريخ الطبرى ، ج٤/٤٢٦ .

غيري، فانا مستقبلون أمرا، له وجوه، وله الوان [١]، لاتقوم له القلوب، ولاتثبت عليه العقول، فقالوا : ننشدك الله ألا ترى مانرى! ألا ترى الاسلام! ألا ترى الفتنة! ألا تخاف الله! " [٢] وكان يلوذ ببساتين المدينة . فمصلحة الأمة هي التي ألحت على الامام علي رضى الله عنه لقبول البيعة . لئلا يضيع أمرها، وتتشتت سبلها، وهو للخلافة أهل" اذ كان سهما صائبا من مرامى الله في عدوه، ورباني هذه الأمة، وذا فضلها، وذا قرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم" [٣] . كما قال الحسن البصري .

والى تلك الساعات، لم تكن لعلي رضى الله عنه شيعة خاصة به، يعرفها وتتصل به، ولم يخطر قط على باله أن يجعل من الناس شيعة له، لأنه هو وسائر اخوانه من الصحابة . كانوا شيعة الاسلام الملتفة حول خلفاء نبيها صلى الله عليه وسلم، أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ولو حدثته نفسه باتخاذ شيعة خاصة، غير جمهور الأمة، الذي يتشيع للبيعة العامة، لكان ذلك نقضا منه لما عقد عليه صفقة يمينه لامامه، وما طوق به عنقه من بيعة الاسلام لأصحابها " [٤] .

وفي ذلك اليوم خطب علي رضى الله عنه، فقال : " أيها الناس عن ملأ وأذن، إن هذا أمركم، ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم، وقد افترقنا بالأمس على أمر - البيعة - فان شئتم قعدت لكم، والا فلا أجد على أحد " [٥] .

وقد ساق صاحب كتاب " الامامة والسياسة " خبرا يقول : " سأل ابن الكواء علي بن ابي طالب عما قام اليه، وسار بالمسلمين، أرأي رأيته حين تفرقت

---

١) وابن اعثم، يزيد في الرواية " فقال علي : لاحاجة لي في البيعة، فقال له بعض القوم : ياسبحان الله! لم لاتجيب القوم الى البيعة، وقد تعلم ان قتل عثمان كان لله عز وجل رضى، فقال علي : ليس الأمر كما تقولون : لقد قتلتموه بلادية ولا قود، فدعوني... فعليكم بطلحة والزبير .. وذهبوا اليه، فقال طلحة، يا ابا الحسن انت اولى بهذا الامر، واحق به مني، لفضلك وقرابتك وسابقتك " الفتوح ج١/٤٣١ .

٢) تاريخ الطبري، ج٤/٤٣٤ .

٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج٢/٢٢٩ .

٤) خاتمة مختصر التحفة الاثنى عشرية، محب الدين الخطيب، ص/٣١٦ .

٥) تاريخ الطبري، ج٤/٤٣٤ .

الأمة ، واختلفت الدعوة، فرأيت أنك أحق بهذا الأمر منهم لقرابتك ؟ فان كان رأيا رأيته أجنباك فيه، وان كان عهدا عهده اليك رسول الله، فأنت الموثوق به، المأمون على رسول الله فيما حدثت عنه، فقال علي : أنا أول من صدقه، فلا أكون أول من كذب عليه، أما أن يكون عندي عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا والله "(١) .

ويكمل الخبر صاحب العقد الفريد " ولو كان عندي فيه عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم . لما تركت أخا تيم، وعدي على منابرها . ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم كان نبي رحمة، مرض أياما وليالي، فقدم أبابكر على الصلاة، وهو يراني، ويرى مكاني ، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، رضيناه لأمر دنيانا، اذ رضيه لأمر ديننا ، فسلمت له، وبايعت، وسمعت، وأطعت، فكنت آخذ اذا أعطاني ، وأغزو اذا أغزاني، وأقيم الحدود بين يديه، ثم أتته منيته . فرأى أن عمر أطوق لهذا الأمر من غيره، والله ما أراد به المحاباة، ولو أرادها لجعلها في أحد ولديه، فسلمت له وبايعت وأطعت وسمعت... ثم أتته منيته، فرأى انه من استخلف رجلا فعمل بغير طاعة الله، عذبه الله به في قبره، فجعلها شورى بين ستة نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنت أحدهم "(٢) . وهذا يؤكد ان الذين بايعوا عليا ، وتعصبوا لامامته، لم يبايعوه، ولم يتعصبوا له لانه وصي النبي ، ولكن لانه كان أهلا لها . فقد كان ذا فضل، وعلم، واستقامة، وسابقة في الاسلام، ولم تكن الوصاية المكذوبة هي الدافع لهؤلاء .

ولما انتهى خبر السبئية لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه، ومايشغبون به على الخلفاء السابقين، وما يشيعونه من مفتريات، عاقبهم على قولتهم . وهدد وتوعد من يقول بتفضيله على الشيخين . فقد روى زيد بن وهب ، أن سويد ابن

---

١) الامامة والسياسة ، لابن قتيبة ، ج١/٧٣ .
٢) العقد الفريد ، لابن عبدربه ، ج٤/٣٠٣ .

غفلة ، دخل على علي في امارته ، فقال : اني مررت بنفر يذكرون أبابكر وعمر ، يرون أنك تضمر لهما مثل ذلك ، منهم عبدالله بن سبأ - وكان عبدالله بن سبأ أول من أظهر ذلك - فقال علي : مالي ولهذا الخبيث الاسود ، ثم قال : معاذ الله أن أضمر لهما الا الحسن الجميل ، ثم أرسل الى عبدالله بن سبأ ، فسيره الى المدائن ، وقال : لايساكنني في بلدة ابدا ، ثم نهض الى المنبر حتى اجتمع الناس ، فذكر القصة في ثنائه عليهما بطوله . وفي آخره " ولايبلغني عن أحد يفضلني عليهما الا جلدته حد المفتري "[1] .

فحتى الذين وقفوا الى جانب علي رضى الله عنه ، في السلم والحرب ، كانوا متفقين على تقديم أبي بكر وعمر . فقد نقل عن شيخ الكوفة ابي اسحاق السبيعي قوله : خرجت من الكوفة ، وليس أحد يشك في فضل أبي بكر وعمر ، وتقديمهما .. وقدمت الآن ، وهم يقولون ويقولون ..."[2] .

روى البخاري رحمه الله تعالى ، من حديث سفيان الثوري ، عن منذر وهو همداني ، عن محمد بن الحنفية رضى الله عنه ، قال : قلت لابي : اي الناس خير بعد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال أبوبكر ، قلت : ثم من ؟ قال : عمر . وخشيت أن يقول عثمان . قلت : ثم أنت . قال : ما أنا الا رجل من المسلمين"[3] .

ورحم الله تعالى الامام الثوري - سفيان - اذ يقول : من زعم ان عليا عليه السلام كان أحق بالولاية منهما ، فقد خطأ ابابكر ، وعمر ، والمهاجرين ، والأنصار ، وما أراه يرتفع له مع هذا عمل الى السماء "[4] .

لقد كان شيعة علي - أنصاره وأتباعه - في ذلك الوقت يرون مايرى

---

١) فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني ، ج٧/٣٣ ، ولسان الميزان ، ج٣/٢٩٠ ، والفتاوى لابن تيمية ، ج٣/٢٧٩ .

٢) المنتقى من منهاج السنة ، للذهبي ، ص/٣٦٠ .

٣) اخرجه البخاري ، ج٢/٤٢٢ ، وابوداود برقم ٤٦٢٩ .

٤) رواه أبوداود بسند صحيح ، برقم "٤٦٣٠" وفي كتاب السنة " لابن أبي عاصم " تخريج المحدث الالباني ، ج٢/٤٨١ .

امامهم من تفضيل أبي بكر وعمر . فعن ضمرة ، عن سعيد بن حسن قال : سمعت ليث بن أبي سليم (*) يقول : أدركت الشيعة الاولى ، ومايفضلون على ابى بكر وعمر أحدا "(١) .

ورغم أن ابن ابى طالب رضى الله عنه ، قبل الخلافة مكرها ، وعلى مضض ، وخوفا مما هو أعظم ، فقد انضوى الى معسكره جل الذين اشتركوا فى الفتنة ، التى خلفت عثمان شهيدا . ووقف حشد كبير من الصحابة والمسلمين ، على رأسهم طلحة ، والزبير ، وعائشة رضوان الله عليهم " يطالبون بفرز سريع لقتلة عثمان ، وقصاص عادل بهم ، فلم تكن حركتهم هذه كما يظن بعض المؤرخين محاولة للانقلاب على خلافة على ، ونكث عهدهم معه ، بعد أن بايعوه ، كما انها لم تكن طلبا للخلافة نفسها "(٢) .

ويؤكد هذا ماورد فى كتاب " أخبار البصرة "(٣) لعمر بن شبة ، يقول فيه : ان أحدا لم ينقل ان عائشة ومن معها نازعوا عليا على الخلافة ، ولادعوا الى أحد منهم ليولوه الخلافة ، وانما أنكروا على علي منعه من قتل قتلة عثمان ، وترك الاقتصاص منهم ، وكان علي ينتظر أولياء عثمان أن يتحاكموا اليه ، فاذا ثبت مع أحد بعينه من قتل عثمان اقتص منه "(٤) .

ولم ينفرد عمر بن شبة بهذا الرأى ، بل أكده لفيف من علماء الأمة ، قدماء ، ومحدثين ، كالطبرى وابن كثير وابن العربى ، والدكتور يوسف العش . اذ ساقوا أخبارا تصرح بذلك ، أورد الطبرى خبرا يقول : " لما أراد على

---

*) وليث هذا هو ابن أبى سليم القرشى الكوفى ، أحد العلماء النساك ، أدرك عكرمة وأخذ عنه ، وهو من شيوخ شعبة والثورى ، توفى سنة ١٤٣هـ .

١) مختصر منهاج السنة ، للحافظ الذهبى ، ص /٣٦٠ .

٢) حول القيادة والسلطة ، د/عماد الدين خليل ، ص/٣٨ .

٣) هو أبوزيد عمر بن شبه بن عبيدة البصرى النحوى ، اخبارى لغوى نحوى ، توفى سنة ٢٦٢ ، بسر من رأى ، وهو ثقة ، كما ذكر الذهبى .

٤) فتح البارى ، لابن حجر العسقلانى ، ج١٣/٥٦ .

الخروج الى البصرة قام اليه ابن لرفاعة بن رافع، فقال : يا أمير المؤمنين، أي شيء تريد؟ والى أين تذهب بنا ؟ فقال علي : أما الذى نريد وننوي، فالاصلاح ان قبلوا منا ، وأجابوا اليه". وكذلك ولده الحسن رضى الله عنه، كان يقسم " والله ما أردنا الا الاصلاح "(١).

ولعل ابن حزم كان أكثر تفصيلا لهذه القضية، وأوضح بيانا ، قال :

وأما أم المؤمنين والزبير وطلحة ، رضى الله عنهم ، ومن كان معهم، فما أبطلوا قط امامة علي، ولا طعنوا فيها ، ولاذكروا فيه جرحة تحطه من الامامة،ولا أحدثوا امامة أخرى، ولاجددوا بيعة لغيره - هذا مالايقدر أن يدعيه أحد بوجه من الوجوه ، بل يقطع كل ذى علم على أن كل ذلك لم يكن . فاذ لاشك فى كل هذا، فقد صح صحة ضرورية لا اشكال فيها . انهم لم يمضوا الى البصرة لحرب علي ولاخلافا عليه، ولانقضا لبيعته ، ولو أرادوا ذلك لاحدثوا بيعة غير بيعته . هذا مالايشك فيه أحد،ولاينكره أحد ، وصح انهم انما نهضوا الى البصرة لسد الفتق الحادث فى الاسلام،من قتل أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ظلما ، ولم يكن نهوض علي الى البصرة لقتالهم، لكن موافقا لهم على ذلك ليقوى بهم ، وتجتمع الكلمة على قتلة عثمان رضى الله عنه، وبرهان ذلك انهم اجتمعوا ، ولم يقتتلوا ،ولاتحاربوا ،فلما كان الليل عرف قتلة عثمان ان الاراغة عليهم، فبيتوا عسكر طلحة والزبير ، وبذلوا السيف فيهم، فدفع القوم عن أنفسهم، فردعوا حتى خالطوا عسكر علي، فدفع أهله عن أنفسهم، وكل طائفة تظن،ولاتشك ان الاخرى بدأتها بالقتال، فاختلط الأمر اختلاطا لم يقدر أحد على أكثر من الدفاع عن نفسه، والفسقة من قتلة عثمان - لعنهم الله - لايفترون عن شب الحرب واضرامها ، فكلتا الطائفتين مصيبة في غرضها ومقصدها مدافعة عن نفسها "(٢).

---

١) تاريخ الطبرى، ج٤/٤٧٩ ومابعدها .

٢) الفصل فى الملل والنحل، لابن حزم الاندلسي، ج٤/٢٣٩.

ولكن فى رهج الفتنة ، واضطراب الامور ، يتمكن اولو الإحن من التمكين لدسائسهم ومكائدهم ، فأنشبت السبئية القتال ، وتابعهم الغوغاء ، وأهل الأهواء وجرت دماء المسلمين ، حتى أغرقت فى النزع ، مع ان الطرفين اخوان وأحباب ، نزع الله من صدورهم الغل على بعضهم ، كما قال على بن ابى طالب لموسى ابن طلحة ، لمادخل عليه فى البصرة " انى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم (ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين" [١] • ويستوقفنا الحديث عن معركة الجمل ،عند فرقة ابن سبأ وأتباعه " الوصية " " فلو عرض نفر من الصحابة ، وقالوا : علي هو الوصي ، ونحن لانبايع الا له ، ولانعصي نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولانقدم الظالمين ، أو المنافقين من بنى تيم ،على بنى هاشم ، لاستجاب جمهور الناس ، بل عامتهم ، لاسيما وابوبكر ليس عنده رغبة - ولارهبة - ثم هب أن عمر وجماعة كانوا معه ، فماهم بأكثر ولا أعز من الذين مع طلحة والزبير ومعاوية ، ومع هذا فقد قاتلهم علي " [٢] •

غير أن الحمقى من الاخباريين والموتورين حشوا أسفار التاريخ بمقتضى أهوائهم ، فدسوا أخبارا تنزف بالعداء والحقد ، وتشعر بالمر من المنافسة والكيد بين الصحابة • تكالبا على الدنيا والرياسة - خذلهم الله تعالى - فكثرت الأخبار اللقيطة ، كثرة أولاد المتعة •

وتناسوا صراخ ابن سبأ " ياقوم ان عزكم فى خلطة الناس - بعد أن حاول فرزهم علي رضى الله عنه بقوله : ولايرتحلن أحد أعان على عثمان بشىء - فاذا التقى الناس غدا فأنشبوا القتال ، ولاتفرغوهم للنظر " [٣] •

وغفلوا عن جواب أمير المؤمنين رضى الله عنه ، لأبى سلامة الدألانى

---

١) الامامة والسياسة ، لابن قتيبة ، ج١/٧٣•

٢) مختصر منهاج السنة ، للحافظ الذهبى ، ص/٢٤٣•

٣) الكامل فى التاريخ ، لابن الاثير ، ج٣/٢٣٥ ، ٢٣٦•

عندما سأله : أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم، ان كانوا أرادوا الله بذلك ؟ قال : نعم . قال، أفترى لك حجة بتأخير ذلك ؟ قال : نعم ان الشيء اذا كان لايدرك، فان الحكم فيه أحوط ، وأعمه نفعا ، قال : فما حالنا وحالهم أن ابتلينا غدا ؟ قال : انى لأرجو ان لايقتل منا ومنهم أحد نقى قلبه لله الا أدخله الله الجنة "[1] .

وفيما سبق ابطال لمفتريات السبئية ، ومن تابعهم ، وبخاصة الوصية بالخلافة ، وابعاداً لشبح التشيع المزعوم، المتشح بعقائد ،وأفكار وافدة ،الا اذا اعتبرنا السبئية مصدر التشيع ومحضنه الأول[*] . وهى التى لم تفتر عن اثارة الفتن، والافتراء على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحبه الكرام . ولاتزال تحرك خماص الأباطيل[2] حتى يومنا هذا .

وما تكاد الأرض تغيب دماء قتلى الجمل، حتى يلتقى المسلمون ثانية ولكن فى " صفين" أمير المؤمنين وأشياعه فى جانب، ومعاوية وأشياعه فى الجانب الآخر ، يطالبون بتسليم قتلة عثمان رضى الله عنه ، ولايخفى ان معاوية من كبار أولياء الخليفة المقتول ... وفشلت المحاولات للاصلاح بين الطرفين ،أو التوفيق بينهما ... مع ان الخلاف لم يكن على الخلافة أيضا ، فمعاوية لم يبايعه أهل الشام على الخلافة ، وانما على الامرة[*] .

" ومعاوية لم يدع الخلافة ، ولم يبايع له بها حين قاتل عليا ، ولم يقاتل على انه خليفة ، ولا انه يستحق الخلافة ، ويقرون له بذلك، وكان هو يقر بذلك لمن سأل عنه . وما كان يرى هو وأصحابه ان يبتدؤا عليا وأصحابه القتال.

---

١) الكامل فى التاريخ ، لابن الاثير ، ج٣/٢٣٨.

*) التشيع المعروف لم يخرج عن الاطار الواسع للسبئية فى كثير من اركانه وتصوراته كالوصية ، والرجعة ، والغيبة ، ومكانة الأئمة وعصمتهم .

٢) وان كانت تحت مسميات جديدة " الصهيونية ، العلمانية والتقية وغيرها ".

*) سير أعلام النبلاء ، للحافظ الذهبى ، ج٣/١٤٠.

ولما رأى علي رضى الله عنه وأصحابه انه يجب على معاوية طاعته،ومبايعته، اذ لا يكون للمسلمين الا خليفة واحد، وانهم خارجون عن طاعته، يمتنعون عن هذا الواجب، وهم أهل شوكة،رأى أن يقاتلهم، حتى يؤدوا هذا الواجب،فتحصل الطاعة والجماعة... ولما دخل أبومسلم الخولانى وجماعة معه على معاوية، قال له : أأنت تنازع عليا أم أنت مثله ؟ فقال : والله انى لأعلم أنه خير منى وأفضل، وأحق بالأمر، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما، وأنا ابن عمه. وأنا أطلب بدمه، وأمره الي ؟ فقولوا له : فليسلم الي قتلة عثمان، وأنا أسلم له أمره، فأتوا عليا فكلموه فى ذلك، فلم يدفع لهم أحدا "[1].

ولايجوز ان يكون معاوية خليفة مع امكان استخلاف علي رضى الله عنه - والمسلمون مقرون بذلك، ولايرون معاوية منافسا لعلي على الخلافة - فان فضل علي،وسابقته،وعلمه،ودينه،وشجاعته. وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معروفة، كفضل اخوانه ابى بكر، وعمر، وعثمان،وغيرهم رضى الله عنهم، ولم يكن بقى من أهل الشورى غير علي وغير سعد. وسعد كان قد ترك الأمر. فانحصر الأمر فى عثمان وعلي، فلما استشهد عثمان،لم يبق لها معين الا علي رضى الله عنه "[2].

وعلي رضى الله عنه، عذر المسلمين،ومنهم بعض اصحابه، لما توقفوا عن القتال،وحضوره الى جانب اى منهما. لأن الأمر راهق(تداخل حقه فى باطله)

فقد أتى اصحاب عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عليا، وفيهم "عبيدة السلمانى[*]" وأصحابه فقالوا : انا نخرج معكم ولاتنزل عسكركم، ونعسكر على حدة

---

١) سؤال فى معاوية، لابن تيمية، ص٣٢-٣٣، وتاريخ الطبرى، ج٥/٦ وفى "وقعة صفين" لابن مزاحم، جواب معاوية لابى مسلم الخولانى : ما أقاتل عليا،وانا ادعى انه لى فى الاسلام مثل صحبته،ولاهجرته،ولاقرابته،ولاسابقته، ص ٨٥.

٢) المصدر السابق، ص ٣٤.

*) عبيدة بن عمرو السلمانى، أسلم قبل وفاة النبى صلى الله عليه وآله وسلم بسنتين ولم يلقه، روى عن ابن مسعود، وعلي، وروى عنه ابن سيرين،وابراهيم النخعى وغيرهما، وكان شريح اذا اشكل عليه شئ كتب اليه، توفى سنة ٧٢هـ.

حتى ننظر فى أمركم،وأمر أهل الشام، فمن رأيناه أراد مالايحل له، أو بدا منه بغي كنا عليه، فقال علي : مرحبا وأهلا ، هذا هو الفقه فى الدين،والعلم بالسنة ، ومن لم يرض بهذا فهو جائر خائن"[1] .

وأتاه آخرون من أصحاب عبدالله بن مسعود ، فيهم ربيع بن خثيم، وهم يومئذ أربعمائة رجل، فقالوا ، يا أمير المؤمنين، انا شككنا فى هذا القتال، على معرفتنا بفضلك، لاغناء بنا ولابك ولا المسلمين عمن يقاتل العدو ، فولنا بعض الثغور نكون[*] به ، ثم نقاتل عن أهله ، فوجهه على ثغر الري "[2] .

ولامفر من القضاء ، وتم اللقاءالعسكرى فى" صفين" ولاتسل عن كثرة القتلى الذين طحنتهم رحى الفتنة . وانتهى الأمر بينهما بقبول التحكيم، الذى ينص على ان يجتمع ممثلون عن الطرفين فى رمضان من السنة نفسها ، فى منطقة بين العراق والشام تدعى " اذرح "،لتدارس جوانب الصراع،والوصول الى حكم فيه .

وليس كما ابتدعته روايات الاخباريين -التالفين- فى العصر العباسى، من أن عمرو بن العاص يمثل معاوية ، قد خدع أباموسى الاشعرى، ممثل علي ، بأسلوب أو بآخر ، مما سلم به المؤرخون المعاصرون، وانتهت الخدعة باقالة علي من منصبه ، وتثبيت معاوية خليفة للمسلمين، وذلك أن معاوية لم يكن حتى تلك اللحظة يطمع بالخلافة ، وما كان يريد أكثر من اقراره على ولايته، وتسليمه قتلة قريبه عثمان، أو القصاص منهم . لكن مسألة الطموح الى الخلافة جاءت فيما بعد ، وبعد أن أخذ معسكر علي يشهد مزيدا من التمزق والمتاعب ، والذى حدث هو ان الرجلين، أباموسى وعمرا اتفقا على أن يحيلا أمر الخلافة الى المسلمين

---

١) ٢) وقعة صفين، لابن مزاحم، ص/١١٥.

*) : يكن

الموجودين على قيد الحياة من كبار الصحابة ولم يكن ذلك يشمل معاوية أساسا ، لانه لم يكن خليفة ، ولم يقاتل عليها "[(١)] .ولعل من يزعم تشيعا لعلى،وآل بيته،ان يصغي لقولته ، ويسلك سبيله - سبيل الانصاف- فقد روى عن جعفر بن محمد عن أبيه (الباقر) قال: سمع علي رجلا يغلو فى القول- يوم الجمل او يوم صفين- فقال، لاتقولوا الا خيرا[(*)] ، انما هم قوم زعموا انا بغينا عليهم، وزعمنا انهم بغوا علينا فقاتلناهم "[(٢)] . وان كنا نعتقد ان " عليا كان أقرب الى الحق، وأولى به من معاوية . وجاء أمر الله تعالى ونالت تلك الضربات الغادرة الفاجرة بغيتها من أمير المؤمنين علي رضى الله عنه وأرضاه ، على يد اللعين الأشقى عبدالرحمن بن ملجم المرادى . فتوسل كثير من الصحابة الى أمير المؤمنين - مخافة الفتنة والفرقة،وقد عانى كرم الله وجهه منها ما عانى، ان يعهد بالخلافة من بعده لأحد من ابنائه ، مع كفاءتهم،وفضلهم،ومكانتهم ، ولكن قال بملء فيه : لا" ولكن أترككم كما ترككم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : فما تقول لربك اذا تركتنا هملا ؟ قال : أقول : اللهم أستخلفتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني، وتركتك فيهم، فان شئت أصلحتهم ، وان شئت أفسدتهم " وفى رواية اخرى، انه قال : بل أترككم كما ترككم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعل الله يجمعكم- بعدي- على خيركم، كما جمعكم بعد نبيكم على خيركم " يعنى أبابكر الصديق رضى الله عنه[(٣)] .

فأين العهد والوصية ؟ أم هى واحدة من مفتريات القوم الكثيرة.والى هذه السنة ، وافتراءات جديدة من ابن سبأ ،واتباعه ،فقالوا بعد موت أمير المؤمنين علي

---

١) حول القيادة والسلطة ، د/عماد الدين خليل، ص/٤٠، ٤١.

*) ويوضح ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : " لاتقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعواهما واحدة " والمراد بالفئتين جماعة علي وجماعة معاوية ، والمراد بالدعوة الاسلام على الراجح، فتح البارى ، ج١٢/٣٠٣.

٢) مختصر منهاج السنة، للحافظ الذهبى، ص/٣٣٥.

٣) مسند الامام احمد ، ج١/١٣٠، برقم ١٣٣٩، وانظر المسعودى " مروج الذهب" ج٢/٤٢٥ ، والبداية والنهاية ، لابن كثير ، ج٦/٢١٩.

رضى الله عنه : " ان المقتول لم يكن عليا ، وانما كان شيطانا تصور للناس فى صورة علي ، وان عليا صعد الى السماء ، كما صعد اليها عيسى بن مريم عليه السلام وقال : كما كذبت اليهود والنصارى فى دعواها قتل عيسى • كذلك كذبت النواصب والخوارج فى دعواها قتل علي ، وانما رأت اليهود والنصارى شخصا مصلوبا ، شبهوه بعيسى - كذلك القائلون بقتل علي ، رأوه قتيلا يشبه عليا ، فظنوا انه علي • وعلي قد صعد الى السماء ، وأنه سينزل الى الدنيا ، وينتقم من أعدائه ، وزعم بعض السبابية أن عليا فى السحاب ، وأن الرعد صوته ، والبرق سوطه ، ومن سمع من هؤلاء صوت الرعد ، قال : عليك السلام يا أمير المؤمنين "[١] •

وعن زحر بن قيس ، قال : " قدمت المدائن بعد ماضرب علي بن ابى طالب رحمه الله تعالى ، فلقينى ابن السوداء ، وهو ابن حرب ، فقال لى : ما الخبر ؟ قلت : ضرب أمير المؤمنين ضربة بموت الرجل من أيسر منها ، ويعيش من أشد منها • قال : لوجئتمونا بدماغه فى مائة صرة ، لعلمنا انه لايموت حتى يذودكم بعصاه "[٢] •

وان قالوا هذا • فقد ادعوا أكبر منه ، اذ أتوا عليا ، وقالوا مشافهة : أنت هو ، فقال لهم : ومن هو؟ فقالوا : أنت الله ، فاستعظم الامر ، وأمر بنار فأججت فأحرقهم ، فجعلوا يقولون ،وهم يرمون فى النار : الآن صح عندنا انك الله ، لانه لايعذب فى النار الا الله[٣] •

وأصحاب أمير المؤمنين رضى الله عنه ، يرون ماقاله سيدهم أبوعمرو بشير ابن عمرو بن محصن الانصارى " ان صاحبى أحق البرية كلها - بعد وفاة الخلفاء السابقين ، لأنه قال هذا فى صفين - بهذا الأمر ، فى الفضل والدين والسابقة فى الاسلام والقرابة بالرسول صلى الله عليه وسلم "[٤] • " ربنا اغفرلنا ولاخواننا

---

١) الفرق بين الفرق ، للبغدادى ، ص/٢٢٣ - ٢٢٤ •
وقال آخر : ومن قوم اذا ذكروا عليا •• يردون السلام على السحاب
٢) البيان والتبيين ، للجاحظ ، ج٣/٨٦ •
٣) الفصل فى الملل والنحل •• لابن حزم الاندلسى ، ج٥/٤٦ •
٤) الكامل فى التاريخ ، لابن الاثير ، ج٣/٢٨٥ •

الذين سبقونا بالايمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا)[(١)] .

أما الرعاع والغوغاء الذين انساقوا فى فجاج المتربصين ، ونعقوا بدعوتهم واتخذهم ابن سبأ، وأعوانه محضنا لضلالهم ، وابتلي بهم أمير المؤمنين رضى الله عنه ، فقد بين حالهم فى خطبة له : " يا أهل الكوفة : كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم ، وأغلق بابه ، انجحر كل امرىء منكم فى بيته ، انجحار الضب فى جحره ، والضبع فى وجارها ، المغرور من غررتموه ، ولمن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب، لا أحرار عند النداء ، ولا اخوان ثقة عند النجاء ، انا لله وانا اليه راجعون، ماذا منيت به منكم ! عمي لاتبصرون، وبكم لاتنطقون، وصم لاتسمعون، انا لله وانا اليه راجعون "[(٢)] .

وهرع أتباع علي رضى الله عنه وأرضاه ، الى مبايعة ولده الحسن رضى الله عنه " ومنذ البداية سعى للتوصل الى حل يوقف سفك الدماء عند حده . - وبعد أن عرف ان أغلب من وراءه ، هم كما وصفهم أبوه ،طائفة مجتمعة الأبدان، متفرقة الأديان ، أعاليل بأضاليل ، لاتعز دعوة من دعاهم ، ولايستريح من قاساهم ، ذليل من ينصرونه ...[(*)] ويعيد للأمة وحدتها التى مزقتها الفتنة ، ودخل فى مفاوضات مع معاوية ، تكللت بالنجاح ، وأعلن الحسن تنازله عن الخلافة لمعاوية عام (٤١) هـ . ومبايعته اياه حقنا لدماء الأمة "[(٣)] . وزهدا فى أدعياء المحبة ، الذين فضح أمرهم رضى الله عنه ، فقال : يا أهل العراق ، انما سخى بنفسى عنكم ثلاث ، قتلكم أبى وطعنكم اياى ، وانتهابكم متاعى "[(٤)] .

ومع ذلك لم يكن معاوية رضى الله عنه ، يرى نفسه أفضل من الحسن ، أو

---

١) سورة الحشر ، الآية : ١٠ .

٢) تاريخ الطبرى ، ج٥/١٣٤ .

*) انظر الفتوح ، لابن اعثم ، ج٢/٢٥٥ ، وكتب التاريخ (الطبرى ، ابن الاثير ...)

٣) حول القيادة والسلطة ، د . عماد الدين خليل ، ص/٤٣ .

٤) تاريخ الطبرى ، ج٥/١٥٩ .

من ابن عمر أو من عبدالله بن عبدالله بن عمرو بن العاص، وغيرهم • وهذا ما كان يصرح بـــه معاوية، فقد روى عن ثابت مولى سفيان، سمعت معاوية ، وهو يقول : انى لست بخيركـــم ، وان فيكم من هو خير منى ، ابن عمر ، وعبدالله بن عمرو ، وغيرهما ، ولكنى عسيـــت أن أكون أنكاكم فى عدوكم ،وأنعمكم لكم ولاية ، وأحسنكم خلقا "[١] •

وأورد صاحب " مقاتل الطالبيين " رد معاوية على رسالة الحسن بن علي رضـــي الله عنهما ، وكان مما قال : وقد فهمت الذى دعوتنى اليه من الصلح ، ولو علمت انـــك أضبط مني للرعية، وأحوط علي هذه الأمة ، وأحسن سياسة ، وأقوى على جمع الأمـــوال ، وأكيد للعدو ، لاجبتك الى ما دعوتنى اليه ، ورأيتك لذلك أهلا ، ولكنى قد علمت أنى أطول منك ولاية ، وأقدم منك لهذه الأمة تجربة ، وأكثر منك سياسة ، وأكبـــر منك سنا ... "[٢] •

ورغم مالفقه القوم من أضاليل وأباطيل، حول الخلافة والصلح، وتابعهـــم المحدثون من الباحثين، فان فضل الصلح والتنازل[*] قد نال شرفه وأجره سيدنا الحسن رضى الله عنه ، اذ كان تنازله من اعلام النبوة، فهو كما قال عنه المصطفى صلـــى الله عليه وسلم وآله وسلم" ان ابنى هذا سيد ، ولعل الله ان يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"[٣] • فنفذ الميعاد ، وصحت بيعة معاوية ، وذلك في " مسكن " علـــى نهر دجيل ، في ربيع الاول سنة احدى وأربعين، ومعاوية خليفة ، وليس بملـــك • فعن جابر بن سمرة ، قال : دخلت مع أبى على النبى صلى الله عليه وسلم، فسمعتـــه يقول : ان هذا الامر لاينقضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة ، قال : ثم تكلـــم بكلام خفي علي فقلت لابى : ماقال ؟ قال : " كلهم من قريش "[٤]•

---

١) سير أعلام النبلاء ، للحافظ الذهبى، ج ١٥٠/٣•

٢) مقاتل الطالبيين، للاصفهانى، ص/٥٨•

*) ولو كان الحسن رضي الله عنه ، يظن ان معاوية على غير هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم، لما تنازل له عن الخلافة ، وبايعه .. وان علم ذلك، كانت جرحة فـــي شخصيته وتقواه رضى الله عنه وارضاه ، وانما اختار الاسلم والابقى على وحدة الامة •

٣) صحيح البخارى، ج٢٢٥/٥ ، فى الصلح •

٤) فتح البارى، لابن حجر العسقلانى ، ج١٦٢/١٣ ، وفى اغلب السنن، والمسند برقم ٣٧٨١•

ولم يكن معاوية - كما يدعى أهل الأهواء - من الجبابرة والظلمة ، الذين دابروا تعاليم الدين ، وابتعدوا عن هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين [*] " وحسبه ان عمر أمّره ، - وجمع له الشامات كلها ، وأفرده بها لما رأى من حسن سيرته - ثم عثمان على اقليم - وهو ثغر فيضبطه ، ويقوم به أتم قيام، ويرضى الناس بسخائه وحلمه ... وقوة دهائه .. وكان محببا الى رعيته ، عمل نيابة الشام عشرين سنة ، والخلافة عشرين سنة " [١] . ويرى فيه الامام علي رضى الله عنه وفى امرته خيرا للمسلمين ، فقد روى مجالد عن الشعبى ، عن الحارث ، عن علي قال : لاتكرهوا امرة معاوية ، فلو قد فقدتموه لرأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها " [٢] .

وهذا ما وقع بعد وفاته ، ومامأساة كربلاء ، ووقعة الحرة ، وفجائع الحجاج الا من تلك السبيل .

وخلال تلك الفترة ، التى تنتهى بوفاة معاوية ، وتوليته يزيد ، بقيت كلمة " شيعة " محافظة على معنى الأتباع ، وتتحدد بالاسم الذى يضاف اليها ، فكان يقال " شيعة علي " و " شيعة معاوية " [*] والذى كان يحدد شيعة علي ، أو يعرفون به من خصومهم " لفظ " الترابى " وترابية " [٣] . فلم تتطور لتصبح مصطلحا على أنصار علي وآل بيته رضى الله عنهم . ولم يتطاول النزاع ليصبح لكل فريق مذهب خاص، وعقائد جديدة .

---

*) كما زعم كثير من الباحثين المحدثين أمثال (العقاد (فى على بن الحسين أبو الشهداء ص/٢٥) النعمان القاضي ، ويوسف خليفة ، وغيرهم) فقد ذكر النعمان القاضى فى كتابه الفرق الاسلامية في الشعر الاموى ، ان الخلاف بين علي ومعاوية خلاف بين نظامين متقابلين ، بين خلافة دينية ، ودولة دنيوية) انظر الصفحة ٤٩/٤٨ ، وكمله من سقطات ، ص ٩٠٨ .

١) سير أعلام النبلاء ، للحافظ الذهبى ، ج٣/١٣٢ .

٢) أنساب الأشراف ، للبلاذرى ، ج٤/٢ ، والبداية والنهاية ج٨/١٣١ .

*) وهذا مابينه الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه فى رسالته الى أهل الامصار ، " التقينا القوم من أهل الشام ، والظاهر أن ربنا واحد ، ودعوتنا فى الاسلام واحدة ولانستزيدهم فى الايمان بالله ، والتصديق برسوله ، ويستزيدوننا ، الأمر واحد الاما اختلفنا فى دم عثمان ، ونحن منه براء " .

٣) انظر تاريخ الطبرى ، ج ٢٨١/٥ ، ومنه قول زياد بن أبيه : ان الطواغيت من هذه الترابية السبئية .." المصدر السابق /ج ٢٥٦/٥ .

وانما الخلاف اجتهادي. ويؤكد هذا ما أورده ابن مزاحم" في معرض حديثه عن صحيفة التحكيم" هذا ماتقاضى عليه علي بن ابى طالب ، ومعاوية بن ابى سفيان وشيعتهما فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ... وان عليا وشيعته رضوا أن يبعثوا عبدالله بن قيس ناظرا، ومحاكما ، ورضى معاوية وشيعته ان يبعثوا عمرو بن العاص، ناظرا ومحاكما "[1].

ومما قاله معاوية : "وهممت ان أكتب بذلك الى شيعتى من أهل العراق"[2].

ولم يتغير الأمر فى خلافة يزيد ، مع مارافق بيعته من حوادث جسام، ومصائب عظام، فقد رغب عن مبايعته خليفة، عدد من الصحابة الكبار ، منهم الحسين ابن علي رضى الله عنهما ، وعبدالله بن الزبير رضى الله عنهما ، وخلصوا من المدينة المنورة ليلا ، الى مكة المكرمة ، وحرمها الآمن. وعاذ ابن الزبير بالحرم، والحسين تتوالى رسائل أهل الكوفة عليه، تتوسل اليه، شيعته وشيعة ابيه من قبل بالقدوم ، "لعل الله ان يجمعهم به على الهدى، كما يقولون وهو أهل لذلك، فهو من العاملين بالكتاب ، والآخذين بالقسط، والدائنين بالحق"[3] وفى تلك الاجواء ، بدأت كلمة " الشيعة "- معرّفة- تظهر فى أحاديث القوم، ورسائلهم" فاجتمعت الشيعة فى منزل سليمان بن صرد ... وحسين قد تقبض على القوم ببيعته، وقد خرج الى مكة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فان كنتم تعلمون انكم ناصروه، ومجاهدو عدوه، فاكتبوا اليه، وان خفتم الوهل والفشل فلا تغروا الرجل من نفسه، قالوا: لا ، بل نقاتل عدوه، ونقتل انفسنا دونه، قال : فاكتبوا اليه "[4].

وهناك خبر آخر يقول : "اجتمع ناس من الشيعة " بالبصرة فى منزل امرأة من

---

١) وقعة صفين، لابن مزاحم، ص/٥٠٤ ، ٥٠٥.
٢) تاريخ الطبرى، ج ٥٥٢/٤.
٣) المصدر السابق، ج ٣٥٣/٥.
٤) الكامل، لابن الأثير ، ج ٢٠/٤ ، من خطبة لسليمان بن صرد فى الشيعة.

عبدالقيس ..."[1] . " ولما نزل- مسلم بن عقيل- دار المختار بن أبى عبيد ، وأقبلت الشيعة " تختلف اليه . فلما اجتمعت اليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب حسين فأخذوا يبكون "[2] .

ومع ذلك لم يكن بين هؤلاء بواعث موحدة ، سوى محبتهم لآل البيت ، وان كان الى جانبهم كثير من الأدعياء الحاقدين ، ومروجي الفتن .

وخرج الحسين رضى الله عنه ، من مكة متوجها الى الكوفة ، ولم يعلم بقتل مسلم ، وخذلان أهل الكوفة له- رغم نصائح كثيرة من أخيه محمد بن الحنفية ، وعبدالله بن عباس ، وعبدالرحمن بن الحارث رضى الله عنهم ، وغيرهم من أصحاب الأحلام الراجحة ، وأولى النهى من ذوى قرابته . فاسمع نصيحة ابن عباس رضى الله عنهما ، وهو الذى لم يصدق أن الحسين عازم على الخروج الى الكوفة . " يا ابن عم ، انك قد أرجف الناس انك صائر الى العراق ، فبين لى ما أنت صانع ؟ قال: انى قد أجمعت المسير في يومى هذين ان شاء الله تعالى ، فقال له ابن عباس ، فانى أعيذك بالله من ذلك . أخبرنى رحمك الله ! أتسير الى قوم قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفروا عدوهم ، فان كانوا قد فعلوا ذلك ، فسر اليهم ، وان كانوا انما دعوك اليهم ، واميرهم عليهم قاهر لهم . وعماله تجبي بلادهم ، فانهم دعوك الى الحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ، ويخالفوك ويخذلوك ، وان يستنفروا اليك ، فيكونوا أشد الناس عليك ، فقال له الحسين : انى أستخير الله ، وأنظر مايكون "[3] .

ومن مثل ابن عباس رضى الله عنهما ، في سداد الرأى ، ومعرفة الناس . وبخاصة أهل العراق الذين شهد خذلانهم ومخالفتهم ووهلهم . أيام أمير المؤمنين

---

١) تاريخ الطبرى ، ج٥/٣٥٣ ، وانظر الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير ، ج٤/٢١ .
٢) المصدر السابق ، ج٥/٣٥٥ ، وانظر الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ، ج٤/٢٢ .
٣) المصدر السابق ، ج٥/٣٨٣ ، وانظر مروج الذهب ، المسعودى ، ج٣/٦٤ .

علي كرم الله وجهه ، وأمر الله لابد ماض ، وسار الحسين بأهله - ولم تغب عنه مغبة مسيره - والمنايا تسرى اليه ٠ وقلوب المحبين تشيع موكب الشهداء ، ورياحين الجنان ، وهى تخفق اشفاقا من تلك الرحلة ، وشهدت " كربلاء " ذلك الكرب الذى أدمى قلوب المسلمين ، والبلاء الذى لايزال غصة فى حلوقهم ٠ " انها كرب وبلاء " كما قال عنها الحسين لما نزلها "[1] ٠

ويتبدي غدر القوم ، وينطلق لسان الحسين بن على رضى الله عنهما بالدعاء عليهم ، فقد[*] قتله مكرهم وخذلانهم " اللهم أمسك عنهم القطر من السماء ، وأمنعهم بركات الارض ، اللهم فان متعتهم الى حين ، ففرقهم فرقا ، واجعلهم طرائق قددا ، ولاترض عنهم الولاة أبدا ، فانهم دعونا لينصرونا ، فعدوا علينا فقاتلونا "[2] ٠

لقد كانت مأساة كربلاء ، شؤما على المسلمين الى اليوم ، وذلك بجناية أدعياء التشيع لآل البيت ، الذين حرضوا الحسين بن على رضى الله عنهما ، بجهل وغرور ، ورغبة فى الفتنة ، ثم خذلوه بجبن وخيانة وغدر ، وأرادوا من دعوته " ان يأكلوا بآل البيت ، ويشيطوا دماءهم ، كما قال الحسين لما أرسلوه أيام معاوية[3] ٠

ولما رأى علي بن الحسين بن علي رضى الله عنهم دموع التماسيح فى عيون أهل الكوفة - وهو فى براءة قطر السماء وطهره - وشهد مصرع أبيه وأهله ، قال لهم : يا أهل الكوفة ، انكم تبكون علينا ، فمن قتلنا غيركم "[4] ٠

---

١) البداية والنهاية ، لابن كثير ، ج٨/١٧٠٠

*) وفي مرثية له من المكتمات التى قالها عوف بن عبدالله بن الأحمر الأزدي بين غدر الشيعة ، وخذلانهم الحسين بن على رضى الله عنهما ، يقول :

لبيك حينا كلما ذر شاق	وعند غسوق الليل من كان باكيا
لحا الله قوما أشخصوهم وعردوا	فلم ير يوم البأس منهم محاميا
ولاموفيا بالعهد اذ حمس الوغى	ولا زاجرا عنه المضلين ناهيا

الموشح /١٢٦٠

٢) تاريخ الطبرى ، رواية أبي محنف ، ج٥/٤٥١ ، وأنظر : الكامل فى التاريخ ، ج٤/٧٧٠

٣) سير أعلام النبلاء ، للحافظ الذهبى ، ج٣/٢٩٤٠

٤) مختصر منهاج السنة ، لمحب الدين الخطيب ، ص/٢٦٧٠

ولعل الشاعر الشيعي محمد جواد خضر ، وهو من شعراء العصر الحديث ، قد وفق في تسجيل تلك الوقفة الغادرة ، التي ما تجاوزها هؤلاء القوم ، يقول:

غداة استغاثت بالحسين جموعهم	:	اذا خف منهم تابع حل تابع
أن اقدم علينا يا ابن احمد اننـــــا	:	لغير ابن بنت المصطفى لانبايع
وقد نزلوا في عرصة الطف وانجلـت	:	حقيقة مايخفى من الغدر خادع
فباءوا بذل مهطعين رؤوسهـــــم	:	حيارى، ومافي الجمع للنصح سامع
ولم يرعوا بل صاح صائح جمعهـــم	:	بصوت له تستك منه المسامــــع
ان انزل على حكم الامير مبايعـــا	:	والافما غير الاسنة شافـــــع (١)

وبعد فاجعة كربلاء ، تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم ، ورأت انها قـــــد أخطأت خطأ كبيرا بدعائهم الحسين ، وتركهم نصرته وآجابته، حتى قتل الى جانبهم، ورأوا أنه لايغسل عارهم، والاثم عليهم ، الا قتل من قتله، أو القتل فيهم ، فاجتمعـــوا بالكوفة الى خمسة نفر من رؤساء الشيعة ، الى سليمان بن صرد (*) الخزاعي ، وكانـــت له صحبة ، والى المسيب بن نجبة (*) ، وكان من اصحاب علي ، والى عبدالله بن سعدابـن نفيل الازدي (*) ، والى عبدالله بن وال التميمي ، تيم بكر بن وائل ، والى رفاعة بن شداد البجلي (*) ، وكانوا من خيار أصحاب علي ، ثم خطب المسيب بن نجبة ، وكان مما قال: " وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا ، وتقريظ شيعتنا ، حتى بلا الله اخيارنا ،فوجدنـا ، كاذبين في موطنين ، من مواطن ابن بنت نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ... ولاعـــذر دون أن تقتلوا قاتله ، والموالين عليه ، أو تقتلوا في طلب ذلك ، فعسى ربنـــا ان

---

١) حاشية مختصر منهاج السنة ، لمحمد الدين الخطيب ، ص/٢٦٧.

*) سليمان بن صرد : صحابي كان دينا عابدا ، شهد الجمل وصفين مع علي ترأس جيش التوابين ، قتله يزيد بن الحصين ، سنة ٦٥هـ.

*) المسيب بن نجبة الفزاري ، تابعي ، كان رأس قومه ، شهد القادسية وفتوح العـراق ، وكان مع علي في مشاهده ، وكان ناسكا متعبدا ، توفي مع سليمان بن صرد فـي معركة عين الوردة .

*) عبدالله بن سعد بن نفيل الأزدي ، أحد رؤساء الكوفة وشجعانها ، وقتل في معركة " عين الوردة "بعد أن قاد جيش التوابين خليفة للمسيب بن نجبة ..

*) رفاعة بن شداد البجلي : قارئ من الشجعان المقدمين ، من شيعة علي ، قاتل مع المختار حتى قتل سنة ٦٦هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ، والأعلام للزركلي .

يرضى عنا ، عند ذلك [١] .

وكان قد قدم المختار بن أبي عبيد الكوفة بعد هلاك يزيد بستة أشهر . وأخذ يدعو الناس الى قتال قتلة الحسين، ويقول : جئتكم من عند المهدى محمد ابن الحنفية ، وزيرا وأمينا ، فرجع اليه طائفة من الشيعة ، بعد أن خذلهم عن سليمان بن صرد ، ولكن عظماء الشيعة مع سليمان بن صرد ، لايعدلون به أحدا وهو أثقل خلق الله على المختار " [٢] .

وفي سنة خمس وستين، خرج سليمان بن صرد الى " النخيلة " ، ورأى قلة عدد الناس، وأرسل حكيم بن منقذ الكندي، والوليد بن عصير الكناني . فناديا في الكوفة ، يالثارات الحسين ! فكانا أول خلق دعوا "يالثارات الحسين" [٣] . وتخلف كثير ممن دون اسمه في ديوان ابن صرد ، فلم يوافه من ستة عشر ألفا الا أربعة آلاف ، ونسي المتخلفون العهود والمواثيق، وساروا حتى انتهوا الى قبر الحسين ، فلما وصلوا صاحوا صيحة واحدة . فما رئي أكثر باكيا من ذلك اليوم . ويحدد بواعث اجتماعهم، وحقيقة تشيعهم الدعاء الذي انثال على لسان أحدهم : " اللهم أرحم حسينا ، الشهيد ابن الشهيد ، المهدى ابن المهدى، الصديق ابن الصديق . اللهم انا نشهدك، انا على دينهم وسبيلهم ، وأعداء قاتليهم، وأولياء محبيهم . اللهم انا خذلنا ابن بنت نبينا صلى الله عليه وسلم، فاغفر لنا مامضى منا ، وتب علينا ، وارحم حسينا وأصحابه الشهداء الصديقين، وانا نشهدك أنا على دينهم ، وعلى ماقتلوا عليه ، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين " [٤] .

وتابعوا مسيرتهم حتى أتوا "عين الوردة " [*] وأقبل أهل الشام في عساكرهم

---

١) تاريخ الطبرى ، ج٥/٥٥٢ - ٥٥٣ ، وانظر الكامل فى التاريخ ، ج٤/١٥٨ ومابعدها .

٢) تاريخ الطبرى ، ج٥/٥٨٠ .

٣) الكامل في التاريخ ، لابن الاثير ، ج٤/١٧٥ .

٤) المصدر السابق ، ج٤/١٧٨ .

*) في شمال سوريا ، وتسمى الآن رأس العين .

حتى كانوا عند عين الوردة على مسيرة يوم وليلة ، فاجأهم المسيب بن نجبة ، فقتل منهم ، وغنم ، وعاد موفورا إلى عين الوردة ... ولما دنا الجيشان ـ وكان على أهل الشام الحصين بن نمير، دعاهم الى الجماعة على عبدالملك بن مروان" ودعاهم أصحاب سليمان إلى خلع عبدالملك ، وتسليم عبيدالله بن زياد إليهم ، وأنهم يخرجون من بالعراق من أصحاب ابن الزبير ، ثم يرد الأمر الى أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأبى كل منهم "(١).

ودارت المعركة في عين الوردة ـ جولات ، أكرم الله تعالى الصادقين بالشهادة وكانت الهزيمة من نصيب جيش التوابين ، الذين جمعهم حب آل البيت ، والانتقام لهم من قاتليهم ... وردّ الامور اليهم ، وبذا أصبحت كلمة " الشيعة " في موكبهم دلالة على تلك الجماعة ،التي تحمل التصورات السابقة . دون الانحراف الى سبل الضلال ، إذ لم يصل بهم التشيع لآل البيت إلى تفضيل علي على أبي بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين . وهذا حال الشيعة ـ غير الغلاة ـ وقد أفصح عن هذا السبيل ، أحد الشيعة ، شريك بن عبدالله النخعي الكوفي(*) ، اذ كان يفضل أبابكر وعمر ، فقال : كل شيعة علي على هذا ، هو يقول على أعواد هذا المنبر ، خير هذه الامة بعد نبيها أبوبكر ثم عمر . أفكنا نكذبه ، والله ماكان كذابا "(٢).

فالشيعة هؤلاء لم يعرفوا الغلو المردي في متاهات الضلال ... وانما اجتهدوا في متابعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ،والقول بأحقية آل بيته الأطهار بالخلافة ،لما هم عليه من علم ،وتقوى، واستقامة ،وكانت سبيل من تبعهم من الصالحين ، الذين كان عندهم تشيع لآل البيت . إذ تجسد في التعبير عن المعارضة السياسية للخلافة بالشام . وأعتقد أن صالحي الأمة ليسوا إلا على هذه

---

١) الكامل في التاريخ ، لابن الاثير ، ج٤/١٨٢.

*) شريك بن عبدالله ، ولد سنة (٩٠هـ) وتولى القضاء بواسط والكوفة وتوفي سنة سبع أو ثمان وسبعين بعد المائة ، وكان عادلا فاضلا شديدا على أهل البدع ، وكان يقدم علياً على عثمان ، تهذيب التهذيب ، لابن حجر ، ج٤/٣٣٣.

٢) كتاب النبوات ، لابن تيمية ، ص/١٣٢.

الطريق .. فما دعوى التشيع ؟! وإن لم تخل صفوفهم من شراذم الغلاة المارقين على مدار التاريخ ، حتى غلبوا أو كادوا ، إذ كانوا ذوى حفيظة على الدين • وقد بين فرق الشيعة هذه صاحب (الحور العين) ، فقال : كانت الشيعة الذين شايعوا عليا عليه السلام على قتال طلحة ،والزبير ، وعائشة ، ومعاوية ،والخوارج ،فى حياة علي عليه السلام ثلاث فرق : فرقة منهم - وهو الجمهور الأعظم الكثير - يرون إمامة أبي بكر وعمر وعثمان ، إلى أن غير السيرة وأحدث الأحداث (*) • وفرقة منهم ، أقل من أولئك عددا ، يرون الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر ثم عمر ثم عليا ، ولايرون لعثمان إمامة ،وحكى الجاحظ انه كان فى الصدر الأول لايسمى شيعيا ، إلا من قدم عليا على عثمان ، ولذلك قيل : شيعى وعثمانى (*) ، فالشيعى من قدم عليا على عثمان ،والعثماني من قدم عثمان على علي ، وكان واصل بن عطاء ، ينسب إلى الشيعة فى ذلك الزمان ، لأنه كان يقدم عليا على عثمان • وفرقة منهم يسيرة العدد جدا ، يرون عليا أولى بالإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرون إمامة أبى بكر وعمر كانت من الناس على وجه الرأى والمشورة ، ويصوبونهم فى رأيهم ، ولايخطئونهم ، إلا أنهم يقولون ، إن إمامة علي كانت أصوب وأصلح ، .. وكان الشيعة كذلك حتى مقتل الحسين " (١) •

وأرى أن الشيعة التزمت هذه السبيل ، حتى جاء المختار بأكاذيبه ، ومخاريقه فاستغوى واستفسد أعدادا منهم ، وبقى كثير من العباد ، والصالحين ، على تلك السبيل ، مجافين سبل الضلال والشرك والكفر ، التى شققها ابن سبأ وزمرته • والتى نهل منها الغلاة فيما بعد - ولكن تحت مظلة التشيع لآل البيت - وأضافوا اليها

---

*) تلك الأحداث مزعومة متوهمة ، لاتسقط امامته وخلافته للمسلمين ، كما ذكرنا من قبل •

*) لم يعرف هذا المصطلح ، فى ذلك الوقت ، وانما عرف " عثماني الهوى " علوي الهوى أو من شيعة عثمان ، ومن شيعة على ... أو ترابى •

١) الحور العين ، لأبى سعيد نشوان الحميرى (ت ٥٧٣هـ) تحقيق كمال مصطفى ، طبع سنة ١٩٤٨م فى مطبعة السعادة ، مصر ، ص/١٨٠ •

من الأكاذيب والأضاليل التي أصبحت دينا يتعبد به ، من دون دين الله الذى ارتضاه لعباده •

وإن كثيرا من المصادر ، تشير الى أن هذه المبادئ لم تعرف عند الشيعة قبل هشام بن الحكم ، أحد متكلمي الشيعة ، والذى يقال : انه ابتدع هذا القول ، ثم أخذه منه معاصروه ، ويقول عنه ابن النديم " إنه ممن فتق الكلام فى الإمامة ، وهذب المذهب (*) والنظر ، وألف فى هذا المقام " كتاب الإمامة " و " كتاب الرد على من قال بإمامة المفضول " و " كتاب الوصية والرد على من أنكرها " (١) •

ويؤيد ارتباط معتقدات الشيعة - أولئك - وتبلور مذهبهم بهذه الفترة ، التى ظهر فيها هشام بن الحكم (*) ، وأمثاله ، كهشام بن سالم الجواليقى ، وزرارة بن أعين ، ومحمد بن النعمان (شيطان الطاق) أو مؤمن الطاق ، كما تسميه - تلك - الشيعة • ويؤيد ذلك ان معظم أسانيد الشيعة عن النص والوصية ترجع وتنتهى عند جعفر الصادق (توفى سنة ١٤٨هـ) ووالده أبوجعفر محمد بن علي رضى الله عنهما ، والى علي الرضا ، أغلب الروايات عن النص والوصية ورجعة الأئمة وعصمتهم ، وهم من هذا براء ، وان كانت هذه المفاهيم ، قد زرعت على يد ابن سبأ من قبل وبهذا تختلط الحدود ويتعذر الفصل بين الشيعة الغالية ، وغيرها ، للعلاقة المتداخلة بينهما ، اذ أصبح التشيع ستارا للجميع ، وحب آل البيت وسيلة لنشر الأفكار المنحرفة •

فالمذهب الشيعي إذن قد تكون فى هذه الفترة ، وكان الكلام من قبل - كما يقول القاضي عبدالجبار - فى التفضيل ، ومن هو أولى بالامامة وما يجرى مجراه " (٢) •

---

*) أنظر : سير أعلام النبلاء ، للحافظ الذهبي ، ج١٠/٥٤٤ •

١) الفهرست ، لابن النديم ، ص/٢٦٣ •

*) الذى كان يقول عن علي : انه اله واجب الطاعة ، الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج١/١٨٥ •

٢) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ، للقاضي عبدالجبار بن أحمد المعتزلى ، توفى سنة ٤١٥هـ ، ج ٢٠ فى الامامة ، تحقيق د • عبدالحليم محمود ، و د • سليمان دينا ، ص / ١٢٧ •

وبناء على هذا ينص ابن المرتضى، على أن مذهب الرافضة قد حدث بعد مضي الصدر الأول، ولم يسمع عن أحد من الصحابة من يذكر ان النص فى " علي " جلي، ولافى اثني عشر اماما كما زعموا، فإن زعموا أن عمارا،وأباذر الغفارى، والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسى كانوا سلفهم لقولهم بامامته عليه السلام أكذبهم كون هؤلاء لم يظهروا البراءة من الشيخين، ولا السب لهما، ألا ترى أن عمارا كان عاملا لعمر بن الخطاب، فى الكوفة، وسلمان الفارسى فى المدائن "[1].

ويذكر الذهبى : " أن الشيعى الغالى فى زمان السلف وعرفهم،هو من يتكلم فى عثمان،والزبير،وطلحة،ومعاوية،وطائفة ممن حارب عليا رضي الله عنه، وتعرض لسبهم، والغالى فى زماننا[*] وعرفنا، هو الذى يكفر هؤلاء السادة، ويتبرأ من الشيخين أيضا "[2].

فالتشيع لم يستو على سوقه مذهبا فكريا سياسيا،الا بعد ظهور القول بنظرية النص والتعيين، التى أعطت له من المميزات والملامح،ماجعله يتخصص ويتميز عن غيره من الاتجاهات،والمذاهب، رغم ان أصداء هذه النظرية قد ترددت على لسان ابن سبأ " فابن سبأ أول من اخترع كلمة الوصي " كما اعترف الكشى[3]، فهم-الشيعة- تلاميذ ابن سبأ فى ذلك، كما أن مخترع كلمة " القائم " هو ابومنصور العجلى[*]، كما اعترف النوبختى[4] وكان الامام محمد الباقر رضى الله عنه، قد طرده، وشنع

---

١) طبقات المعتزلة، لابن المرتضى، ج٥/٦.

*) فى زمان الامام الذهبى، المتوفى سنة ٧٤٨هـ .

٢) ميزان الاعتدال، للحافظ الذهبى، ج١/٦.

٣) حاشية مختصر منهاج السنة، لمحب الدين الخطيب، ص/٤٩٦

*) أبومنصور العجلى، من أهل الكوفة، من موالى عبدالقيس، عاصر محمدا الباقر، واكتشف الباقر خيانته لأهل الاسلام، فتبرأ منه، وبعد وفاته نسب لعلي والحسن والحسين وعلي ابنه،ومحمد الباقر النبوة، كما ادعاها بعد لنفسه، ثم ادعى مخاريق ساقطة، قتل وصلب على يد يوسف بن عمر الثقفى .

٤) دراسات فى الفرق والعقائد الاسلامية، د. عرفات عبدالحميد، ص/٢٧.

على مذهب •

واذا تابعنا أحداث القرن الأول، يلقانا المختار الكذاب، بمخاريقه وأكاذيبه إذ استتر وراء ابن الحنفية، لتنفيذ طموحاته، وأهدافه، حيث التف حوله الكثير من المتشيعة، والموالي، الذين تعلقوا بحب العترة المطهرة، كما يدعون، ودارت بين جيش المختار وبين ابن زياد معركة على نهر الخازر "(*) أتت على جند الشام، وبخاصة قتلة الحسين رضي الله عنه •

ولكن افتضاح أمره، أسرع بنهايته، إذ وجه له ابن الزبير جيشا بقيادة أخيه المصعب، فاتى على الكذاب ورجاله، ولكنه خلف زمرة ضلال، عرفت فرقتهم بالكيسانية، وسيكون لنا عودة اليه ان شاء الله تعالى•

وتمضى الأيام، وتحركات الشيعة مرصودة، من عيون الظلمة، أمثال الحجاج ابن يوسف الثقفى وغيره، ولم يتحرك الشيعة حتى سنة (١٢١هـ) وهى السنة التى خرج فيها زيد بن على بن الحسين رضى الله عنه، وتتكرر تغريرات الشيعة وتوسلاتهم لزيد ابن علي، الخروج على بنى أمية، وتتكرر نصائح المحبين له، وتذكيره بغدر القوم، فقد غدروا بعلي بن أبى طالب، والحسن والحسين، ولكن كل يمضى لغاية مقدورة، فيكرم بالشهادة، بعد أن خذله أهل الغدر والمكر، وتخلوا عنه، وتركوه رمية لسهام جيش هشام بن عبدالملك، وقاتل قتال الأبطال وقتها، وإليه تنتسب فرقة الزيدية، ولكن التعلة للتخلف عنه، سؤالهم الغادر، فى الشيخين أبى بكر، وعمر رضى الله عنهما، فذكرهما بخير، فانفضوا عنه وكانت " الرافضة " نعوذ بالله من الخذلان، ومن الحور بعد الكور •

وبذا نؤكد أن التشيع الأول لم يكن خروجا بعقائد جديدة، وأفكار مدسوسة. وإنما كان تيارا سياسيا، يرى فى علي رضى الله عنه خصائص تؤهله للخلافة وتدفع

---

*) نهر بين اربل والموصل •

من ينافسه عليها ، ليس الا ٠

وماعدا هذا اللون من التشيع ، فهي تيارات حاقدة ، ومكائد مدبرة ، تحمل أفكارا هدامة ، اغترفتها من ركام اليهودية والنصرانية والمجوسية ، وساروا بها تحت مظلة التشيع لآل محمد صلى الله عليه وسلم، للقضاء على دولة الاسلام ، وأصبح التشيع على أيدي هؤلاء مذهبا دينيا ، يتغذى بلبان السبئية ٠ ومن جاء بعدهم من الغلاة الذين تزعموا التشيع ، ونظروا له ، وشققوا سبل الغواية والضلال ٠

الفرق التى ظهرت تحت اسم "الشيعة"

فــي القرن الأول

ن الانصاف يلزمنا أن نجافي التقسيمات التى اختارها مؤلفو المقالات والفرق، وهم يتحدثون عن الشيعة وفرقهم" وبخاصة اذا كان حديثنا يتوقف عند نهايـــة القرن الأول، وان امتد فالى العقد الثانى من القرن الهجرى الثانى • لاكتمال بعـض تلك الفرق، فى تلك الفترة •

فالمؤرخون والباحثون لم يقيموا حدودا واضحة، بين التشيع المعتدل، الذى لم يشرد عن سبيل الجماعة المسلمة، ولم يتوقف عن مسيرة الفتح، ومشاركـــة المسلمين فى قضاياهم وهمومهم • اذ كان التشيع لآل البيت ميلا وتحيزا لهم • ولـم يتخذ صورة المذهب الدينى، والسبيل السياسى المخالف، لمسيرة الأمة المسلمـة • وبين غلاة الشيعة الذين جنح بهم الشطط والضلال الى سبل شذت بهم عن جـــادة الحق، وسبيل المؤمنين • اذ أصبح التشيع المزعوم مذهبا دينيا، له مميزاته وأصوله وملامحه • وذلك تحت تأثيرات أجنبية مختلفة • زادت من شذوذه وضلاله • وان التقى اللون الأول مع غلاة الشيعة على بعض المعتقدات والأفكار الا انه ذاب فـــى مجراهم فيما بعد حتى أصبح الشيعة فى الغلو سواء[*] عدا الزيدية •

١) الغــلاة: "أو شيعة ابن سبأ"

من "غلا" يغلو: وغلا فلان فى الأمر غلوا: جاوز حده[(١)] • وهو نقيـــض التقصير • وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الغلو، حتى فى الدين فقال جل شأنـــه:

---

*) وقد اعترف بذلك أكبر علمائهم فى الجرح والتعديل (آية الله المامقانى) فـــى كل ترجمة كتبها للغلاة الاقدمين منهم، وأعلن • ان ماكان به الغلاة الأقدمـون غلاة، أصبح الان عند جميع الشيعة الامامية من ضروريات المذهب •
نقلا عن المخطوط العريضة ... لمحب الدين الخطيب، ص/٤٠ •

١) ترتيب القاموس المحيط، للطاهر أحمد الزاوى، ج٣/٤١٤ •

(قل يا أهل الكتاب لاتغلو في دينكم "[١] اى غلوا باطلا . لأن الغلو فى الدين غلوان، غلو حق، وهو أن يفحص عن حقائقه، ويفتش عن أباعد معانيه، ويجتهد فى تحصيل حججه . وغلو باطل : وهو أن يتجاوز الحد ويتخطاه، بالاعراض عن الأدلة، واتباع الشبه "[٢].

وقد عده - الغلو - الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، من أسباب الهلاك التى أتت على الأمم السالفة، فقال : "إياكم والغلو فى الدين فانما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين "[٣].

وحاول مؤلفو الفرق والمقالات، أن يضعوا تعريفا، يبين حال الغلاة، ويدل عليهم، فقال صاحب "مقالات الاسلاميين" - من أهل السنة - ان سبب تسمية هؤلاء بالغالية " أنهم غلو فى على، وقالوا فيه قولا عظيما "[٤].

أما الشهرستانى، فقد عرف هذه الفرقة فى قوله : " والغلاة اسم على اولئك الذين غلوا فى حق أئمتهم،حتى أخرجوهم من حدود الخلقية، وحكموا فيهم بأحكام الالهية، فربما شبهوا واحدا من الأئمة بالإله، وربما شبهوا الإله بالخلق، وهم على طرفي الغلو والتقصير، وانما نشأت شبهاتهم عن مذاهب الحلولية، ومذاهب التناسخية، ومذاهب اليهود والنصارى، اذ اليهود شبهوا الخالق بالخلق، والنصارى شبهت الخلق بالخالق، فسرت هذه التشبهات فى أذهان الشيعة الغلاة، حتى حكمت بأحكام الالهية فى حق بعض الأئمة "[٥].

أما محمد بن محمد بن عثمان العكبرى (ت سنة ٤١٣) والملقب ب "المفيد" وهو من علماء الشيعة، فيقول : " الغلاة المتظاهرون بالاسلام هم الذين نسبوا أمير

---

١) سورة المائدة، الآية : ٧٧.
٢) تفسير الكشاف، للزمخشرى، ص/٦٦٦.
٣) صحيح سنن ابن ماجة، لمحمد ناصر الدين الالبانى، تحت رقم /٣٠٢٩/
٤) مقالات الاسلاميين، للأشعرى، ص/٥.
٥) الملل والنحل، للشهرستانى، ج١/ ١٧٣.

المؤمنين ، والأئمة من ذريته عليهم السلام الى الالوهية والنبوة ، ووصفوهم من الفضل في الدين والدنيا الى ماتجاوزوا فيه الحد ، وخرجوا عن القصد ، وهم ضلال كفار ، حكم فيهم أمير المؤمنين عليه السلام ، بالكفر ، والقتل ، والتحريق بالنار ، وقضت الأئمة عليهم السلام عليهم بالاكفار [*] والخروج من الاسلام " [١] .

ومن يتابع مسيرة هؤلاء الغلاة ، ويقف على معتقداتهم ، يقطع بفساد طواياهم ، وخطورة نواياهم ، وتحركاتهم المريبة ، لنقض العقيدة الاسلامية ، واقامة هياكل من ديانات ممسوخة بائرة . فالآلهة ، والانبياء هم آل البيت - وفق مذهبهم - . آمنوا بالأئمة ، واعتقدوا امامتهم ، فسقطت عنهم التكاليف الشرعية ، وتحققت لهم السعادة في الدارين ، " اذ الدين طاعة رجل ، والوصول الى الطاعة ، يسقط التكاليف الشرعية " [٢] .

فكانت هذه المذاهب معاول هدم في بنيان العقيدة الاسلامية ، تهدم لتشرد الأمة ، وتضل عن هدى ربها ... وما الاعتقاد ب" الرجعة ، والغيبة ، والتناسخ ، والحلول ، والبداء .. " الا تلك السبل الشيطانية الملتوية ، التي سلكها القوم ، ولجوا في طغيانهم يعمهون .

ومع ذلك انضوى هؤلاء تحت التيار الشيعي ، أو اتخذوا التشيع قناعا وستارا ، للوصول الى مايريدون ، ومن عرف ذلك ، لن يعجب من قول الأستاذ أحمد أمين " والحق ان التشيع كان مأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الاسلام ، لعداوة أو حقد ، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ، ونصرانية ، وزرداشتيه ، وهندية . ومن كان يريد استقلال بلاده ، والخروج على مملكته ، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب آل البيت ستارا ، يضعون وراءه كل ماشاءت أهواؤهم " [٣] .

---

*) " وأما الغالية في علي رضي الله عنه ، فقد اتفق الصحابة ، وسائر المسلمين على كفرهم ، وكفرهم علي بن أبي طالب نفسه ، وحرقهم بالنار " .
مختصر منهاج السنة ، ص/٣٠٤ .

١) تصحيح عقائد الامامية ، ص/٦٣ .

٢) الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج١/١٤٧ .

٣) فجر الاسلام ، لأحمد أمين ، ص/٢٧٧ .

ولم يكن أحمد أمين أسبق من صرح بهذا ، بل تقدمه كثير منهم " المقريزى " اذ قال : فرأوا ان كيده - الاسلام - على الحيلة أنجع ، فأظهر قوم الاسلام ، واستمالوا أهل التشيع ، باظهار محبة أهل البيت "[1] .

لقد كان هؤلاء الغلاة البغاة سلفا للتيارات الباطنية الخبيثة ، التى اشتد ساعدها ، ونالت مآربها فى أحضان التشيع ، اذ عملت على تقويض أركان الدولة الاسلامية ، على مر العصور ، وتحطيم الجماعات المسلمة فى زماننا الحاضر .

وقد صرح علماء الأمة ، بكفر هذه الطوائف ، وخروجها من دين الله تعالى اذ لاحظ لها فى الاسلام ، بعد أن آمنت بعقائد فاسدة تتعارض مع أصول الاسلام وتعاليمه . من طوائف الغلاة التى ظهرت فى القرن الهجرى الأول :

١) السبئية :

وهم أصحاب عبدالله بن سبأ ، يهودى من اليمن ، أظهر الاسلام ، وأبطن الكفر ، وكان رأس الزنادقة والملاحدة . فهو أول من شقق الأفكار الدخيلة على حظيرة الاسلام ، التى أحدثت فى جسد الأمة شروخا ، ليست باليسيرة . واتخذ من التشيع نفقا . يتسلل منه لإحياء وثنيات الديانات المحرفة ، فافتتن بدعوته كثير من الغوغاء ، وأوباش الناس . اذ افتتح دعوته بالطعن على الخلفاء وكبار الصحابة ، رضوان الله عنهم ، لاسقاط هيبتهم ومكانتهم من قلوب المسلمين[٠] لانهم يمثلون المرآة الصافية ، التى تعكس عظمة هذا الدين . فسقوطهم ضربة للاسلام ، يستسهل بعدها الغوغاء المروق من الدين .

وقد أدخل على المجتمع المسلم كثيرا من الاضاليل المخذولة ، فقال بـ "الرجعة"[*] وكان يقولها ، وهو على يهوديته فى " يوشع بن نون " بعد موسى عليه السلام .

---

١) خطط المقريزى ، ج١/٣٦٢ .

(٠) كما ذكر النوبختى فى كتابه " فرق الشيعة " ص/٤٠ .

*) الاموات يرجعون الى الدنيا .

ثم قالها في الرسول " محمد أحق بالرجوع من عيسى " وعليها بنى زعمه في رجعة علي . فعلي سيرجع الى الدنيا ، قبل يوم القيامة ، وانه سينزل الى الأرض فيملأها عدلا كما ملئت جورا "[١] . وهذه العقيدة مخالفة للكتاب الكريم . اذ يقول ربنا سبحانه وتعالى : (قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت ، كلا انها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون)[٢] . وماموقف آل البيت عليهم السلام الا تبع لما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فعن عمرو بن الأصم ، قال : قلت للحسين بن علي : " ان هذه الشيعة يزعمون ان عليا مبعوث قبل يوم القيامة ، فقال : كذبوا والله ، ماهؤلاء بالشيعة ، ولو علمنا انه مبعوث مازوجنا نساءه ، ولاقسمنا ماله "[٣] .

ورغم ذلك أصبحت عقيدة " الرجعة " أصلا من أصول الشيعة فيما بعد ، كما ذكر محسن الأمين : " ان في رجعة علي أخبارا عن أئمة أهل البيت . وانها لا يمنع منها عقل ، ولاشرع ، فمن صحت عنده لزمه القول بها ، ويقول : ان موافقتها لرأي ابن سبأ لاتوجب أن تكون مأخوذة عنه "[٤] . نعوذ بالله من أن نضل أو نضل[*] .

ثم ادعى بعد ذلك ان عليا " وصي " رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو خاتم الأوصياء ، كما ان محمدا خاتم الأنبياء ، واتخذ من ذلك سلما للتطاول والطعن على الخلفاء الراشدين ، لأنهم ظلموا الوصي ولم ينفذوا[*] وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وغدا هذا الافتراء دينا على يد الشيعة كذلك يتلمسون له من الاشباح

---

١) البرهان في عقائد أهل الاديان ، ص/٥٠ ، ل/عباس بن منصور السكسكي ، ت/ خليل أحمد ابراهيم الحاج ، وانظر كتب الفرق والمقالات ، وأنظر تاريخ الطبري ، ج٣/٣٤٠ .

٢) سورة المؤمنون ، الآية : (٩٩و١٠٠) .

٣) البداية والنهاية ، لابن كثير ، ج٨/١٥ . وأنظر أعلام النبلاء ، ج٣/٢٦٣ .

٤) أعيان الشيعة ، لمحسن الامين ، ج١/٦٨ ، وهو من الشيعة الامامية .

*) انظر الصفحة ٦٦ ، من هذا البحث .

*) تاريخ الطبري ، ج٤/٣٤٠ .

أدلة ، فقد زعم محسن الأمين : " ان القول بالوصاية لعلي بالامامة لم يخترعه[*] ابن سبأ ، بل ان كل الذين دعوا الى إمامة على بعد وفاة النبى ، كانوا يرون أن عليا وصي النبي ، وكل الذين حضروا يوم الغدير كانوا يعلمون تلك الوصاية "[1] . ولكن عليا واخوانه من الصحابة الكرام رضوان الله عنهم لم يعلموها ، وعلمها ابن سبأ وزمرته وأتباعه . وقد رددنا هذا الادعاء فى صفحات سابقة[2] .

فتأتي عقيدتا " الرجعة ، والوصية " فى مقدمة مفتريات ابن سبأ التى تمخض عنها حقده وكيده ، ونمت " الوصية بالامامة " فى حجر السبئية ، حتى أصبحت " نبوة " ، فقد نقل البغدادى عن ابن سبأ زعمه " ان عليا كان نبيا "[3] . وكذلك المامقانى ذكر " أن ابن سبأ كان يزعم أن عليا إله ، وأنه نبى "[4] لأنه " ورث النبوة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان نبيا يوحى اليه ، ويأتيه جبريل بالرسالة "[5] .

وقالت بعض السبئية " بالحلول " فلما قتل على رضى الله عنه " زعم عبدالله ابن سبأ انه لم يمت ، وأن فيه الجزء الالهى ، كما كان يزعم ان روح الله حل فيه "[6] . وصرح بهذا أحد الشيعة المعاصرين " محمد جواد مغنية ." ان السبئية كانت تقول بحلول جزء الهى فى على ، وانه اتحد بجسده ، وبه يعلم الغيب"[7] .

---

*) هذا خلاف لما قال به العلماء وكتاب الفرق والمقالات ، ومنهم " النوبختى " فى كتابه " فرق الشيعة " ص/٤٣ .

١) أعيان الشيعة ، لمحسن الأمين ، ج١/٦٨ .

٢) ارجع الى الصفحة ٢٦٦ ، من هذا البحث .

٣) الفرق بين الفرق ، لعبد القاهر البغدادى ، ص /٢٣٣ .

٤) تنقيح المقال ، للمامقانى ، ج٢/١٨٣ .

٥) التنبيه والرد ، للملطى ، ص /١٥٨ .

٦) انظر : الفرق الاسلامية ، لمحمود البشبيشى .

٧) مع الشيعة الامامية ، محمد جواد مغنية ، ص/٣٩ .

أما التناسخ" فقالت به عامتهم • وهو انتقال الروح من جسد ، وحلولها في جسد آخر ، " فقد تناسخ الجزء الالهي في الأئمة بعد علي رضي الله عنه "[١] •
ولم يتوقف هؤلاء الملاحدة ،ه رغم رحلتهم الطويلة في الضياع والضلال - بل لجوا في بغيهم ، حتى لم يبق للغلو ميدان • واذ بهم يصرحون بألوهية علي بن أبي طالب رضي الله عنه • فقالت له السبئية : " أنت ، أنت ، يعني الاله "[٢] وعن عبدالله ابن شريك العامري ، عن أبيه ، قال : قيل لعلي ، ان هنا قوما على باب المسجد يدعون أنك ربهم ، فدعاهم فقال لهم ، ويلكم ماتقولون ؟ قالوا : أنت ربنا وخالقنا ورازقنا • فقال ، ويلكم ، انما أنا عبد مثلكم ، آكل الطعام كما تأكلون ، و أشرب كما تشربون ، ان أطعت الله أثابني ان شاء ، وان عصيته خشيت أن يعذبني فاتقوا الاه وارجعوا ، فأبوا ، فلما كان الغد غدوا عليه فجاء قنبر ، فقال : قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام ، فقال : أدخلهم ، فقالوا كذلك ، فلما كان الثالث ، قال : لئن قلتم ذلك ، لأقتلنكم بأخبث قتلة ، فقال : ياقنبر ، ائتني بفعلة معهم مرورهم ، فخد لهم أخدودا بين باب المسجد والقصر ، وقال : أحفروا فأبعدوا في الأرض ، وجاء بالحطب ، فطرحه بالنار في الأخدود ، وقال : اني طارحكم فيها ، أو ترجعو ، فأبوا أن يرجعوا ، فقذف بهم حتى اذا احترقوا قال :

ذا رأيت الأمر أمرا منكرا : أوقدت ناري ودعوت قنبرا[*]

وهذا سند حسن[٣] •

---

١) الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج١/١٥٥ •
٢) المصدر السابق •
٣) فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني ، ج١٢/٢٧٠ ، باب " استتابة المرتدين والمعاندين" وانظر الملل والنحل ، لابن حزم ، ج٥/٤٦ ، ٤٧ •
*) مولى علي رضي الله عنه ، لم يثبت حديثه ، قال الأزدي : يقال : كبر حتى كان لايدري مايقول ، أو يروى • وكان يتنقص عثمان ، ووبخه عبدالله بن أبي سفيان ابن الحارث بن عبدالمطلب ، وقال له أنا سمعت عليا رضي الله عنه يقول : قاتل الله هؤلاء الذين يتنقصون عثمان ، اني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى فيهم : (ونزعنا مافي قلوبهم من غل اخواننا على سرر متقابلين) •
لسان الميزان ، ج٤/٤٧٥ ، ترجمة رقم ١٤٩٧ •

وثبت هذه الحادثة التى ينكرها كثير من الشيعة ، كما ينكرون وجود ابن سبأ - ماورد فى صحيح الامام البخارى رضى الله عنه ، عن عكرمة رضى الله عنه ان عليا رضى الله عنه ، حرق قوما ، فبلغ ابن عباس ، فقال : لوكنت أنا لم أحرقهم ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لاتعذبوا بعذاب الله ، ولقتلتهم كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : " من بدل دينه فاقتلوه ".[١]

ومما سبق نرى ان بعض المفتريات والأضاليل التى صدرت عن ابن سبأ وجدت صدى فى نفوس بعض الشيعة الاثنى عشرية ،ومؤلفاتهم ، بل وأصبحت أساس مذهبهم " كالوصية ، والرجعة ، والطعن على الصحابة، والقول بتحريف القرآن .. " ، فالكلينى صاحب صحيحهم من الأحاديث " أصول الكافى ، يقول : فكان علي عليه السلام ، وكان حقه الوصية التى جعلت له ، والاسم الأكبر ، وميراث العلم ، وآثار النبوة ".[٢]

وعن الرجعة يقول الشيخ المفيد : " واتفقت الامامية على وجوب رجعة كثير من الأموات الى الدنيا ،قبل يوم القيامة ، وان كان بينهم فى معنى الرجعة خلاف ".[٣]

أما شتم الصحابة ، واعتقاد ردة أغلبتهم ، وتكفيرهم ، فكتب القوم تعج بذلك ، كأوائل المقالات ، للشيخ المفيد ، وأصول الكافى " للكلينى عند شرح الآية القرآنية (ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم) هكذا وردت ... وهى " آيتين الجزء الاول ، جزء من الآية : ١٣٧ من سورة النساء ، والجزء الثانى (لن تقبل توبتهم) جزء من الآية : ٩٠ من سورة آل عمران .

---

١) صحيح البخارى ، ج٤/٢١ ، وسنن النسائى والترمذى فى باب الردة ، ولسان الميزان ج٣/٢٨٩ ، ومن الشيعة الذين أثبتوا حادثة الحرق الكشى ، فى رجاله ص/٩٨ـ ١٠٠ ، والمامقانى ، فى تنقيح المقال ، ج٢/١٨٤ .

٢) أصول الكافى ، للكلينى ، ج١/٢٩٤ .

٣) أوائل المقالات ، للمفيد ، ص/٥١ .

يقول : انها نزلت فى فلان وفلان وفلان، آمنوا بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم، فى أول الأمر ، وكفروا حيث عرضت عليهم الولاية "[1] . والثلاثة هم أبوبكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين، وقاتل[*] من يؤمن بذلك .

وأصبحت السبئية وعقائدها مذاهب وطرائق قددا فيما بعد " نعوذ بالله من الخذلان ".

ب) الكيسانية:

حركة غالية منحرفة ، جرت فى مسيل " السبئية " وعمقته ، واتخذت من التشيع قناعا . وقد تعددت الأقوال فى نسبتها ، فبعضهم نسبها الى كيسان، مولى على ابن ابى طالب رضى الله عنه[2] . وفريق نسبها الى تلميذ محمد بن الحنفية رضى الله عنه . وآخرون ادعوا ان نسبتها الى المختار بن أبى عبيد الثقفى، لأن لقبه " كيسان "[3] . والصواب فيما انتهيت اليه - بعد متابعة دقيقة للأخبار التاريخية والأحداث لتى واكبتها - أو أدعية ، أن هذه الفرقة تنسب الى " أبى عمرة ابن مالك الأسدى، المتوفى سنة (٦٧هـ) رئيس حرس المختار ، الذى لاحق قتله الحسين، وهدم دورهم، حتى قرن اسمه بالخراب، والقتل، وكان متطرفا غاليا فى تشيعه، ينال من الخلفاء الراشدين ويكفرهم . كما كان يكفر أصحاب الجمل[4] . وكان يكنى ب " كيسان ".

فالكيسانية هم أصحاب المختار الكذاب . الذين جعلهم الشهرستانى فرقة مستقلة وسماهم " المختارية "[5] . وأعتقد ان أباعمرة هذا كان " سبئيا " وجد

---

١) أصول الكافى، ج١/٣٢٠.

*) قال الامام أحمد رحمه الله تعالى، " اذا رأيت الرجل يذكر أحدا من أصحاب رسول الله بسوء فاتهمه على الاسلام " العواصم، ص ٤٧.

٢) ولكن مولى على رضى الله عنه قتل فى معركة صفين، انظر: الطبرى، أحداث صفين

٣) مقالات الاسلاميين، للاشعرى، ص/١١٨، والملل والنحل، للشهرستانى، ج١/١٤٧.

٤) المقالات والفرق، للقمى، ص/٢٢.

٥) الملل والنحل، للشهرستانى، ج١/١٤٧.

فى المختار ودعوته ضالته التى يبحث عنها • كما ان لقاءهما أعطى هذه الفرقة زخما قويا ، حتى أصبح لها مواقفها العملية ، وتصوراتها الدينية ، وأتباعها المخلصين لها ، ولكن تحت اسم حركة المختار الثقفى الكذاب • فمن هذا المختار ، وما حقيقته ؟ هو ابن الأمير أبى عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفى ، أسلم فى حياة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فى السنة الثالثة عشرة للهجرة ، ولايعلم له صحبة• وولد له المختار فى السنة الاولى من الهجرة • وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد استعمل أباعبيد على جيش ، غزا به العراق ، واليه تنسب وقعة أبى عبيد ، " معركة الجسر "• ونشأ المختار ، فكان من كبراء ثقيف ، وذوى الرأى والفصاحة والشجاعة والدهاء ، وقلة الدين ، وهو المقصود فى قول النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم • يكون فى ثقيف كذاب ومبير "[1] • فهو الكذاب •

وقد عاش متقلب الهوى والرأى ، ففى سنة أربعين للهجرة ، حاول أن يغرى عمه سعد بن مسعود - وكان عاملا على المدائن- بالغدر بالحسن بن على رضى الله تعالى عنهما • فقال له ، " هل لك فى الغنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن ، وتستأمن به الى معاوية • فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأوثقه ، بئس الرجل أنت "[2] • فكان لايوقف له على مذهب ، " فقد كان خارجيا ، ثم صار زبيريا ، ثم صار شيعيا كيسانيا "[3] • وان كان يترجح لدي ميله الى بنى هاشم ، وبخاصة فى السنوات التالية لمأساة كربلاء • لأنها الصفقة الرابحة ، التى يمكن أن يحقق من

---

١) شرح صحيح مسلم ، للنووى ، ج١٦/١٠٠ ، والحديث ورد فى سياق رد ذات النطاقين على الطاغية الحجاج ، بعد ان قتل امير المؤمنين عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما ، فقالت : " أما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا : أن فى ثقيف كذابا ومبيرا ، أما الكذاب فرأيناه ، وأما المبير فلا اخالك الا اياه ، سير أعلام النبلاء ، ج٣/٥٣٩•

٢) تاريخ الطبرى ، ج٥/١٥٩•

٣) الملل والنحل ، للشهرستانى ، ج١/١٤٧•

خلالها طموحاته وآماله • ففي سنة (٦٠هـ) أنزل مسلم بن عقيل رضى الله عنه في منزله ، وشتر عينه ابن زياد من أجلها ، ولما قتل الحسين بن على رضى الله عنهما • انحرف المختار عن ابن زياد ، فقبض عليه ،وجلده ،وحبسه ، ونفاه بشفاعة ختنه عبدالله بن عمر رضى الله عنهما ، الى الطائف •

ثم بايع عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما ، بعد هلاك يزيد بن معاوية • على أن يجعل له من الأمر شيئا • وقاتل معه جيش الشام الذى يقوده الحصين بن نمير، وسرعان ما انفض عنه بعد أن أفل نجم آماله وطموحاته ، من سماء ابن الزبير. وتوجه الى الكوفة ، وجلبة الشيعة قائمة حول سليمان بن صرد ،وأصحابه "التوابين" للطلب بالثأر من قتلة الحسين بن على رضى الله عنهما • فأخذ المختار يلسدهم على زعيمهم • ويقول : انى جئت من قبل المهدى ابن الوصى، يريد محمد بن الحنفية ، فتبعه خلق ، وقال لهم : ان سليمان لايصنع شيئا ، انما يلقى بالناس الى التهلكة ، ولاخبرة له فى الحرب"[1] •

وخاص له أمر الشيعة بعد معركة "عين الوردة" التى أتت عليى رؤوس التوابين ، وقوى أمره بالكوفة ، وكثر أنصاره ، وألح فى دعوته لابن الحنفية ، ومناصرة أهل البيت ، واظهار منارهم ، واستيفاء ثأرهم ، وادعى انه أمير من ابن الحنفية ووزير له بإستمال إبراهيم بن الأشتر النخعى ، واستولى على الكوفة سنة (٦٦هـ)• وجّد فى تقريب الموالى ، والعطف عليهم "[2] فكثروا فى جنده وأخلصوا له •

وخرج على والى الكوفة ، عبدالله بن مطيع - عامل ابن الزبير - فغلب عليهما ، واستولى على الموصل ، وعظم شأنه ، وتتبع قتلة الحسين رضى الله عنه ، فنال رقابهم ، وحارب ابن زياد ،فقتله مع كثير ممن كان معه من قتلة الحسين ، وكادت تدين العراق له • ولكن المصعب بن الزبير عاجله ، بعد أن كثرت مخاريقه وأضاليله ، بجيش لجب ، التقى بجيش المختار فى " المذار " وكانت الدائرة على " الخشبية "•

---

١) سير أعلام النبلاء ، للذهبى ، ج٣/٥٤٠•

٢) الأخبار الطوال ، للدينورى ، ص/٢٩١•

وكرسيهم ، وتقدم المصعب الى الكوفة ، وحاصر الكذاب ومن معه بالقصر ، حتى خرج مستقتلا في تسعة عشر رجلا من أصحابه ، فقتلوا وذلك سنة (٦٧هـ). لقد كان المختار رجلا غريب الأطوار ، داهية ، يحمل بين جنبيه طموحات عريضة ، لايراها الا في ذرا الشرف والسلطة . فسعى اليها سالكا سبلا متباينة، ومتدابرة أحيانا . آخرها سبيل التشيع المتمثل آنذاك بالغضب لمقتل الحسين، والدعوة لثأره . وقد أصاب في هذا الأختيار الذي كان سببا في انتظام الأمر له . كما ذكر الشهرستاني: " وانما انتظم له ما انتظم بأمرين : أحدهما انتسابه الى محمد بن الحنفية علما ودعوة . والثاني : قيامه بثأر الحسين بن علي رضي الله عنهما ، واشتغاله ليلا ونهارا بقتال الظلمة الذين اجتمعوا على قتل الحسين "[(١)] .

فكان المختار أول من قال : بامامة محمد بن علي بن أبي طالب ، المعروف بابن الحنفية . واستدل على مذهبه هذا " بان عليا دفع الراية اليه يوم الجمل "[(٢)] .

وكان محمد بن الحنفية رضي الله عنه حسن اعتقاد الناس فيه ، وامتلاء القلوب بمحبته . الى جانب علمه الكثير ، ومعرفته الغزيرة ، اذ كان وقاد الفكر مصيب الخاطر في العواقب "[(٣)] . ولاتنس نسبه الشريف فهو علوي ، و " ابن الوصي " كما زعم المختار ، و " معدن الفضل ، والرضي ، والنجيب المرتضى ، والمهدي ، ويستحق أن يكون " والي الأمر ، وامام الهدى "[(٤)] . أما شجاعته وثبات جنانه في المعارك ، فذاك حديث الفرسان، والسادة الشجعان . مع سعة علمه، وفقهه ، وورعه الشديد ، وخشيته لله تعالى ، وصلابته في الدين ، وتمسكه بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وزهده في الخلافة ، وكل تلك السجايا ، جعلته مناط الآمال ،

---

١) الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج١/١٤٨ .

٢) مقالات الاسلاميين ، للاشعري ، ص/١٨ ، والفرق بين الفرق ، ص/٢٧ .

٣) الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج١/١٤٩ .

٤) انظر : انساب الأشراف ، للبلاذري ، ج٥/٢١٨ .

ورشحته لهذا الأمر ، فالتف حول دعوة المختار له ، كثير من الناس ، وتعاطفوا مع وزيره " المزعوم " الذى اطمأن على زعامته بجانب القناعة التى يحملها هذا الامام اذ يرى رضى الله عنه " ان الامام لاتنعقد له الامامة ، الا بتوفر شرطين أساسيين: الأول : ان تجمع الأمة عليه اجماعا لايخرج عنه اى فرد منها ، والثانى : أن لاتراق نقطة دم واحدة فى سبيل عقد الامامة له "[1] . ومعنى ذلك انه زاهد فى الامامة، أو على الأقل لايريدها على مراكب الفتن، وغلبة الأهواء . وكثرة الطامعين فى الخلافة والمتطلعين اليها ، وبذا لن ينافس المختار سلطته التى يعمل للوصول اليها . ويدلنا على هذا صيغة البيعة ، التى كان يأخذها ممن التف حوله " يبايع على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، والطلب بدماء أهل البيت . وجهاد المحلين، والدفع عن الضعفاء "[2] .

والى الآن لم تتعد دعوته الاعداد لوضع البيعة موضع التنفيذ ، الا ان"السبئية" لمسوا عند المختار حب الزعامة ، وعقدة العظمة المتسلطة،فراحوا يزينون له سبل الانحراف،والغلو ، فأخرجوه الى تلك الأباطيل والمخاريق، التى ظهرت فيما بعد . كالبداء وغيره . فيقول عبدالقاهر : " ان الذى زين له ذلك جماعة من السبئية الغلاة وقالوا له : أنت حجة الزمان، وحملوه على دعوى النبوة، فادعاها ، ولكن لم يصرح بهذا الا لخاصته ... واجتمعت السبئية اليه مع عبيد أهل الكوفة، لأنه وعدهم ان يعطيهم أموال سادتهم، وقاتل بهم الخارجين عليهم، فظفر بهم وقتل منهم الكثير "[3] .

وفارقته الشيعة المعتدلة فيما بعد ، وتبرأ منه محمد بن الحنفية ، وأظهر لأصحابه انه انما نص على الخلق ، ذلك ليتمشى أمره ، ويجتمع عليه الناس"[4] .

---

١) انظر : طبقات ابن سعد ، ج٥/٧٨ .
٢) الأخبار الطوال، للدينورى ، ص/٢٩٢ ، ومابعدها .
٣) الفرق بين الفرق، للبغدادى ، ص/٣٥ .
٤) الملل والنحل، للشهرستانى ، ج١/١٤٨ .

ويقال ان ابن الحنفية عزم على القدوم الى العراق، ليبين للناس حقيقة ما عليه هو وأهل بيته، ويبطل أكاذيب المختار، فلما علم المختار بعزمه خاف من افتضاح امره، وذهاب مجده، فقال لجنده " انا على بيعة المهدي، ولكن للمهدي علامة، وهو ان يضرب بالسيف ضربة، فان لم يقطع السيف جلده فهو المهدي "[1].

وبلغ ابن الحنفية قوله هذا، فأقام بمكة خوفا من ان يقتله المختار بالكوفة.

وكان ذلك بعد أن تمت له السيطرة على الكوفة، والجزيرة، والعراقين الى حدود أرمينيا، فادعى نزول الوحي، وتكهن، وسجع كسجع الكهان، وأتى بالعجائب.

" لقد أخذت الهوة بين ابن الحنفية والمختار تكبر وتعمق مع مرور الزمن، بعد أن ازدادت حركة المختار تورطا في الحرب، وسفك الدماء، وبعد ان أسبغت عليها بدع المستحدثة، كالتنبوء وغيره لونا من التطرف، أدى بها الى الغربة عن سائر مجتمعات الامة[2].

وظل المختار متمسكا باسم الامام محمد بن الحنفية، رغم تباين المواقف، وجاءت مخاريقه تترى، لتطغى على عقول الغوغاء من خلفه، فادعى علم الغيب، ولما خذل فأله، قال بالبداء[*]، ليتخلص من الموقف الحرج، امام أتباعه، واستدل على فريته، بالآية الكريمة (يمحو الله مايشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب)[3]. ولكن الغوغاء اتباع كل ناعق، اصبحوا أسرى أكاذيبه، حتى تطوعوا

---

١) انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج٤/١١٨.

٢) الكيسانية في التاريخ والأدب، د/وداد القاضي، ص/١٢٤ ومابعدها.

*) وانما صار المختار الى القول بالبداء لانه كان يدعي علم مايحدث من الاحوال، اما بوحي يوحى اليه، واما برسالة من قبل الامام، فكان اذا وعد اصحابه بكون شيء وحدوث حادثة، فان وافق كونه قوله، جعله دليلا على صدق دعواه، وان لم يوافق قال بدا لربكم" الملل والنحل، ج١/١٤٨ - ١٤٩، وبذا لايفرق بين النسخ والبداء.

٣) سورة الرعد : الآية : ٣٩.

بالكذب عنه، واسمع هذه الحادثة : أخبر الأفاك، أن جيش الأشتر سيهزم جند الشام بنصيبين،أو قربها ، فهزمهم، ولكن فى الخازر. فتوهم الرعاع انه يعلم الغيب . وصدقوه متبطين، ولما خبر الشعبى . قال : انه لم يصدق فى دعواه، زعم ان ذلك بنصيبين، والنصر تم فى " الخازر " قرب الموصل، فما كان جواب هؤلاء الا ان قالوا : " لاتؤمن ياشعبى حتى ترى العذاب الأليم "(١) .

و وكان يلبس على الناس من الغوغاء ،، هذه المخاريق، دهاء المختار ولباقته ،، ومعرفته بقلوب الرجال وأسرها ، ومن تلك المخاريق ، قصة الحمائم البيضاء التى كانت بطانة المختار تطلقها . ليظن الجهلة انها الملائكة،تقاتل الى جانبهم. وساعده عليها رجال لهم مآرب شخصية، كسراقة البارقى الذى أراد أن ينجو من بطش المختار،وأتباعه، ناهيك عن مرضى القلوب، الذين استحوذ عليهم الشيطان . كيف يضفون عليه هالات الاعجاب ، وطقوس التقديس، فقد روى مجالد عن الشعبى قال : أقرأنى الأحنف كتاب المختار اليه،يزعم انه نبى(٢) ، وفيه بلغنى انكم تكذبوني ، وقد كذبت الأنبياء ، ولست بخير من كثير منهم .

وبلغ استخفاف المختار بهؤلاء البله - والسبئية تستخف به - ان أعلن عن كرسيه سنة (٦٦هـ) الذى شبهه بتابوت العهد عند اليهود ، فعن طفيل بن جعدة ابن هبيرة ، قال : كان لى جار زيات له كرسى، فاحتجب فقلت للمختار : انى كنت أكتمك شيئا ، والآن أذكره، قال : وماهو؟ قلت : كرسى كان أبى يجلس عليه، كان يرى أن فيه أثارة من علم، قال : سبحان الله ! لم أخرته ؟ فجئ به ، وعليه ستر، فأمر لى باثنى عشر الفا ، ودعا بالصلاة جامعة، فاجتمعوا ، فقال : انه لم يكن فى الأمم الخالية أمر الا وهو كائن فيكم، وقد كان فى بنى اسرائيل التابوت ، وان فينا مثله، اكشفوا هذا ، فكشفوا الأثواب، وقامت السبئية ، فرفعوا أيديهم، فأنكر

---

١) سير أعلام النبلاء،للذهبى، ج٣/٥٤٢ .

٢) المصدر السابق، ج٣/٥٤٠ .

شبث بن ربعي، فضرب، فلما انتصروا على عبيدالله افتتنوا بالكرسي، وتغالوا فيه، فقلت : انا لله، وندمت"[1] .

وكم لهؤلاء المنافقين من حكايا حول الكرسي، وسادنه وطقوسه وارتحاله وهي من بقايا اليهودية الملفقة .

فالسبئية تعود مرة ثانية لتركب الموجه، وتوجهها نحو الغلو والانحراف، وتقذف بالمختار، وزمرته، في خضم الضلال، والمروق، ساعدهم في ذلك شخصية المختار وطبيعة تفكيره، وميله الى الآراء المتطرفة، واستهواؤه الأشياء الغريبة . فلا عجب اذا اعتبرت " الكيسانية " الرداء الجديد للسبئية . أو هي السبئية عينها، كما ورد في كتاب الحسن بن محمد بن الحنفية " في الارجاء ". " ان السبئية، أو الكيسانية، كانوا يزعمون في هذه الفترة (بعد سنة ٧٣هـ) . " ان نبي الله كتم تسعة أعشار القرآن، ويقولون : هدينا لوحي ضل عنه الناس، وعلم خفي "[2] .

الى جانب " الوصية " التى اختلقها ابن سبأ . فقد غدت عند " الكيسانية " من علي الى ولده محمد بن الحنفية[*]، أو من الحسين الى أخيه محمد بالامامة من بعده . ولاتضاد بينهما، لأنهما كذب وافتراء .

والامام فوق البشر في صفاته وقدراته، حتى انه لايموت، وانما يغيب في جبال رضوى، ليعود ثانية " الرجعة " وبهذا يقول شاعر الكيسانية، كثير عزة:

تغيب لايرى عنهم زمانا : برضوى عنده عسل وماء[3]

وكانت وفاة ابن الحنفية بابا لانقسام الكيسانية، وظهور مفاهيم مذهبية جديدة، بعد أن توجهت الأنظار الى ابي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية، أبرز اولاده، فقسم اعتقد غيبة الامام، وقسم آمن بوفاته، وانتقال الامامة الى ولده أبي

---

١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج٣/٥٤٢ .

٢) ص/٢٤٩، ونقله ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة، ج٨/١٢٠ .

*) انظر : فرق الشيعة، للنوبختي، ص/٢٠ .

٣) ديوان كثير عزة، ص/٥٢١ .

هاشم ، الذى يقال عنه : انه كان ميالا للغالية " السبئية " يتتبع آراءهم ، ويكتب أحاديثهم ، ويجمعها [1] ، وأضفوا عليه هالات القداسة ، وعلم الغيب والأسرار ، اذ انتهت اليه علوم الظاهر، والباطن ، والآفاق،والأنفس ، والتأويل ، وهو رمز العلم الالهى.

ومما سبق ترى ان الكيسانية حافظت على آراء السبئية الغالية الهدامة، كالقول بالحلول، والرجعة ،والوصية ،والتناسخ ، وغيرها من الأكاذيب ، بل أضافت الى معجم الغلو " مصطلح البداء " ورجعة البشر عامة الى الحياة الدنيا قبل يوم القيامة ، وهذا ما أثبته شاعرهم السيد الحميرى :

اذا ما المرء شاب له قذال	:	وعلته المواشط بالخضاب
فقد نهبت بشاشته وولى	:	فقل : يابالك بك على الشباب
فليس براجع مافات منه	:	الى أحد الى يوم الاياب
الى يوم يؤوب الناس فيه	:	الى دنياهم قبل الحساب (٢)

ورحم الله الشهرستاني اذ يقول : وأجمع الكيسانية على القول : بأن الدين طاعة رجل [*] ، وحملهم هذا على تأويل الأركان الشرعية من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغير ذلك على رجال ، فحمل بعضهم على ترك القضايا الشرعية بعد الوصول الى طاعة الرجل ، وحمل بعضهم على ضعف الاعتقاد بالقيامة ،وحمل بعضهم على القول بالتناسخ ،والحلول ،والرجعة بعد الموت " [3].

والغلاة حيارى منقطعون ، وحكمهم عند أهل السنة ، حكم على بن أبى طالب رضي الله عنه ، بالسبئية ، وماتلاهاتين الطائفتين من مذاهب غالية ، وحتى

---

١) تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني ، ج٦/١٦.

٢) ديوان السيد ، ص/١٢٠.

*) فمعرفة الامام تكفى حتى يعتبر المرء مؤمنا ايمانا يستحق به النعيم ، فلا يكون به حاجة الى ممارسة اى من العبادات المفروضة فى الاسلام.
أنظر : فرق الشيعة ، للنوبختي ، ص/٢٩.

٣) الملل والنحل ، للشهرستانى ، ج١/١٤٧.

يومنا الحاضر ، ابن لهما ، تغذى بلبانها .

وكم اكل الافاكون أموال الناس باسم آل البيت ، وأفسدوا عليهم دينهم وآل البيت الأطهار رضوان الله عنهم براء من كل مخالف لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا أشك انه بعد بيعة محمد بن الحنفية لعبد الملك ابن مروان ، لم يبق ملتزما بالكيسانية الا كل من يريد أن يخلع ربقة الاسلام بحجة ولائه لآل البيت .

نؤكد في ختام حديثنا عن هؤلاء الغلاة ، الذين كانوا روادا في الضلال، ودعاة الشر ، انهم أحدثوا مذاهب جانحة عن الصراط الذى ارتضاه الله لعباده المؤمنين "وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون"[1] . وجمعت أمشاج هذه العقائد البالية ، من مخلفات اليهودية ،والنصرانية ،والمجوسية التائهة ، حتى غدت مباءة لأشكال الانحراف والضياع،والكفر.وقد عبرت تلك الأفكار عن طريق أناس لبسوا عباءة الاسلام وقلوبهم المريضة لم تتخل عن دائها،وحقدها .

فالفرس نقلوا التقديس الوثني من ملوكهم الى علي وذريته ، وأحاطوهم بهالات السماوية ، وصفات الآلهة والأنبياء ، قداسة وعبادة.فأصبحت محبة أهل البيت عندهم محبة الأصنام، لامحبة الاسلام[2] . وبخاصة بعد حركة المختار ، التي أحاطت بها العناصر الفارسية التي كانت على علاقة وطيدة مع دعاة السبئية .

أما روافد الفكر اليهودي، فقد كان حظها واسعا ، وسيرها طويلا ، في بيداء الغلو والشطط، المتمثل في السبئية ، وولي عهدها الكيسانية . فما "الوصية

---

١) سورة الأنعام، الآية : ١٥٣.

٢) وعن يحيى بن سعيد ، عن علي بن الحسين رضي الله عنهما ، قال : يا أهل العراق أحبونا حب الاسلام، ولاتحبونا حب الأصنام، فمازال بنا حبكم حتى صار علينا عارا" سير أعلام النبلاء، ج٤/ ٣٩٠.

والغيبة ، والرجعة ، والتناسخ..." الا جزء من ركام ذاك الفكر المحّرف . فالوصية التي كانت ليوشع بن نون، من موسى عليه السلام، أصبحت على يد ابن سبأ . من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه" وكذلك المفاهيم الأخرى، فما تفتقده فيها تجده في النصرانية الملفقة . وهذا الكيد والحقد، دفع المخذولين الى سبل الافساد والاضلال، يقعدون عليها ليفسدوا على المسلمين دينهم . بعد أن فشلوا في ايقاف المد الاسلامي الذي ثل عروشهم وقوض دولهم .

٢) المعتدلون:

أ) شيعة آل البيت الأول:

عرفنا فيما سبق ان الغلاة الذين ادعوا بداية، أن عليا وصي محمد صلى الله عليه وسلم ، وانه خاتم الأوصياء، وكل من لم يمكنه من تحقيق هذه الوصية ظالم، منحاز عن الحق . قد اتخذوا التشيع لعلي رضي الله عنه ستارا لهم . وكانوا حتى النصف الأول من القرن الأول مجموعات لاتقاس من حيث الأتباع، بتلك الطائفة المعتدلة من الشيعة، التي كانت ترى تقديم علي على عثمان رضي الله عنهما فقط.

ولما أعلن المختار دعوته، وتحول ذلك التقديم الى" ولاء " لآل البيت الأطهار، و" عداء " لأعدائهم، اذ خرجت قضايا التفضيل لعلي رضي الله عنه، لما له من الأهلية والسابقة، من طور الانتقاد، لمن كتب الله تعالى لهم الخلافة والسبق فيها، الى طور الاعتقاد، فقد تردد صدى آراء " السبئية" الغالية في دعوته، انسحبت طائفة من الشيعة المعتدلة، من تلك الحركات الغالية، وفيهم شخصيات كبيرة من المسلمين، عرفت بالاستقامة، والاعتدال في تشيعها، منهم

أبو الطفيل عامر بن واثلة [١] • وابوالمعتمر حنش بن ربيعة [٢] الصنعانى، اللـــذان يعدان في الصحابة، ومعاذ بن هانيء ، ابن أخي حجر بن عدى، وأخذت الجفـوة تزيد بين الشيعة المعتدلين عامة، وبين أصحاب المختار الذين لم ترقه سيرتهم لهؤلاء وربما وصل الى اسماعهم الموقف " الاعتزالى " للفتنة ، الذى اتخذه ابـن الحنفية رضى الله عنه، فخرجوا من الكوفة مهاجرين اليه • وأقاموا معه فـــى المدينة ومكة، بعيدا عن ساحة الفتن في الكوفة وما حولها • معتنقين لآرائه فـى شروط الامامة، وفى الخروج على السلطان، ومتمسكين به اماما حقيقيا، ونموذجـا اكبر للفضيلة والدين [٣] •

وتخلى الشعبى عن التشيع جملة، وانقلب الى عدوّله، بعد ان افسد علـى يد الغلاة، " ولما رآه وسمعه من كلامهم وافراطهم وغلوهم، بعد ان كان شيعيا " [٤] • على منوال شيعة علي الاوائل رضى الله عنه، وقد بين حال ذاك التشيع وأبعـاده " أصبحت الامة على أربع فرق : محب لعلي، ومبغض لعثمان، ومحب لعثمان، مبغض لعلي، ومحب لهما، ومبغض لهما، فقيل له : من أيها انت ؟ قال : مبغـــض لباغضيهما " [٥] • يقصد الميل لعلي وآل بيته، دون الانتقاص من احد من الصحابـة • وكذا حال المتقين، وهذا الفرز قام به كذلك الشاعر أعشى همدان [٦] ، اذ فـــرق

---

١) كان ابو الطفيل عامر بن واثلة بن الاسقع الكنانى الليثى، قد ادرك من النبى ثمان سنين وكان يفضل عليا ، ويثنى على الشيخين ، ويترحم على عثمان • شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلى، ج١/١١٨•

٢) تابعي من أهل الكوفة ، اختلفت الاقوال في صحبته ، الاصابة ، ج١/ ٣٩٦ ، ترجمة رقم ٢١١٤•

٣) انظر : الكيسانية في التاريخ والادب " د•وداد القاضى •

٤) عامر بن شراحيل بن عبد بن ذى كبار ، من اقيال اليمن، علامة العصر ، ولد فـى امرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لست سنين خلت منها ، عام جلولاء ، رأى عليا رضى الله عنه وصلى خلفه ، وسمع من عدة من كبراء الصحابة ، توفى سنة ١٠٥هـ•

٥) سير اعلام النبلاء ، للذهبى، ج٤/٣٠٨•

٦) شاعر مدينة شهير ، عبدالرحمن بن عبد الله بن الحارث الهمدانى ، شاعر وفارس ، كان أحد الفقهاء القراء ، غزا الديلم ايام الحجاج ، ووصف بلادهم ، ووقائع المسلمين معهم ، ولما خرج ابن الاشعث انحاز الاعشى اليه ، ثم جيء به الى الحجاج اسيرا بعد مقتل ابن الاشعث ، فأمر به فضربت عنقه ، توفى سنة ٨٣هـ • وهو القائل :

بين الاشج وبين سعد باذخ : بخ بخ لوالده وللمولود

فقال له الحجاج ، لاجرم، لاتبخبخ بعدها ابدا ، وأمر به فضربت عنقه•

بين أكاذيب الغلاة وكفرهم • وبين حب آل المصطفى الحقيقى ، فقال :

شهدت عليكم انكم سبئية	:	وأنى بكم ياشرطة الكفر عارف
وانى امرؤ احببت آل محمد	:	وآثرت وحيا ضمنته المصاحف
وتابعت عبد الله لماتتابعت	:	عليه قريش شمطها والغطارف (١)

وكنا قد اسلفنا الحديث عن التشيع المعتدل • ونحن نستعرض مسيرته فى ظلال الاحداث التاريخية ، فلا داعى لاعادته هنا ... وانما ظهرت طائفة جديدة تمثل الاعتدال فى تشيعها لآل البيت رضوان الله عنهم • عرفت فيما بعد "بالزيدية" تمييزا لها عن فرق الغلاة ، ولا اشك انها كانت المظلة التى فاء اليها بقايا الشيعة المعتدلين ، الذين كانوا على قدم العترة الكريمة رضى الله عنهم ، فى محبتهم، واستقامتهم، وورعهم والتزامهم باحكام الكتاب ، وسنة جدهم صلى الله عليه وآله وسلم، متبرئين مما ألصقه بهم رواة الاكاذيب من الاخباريين الشيعة فيما بعد •

ب) الزيدية:

أتباع السبط زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب رضى الله عنهم ، أمه سندية ، ولد سنة ثمانين للهجرة،وتوفى سنة احدى او اثنين وعشرين ومائة ، وكان عالما ، تقيا ، ورعا ، مخلصا ، شجاعا ، ملتزما بكتاب الله،وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، أمضى سنوات عديدة من حياته • منتجعا موارد العلم، والفقه فى المدينة،والبصرة ،والعراق، حتى بلغ مكانة علمية عظيمة ، يغبطه عليها الآخرون من علماء عصره ، فقد أضحى إماما فى الفقه ، ويقال : ان زيدا تتلمذ فى الاصول لواصل بن عطاء الغزال، رأس المعتزلة ، فاقتبس منه الاعتزال ، وصارت

---

١) أنساب الأشراف ، للبلاذرى ، ج٥/٢٤٢ ، الاعلام ، للزركلى ، ج٣/٣١٢.

أصحابه كلهم معتزلة [1].

كما قيل : ان اباحنيفة النعمان [*] تتلمذ على زيد ، واخذ العلم عنه ، وكان يتعصب له " [2].

وهذه المكانة العلمية الفذة التي يزينها النسب الشريف الطاهر ، من آل بيت المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : كانت تثير الخشية في نفوس خلفاء عصره فهذا هشام بن عبدالملك ، يكتب الى واليه يوسف بن عمر يقول : " انه رأى في زيد ، رجلا جدلا لسنا ، خليقا بتمويه الكلام وصوغه ، واجترار الرجال بحلاوة لسانه ... فعجل اشخاصه الى الحجاز ، ولاتخله والمقام قبلك ، فانه إن اعاره القوم أسماعهم ، حشاها من لين لفظه ، وحلاوة منطقه ، مع مايدلي به من القرابة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدهم ميلا اليه ، غير متئدة قلوبهم ، ولاساكنة أحلامهم " [3].

ولعل مواقف الخليفة هشام من زيد ، اهانة وايذاء ، وبخاصة بعد ان وقع تحت اغراءات اهل الكوفة ، اذ حببوا اليه الامرة والخروج على ظلم بني امية ، اثارت في نفسه الشك ، تنفست بثورته عليهم .. فقدمناه شيعة الكوفة بخمسة عشر ألف سيف تضرب معه امرته " بل قيل له : أين تذهب ، ومعك مائة ألف رجل من أهل الكوفة ، يضربون دونك بأسيافهم غدا ... فلم يزالوا به حتى ردوه " [4].

---

١) الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج١/١٥٥.

*) الامام ، فقيه الامة ، عالم عصره ، بل لو وزن علم الامام ابي حنيفة بعلم أهل زمانه لرجح عليهم . وقال عنه ابن مبارك " ابوحنيفة افقه الناس ، وقال عنه الشافعي رضي الله عنه " الناس في الفقه عيال على ابي حنيفة " توفي شهيدا مسقيا في سنة خمسين ومائة ، وله سبعون سنة ، سير أعلام النبلاء ، ج٦/٣٩٠.

٢) تاريخ المذاهب الاسلامية ، محمد ابوزهرة ، ص ٧٣.

٣) انظر تاريخ الطبري ، ج٧/١٦٩.

٤) المصدر السابق ، ج٧/١٦٦.

وبعد ان بايعه هؤلاء القوم، من أهل الكوفة، قال له داوود بن علـــي :
" ياعم لايغرنك هؤلاء من نفسك، ففي اهل بيتك لك عبرة، وفي خذلان هـــؤلاء اياهم "[1].

وكتب عبدالله بن الحسن رضى الله عنهم الى زيد بن على" ياعم : ان أهل الكوفة، نفخ العلانية، خور السريرة، هوج فى الرخاء، جزع فى اللقاء، تقدمهـــم ألسنتهم، ولاتشايعهم قلوبهم، لايبيتون بعدة فى الأحداث، ولاينوؤون بدولة مرجوة، ولقد تواترت الي كتبهم بدعوتهم، فصممت عن ندائهم، وألبست قلبى غشاء عـــن ذكرهم، يأسا منهم،واطراحا لهم، ومالهم مثل الا ما قال على بن ابى طالب : ان أهملتم خضتم، وان حوربتم خرتم، وان اجتمع الناس على امام طعنتم، وان اجبتـــم الى مشاقة نكصتم"[2].

ولما علم الشيعة ان يوسف(*) بن عمر، قد بلغه امر زيد " اجتمعت اليه جماعة من رؤوسهم، فقالوا، رحمك الله، ماقولك في ابى بكر(*) وعمر؟ قال زيـــد : رحمهما الله، وغفر لهما، ماسمعت احدا من أهل بيتي يتبرأ منهما، ولم يقولـــوا فيهما الا خيرا. قد ولوا فعدلوا بين الناس، وعملوا بالكتاب والسنة ... وانمـــا ندعوكم الى كتاب الله،وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والى السنن ان تحيـــــا، والى البدع ان تطفأ، فان انتم أجبتمونا سعدتم، وان أبيتم فلست عليكم بوكيـــل، ففارقوه، ونكثوا بيعته، وقالوا : سبق الامام- وكانوا يزعمون ان ابا جعفر محمـــد ابن علي،اخا زيد بن علي هو الامام، وكان قد هلك يومئذ - وكان ابنه جعفرابـــن محمد حيا، فقالوا، جعفر امامنا اليوم بعد أبيه، وهو أحق بالامر بعد أبيـــه،

---

١) تاريخ الطبري، ج١٦٨/٧.
٢) المصدر السابق، ج١٦٩/٧.
*) أبو عمر الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفى .
*) روى هاشم بن البريد، عن زيد بن علي، قال : كان ابوبكر امام الشاكرين، ثـــم تلا (" وسيجزى الله الشاكرين) ثم قال : البراءة من ابى بكر هى البراءة من على".

ولانتبع زيد بن على فليس بامام، فسماهم زيد الرافضة "[1]٠

ومحاولة الاصلاح بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم، التى قبل ان يحمل عبأها زيد بن على، عترة النبى الطاهرة، هى التى جعلته موضع غضب من الشيعة، وموضع غضب من الامويين، فهؤلاء قتلوه، والاولون خذلوه واسلموه "[2]٠

واعلن ثورته على هشام[*] بن عبدالملك، فكانت كيوم الحسين رضى الله عنه، فلم يبق معه الا بضع مئات، واجه بها جيش الشام، بعد ان خذله الشيعة٠ وكاد النصر يقترب منه، لولاسهم أصاب منه مقتلا، فاستشهد رحمه الله تعالى، وهزم اتباعه، وفر ابنه يحيى الى خراسان٠

ورغم هذه النهاية المريرة، التى انتهت بالصلب والحرق بعد القتل٠ الا ان الزيدية استمرت فى الخروج على جور الحكام، وعسف السلاطين ، ومذهب زيد ابن على رحمه الله تعالى أقرب المذاهب الى اهل السنة والجماعة، اذ كان معتدلا فى تشيعه، وتحركه هذا حركة اسلامية،خرجت على الظلم وأهله، لانكاره، واعادة الحق الى نصابه، فلم يكن فى دعوته مفاهيم الشيعة " كالنص والوصية والرجعة، وتكفير الخلفاء، والصحابة، وانما كان جنوده من أهل العلم، والفقه والفضل، الذين لم يروا فى دعوة زيد غلوا وتطرفا، والذى يميزها عن غيرها، ان الزيدية يذهبون الى ان الامام الذى يخلف الرسول صلى الله عليه وسلم٠ لم يعين بالاسم، بل عرف بالوصف، ولاتتحقق تلك الاوصاف الا فى على بن ابى طالب رضى الله عنه، واوصاف الامام عندهم، ان يكون هاشميا، ورعا، تقيا، عالما، سخيا،

---

١) تاريخ الطبرى، ج٧/١٨٠، والبداية والنهاية، ج٩/٣٢٩٠

٢) الامام زيد، محمد ابوزهرة، ص٠٧

*) كان ظهوره ليلة الاربعاء، لسبع بقين من المحرم، سنة احدى،أو اثنين وعشرين ومائة٠ وقتل يوم الجمعة لثلاثة أيام من ظهوره، وهو ابن ثلاث واربعين سنة، واستخرج بعد دفنه، وصلب بالكناسة، أربع سنين، ثم أحرق ونسف رماده فى الفرات٠ وقال فى ذلك يحيى بن زيد :

لكل قتيل معشر يطلبونه : وليس لزيد بالعراقين طالب

يخرج داعيا لنفسه ، وان يكون من ذرية فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، دون غيرها ، سواء أكان من اولاد الحسن ام الحسين"[(١)] . فالصفات الكسبية ، من التقى ،والورع ،والعلم ،والشجاعة ،والزهد ،والسخاء ،والجهاد ، الى جانب فاطميته[(*)] هي التي تؤهله لامامة المسلمين ، وليست الامامة ارثا يتوارثه الابناء عن آبائهم.

كما ان من مذهبه جواز امامة المفضول ، مع قيام الافضل ، فكان علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، افضل الصحابة ، الا ان الخلافة فوضت الى ابى بكر ، لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين نائرة الفتنة ، وتطييب قلوب العامة "[(٢)] .

فهم يرون ان تلك الاوصاف ، ليست الصفات الواجب توفرها لصحة الامامة . بل هي صفات الامام الكامل ، الذي هو أولى بالامامة من غيره ، فان اختار المسلمون اماما وبايعوه ، ولم يستجمع تلك الشروط ، صحت امامته ولزمت بيعته[(*)] . ولذا صحت عنده امامة الشيخين ابى بكر وعمر[(*)] رضى الله عنهما ، ولم يذهب مذهب الرافضة بالقول بتكفير الصحابة ، ولايرون العصمة لائمتهم .

كما انهم يجوزون البيعة لامامين فى اقليمين مختلفين ، كل فى اقليمه الذى خرج فيه ، اذا ما توفرت الشروط التى يرونها ، او اختير من قبل أهل الحل والعقد "[(٣)] .

---

١) انظر : الملل والنحل ، للشهرستانى ، ج١/١٥٤ ، شذرات الذهب ، لابن العماد ، ج١/ ١٥٨ . مقالات الاسلاميين ، ص ٧٨ .

*) لم يجوزوا ثبوت الامامة فى غيرهم ، الملل والنحل للشهرستانى ، ج١/١٥٤ .

٢) الملل والنحل ، للشهرستانى ، ج١/١٥٥ .

*) الامامة تكون بالاختيار ، فمن اختير من قبل أهل الحل والعقد صار اماما واجب الطاعة . مقدمة ابن خلدون ، ص /٣٥٤ .

*) طابت نفس علي بتسليم حقه الى ابى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وانهما اماما هدى ، ووقف بعضهم فى عثمان رضى الله عنه ، وتولاه بعضهم ، الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، لابن حزم ، ج٤/١٥٧ .

٣) الملل والنحل ، للشهرستانى ، ج١/١٥٥ .

وبهذا فقد أبطل عصمة الائمة ، والتقية ، والرجعة ، ومزاعم الرافضة حول القرآن والسنة ، واسقط الاحاديث التى تقول بذلك بأحاديث يسندها الى أهل البيت .

ويرجع الزيدية فى الاصول الى المعتزلة ، فيما يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى ، والجبر والاختيار ، ومرتكب الكبيرة يعتبرونه فى منزلة بين المنزلتين كما تقول المعتزلة . ولكنه غير مخلد فى النار ، اذ يعذب فيها حتى يطهر من ذنبه ، ثم ينتقل الى الجنة . وفى الفروع الى مذهب ابى حنيفة رضى الله عنه الا فى مسائل قليلة . وللعقل أهمية كبيرة عندهم فى الاستدلال .

فالزيدية خير طوائف الشيعة ، واقربهم الى الصدق والعلم والاستقامة " ويظهر ان الشيعة الذين كانوا يرتاحون الى سلبيتهم الواهمة التى لاتكلفهم عناء العمل ، بقدر ماتملأ نفوسهم بالامل الخداع ، لم يرتاحوا الى دعوة زيد ، فخرج عليه جماعة منهم ، ورفضوا امامته ، وعادوا بالعقيدة الشيعية الى دائرتها الضيقة ، حين قالوا : بامامة أولاد الحسين بالذات ، وتسلسلها فيهم بالنص والتعيين ، لا بالاختيار والصلاحية ، ثم مضوا يعيدون اليها كثيرا من اوهامها ، وأساطيرها من قول بالعصمة ، وقول بالرجعة ، وقول بالتقية ، وغير ذلك مما كان زيد بن على يحاول تجريدها ، وتطهيرها منه ، وأقاموا بهذا دعائم تلك الفرقة الضخمة الامامية ، التى ظلت تختلف ، وتتشعب حتى أصبحت اكثر فرق الشيعة تشعبا واختلافا (1) .

---

١) حياة الشعر فى الكوفة ، د. يوسف خليف ، ص/٣٠٢.

<u>فرق الزيدية:</u>

ان القلوب المريضة المرتابة ، لاتعشق الاستقامة ، ولاتحسن الالتزام بكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن تجنح دائما صوب سبل الغلو او التفريط لتركبها . فاذا كان الامام زيد رضى الله عنه ، قد صدق ما عاهد عليه ، فقضى نحبه ، ولقى ربه على الجادة ، فقد خلف من بعده خلف تابع مسيرته على خطى الاستقامة وآخرون من مرضى القلوب ، اضاعوا الطريق، بعد ان تنكبوها ، واستهدوا بأهوائهم .. ومن تلك الفرق:

١) <u>الجارودية</u>: أتباع ابى الجارود ، زياد بن المنذر الكوفى (توفى سنة ١٥٠ هـ ، أو سنة ١٦٠هـ) وكان كذابا ، وليس بثقة ، من الروافض، يضع الحديث فى مثالب اصحاب رسول الله عليه وآله وسلم ، رضى الله عنهم، ويروي فى فضائل أهل البيت اشياء مالها أصول[١] . وقال عنه ابن حجر : رافضى، كذبه يحيى بن معين[٢] ، لقد كان متطرفا فى آرائه جانحا فى مسيرته، " فقد زعم ان النبى صلى الله عليه وسلم، نص على امامة علي بالوصف دون الاسم، وزعم ان الصحابة كفروا بتركهم بيعة على، وقال : ان الحسن بن على كان هو الامام بعد على، ثم اخوه الحسين كان اماما بعد الحسن "[٣] .

وتابعت طائفة من الجاوردية اقوال الغلاة ، فقالوا ، بغيبة الائمة وبرجعتهم، وذهبوا الى ان محمد بن عبدالله الامام لم يقتل، وهو بعد حي، وسيخرج ويملأ الارض عدلا ، وزعمت طائفة اخرى منهم،ان علم ولد الحسن والحسين

---

١) تهذيب التهذيب، لابن حجر ، ج٣/٣٨٦.

٢) تقريب التهذيب، لابن حجر ، ج١/٢٧٠.

٣) الفرق بين الفرق، للبغدادى، ص/٢٢ . والملل والنحل، للشهرستانى، ج١/١٥٨.

رضي الله عنهم، كعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيحصل لهم العلم قبل التعلم، فطرة وضرورة[1].

بل ارجع التشريع الى الائمة، دون غيرهم، وهو قول الغلاة الضلال " الحلال حلال آل محمد صلي الله عليه وسلم، والحرام حرامهم، والاحكام احكامهم وعندهم جميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، كله كاملا عند صغيرهم، وكبيرهم، الصغير منهم، والكبير في العلم سواء، لايفضل الكبير منهم الصغير "[2]. وقد سمى أبوالجارود ب " سرحوب " سماه بذلك ابوجعفر محمد بن على الباقر، وسرحوب شيطان اعمى يسكن البحر. والبترية والسليمانية من الزيدية يكفر ان الجارودية، على تكفير ابى بكر وعمر، والجارودية يكفرونهما لتركهما ذلك "[3].

٢) السليمانية:

اتباع سليمان بن جرير الزيدى، الذى ذهب الى ان الامامة شورى، وانها تصلح بعقد رجلين من خيار المسلمين، وانها قد تصلح في المفضول، وان كان الفاضل افضل في كل حال، كما يثبتون امامة الشيخين رضى الله عنهما "[4]. وزعم ان الامة تركت الاصلح في البيعة لهما - ابى بكر وعمر - لان عليا كان اولى بالامامة منهما، الا ان الخطأ في بيعتها لم يوجب كفرا ولافسقا[5]. وهو خطأ اجتهادي، غير انه طعن في عثمان رضى الله عنه، للاحداث - المزعومة - التى احدثها، واكفره بذلك، واكفر عائشة، والزبير، وطلحة رضى الله عنهم باقدامهم

---

١) الملل والنحل، للشهرستاني، ج١/١٥٩.
٢) المقالات والفرق، لسعد القمي، ص/٧٢.
٣) الفرق بين الفرق، للبغدادي، ص/٢٤.
٤) مقالات الاسلاميين، للاشعرى، ص/٦٨.
٥) الفرق بين الفرق، للبغدادى، ص/٢٣.

على قتال على رضى الله عنه[(١)] • هذا فى الوقت الذى رفض فيه آراء الرافضة فى التقية والبداء • وأهل السنة يكفرونه،لتكفيره عثمان رضى الله عنه[(٢)] •

٣) الصالحيــة:

أصحاب الحسن بن صالح بن حى، كوفى ولد عام (١٠٠هـ) وتوفى سنة (١٦٠هـ)• وخرج له البخارى ومسلم فى باب الأدب، ووثقه الجمهور، وقيل عنه انه ثقة فقيه عابد، ولكنه رمى بالتشيع"[(٣)] •

ومذهبهم فى الامامة، مذهب السليمانية، الا انهم توقفوا فى امر عثمان رضى الله عنه، والحكم عليه بالايمان او الكفر، قالوا : اذا سمعنا الاخبار الواردة فى حقه، وكونه من العشرة المبشرين بالجنة، قلنا : يجب ان نحكم بصحة اسلامه وايمانه، وكونه من أهل الجنة، واذا رأينا الاحداث التى احدثها، من استهتار بتربية بنى امية وبنى مروان، واستبداده بأمور لم توافق سيرة الصحابة، قلنا: يجب ان نحكم بكفره، فتحيرنا فى امره، وتوقفنا فى حاله، ووكلناه الى احكم الحاكمين"[(٤)] •

وقد انقرضت هذه الفرقة المتطرفة من الزيدية، او ذابت فى فرق الشيعة الاخرى، ومابقى من الزيود فهم متمسكون بآراء زيد المعتدلة نسبيا،فى الامامة والاعتقاد، كما يتبعون زيدا فى آرائه واحكامه الفقهية "[(٥)] •

---

١) الملل والنحل، للشهرستانى، ج١/١٦٠•
٢) الفرق بين الفرق، للبغدادى، ص/٢٤•
٣) تهذيب التهذيب، لابن حجر، ج٢/٢٨٥ ومابعدها •
٤) الملل والنحل، للشهرستانى، ج١/١٦١•
٥) دراسة عن الفرق فى تاريخ المسلمين، د• أحمد محمد جلى، ص/١٩٢•

آراء الشيعة واجتهاداتهم

لست أدرى كيف يقنع الانسان نفسه بأوهام،وضلالات،تقذفه بعيداً عن طريق الحق، وتبعده عن جادة العقيدة ، وتربط قلبه بغير عراها،وبعلائق متعددة ، ويصر بعدها على انه ماض فى طريق الاسلام،والايمان، فالأفكار والعقائد المتعددة المنابع،والأغراض، التى تفاعلت تحت مظلة محبة آل البيت، غدت فى آواخر القرن الأول الهجرى سبيلا جانحا عن الكتاب الكريم، والسنة النبوية، بل مركبا لكل كائد وحاقد على الاسلام ورجالاته .

والقضية التى لا أحتشم من ذكرها ، ولا أرى الخصومة فيها الا نصرة للحق،هى ان حركة التشيع بصورتها الشاذة ، وعلى تباين المواقف بين فرقها فى مخالفتها لكتاب الله تعالى- الذى لم يسلم من افتراءاتهم- ولما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من صنع اليهودى ابن سبأ ، وتطورت على أيدى تلامذته ، الذين أكملوا أدوار الكيد والهدم، واتخذوا من شخصية أمير المؤمنين على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وذريته من بعده ستارة - وان كان على مقت منهم- لتشقيق تلك السبل الملتوية فادعوا العصبية الكاذبة لهم، والمحبة الرعناء المغرضة ، لتى نالت من مكانتهم والتزامهم وتقواهم، وأصبحت سبة عليهم (١) . وكان انتحال هؤلاء لهم من المصائب التى ابتلوا بها ، فى الوقت الذى كانت عصبية أمير المؤمنين،وأبنائه،وأحفاده لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كعصبية اخوانه المؤمنين .

---

١) قال على بن الحسين رضى الله عنهما : " أيها الناس أحبونا حب الاسلام ، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا ".
وقال : " فوالله مازال بنا ماتقولون حتى بغضتمونا الى الناس" . الطبقات، الكبرى ، لابن سعد ، ج٥/١٥٨.

ولم يخف على ركب الحاقدين والمتربصين ثقل قالة السوء في آذان الصحابة، لذا اظهروا التعظيم والاجلال لآل البيت الأطهار، ثم تسللوا عبر منافذ الاستدراج الى الرعاع، وأصحاب الزيغ، ناشرين سحب أضاليلهم، ودخان عقائدهم المتصاعدة من قلوب عمرتها مذاهب،وديانات،وأباطيل سوى الاسلام، ابتغاء فتنة المسلمين عن دينهم،إن استطاعوا، وإحداث شروخ في جسد الأمة المسلمة، وتفتيت طاقاتها وإذهاب ريحها، فما هي تلك العقائد والآراء؟.

١) الإمامة:

الإمامة هي حجر الأساس في بناء هذا المذهب، على اختلاف فرقه، وغيرها من العقائد تبع لها، أو أطياف حولها تكسبها بريقا جذابا، بعد أن أخرجها القوم من حد الاعتدال والاقتصاد الذي كان عليه محبو علي رضي الله عنه،من الرعيل الأول رضوان الله عنهم الى حد السرف والغلو، اذ " أصبحت مقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية "[١] ولم يسكت آل البيت الأطهار رضي الله تعالى عنهم، عن ضلالات القوم،بل وقفوا موقف المجاهد للضلال وأهله، فقد أبعدوهم وشنعوا على أضاليلهم، وأوقعوا بهم أشد العقوبات، فعلي رضي الله عنه قاتلهم، وجعلهم حطباً لنيران قنبر، ونفى ابن سبأ الى المدائن، وقيل إنه طلبه فهرب[٢]، وولده محمد ابن الحنفية، الذي تبرأ من ترهات المختار الكذاب، وبين حاله للناس، وكذلك زيد ابن علي رضي الله عنهما، وجعفر الصادق رضي الله عنه اذ " تبرأ من هؤلاء كلهم، وطردهم ولعنهم، فان القوم كلهم حيارى،ضالون،جاهلون،بحال الأئمة، تائهون "[٣].

والشيعة يستخدمون لفظ الإمامة " دون الخلافة، ويعتبرونها إحدى أركان الايمان، ويفرقون بين الإمامة،والخلافة، فهم يعتبرون الإمامة رئاسة دين، والخلافة

---

١) كتاب الحيوان، للجاحظ، ج١/٧.
٢) فتاوى ابن تيمية، ج٤/٥١٨، و ج ٢٨/٤٧٤.
٣) الملل والنحل، للشهرستاني، ج١/١٦٠.

رئاسة دولة "[١]. والامام عندهم فى يده امور الدين، ويجب أن تسند اليه السلطـة، ان اغتصبها الآخرون، يقول الآمدى: " إن الشيعة خصوا عليا باسم الإمام، نعتا لـه بالإمامة، التى هى أخت الخلافة، وتعريضا بمذهبهم فى انه أحق بإمامة الصلاة من أبى بكر، لما هو مذهبهم، وبدعتهم، فخصوه بهذا اللقب، ولمن يسوقون اليه منصب الخلافة من بعده، فكانوا كلهم يسمون الإمام"[٢].

وقد شذ الشيعة بانكارهم انعقاد الخلافة عن طريق البيعة. كما تمت لأمير المؤمنين علي بن أبى طالب، وإخوانه الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين، وادعت ان سند التعيين انما هو النص" الوصية" وزعموا ان خلافة علي منصوص عليها من قبل النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وبنوا مذهبهم فى وجوب النص على ان " الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض الى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين، وقاعدة الاسلام، ولايجوز لنبى اغفاله، ولاتفويضه الى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم"[٣].

ودليلهم على هذا الزعم، بضعة أحاديث، ماصح منها - على ندرة - ليس فيه حجة لهم، كحديث غدير خم، الذى رواه بريدة بن الخصيب الأسلمى، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: " يا معشر المسلمين، ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه"[٤]. والحجة الموهومة لهم فى هذا الحديث، ان المولى بمعنى الأولى بالتصرف، وكونه أولى بالتصرف، عين الامامة، وهذا المعنى لم تعهده لغة القرآن الكريم، وإنما تعنى محبته، ومحبة علي من محبة الرسول عليه الصلاة والسلام،

---

١) الإمامة، محمد حسين آل ياسين، ص/١٩.
٢) غاية المرام فى علم الكلام، الآمدى، ص/٣٦٥.
٣) مقدمة ابن خلدون، ص/١٩٦.
٤) صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الالبانى، ج٥/٣٥٣.

وعداوته كعداوته صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا مذهب أهل السنة،الذي يعتقده آل البيت الأطهار •

وقد أورد الحافظ ابن عساكر خبرا عن الحافظ البيهقي، من حديث فضيل ابن مرزوق ، وأورده كذلك أبونعيم عن الحسن المثنى ابن الحسن السبط الأكبر، انهم سألوه عن حديث " من كنت مولاه ..." هل هو نص على خلافة علي ؟ قال : لو كان النبى صلى الله عليه وسلم أراد خلافته بذلك الحديث، لقال قولا واضحا هكذا : يا أيها الناس هذا ولي أمري ، والقائم عليكم بعدي، فاسمعوا وأطيعوا ، ثم قال الحسن : أقسم بالله ، أن الله تعالى ورسوله لو آثرا عليا لأجل هذا الأمر ، ولم يمتثل علي لأمر الله ورسوله ، ولم يقدم على هذا الأمر ، لكان أعظم الناس خطأ، بترك امتثال ما أمر الله،ورسوله به "[1] •

وللشهرستاني كلام رائع، لرد تلك الدعوى، يقول : " لوورد نص على إمام بعينه ، لكانت الأمة بأسرهم مكلفين بطاعته، ولاسبيل لهم الا العلم بعينه بأدلة العقول، والخبر لو كان تواترا ، لكان كل مكلف يجد من نفسه العلم بوجوب الطاعة له، والا لزمه دينا ، كما لزمه الصلوات الخمس دينا ، ولما جازوا الى غيره بيعة وإجماعاً، ومن المحال من حيث العادة ، أن يسمع الجم الغفير كلاما من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لاينقلونه فى فطنة الحاجة ، وعصيان الأمة ، وطراوة الدين ، وصفوة القلوب، وخلوص العقائد عن الضغائن والأحقاد •

واذا كانت الدواعى على النقل موجودة ، والصوارف عنه مفقودة ولم ينقل ، دل على أنه لم يكن فى الباب نص أصلا ، ولو عين شخص لكان يجب على ذلك الشخص المعين ، أن يتحدى بالإمامة ، و يخاصم عليها ، ويخوض فيها ، حتى اذا دفع عن حقه سكت،ولزم بيته، فيظهر الظالم عليه • ولم ينقل أن أحدا تصدى للإمامة وادعاها نصا عليه ، وتسليما اليه "[2] •

---
١) تاريخ دمشق، ابن عساكر، ج٤/١٦٦•
٢) نهاية الاقدام فى علم الكلام، للشهرستانى، ص ٤٨٠ - ٤٨١ •

وقد تغافل القوم عن أحاديث كثيرة وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وهي تنقض ادعاء التعيين،والنص، ولكن القوم أملياء بالخرافات، أقوياء على رد الصحيح، وافتراء السقيم، ورد تأويل الأحاديث الى الأهواء، وصارت خرافاتهم مطايا دعوتهم، فقد روي عن أبي حازم قال: قاعدت أباهريرة خمس سنين، فسمعته يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وانه لانبي بعدي، وستكون خلفاء فتكثر، قالوا: فما تأمرنا ؟ قال: فوابيعة الأول فالأول: وأعطوهم حقهم، فان الله سائلهم عما استر عاهم"[1] فأين " النص" بعد هذا ؟ أم ان الصحابة رضوان الله عنهم،كتموا ذلك لحاجات في نفوسهم؟ وقد وصلت الينا شرائع الدين عن طريقهم، وهم الذين نقلوا الينا القرآن والحديث: " ولايتصور في حق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الاتفاق على الباطل، وترك العمل بالنص الوارد "[2]. ولكن الشيعة قرروا هذا، وطعنوا بصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد أكفرهم كثير منهم، وجعلوهم مرتدين، ولذا لاحاجة لاضاعة الوقت في التدليل على النهار، فقد أصبحت العقول معطلة، لأن ماتذكره الامامية من سوء القول في الصحابة رضى الله عنهم، وافتراء الأحاديث على الرسول، ترهات لايصلح أن تشحن بها الكتب، أو يجرى بها القلم .

كما أن عليا كرم الله وجهه، لم يستخلف أحدا، وانما صرح: انه سيتركهم كما تركهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم[3]، ولكن القوم أتقنوا صناعة الكذب، حتى انتهت اليهم، فأجادوا الحبكة ليسيروا بالرعاع،الذين من خلفهم في طريق ينكب فيها كل ساع، ويعثر فيها كل ماش، وتسقط أعلام الدين، اذ رموا

---

١) حديث صحيح، رواه البخاري ومسلم وأحمد، الفتح الرباني، ترتيب مسند الامام أحمد ابن حنبل الشيباني، أحمدعبدالرحمن البنا، ج٢٣/٥٣.

٢) شرح العقائد النسفية، التفتازاني، ص /١٨٠.

٣) أنظرالصفحة، (٢٧٠) ومابعدها .

أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه بالجبن وموالاة الظالمين، والكذب عندما قالوا : " فالنبى صلى الله عليه وسلم نص على استخلاف علي بن أبى طالب باسمه ، وأظهر ذلك ،وأعلنه ، وان أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به ، بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم، وان الامامة لاتكون الا بنص وتوقيف ، وانها قرابة ، وانه جائز للامام فى حال التقية ان يقول ليس بإمام"[(١)] • وكذا كان حال ابن أبى طالب وأولاده ، وأحفاده من بعده ، اذ لم يجدوا - كما يزعم الشيعة - من ينهض بحقهم ، وضنوا على الاسلام، والمسلمين بالفرقة، والاختلاف ، هكذا وانف التاريخ الذى شهد الجمل وصفين راغم •

وكأنى بالقوم الذين يتخبطون فى متاهات عقائدهم الزائفة ، يحاولون القيام من كل فاجعة يتردون فيها ، باتكائهم على ارتداد الصحابة مرة، وتحريف القرآن مرة أخرى ، ومخافة الفرقة مرات ، فأين النص ،والتعيين من قوله تعالى : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)[(٢)] • وقوله تعالى : (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين)[(٣)] •

وإن ترفع الزيدية عن شتم الصحابة ، والأخذ ببعض العقائد النافقة ، لكنهم يقولون- رغم تحوير القول- بالنص" فالإمامة تثبت لعلى بالوصف ، لا بالاسم ، والصحابة أخطأوا باختيارهم غيره "[(٤)] ، إذ الامامة فى نظرهم لاتكون الا فى أولاد

---

١) مقالات الاسلاميين ، للاشعرى ، ص/١٦ و ١٧•
٢) سورة النور ، الآية : ٥٥•
٣) سورة آل عمران، الآية : ١٤٦•
٤) انظر : الملل والنحل ، للشهرستانى ، ج١/ ١٥٤ ومابعدها •

وهناك الكيسانية،يزعمون أن علي ابن أبى طالب نص على إمامة ولده محمد ابن الحنفية ، لأنه : " دفع إليه الراية بالبصرة "[١] . وبعضهم يرى أن عليا نص على إمامة ابنه الحسن،الذى نص على إمامة أخيه الحسين ، والحسين نص على إمامة أخيه محمد .

وبعد كل ما أدعوه ولفقوه حول الامامة ، وجعلها ركن الدين ، وقاعدة الاسلام ، بل ووجوب نصب الامام ، ولكن ليس على الأمة " وانما على الله من باب اللطف بمقتضى العقل "[٢] اختلفت فرق الشيعة فى الإمام الذى نص عليه علي رضى الله عنه " فمنهم من قال : إنه نص على محمد بن الحنفية ، وهؤلاء هم الكيسانية ، ثم اختلفوا فيمن بعده ، فمنهم من قال : انه لم يمت ، ويرجع فيملأ الأرض عدلا ، ومنهم من قال : انه مات ، وانتقلت الإمامة بعده الى ابنه أبى هاشم ، وافترق هؤلاء ، وأما من لم يقل بالنص على محمد بن الحنفية ، فقال بالنص على الحسن،والحسين رضى الله عنهما ، وقال بعده بإمامة على بن الحسين ، زين العابدين ، نصا عليه ، ثم اختلفوا بعده ، فقالت الزيدية : بامامة ابنه زيد .... "[٣] .

والغلاة يرون الإمامة فى على وولده ، ثم أخرجوها الى جماعة من غير قريش ، إما بدعواهم وصية بعض الأئمة اليه ، وإما بدعواهم تناسخ الأرواح من الإمام الى

---

١) مقالات الاسلاميين ، للاشعري ، ض/١٨ .
٢) نيل الاوطار ، للشوكاني ، ج٨/٢٦٥ .
٣) الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج١/٢٨ - ٢٩ .

من يزعمون أن الإمامة انتقلت اليه كالبيانية "[١] .

ورائد الجميع فيما ذهبوا اليه الهوى ، ومحاولة رد المسلمين عن دينهم ان استطاعوا ، فليس هناك من كتاب ولا من سنة مايدل عليها ، وانما هي - الوصية - مقالة ابتدعها ابن سبأ ثم تلقفتها الشيعة منه ، وجعلوها من أصول الايمان عندهم ، بل هي أصل الايمان[٢] .

كما انني أميل الى الاعتقاد انه لايوجد نص جلي على خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وماورد من آثار ، انما تخبر عن ولايته ، واختيار الصحابة له دون غيره وقد روى الامام أحمد بسنده الى ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يوص " وقال عنه المرحوم أحمد شاكر صحيح[٣] .

حتى اشتراط القرشية ، الذي اتفق عليه أهل السنة ، والشيعة ، وبعض المعتزلة ، وبعض المرجئة ، لا أراه إلاشرط أفضلية ، وليس شرط انعقاد ، ورحم الله تعالى الحافظ ابن حجر ، فقد اعترض على هذا الاجماع بقوله : " ويحتاج من نقل الى تأويل ما جاء عن عمر من ذلك ، فقد أخرج الامام أحمد عن عمر بسند رجاله ثقاة انه قال : إن أدركني أجلي ، وأبوعبيدة حي استخلفته ، وإن أدركني أجلي ، وقد مات أبوعبيدة استخلفت معاذ بن جبل "[٤] . وقال عنه الحافظ بن حجر : "رجاله ثقات"[٥] ومعاذ بن جبل رضي الله عنه ، أنصاري ، لانسب له في قريش ، فدل على الجواز .

---

١) أصول الدين ، البغدادي ، ص/٢٣٤ .

٢) نقل المامقاني ، صاحب "تنقيح المقال" عن محمد بن عمر الكشي ، من رأس علمائهم في الجرح والتعديل : " ذكر أهل العلم ان عبدالله بن سبأ ، كان يهوديا فأسلم ووالى عليا ، وكان يقول على يهوديته في يوشع بن نون " وصي موسى " فقال في اسلامه : في علي مثل ذلك " . ج ١٨٤/٢ . وانظر الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج١/٧٤ . فمخترع لقب " الوصي " هو ابن سبأ ، وانظر : ص/٢٧٩ من بحثنا .

٣) مسند الامام أحمد ، تحقيق أحمد شاكر ، رقم / ٣١٨٩ ، ج٥/٦٨ .

٤) المصدر السابق ، ج١/١٨ .

٥) فتح الباري ، لابن حجر ، ج١٣/١١٩ .

كما روي عنه رضي الله عنه ، انه قال : لو أدركني أحد رجلين ، ثم جعلت هذا الأمر اليه لوثقت به ، سالم مولى أبي حذيفة ،وأبوعبيدة بن الجراح "(١) .

والا فاذا كانت القرشية شرطا لازما ، من شروط الامام ، فلتكن في آل البيت ، لانهم الذؤابة من قريش .

إن دعوى النص ، ومايدور في فلكها ، تحمل الكثير من سهام الاتهام ، والهدم لأصول الحكم ، وفيه حرمان من حق البيعة ،والشورى لأبناء الأمة ، وانكاراً للحرية الانسانية ، وإسناد القول بالنص إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مرفوض ، ودعواه مردودة " لما فيه من مراغمة الاجماع ، ومخالفة اتفاق المسلمين ، وهدم قواعد الدين "(٢) .

بل الأخبار التي تدل على وهن القول بالنص كثيرة ، وورد أغلبها على ألسنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، فقد روى الثوري عن الأسود بن قيس ابن عمرو بن سفيان ، قال : لما ظهر علي يوم الجمل ، قال : " أيها الناس ان النبي صلى الله عليه وسلم ، لم يعهد إلينا في هذه الإمارة شيئا ، حتى رأينا من الرأي أن نستخلف أبابكر "(٣) .

وأجدني مضطرا أن أثبت ماذهب إليه ابن خلدون ، وغيره من المنصفين ، ان الشيعة ذهبوا " يستدلون لعقيدتهم بنصوص ينقلونها ، ثم يؤولونها على مقتضى مذهبهم ، لايعرفها جهابذة السنة ، ولانقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع ، أو مطعون في طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة "(٤) .

إن الامامة تثبت بالاتفاق والاختيار ، لا بالنص والتعيين . والأقدر على

---

١) مسند الامام أحمد ، تحقيق أحمد شاكر ، رقم /١٢٩ . ج١/١١٢ . وصحح المرحوم أحمد شاكر اسناده .
٢) غاية المرام في علم الكلام ، الآمدي ، ص/٣٧٩ .
٣) سنن الترمذي ، باب ماجاء في الخلافة عن عمر وعلي ، وتاريخ الاسلام ، للذهبي ج١/٣٢٨ .
٤) مقدمة ابن خلدون ، ص/١٥٥ .

السير بالأمة على كتاب الله تعالى،وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، لتحقيق الأهداف التي شرعت من أجلها الامامة أولى.اذ " انها خلافة النبوة فى حراسة الدين، وسياسة الدنيا "[(١)].

وقد قاد القول بالنص،والتعيين، الى القول بالعصمة وغيرها،من ألوان القداسة لعلي،ولأبنائه،وأحفاده رضي الله عنهم : " فأصبحت نقطة البدء فى التشيع هى هذه القداسة الخاصة التي أضفاها عليه الشيعة، فتأرجحت بين كونه وصيا، ووليا،واماما، ومهديا،ونبيا، والها "[(٢)]. فتصور الشيعة للإمام،وعصمته،ودوره غريب عن التصور الاسلامى، " لأن كثيرا من العقائد غير الاسلامية تسربت الى الشيعة، تلك العقائد التى انتقلت اليهم عن المجوسية والمانوية، وغيرها من الديانات التى كانت سائدة فى آسيا قبل الاسلام[(٣)].

فالأئمة " الموقوفون" - إن صح التعبير - قد حفوا بالعصمة التى ادعاها لهم الشيعة، ماعدا الزيدية، الذين ذهبوا الى ماينقض ادعاء العصمة، وهو جواز إمامة المفضول،التي تنفي عصمة الفاضل، فلم يجيزوا " عليهم ان يسهوا، ولايغلطوا "[(٤)]. ولم يدع هذه العصمة أحد من آل البيت الأطهار، ولكن نظرة الشيعة إلى الإمامة اضطرتهم الى القول بالعصمة[(*)]، لانهم، كما يعرفهم الشيخ المفيد " القائمون مقام الأنبياء صلوات الله عليهم، فى تنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود، وحفظ الشرائع، وتأديب الأنام، معصومون كعصمة الأنبياء، وانهم لايجوز منهم صغيرة،إلا ماقدمت ذكر جوازه على الأنبياء، ولايجوز منهم سهو فى شيء

---

١) الاحكام السلطانية، الماوردى، ص/٥.
٢) نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام، د. على سامى النشار، ج٢/٢٠.
٣) السيادة العربية والاسرائيليات، فان فلوتن، ترجمة : حسن ابراهيم، ومحمد زكى ابراهيم، ص/٨٢.
٤) مقالات الاسلاميين، الاشعرى، ص/٤٨.
*) اول من ابتدع القول بالعصمة لعلى، هو ابن سبأ " فتاوى ابن تيمية، ج٤/٥١٨.

في الدين"[(١)] . ولا أدري أين كانت العصمة المزعومة، عندما تنازل سيد شباب أهل الجنة - الحسن بن علي - رضي الله عنهما ، عن الخلافة ، وبايع معاوية بن أبي سفيان، مع أن الشيعة ، يرونه ظالما كافرا .

وليت هؤلاء المعصومين على قيد الحياة ظاهرين ، بل هم مختفون،لاينتفع منهم في شيء ، وبذا يسقط أصل من أصول الايمان عندهم، وهو " العصمة ".

فاشتراط العصمة وليد عقيدة " النص" ولذا لايرى أهل السنة العصمة الا للأنبياء ، أما الامامة ، فمن شروطها عدالة ظاهرة،اذا التزم بالكتاب والسنة .

وليت شعري كيف يوجب الشيعة العصمة للامام الذى ليس بمقدوره أن يتولى شؤون المسلمين، على تباعد أقطارهم،وانما يستعين بالولاة ،والقادة ،والقضاة ، فهل هؤلاء معصومون ؟ فان توفرت العصمة بهم ، استغنوا بعصمتهم عن عصمة ذاك الامام البعيد المعصوم، الذى سيقيمهم على منهج الصواب .

ومن أدلة القوم على عصمة الأئمة ، الآية الكريمة : (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت : ويطهركم تطهيرا)، فأين وجه الاستدلال المزعوم، فذهاب الرجس لايعنى العصمة ، وانما تعنى طهارتهم من التهم والريب ، فضلا عن سقوط هذه الصفة بحديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، الذى رواه الامام مسلم في صحيحه ، بسنده عن أبي هريرة : " انما-الامام جنة ، يقاتل من ورائه ، ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله عز وجل وعدل، كان له بذلك أجر ، وإن يأمر بغيره كان عليه منة "[(٢)] ، فمن الحديث هذا ، ومن أحاديث أخرى[(*)] ، نفهم الامام غير معصوم، فقد يأمر بغير تقوى الله عز وجل .

ولكن الذى كرس فى أذهانهم ضرورة العصمة للامام فى مذهبهم،هو إبطال

---

١) أوائل المقالات فى المذاهب والمختارات ، الشيخ المفيد ، ص/٣٥ .

٢) صحيح مسلم ، كتاب الامارة ، ج٣/١٤٧٩ .

*) " أنت منى بمنزلة هارون من موسى، الا انه لانبى بعدى " ، رواه مسلم فى صحيحه فى فضائل الصحابة ، رقم /٢٤٠٤ .

من سبق :نليا رضى الله عنه الى مقام الخلافة ، باعتبار ان الخلفاء الراشدين ، لم يكونوا ممن اتصفوا بالعصمة والكمال ٠ فهم بهذا الاعتبار غير مؤهلين لاشغال هذا المنصب الديني ، الذى هو ركن الدين وقاعدته "[١] ٠

ويمكن أن نضيف سببا آخر ، الى تلك الأسباب التى دعت القوم الى القول بالعصمة ، فإعراض آل البيت رضوان الله عنهم - عن الأدعياء - وعن تبرهاتهم المتلاحقة التى منوا بها ، سهلت طريق اليأس الى الرعاع من خلفهم ، دفعتهم إلى أسطورة القيادة الملهمة ،المعصومة فى أقوالها وسلوكها ، المؤيدة بالتسديد الرباني ،والذى يتطلب أن تمنحها الجماعة السلطة الكاملة الناجزة ، وتظهر التبعية ، والطاعة العمياء ٠

ويسوق أحد الشيعة المعاصرين ، سببا وجيها ، فيقول : " ولكى يكون لهذه الآراء الغريبة صدى دينى ، لايجوز التشكيك فيها ، نسبت رواة الشيعة ، تلك الروايات الغريبة الى أئمة الشيعة ، ولاسيما الى الإمامين الباقر والصادق ، ولتثبيت صحة تلك الروايات ، وعدم الخوض فى مضامينها ، وقبولها كما ذكرت ، فقد ظهرت فكرة عصمة أئمة الشيعة فى ذلك العهد ، لكي تكون رصيدا آخر "[٢] ٠

وبذا تكون نظرية الإمامة عند الشيعة اشتملت على أمرين أساسيين :

" النص والتعيين الالهى ، والاعتقاد بإمام معصوم عن الخطأ ، يحمل الأمانة بعده - وعلى اختلاف - ولده ، وبصورة تعاقبية ، والعصمة عند أهل السنة لاتكون الا للانبياء دون غيرهم من البشر ٠

---

١) دراسات فى الفرق والعقائد الاسلامية ، د٠ عرفان عبدالحميد ، ص/٤٨٠

٢) الشيعة والتصحيح ، الصراع بين الشيعة والتشيع ، د٠ موسى الموسوى ، ص /١٥٠

الرجعة والمهدية:

الرجعة إحدى العناصر الجوهرية فى نظرية الإمامة، عند معظم الفرق الشيعية ماعدا الزيدية، الذين ينكرونها - وان كانت مختلفة فى اسم الامام الخفي، الذى ستكون له الرجعة • حيث نادت كل فرقة بعودة إمامها المزعوم •

والرجعة هنا تعني عودة الإمام الى الظهور، بعد الغيبة، والاختفاء أو الى الحياة بعد الموت، قبل يوم الحساب• وقد فتق مكر ابن سبأ هذا المفهوم، وظهر على لسانه أول مرة، ولكنه خصّ به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ثم نقله الى أمير المؤمنين علي بن أبى طالب رضى الله عنه(*) • وكان باكورة مكره وكيده، فقال: " العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمدا يرجع، وقد قال الله عز وجل: (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد) فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، قال: فقبل ذلك عنه، ووضع لهم الرجعة، فتكلموا فيها "(١) •

وتتسرب جذور هذه العقيدة الى قصة "العزير" - الذى قالت عنه اليهود ابن الله تعالى الله عما يقولون- وقد أماته الله مائة عام ثم بعثه، كما ورد فى القرآن الكريم، (أو كالذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها، قال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه، قال: كم لبثت ؟ قال: لبثت يوما أو بعض يوم، قال: بل لبثت مائة عام)(٢) • وقصة هارون اذ مات بالتيه، وهما من اليهودية، ومن قصة عيسى عليه السلام •

فكان مما قاله فى رجعة أمير المؤمنين علي رضى الله عنه - بعد موته - هو انكاره موته، فقال: " لو أتيتمونا بدماغه فى سبعين صرة، وأقمتم على قتله

---

*) أنظر: الفصل لابن حزم، ج٤/١٨٠•

١) تاريخ الطبري، ج٤/٣٤٠•

٢) سورة البقرة: الآية: ٢٥٩•

سبعين عاماً ، ماصدقنا موته ، فانه لايموت حتى يعود فيملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا "[1] وزعم أن المقتول لم يكن عليا ، وإنما كان شيطانا ، تصور للناس في صورة علي ، وأن عليا صعد إلى السماء ، كما صعد عيسى بن مريم اليها "[2].

ثم تطورت فكرة " الرجعة " على يد الكيسانية ، وان كانت قد اختلفت هوية الامام ، حيث نادت كل فرقة بعودة إمامها ، فالكيسانية قالت : بعودة محمد ابن الحنفية بعد موته ، أو بظهوره بعدُ ، عند من لم يؤمن بموته منهم ، والإمامية ينتظرون عودة محمد المهدى المنتظر ، الذى يعتقدون - كالطائفة الكيسانية وعلى اختلاف في فجاج الأرض - أنه دخل سرداباً بدار أبيه في سامراء ، ولم ينافسه عليه ابن الحنفية ، الذى آثر جبل رضوى ، لأسباب غابت .

وليت الأمر توقف عند هذا الحد ، بل تطاول على أيدى أهل الضلال ، فزعموا أن الأئمة كلهم سيعودون الى الحياة الدنيا ، قبل يوم الحساب ، للانتقام من خصومهم ، الذين غصبوهم حقوقهم ، وسفكوا دماءهم ، وحجتهم ان هذا جائز على الله ، ووضعوا أحاديث مكذوبة ، تنطق بشعوذاتهم " فزعموا أنه لم يكن في بني اسرائيل شيء ، إلا ويكون في هذه الأمة مثله ، وان الله قد أحيا قوما من بني اسرائيل بعد الموت ، فكذلك يحيي الأموات في هذه الأمة ، ويردهم الى الدنيا ، قبل يوم القيامة "[3] . وانسابت أهواؤهم على غير هدى ، فرست بهم على الكفر الصراح ، اذ أنكروا القيامة والآخرة ، ويقولون ليس هناك قيامة ، ولا آخرة ، وانما هي أرواح تتناسخ في الصور ، فمن كان محسنا جوزي بأن ينقل روحه الى جسد لايلحقه فيه ضرر ولا ألم . ومن كان مسيئا جوزي بأن ينقل روحه إلى أجساد يلحق الروح في

---

١) تاريخ الطبري ، ج٤/٣٤٠ .

٢) الفرق بين الفرق ، للبغدادي ، ص/٢٢٣ - ٢٢٤ .

٣) مقالات الاسلاميين ، الأشعري ، ص/٤٦ .

كونه فيه الضرر والألم، وليس شيء غير ذلك، وإن الدنيا لاتزال أبدا هكذا "[١] .

وولدت عقيدة " الرجعة " قولا جديدا ، اذ قالوا " بالمهدى المنتظر " ، والمهدى هو رجل هداه الله ، وقد يكتب الهداية على يديه ، ولكن في صفحات الشيعة ، تدل على شخص منتظر بعينه، يقدم في آخر الزمان، ليملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا ، وأول من نعق بذلك الكيسانية ، الذين زعموا أن محمد بن الحنفية الذى غاب في جبل رضوى ، هو المهدى المنتظر، ووصفه شاعرهم كثير عزة بذلك، فيقول :

هو المهدى خبرناه كعب : أخو الأحبار في الحقب الخوالى[٢]

وأنضج الشيعة فكرة " المهدى المنتظر " على نيران أفئدتهم الحانقة ، المتطلعة الى الحكم ، ولكن بهمم كليلة ، وقلوب هواء ، فبشروا من خلالها " بعودة الخلافة إليهم ، واستردادها من الأمويين ، حتى لايغمرهم اليأس ، وينسوا الهاشميين ، فتضيع معهم آمالهم أيضا ، أو مايدلون به على الناس ،من سلطان ديني واجتماعي"[٣] .
وأهل السنة حيال هذه العقائد الضالة ، ومعهم الزيدية من الشيعة ، ينكرون الرجعة ، لانها تتناقض مع عقيدة المسلمين ، الذين يلتزمون بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم .

أما عن " المهدى المنتظر " فلا يتجاوزون ماورد في الأحاديث الصحيحة ، التى رويت عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فهناك مهدى منتظر ، سيظهر آخر الزمان، وسيجدد أمر هذا الدين ، ويملأ الأرض عدلا ، بعدما غصت بالجور، والطغيان ، ملتزما بمصدري الهدى ، كتاب الله تعالى وسنة رسوله .

---

١) مقالات الاسلاميين ، للاشعرى ، ص/٤٦ .
٢) مذاهب الاسلاميين ، د . عبدالرحمن بدوى ، ج٢/٧٦ .
٣) تاريخ الشعر السياسى ، احمد الشايب ، ص/٢٢٨ .

روى أبوداود والترمذي بسندهما عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : " لو لم يبق من الدنيا الا يوم، لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلا مني - أو - من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما - لاتذهب - أو لاتنقضي الدنيا ، حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي "[١] .

ففكرة " المهدى المنتظر " لها أصل في ديننا ، ولكنها لاتتساوق مع تلك الأساطير، والخرافات، والادعاءات .

وقد وفق الأستاذ أحمد أمين، في تبيين الدوافع التي كانت وراء إبراز فكرة " المهدى المنتظر " بتلك الصورة الشاحبة ، فقال : " والذى دعا الشيعة الى تبني فكرة " المهدي المنتظر " والتركيز عليها ، هو ما آلت إليه أحوالهم، بعد مقتل علي، وتولي معاوية الأمر ، ومبايعة الحسن له ، ثم استشهادالحسين، وفشل الحركات الثورية التي قاموا بها ضد الأمويين، إذ خشي الشيعة أن يدب اليأس الى نفوس أتباعهم وأن تتلاشى حركتهم أمام ضغط الأمويين، وقوة شوكتهم، فعملوا على تحويل دعوتهم الى دعوة سرية، تعمل في الخفاء على الاطاحة بالحكم الأموي، وتقويض أركانه، لكنهم أدركوا ان هذا لايتم الا بعد جهود مضنية، ووقت طويل، فكان لابد من ربط الأتباع بأمل يتطلعون اليه ، وكان ذلك الأمل هو الإمام الغائب "أو "المهدي المنتظر"[٢] .

وقد فتت هذه الأفكار في عضد غالبية المسلمين، وشجعتهم على الاسترخاء ، واطالة الحلم بالعدل والمساواة ، لأنه سيقدم اليهم على أطباق النعاس، والسنة، والخمول، فطال ليل رقادهم، كما تطاولت يد البغاة والظلمة على مقدساتهم تسومهم سوء العذاب، وهذا أودى بكثير من الطاقات الفاعلة، والعاملة، على شق طريق العدل، والهدى إلى الخمول، لأن كل مسلم هو مهدي ينتظره مجتمعه، ودينه . وبجهاده التزامه، وغيرته، يعود العدل، والحق، ويختفي الظلم من ساحته، ولكنها خيبة الزمان، وأحلام الوسنان...

---

١) صحيح سنن ابي داود ، محمد ناصر الدين الألباني ، رقم ٣٦٠١ - ج٢/٨٠٧ .
٢) ضحى الاسلام، احمد امين، ج٣/٢٤١ ومابعدها .

التقيـــة

لغة : مصدر توقى ، واتقى ، وتوقيت الشيء ، أي حذرته ، وفي القرآن الكريـــم (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من اللـه في شيء . الا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، والى الله المصير)[١] .

وقرىء : تقية ، بمعنى الا أن تخافوا من جهتهم مايجب اتقاؤه[٢] .

واصطلاحا : إظهار أمر ، وإخفاء غيره ، حذرا من ضرر متوقع،ومعاشرة ظاهرة مع العدو الغالب المخالف ، والقلب مطمئن بالايمان ، حتى يزول المانع ، وهي عنـــد الشيعة ، كما يعرفها شيخهم المفيد : " كتمان الحق ، وستر الاعتقاد به ، ومكاتمة المخالفين ، وترك مظاهرتهم بما يعقب ضررا في الدنيا والدين "[٣] ، أو " هي تـــرك فرائض الدين في حالة الاكراه ، أو التهديد بالايذاء "[٤] ، وهي عند الشيعة ركن مـــن أركان الدين ، اذ التقية تسعة أعشار الدين ، بل لادين لمن لاتقية له ، وقد رووا - كذبا - عن الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه ، انه قال : " التقية ديني وديـــن آبائي "[٥] . وكل ذلك ليصبغوا تلك المفتريات بصبغة دينية .

وارتبطت التقية ارتباطا لازما بسلوك القوم ، بعد أن استقرت في مكـــان الأساس من المذهب .

ولايعني هذا ان أبناء المذاهب الأخرى - الاسلامية - لم يعرفوا التقية ، ولـم يمارسوها في سلوكهم ، بل عرفت الطريق الى حياتهم وممارساتهم ، ودليلهم علـــى ذلك الآية القرآنية الكريم : (من كفر بالله من بعد ايمانه ، الا من أكره وقلبـــه مطمئن بالايمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ، ولهم عـــذاب

---

١) سورة آل عمران ، الآية : ٢٨ .
٢) انظر : لسان العرب ، لابن منظور ، ج١٥/٤٠١ ، مادة وقى .
٣) تصحيح عقائد الشيعة ، للمفيد ، ص/٦٦ .
٤) دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة المشتنتاوي وزملائه ، مجلد ٥/٤١٩ .
٥) الكافي في الاصول ، للكليني ، ج٢/١٢ ، باب التقية .

عظيم)[١] . فهي عند أهل السنة رخصة، تؤتى عند الضرورة، ويرخص بها لمن خـــاف في بعض البلدان والأوقات، ولكنها تقية باللسان، لا ولاء القلب، ولا ولاء العمـــل، قال ابن عباس رضي الله عنهما : " ليس التقية بالعمل، انما التقية باللسان "، فليس من التقية المرخص بها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر، كما انه ليس مـــن التقية المرخص بها، أن يعاون المؤمن الكافر في صورة من الصور، باسم التقية، فـما يجوز هذا الخداع على الله، ولما كان الأمر في هذه الحالة متروكا للضمائر، ولتقوى القلوب وخشيتها من علام الغيوب، فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمـة الله وغضبه في صورة عجيبة من التعبير حقا (ويحذركم الله نفسه، والى الله المصير)[٢] . وهو من أبواب " الإكراه " التي جمعها حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : "رفـــع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه "[٣] .

وللأئمة تفصيل في ذلك، فأصحاب أبي حنيفة يذهبون الى أن التقية رخصـــة من الله تعالى، وتركها أفضل، فلو أكره على الكفر، فلم يفعل حتى قتل، فهو أفضـــل ممن أظهر، وكذلك كل أمر فيه إعزاز للدين، فالإقدام عليه حتى يقتل أفضل من الأخذ بالرخصة، وقال الامام أحمد رحمه الله تعالى : وقد قيل له : ان عرضت على السيـــف تجيب ؟ قال : لا، وقال : اذا أجاب العالم تقية، والجاهل يجهل، فمتى يتبيــــن الحق ؟ والذي نقل الينا خلفا عن سلف، أن الصحابة وتابعيهم، وتابعي تابعيهـــم بذلوا أنفسهم في ذات الله، وانهم لاتأخذهم في الله لومة لائم، ولاسطوة جبار ظالم"[٤] فان أحجم علماؤهم وزعماؤهم وقادتهم، عن الضرب على أيدي الظالمين، وعن كلمـــة الحق في مواطن الصدق، فتهافت الناس، وضعفت قلوبهم، وملئوا رعبا من عدوهـــم،

---

١) سورة النحل، الآية : ١٠٦.

٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١/٣٨٦.

٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته، للشيخ محمد ناصر الدين الالباني، ج٣/١٧٩ رقم ٣٥٠٩.

٤) تفسير البحر المحيط، لابي حيان الاندلسي، ج٢/٤٢٤.

فكانوا أغثاء لهم، وكانوا غثاء كغثاء السيل، ولم يكن كذلك سلفهم الصالح "[1].

والتقية بالقول والكلام، والقلب عاقد على خلاف مايظهر اللسان، وليست كتمان الحق، وترك الواجب الشرعي، وارتكاب المنهي عنه،خوفا من الناس، وعلى ألايكون ممن يقتدي به، فيخشى أن يخفى الحق على الجاهلين.

ومنتهى القول عند أهل السنة في التقية، انها رخصة جائزة في القول،واللسان، دون الفعل،والعمل.

أما عند الشيعة، فقد صارت نظرية عقدية، وواجبا ضروريا، تسربل أثواب العبادة والإحسان، منذ أن أعلن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عزمه على البطش بمن يتكلم في حق الشيخين، فخافت السبئية من ذي الفقار،فكتموا أمورهم، وبدأوا يعملون في السر والخفاء، وتقنعوا بقناع التقية، وكانت بدايتها على تلك الصورة، ويؤيد ذلك ماروله عبدالجبار الهمذاني في كتابه " دلائل النبوة " عن السبئية انهم قالوا :إن علي بن أبي طالب لم يحرق من أحرقه الا " لأنهم أظهروا السر ثم أحياهم بعد ذلك "[2].

ومع تطور المعتقدات الشيعية، ولإحكام ذلك الشرود، في ذلك البناء، ارتبطت التقية بنظرية " الإمامة " التي ادعوها (النص والتعيين الإلهي) ليبرروا من خلالها سكوت الإمام علي رضي الله عنه عن إخوانه الراشدين، والاعتراف بسلطانهم، فهناك رابط عضوي بين سكوت الأئمة المعصومين عن المطالبة بحقهم الثابت لهم بنصوص قطعية (كما يزعمون) ومبدأ التقية.

ويقول الفخر الرازي : " ثم ان على هذا المذهب (القول بالنص والعصمة) اعتراضا، وهو أن عليا وأولاده، لو كانوا أئمة، فلمَ لم يشتغلوا بالإمامة،وحاربوا الظلم أجلها ؟ فعند هذا قررت الشيعة قاعدة أخرى، وهو القول بجواز التقية "[3].

---

١) دائرة المعارف الأسلامية، والكلام للاستاذ أحمد شاكر، في الحاشية، تعليقا.
٢) تثبيت دلائل النبوة، عبدالجبار الهمذاني، ج٢/٥٤٩ - طبعة بيروت.
٣) محصل الأفكار المتقدمين والمتأخرين، الفخر الرازي، ص/١٨١، طبعة القاهرة.

وبذا تكون التقية ابنة شرعية لافتراء الشيعة،وأكاذيبهم- كما يمارسونها - وهي الكذب البين، والنفاق الفاضح، بعد أن استهواهم الشيطان،واستغواهم، ولذا اتخذوها دينا لهم، وأجروها على أحكام ذلك الدين، وما كانت سبيلا أو سلوكا لرجال قد ملأ الايمان، والشجاعة صدورهم، وبخاصة أمير المؤمنين وآل بيته رضوان الله عنهم. وما أدري لم يحرص القوم- جاهدين- على تشويه صورة أبي تراب،وأولاده،وأحفاده، ويصمونه بالجبن والهلع والنفاق، حتى غدا الدين- كما يصورون- مضاعا، والحق مخفيا، والكذب البضاعة الرائجة.

إنها معاول الهدم، فأمير المؤمنين وآل بيته رضوان الله عنهم، لم يروا التقية إلا رخصة، وليس كما يزعم القوم، فالامام الصادق رضي الله عنه يقول: لايصح أن تكون التقية لاخفاء الأحكام،ومنعها، فان ذلك ليس موضوع التقية، وليس صالحا لان يتسمى بها، بل له اسم آخر، وهو كتمان العلم، ويوصف معتنقه بوصف لايوصف به المؤمن"(1).

وقد مزق ستار الشيعة - التقية- وأبان عظم المكيدة،التي يسعى اليها تحت شعارها، الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، عندما قال لرجل من هؤلاء القوم: والله ولئن أمكننا الله منكم لنقطعن أيديكم وأرجلكم، ثم لانقبل منكم توبة، فقال له رجل: لم لاتقبل منهم توبة؟ قال: نحن أعلم بهؤلاء منكم، إن هؤلاء إن شاءوا صدقوكم،وإن شاءوا كذبوكم، وزعموا أن ذلك يستقيم لهم في "التقية"، ويلك! إن التقية هي باب رخصة للمسلم،اذا اضطر اليها، وخاف من ذي سلطان أعطاه غير مافي نفسه، يدرأ عن ذمة الله، وليست باب فضل، إنما الفضل في القيام بأمر الله، وقول الحق، وأيم الله مابلغ من التقية،أن يجعل الله بها لعبد من عباد الله أن يضل عباد الله"(2).

انه وصف دقيق لحال القوم، وممارستهم للتقية التي ادعوها، لإخفاء

---

١) الامام الصادق، محمد ابوزهرة، ص/١٥١.
٢) تاريخ دمشق، لابن عساكر، ج٤/١٦٥.

أكاذيب ،وافتراءاتهم على الصحابة رضوان الله عنهم، بعد ان اصطدموا بالأخبـــار الكثيرة صحيحة،التى أشاد بها علي بن أبى طالب رضى الله عنه بإخوانه مـــن الصحابة ، وشيوخهم الخلفاء الراشدين،فعللوا ذلك " بالتقية " التى كانت منه ٠

أهي التقية كما يزعمون، أم نبيل من أمير المومنين، اذ يرونه أو يصورونه على انه مراء جبان منافق، ووالله ما كان من ذاك، ولكنها الزندقة، التىأحالـــت الكذب عبادة، والنفاق تقية ٠ وقد نزه الله تعالى آل البيت ، اذ كانوا من أصـــدق الناس لهجة، وأعظمهم إيمانا ، ودينهم التقوى لا التقية ، ورغم كل ذاك أضحـــت التقية سمة خلقية، أفردت الشيعة بها ، وطبعت سلوكهم بطابع خاص، يخفون وراءها جبنهم كيدهم ومخاتلتهم، بل امتدوا بها الى ساحات الانتهازية، وتفسير القـــرآن وسلوك الائمة ٠

ومهما حاول بعض الباحثين، أن يسندوا ظهور التقية الى ما لاقاه الشيعة من ايذاء واضطهاد من الأمويين، فإن أحداث التاريخ، ووقائع الدهر تخذلهم، إذ وقف الخوارج على أقدامهم ، مشهرة سيوفهم، على بني أمية ، وتعانقت سيوفهـــم مع رقاب جنود الأمويين، وقادتهم، ومادفعهم ذلك الى سبيل المخاتلة والكـــذب والنفاق وكذلك الزيدية الذين يرون خروج الامام داعيا لنفسه شرطا لصحة امامته ٠ فمزقوا بذلك ثوب التقية، كما مزقوا براقع " العصمة " المزعومة ٠

إن القول بالتقية ـ كما مارسها القوم ـ وسيلة لتجاوز التناقض فى الأفعال، والأقوال التى نسبت لآل البيت الأطهار، إذ القول بها يحميهم من كشف الستر عن أكاذيبهم،وإفكهم، كما اتخذ المختار الكذاب ستارة أكثر صفاقة وزندقة، لتحميـــه من انكشاف حاله، وهي " البداء" ، ولاغرابة أن جعلها سليمان بن جرير سلاحين مـــن أسلحة القوم، عندما قال لأصحابه : " إن أئمة الرافضة وضعوا لشيعتهم مقالتيـــن، لايظهر أحد قط عليهم، أحدهما : القول : بالبداء ، فاذا أظهروا قولا : إنـــه سيكون لهم قوة،وشوكة،وظهور، ثم لايكون الأمر على ما أظهروه، قالوا ، بدا للـــه

تعالى في ذلك •

والثانية : التقية : فكلما أرادوا تكلموا به ، فاذا قيل لهم فى ذلك ، إنه ليس بحق ، وظهر لهم البطلان ، قالوا : إنما قلناه تقية ، وفعلناه تقية "[1] •

وبذا كان البداء تبريرا لأكاذيبهم التى تنسب العصمة ، وعلم الغيب ، للأوصياء • وكانت تلك الفرية تكئة يستندون عليها إذا حدثوا بمغيب ، فخذلهم الواقع ، وهو كالتقية قناع للتضليل ، والبهتان ، والإفك الذى ذرعوا فجاجه مرات ومرات ، حتى أصبح شعار الشيعة ودثارهم النفاق والتقية ، نعوذ بالله من الخذلان •

وظهرت فيما بعد اجتهادات جانحة • كنكاح المتعة ، والقول بارتداد الصحابة وتحريف القرآن ، وغيرها من سبل الضلال والانحراف ، هدانا الله تعالى سبيل الرشاد •

---

١) الملل والنحل ، للشهرستانى ، جا/١٦٠ •

من شعراء الشيعة

مقدمة:

إذا كان الضياع آفة الشعر ، فان التزيد ،والانتحال،آفة أخرى أتت على شعر الشيعة ، والتي لاتقل فتكا بالموروث ، وافسادا له ، رغم ان الكثرة ، من غير جودة ومع الدخن والخبث ، تسقط النتاج ، وتقلل من قيمته الفنية ٠

ومهما بالغنا في اثر العوامل التي ساعدت في ازدهار حركة الشعر في تلك الحقبة ٠ من عناية الشعراء بالأحداث المتلاحقة ، وتدوينها في سجلات أشعارهم ، والتنافس الشديد بين أشياع المذاهب،والفرق،والأحزاب في اصطناع الشعراء ، لبث أفكارهم والاشادة بسبيلهم ، ومناهضة خصومهم ، لاسقاطهم ، ومع تقدير الحكام لهذا الفن ،الذي اعتلى منصة الدعاية ،والاعلام : لايعطينا مبررا التغاضي عن كتلة كبيرة من الشعر، ولدت سفاحا ، وألحقت بغير آبائها ، تكثرا من قلة ، أو تزيدا لمنافسة الخصوم ، وإثبات الأقدام في ميدان الوجاهة ، والمجد التليد ، وتأييد الأفكار التي تمخضت عنها فرقهم ، وبخاصة الشيعة ، الذين أدخلوا الى الساحة الاسلامية مصطلحات جديدة ٠ لم يقرها أولئك الشعراء الصالحون ، الذين وقفوا إلى جانب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وانما اعتقدها من انزلقت به قدماه الى فجاج ملتوية ، بعد أن انقطعت وشائجه مع ما كان عليه أمير المؤمنين وأتباعه ، فأراد الاشقياء أن يثبتوها في ذاكرة الزمان شعرا ، لاعطائها سبقا مذهبيا ، وتواصلا شرعيا ، بعد ربطها برجال حظوا بمكانة سامية في نفوس الأمة فألصقوها بأشعارهم ، وهي منه براء ٠ فظهرت في أشعار أبي الأسود الدؤلي رضي الله عنه،وغيره ، مصطلحات السبئية ، التي جالدها تحت راية الأمير كرم الله وجهه مثل " الوصي والمهدي ، والمرتضى ، وابن الوصي ، وغيرها ٠

كما ان بعض الأشخاص أرادوا أن يرفعوا مكانة قبيلتهم بين القبائل ، على

متن التضحيات التى بذلتها مع الأمير، وآل بيته، رضوان الله عنهم، فأنطقوا الألسنة بأشعار لم تنثل عليها يوما ما ، ومثال ذلك الأشعار التى تتحدث عن ربيعة ، واسترخاصها للأنفس، ومتاع الدنيا • نصرة لأمير المؤمنين •

وهناك أشعار اضطربت نسبتها ، واختلطت بغيرها ، بعد أن حظيت بتوافق الأوزان والقوافى ، وقد جمعت من أصول مبعثرة ، أو من ذاكرة الرواة والحفظة • التى كانت بريد الشيعة ، ومستودع أسرارهم ، ولذا لم أستطع أن أطمئن الى مجموعة تلك الأشعار ، التى تفوح منها رائحة الوضع والتمحل ، وبخاصة فيما ينطق بمفاهيم ولدت متأخرة ، ودونت شهادة ميلادها فى أشعار قيلت قبل ولادتها ، وكذلك قصائد ، ومقطعات نسبت لأشخاص لم يقرضوا الشعر ، وفيها من الإطراء والتقديس، مالايصدر عن جهلة المسلمين، الذين لم يخالط الايمان شغاف قلوبهم ، فكيف بالأئمة الأطهار ، والسادة الأعلام " وأكاد أقطع انها ضربت فى دور الشيعة بعد زمن ليس بالقصير • وقد غصت المصادر الشيعية بتلك المجموعات الموضوعة والملفقة ، حتى أضحت مستقرا لذلك المنحول من الركام الشعرى ، وماذلك إلا التماس أصول نبوية أو صحابية لما جاؤوا به من منكر القول وزوره • فجاءت غريبة عن طبع ذلك الرعيل ، نافرة من سجاياهم •

لقد أثقل هؤلاء القوم شجرة التشيع بثمار لصيقة فجة تنز بطعوم مختلطة ، أفسدت الطعم الحقيقى لأشعار الشيعة، على اختلاف مشاربهم، وحرمت الدارسين من الأطلاع على تطورات الفكر الشيعى، الذى انتهى الى مستنقعات آسنة بالتصورات الباطلة • ولذا فان بعض المؤرخين أسقطوها من مجموعاتهم ، وانحرفوا عنها -كما انحرفوا عن المنحول والمكذوب من التراث الشعرى- وان كان من مؤرخى القوم من يعشق الاحتطاب فى الليالى المظلمة ، ويستأنس بنقيق الضفادع، وصفير هوام الظلام • لأن رواحلهم تهوى بهم سراعا على أنغامها ، ولو كانت فى مبتل

الضلال والشرود .

ومعظم الذين جمعوا الآثار، والأشعار في عصور مبكرة، يمتون للشيعة بوشائج متعددة، فاستكثروا من تلك الأشعار، واضطهدوا آثار خصومهم، مبتغين التعفية على آثارهم، وطمس معالم بطولاتهم، تساعدهم في ذلك عداوة العباسيين لخصومهم كذلك، من الخوارج، ورجالات بني امية .

فالشعر الذي جمعه هؤلاء، من هنا وهناك، ليبنوا به صرحا شامخا، لم يكن في جملته استملاء من الماضي، بل هو حصاد سواعد التزيد، والتكييف مع واقع معتقداتهم، وخصب ألسنتهم، وسمو خيالهم الذي طال المستقبل المغيب .

لقد قامت على أيدي الشيعة حركة انتحال غاشمة، أفسدت الشعر، وأكسدت بضاعته في أسواق الأدب الأصيل، ولقد أصاب الأستاذ محمد سيد كيلاني كبد الحقيقة عندما قال :

" لقد نشط أدباء الشيعة نشاطا عظيما في وضع الشعر، الذي يرفع من شأنهم، ويقوي من دعائم مذهبهم، ويحط من شأن أعدائهم، وأجروا الشعر على ألسنة أئمتهم، وعلى ألسنة قوم آخرين، وقد كثر ذلك الشعر حتى شغل مكانا بينا في الأدب العربي، حيث كانوا أحيانا يزيدون في قصائد بعض الشعراء، مما يؤيد رأيهم، ويدعم حجتهم في الخلافة، وحق علي فيها، وقد ظهر الانتحال في مظاهر مختلفة "[1] .

وقد فطن الشيعة إلى دور الفنون الشعرية المتميز في التأثير، وتكوين القناعات وترسيخها، وتجييش النفوس، وبخاصة اذا عزفت على أوتار الأنغام

---

(1) أثر التشيع في الأدب العربي، محمد سيد كيلاني، ص: ٦٩ .

الحزينة التي تلطف وترق شاكية ، فنسجوا من دموعهم،وآهاتهم،وأضاليلهم لوحات للملاحم الانهزامية القاتلة ، وبخاصة بعد أن انسحبوا من ساحات المعارك ، الى سراديب التآمر ، وتفرغوا لصناعة القول ، مخلفين وراءهم آل البيت الأطهار،ومحبيهم من المخلصين ، نهبا لسيوف جائرة آثمة .

لقد كان شعراء الشيعة يستثيرون حماسة الجماهير ، بل يلعبون بعواطفهم ، ويستغلون حبهم لآل البيت ، فيتوجعون لما أصابهم من قتل وتشريد على يد الأمويين ، ويطلبون الخلاص من حكمهم"[1] .

إن الانصاف يلزمنا أن نعترف ان الشعر الشيعي لم يسلم من صروف الزمان ، وعاديات الأيام ، وإهمال بعض المؤرخين ، ولعل في تزيدهم في الأشعار تعويضا عما افتقدوه من نتاج شعرائهم ،الذي أهال عليه الزمن من تراب النسيان الكثير ، وكان هذا الاهمال ، والاندثار نتيجة أمرين اثنين :

الأول : كذب الشيعة وتزيدهم من الشعر على ألسنة الكثيرين[2] ، مما حدا بالرواة ، ومؤرخي الأدب أن يزهدوا بشعرهم ، وان لايثقوا بكتلة من الأشعار التيانتهت اليهم مع نسبتها الى الشيعة ، ومن نقل أشعارهم ، وقع في اضطراب وهو ينسبها ، حتى تلك التي وردت في دواوين الشعراء ، كالأبيات التي وردت في ديوان أبي الاسود ، في رثاء علي بن أبي طالب رضى الله عنه .

ألا أبلغ معاوية بن حرب	:	فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا	:	بخير الناس طرا أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا	:	وخيسها ،ومن ركب السفينا (٣)

---

١) تاريخ الشعر العربي ، د/عبدالعزيز الكفراوي ، ص ، ١٤٠ .

٢) كالأبيات التي نسبت للفرزدق في مدح علي بن الحسن ، اذ قال اربعة ابيات : وصلت على يد الشيعة الى خمسة وعشرين بيتا .

٣) الديوان ، ص ٣٠

قد نسبت ـ مع اختلاف في عددها ـ إلى أم الهيثم بنت العريان النخعية ، كما ذكر صاحب الاستيعاب في معرفة الاصحاب[1] . وكفاية الطالب " ان اكثرهم يرويها لأم الهيثم "[2] . ونسبها ابن الاثير لأم العريان[3] . وأبو الفرج الاصبهاني نسبها ى أبي الأسود الدؤلي .

وانظر الآن هذه الأبيات التي ألصقت بالصحابي الجليل حجر بن عدي رضي الله عنه ، الذي كان من شيعة أمير المؤمنين كرم الله وجهه :

يا ربنا سلم لنا عليا	:	سلم لنا المبارك المضيا
المؤمن الموحد التقيا	:	لاخطل الرأي ولاغويا
بل هاديا موفقا مهديا	:	واحفظه ربي واحفظ النبيا
فيه فقد كان له وليا	:	ثم ارتضاه بعده وصيا (٤)

قد ربت على يد الشيعة ، فأنتج البيتان الأوليان مثلهما ، اذ أن أتباع علي ومن دونه ـ سوى السبئية وأذنابهم ـ لايؤمنون بالوصية ، فكيف لهج لسان الرجل الصالح بها يوم الجمل ؟! كانت جريرة ذاك الشعر رواته الذين لوثوه بالكذب .

الثاني : هو تحرج الرواة من تناقل أشعار الشيعة ، لسفاهتها ، وما تضمنته من انتقاص لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وسباب لبعض أجلة الصحابة رضوان الله عنهم . أو خوفا من خصوم الشيعة ، الذين كانوا لايفترون عن مراقبتهم ، ومتابعة تحركاتهم ، أمثال الحجاج وغيره من قساة الولاة ، ولا أظن أن هناك داعيا لذكر تلك الأشعار . والمكتمات التي عرفت فيما بعد ـ وما ندري ما اندثر منها ـ من ألوان الشعر الذي كان يتهيب من روايته ، وإذاعته بين الناس .

ولذا فإن أسئلة كثيرة تتراءى في ذهن الباحث ، وهو يستعرض ذاك التراث

---

١) الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، لابن عبدالبر القرطبي ، ج٣/٦٦ .
٢) كفاية الطالب ، للكنجي ، ص ٣١٧ ـ طبعة النجف سنة ١٣٥٦هـ .
٣) الكامل في التاريخ ، لابن الاثير ، ج٢/١٥٢ .
٤) أثر التشيع في الادب العربي ، محمد سيد كيلاني ، ص ٨٥ .

الشعرى الذى ينسب الى الشيعة ، حول صحته وصدقه ، ودقة نقله ، وما الذى طرأ عليه من ضروب العبث ، والتغيير والتحريف ، والانتحال والاختلاط ، أو غير ذلك مما يمكن أن يعتري الموروث الشعرى ٠

وهذا يضيف الى مهمة الدراسة ، توثيق جملة تلك الأشعار ، لأن توثيق الأخبار ، وتمحيص الآثار ، أساس كل بحث علمي سليم ، كما ذكر الجاحظ " ومتى أغفل حملة الأدب ، وأهل المعرفة تمييز الأخبار ، واستنباط الآثار ، وضم كل جوهر نفيس الى شكله ، وتأليف كل نادر من الحكمة إلى أهله ، بطلت الحكمة ، وضاع العلم ، وأميت الادب ، ودرس مستور كل نادر "(١) ٠

وليس الغريب فى الشعر الشيعي ظاهرة الانتحال ، وانما وقوف الباحثين من ذلك النتاج موقف الواجم الحائر ، الذى أحيط به ، ولعل كثرة الخبث والمنحول فيه زهدت الباحثين ، وصرفتهم عن تحقيقه ، استخفافا بالنتائج البسيطة التى يتوقعونها رغم ماتتطلبه من جهود عظيمة ، اذ لا كبير غناء فيه ، ولاعظيم أدب يستفاد منه ، بل هى أهواء بعيدة عن الحق وصواه ٠

ما كنت على قناعة موضوعية ، أن كثيرا من أشعار الشيعة التى جمعت فى دواوين ، وعزيت الى شعراء بأسمائهم ، لم تخل من التزيد والتلفيق ، وجدت نفسي أمام مسؤولية جسيمة ، تطلبت وقتا طويلا أنفقته فى العودة إلى المراجع الأدبية والتاريخية ، وأعملت ذهني للوصول إلى دراسة موضوعية موثقة ، ومقارنة بالثوابت من الأخبار والأفكار ، وتاريخ ميلادها ، للتحقق من التوافق بين الوقائع والحقائق ٠ كي أصل الى صورة لست أدعي دقتها دائما ، وإنما أقرب الى الدقة فى الأغلب ٠ رغم مهارة الوضاعين الذين أعملوا أذهانهم ، ليخرج النسيج مماثلا لنتاج

---

١) رسائل الجاحظ ، د/عبدالسلام هارون ، رسالة الحنين الى الاوطان ، ص٣٠

السالفين (١) ... ولن يضل من طلب الحق بمناراته ،وآياته ، فالضياع الذى ابتلي به الشعر العربى ، قد أفقد الأمة كثيرا من معالم حياة السابقين ، وتصوراتهم ، ولو وصل كما صدر عن ألسنة الشعراء ، لتغيرت كثير من الأحكام التى صدرت ، ولاتضحت جوانب بهتت صورتها ، واهتزت ظلالها ، وأنيرت زوايا تآكلت أطرافها ، ولذا ستكون الأحكام على متوفر الاشعار ، وحاضري الشهود ".

ويستحسن أن نشير الى أن شعراء الشيعة تتعدد توجهاتهم ، وتصوراتهم وإن جمعهم إطار واسع عرف ب" الشيعة " فهو السلك الذى نظمهم من غير تماثل ، أو تشابه ، من المخلصين الأتقياء ، شيعة الحق ، كأبي الاسود ، إلى الغالين المخرفين أمثال كثير عزة ، وإلى المتلونين ، الذين تعددت منتجعاتهم وطاروا فى أسراب شتى كالكميت وأمثاله . ولذا اتسعت ساحة الادعاء ، وقل الأوفياء ، مع مرور الأيام .

---

(١) فقد أتقن القوم صناعة التلفيق ، اذ راعوا الانسجام ، واستواء التصوير ، واتساق الغرض.